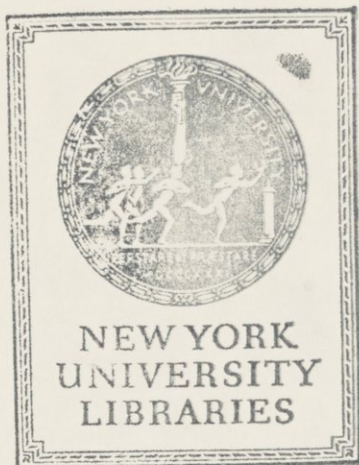


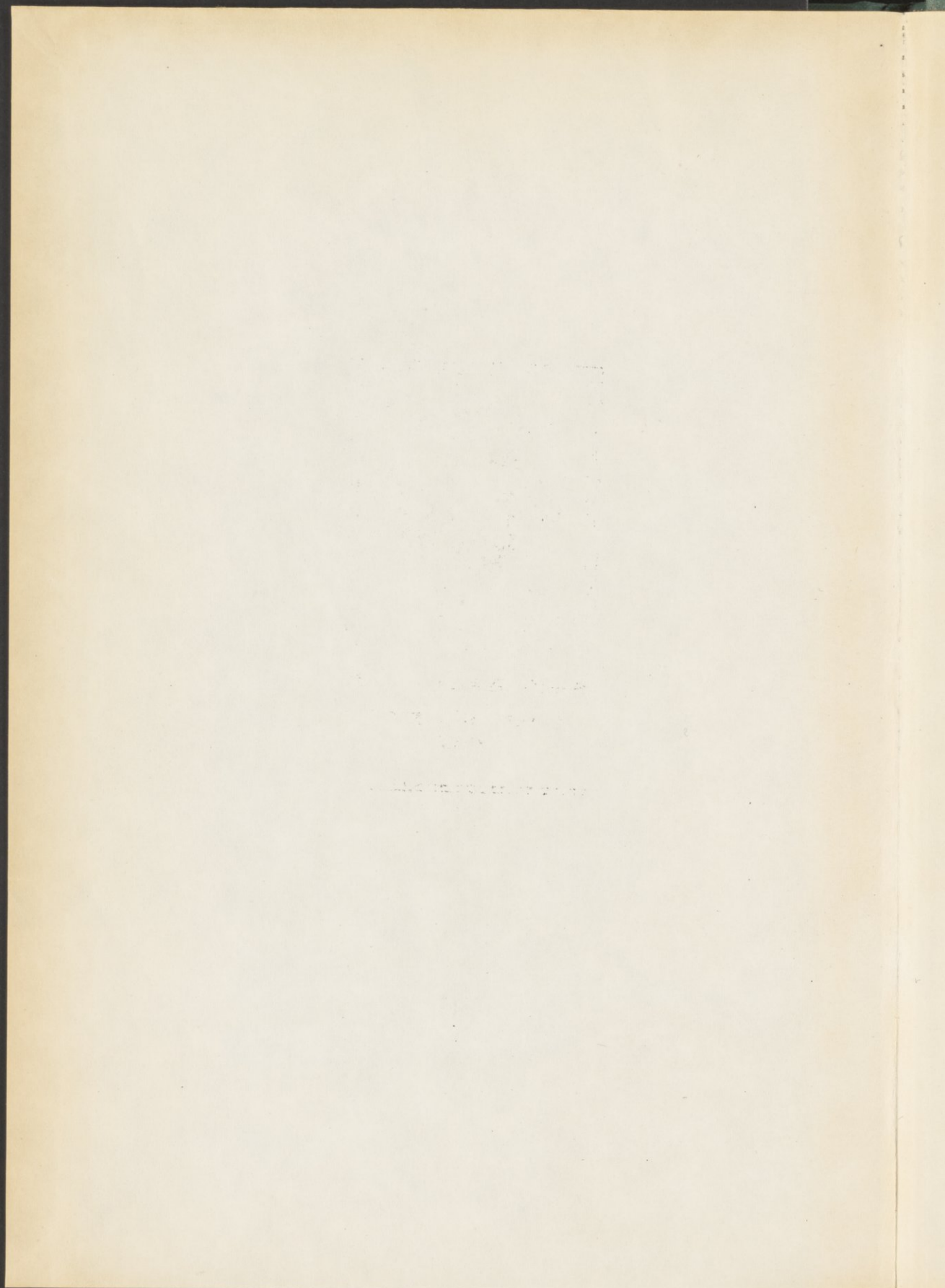
BOBST LIBRARY

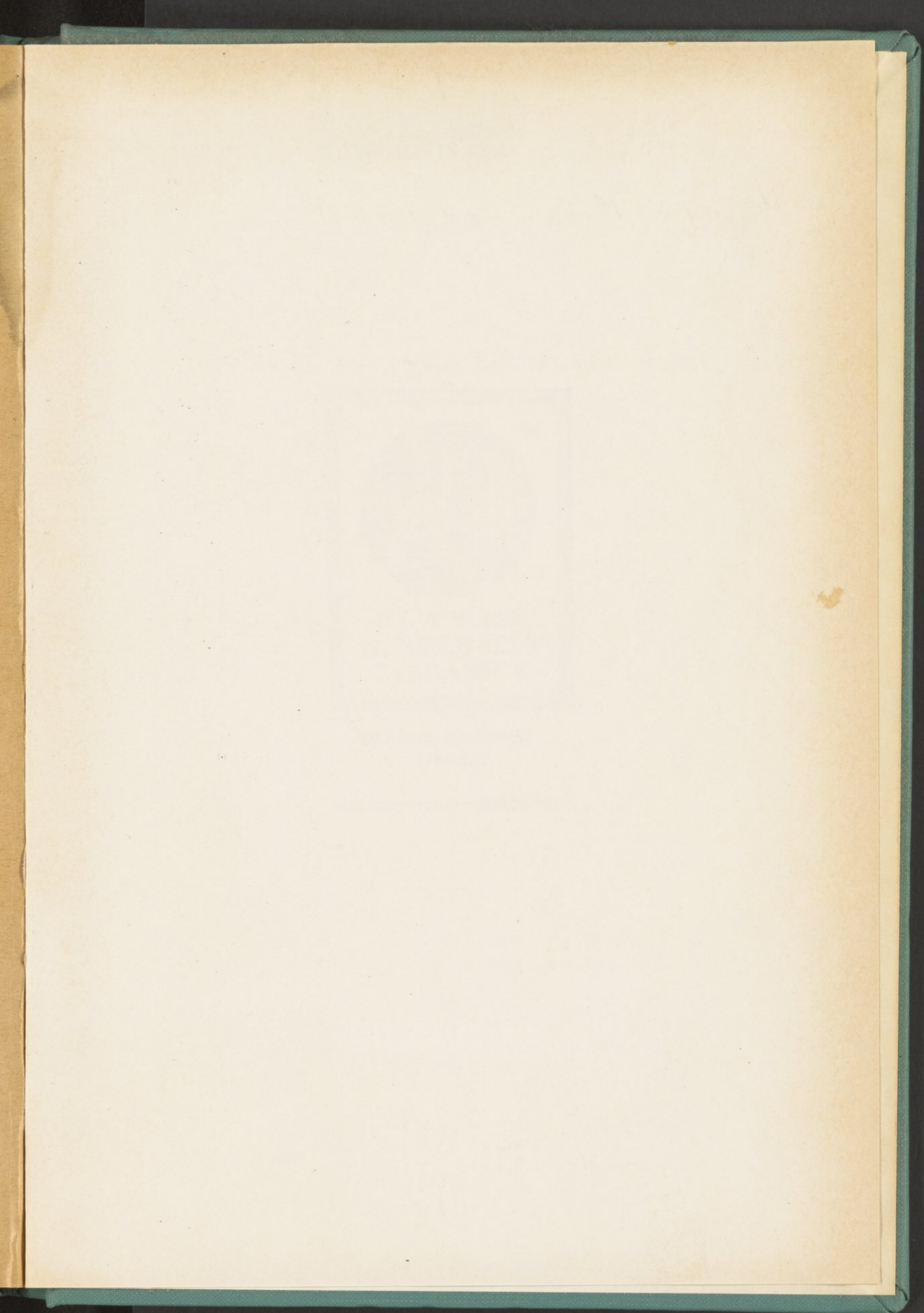


3 1142 02913 4320



GENERAL UNIVERSITY
LIBRARY





dp

7

دكتور محمد كمال حسين

Husayn, Muhammad Kamil

بكلية الآداب — جامعة فؤاد

/Fi adab Misr al-Fatimiyah/

فِي آدَابِ مِصْرِ الْفَاتِمِيَّةِ

front

N.Y.U. LIBRARIES

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربي

B

Near East

PJ

8206

.H83

c-1

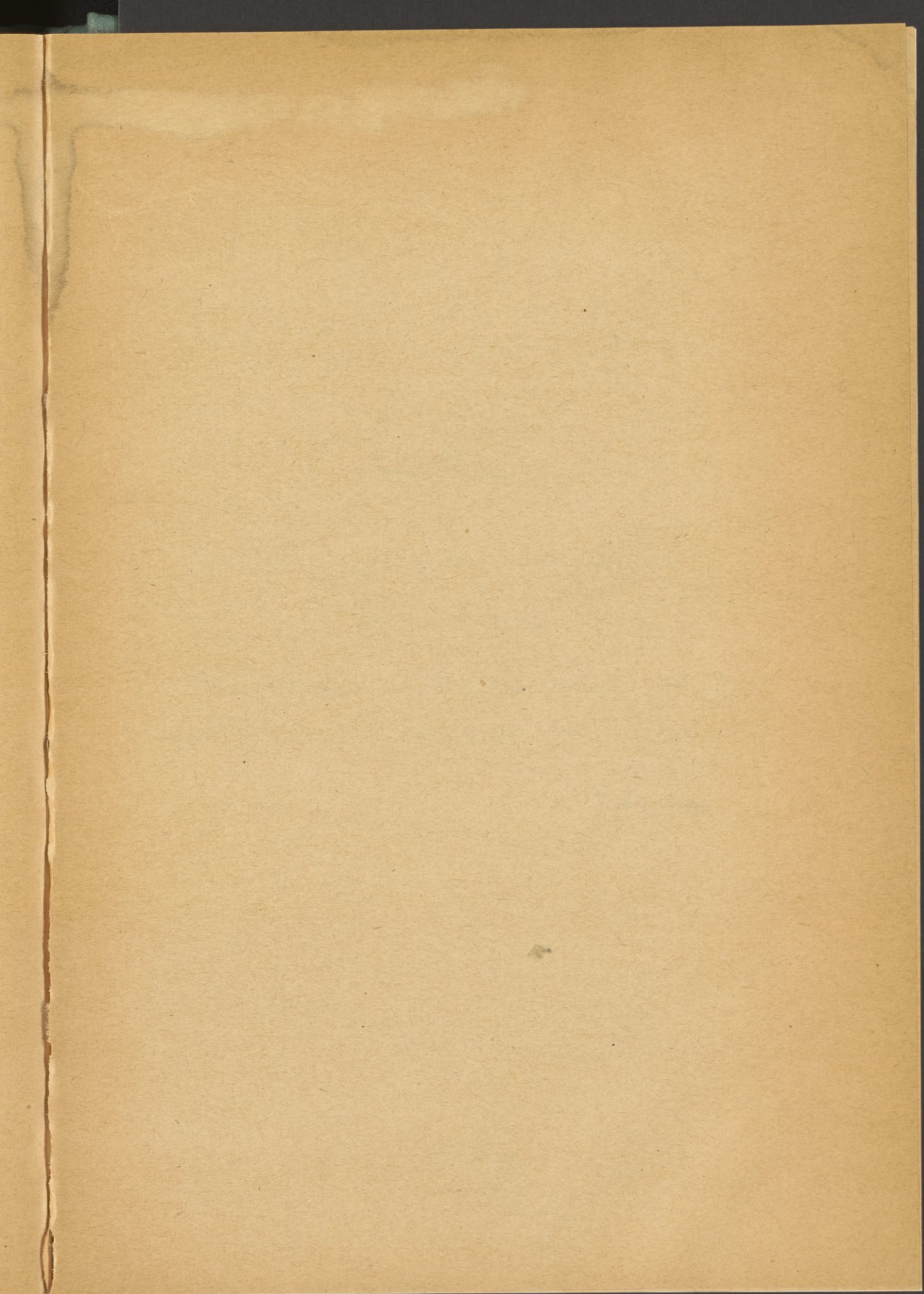
N.Y.U. LIBRARIES

الفهرست

إلى أستاذي الأجل حضرة صاحب المعالي
الدكتور طه حسين

الذي آثرني فوجهني إلى دراسة أدب مصر، وحباني بغزير علمه وعميم
فضله، أرفع ثمرة من غرسه، وقطرة من فيضه، إجلالا له ووفاء.

محمد كامل مسبين



٢٨٠	التصوف والزهد
٢٨٢	ابن السكيزاني
٢٨٥	الوصف
٢٩٥	خاتمة القول في الشعر
	الباب الثاني : في النثر
٣٠٢	الفصل الأول : ازدهار النثر
٣٠٦	النثر والأئمة
	الفصل الثاني :
٣١١	كتاب ديوان الانشاء
٣٢٣	ابن خيران
٣٢٦	رسالة المؤيد
٣٢٨	ابن الشيخباز
٣٣٣	ابن منجب الصيرفي
٣٣٨	أبو الفتح بن قادوس
٣٤٣	أبو علي حسن بن زبيد
٣٤٤	الموفق بن الخلال
٣٤٨	عمارة اليميني الناشر
٣٥٥	خاتمة
٣٦٠	فهرست عام
٣٧٦	المصادر والمراجع

	شعراء بني رزيك حتى آخر
١٩٣	الدولة الفاطمية
٢٠٣	المهذب بن الزبير
٢١٠	الرشيد بن الزبير
٢١٥	القاضي الجليس
٢١٩	عمارة اليميني
٢٢٢	ابن قلاقس
	الفصل الرابع :
٢٢٧	الشعر والحروب الصليبية
	الفصل الخامس :
٢٣٨	الفكاهة والمجون
٢٤١	أبو الرقعمق
٢٤٥	جماعة صالح بن رشدين
٢٤٧	جماعة الأمير تميم والرمي
٢٥٢	ابن وكيع التنيسي
٢٥٥	الشريف العقيلي
٢٥٩	القليوبي الكاتب
٢٦٠	قتيل الغواني
٢٦١	شعراء آخرون
٢٧٠	الفصل السادس : في الغزل
	الفصل السابع :
	أغراض أخرى في الشعر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

هذا الكتاب « في أدب مصر الفاطمية » حلقة جديدة من سلسلة « أدب مصر الإسلامية » ، وكان من حقه أن يكون بين يدي الجمهور منذ خمسة عشر عاما ، ولكننا لم نشأ أن نخرجه للناس قبل أن نعطيهم صورة صحيحة لتلك النزعة الدينية التي تميز بها عصر الفاطميين عن غيره من عصور مصر ، فقد خضعت مصر لهذا المذهب الديني واتخذها أمة هذا المذهب قاعدة ملكهم ، فأصبح هذا المذهب هو المحور الذي تدور عليه الحياة المصرية من اجتماعية وسياسية وفكرية وأدبية ، بحيث لا نستطيع أن نعرف حقيقة هذه الألوان المختلفة من الحياة المصرية في عصر الفاطميين إلا على ضوء عقائد هذه الفرقة من فرق المسلمين . أدركنا هذه الحقيقة وقرأنا الكتب التي تحدثت عن الفاطميين وعقائدهم ، فرأينا هذه الكتب تعطينا صورة متناقضة أشد التناقض عن عقائد الفاطميين بحيث لا يستطيع أن يطمئن إليها باحث ، ففي الوقت الذي نرى فيه هذه الكتب تذهب إلى أن الفاطميين أقاموا دولتهم على أساس ديني إسلامي ، وأن الخلفاء الفاطميين اتخذوا سندهم من نسبتهم إلى الرسول الكريم صلى الله عليه ، وأن الفاطميين احتفلوا بالأعياد الدينية الإسلامية احتفالاً لم يعهد من قبل ، وأنهم أسسوا المساجد لإقامة الصلوات ، وكانوا يخرجون لإمامة الناس والخطبة في الأعياد إلى غير ذلك من المظاهر التي تشعر بأن الفاطميين كانوا من أشد الناس حرصاً على الإسلام وتقاليد المسلمين ، في الوقت نفسه نرى هذه الكتب أيضاً تذهب إلى أن الفاطميين كانوا يقولون بالإباحة وتحليل ما حرمه الله تعالى ، ونبذوا الصلاة والصوم والحج ، بل عملوا على طرح الأديان ، ودانوا بالتناسخ والحلول والتلاشي وادعوا معرفة الغيب . . . إلى غير ذلك . قرأنا ذلك كله وعجبنا أشد العجب لهذا التناقض الذي وقع فيه القدماء والمحدثون ، فحرصنا على أن نرجع إلى كتب دعوة الفاطميين ، وراعنا أن القاهرة التي أنشأها الفاطميون وكانت قاعدة ملكهم الواسع لا تحتفظ بكتاب واحد من كتب الدعوة ، فسمعنا إلى البحث في غير مصر ، وكان السعي شاقاً عسيراً كلفنا من الجهد والمال الشيء الكثير ، وما حملتنا إذا كانت أكثر كتب الدعوة في حوزة طاهر سيف الدين

الذي لقب نفسه بسُلطان البهرة وزعم أنه الداعي المطلق لإمام مستور من نسل الأئمة الفاطميين ، وهو رجل شحيح بهذه الكسب على الباحثين بدعوى أنها كتب الدعوة السرية ، ولكن حجته هذه أوهى من بيت العنكبوت فإن الأئمة الفاطميين — الذين ورث دعوتهم — لم يستروا علومهم ، بل عملوا على نشرها وإذاعتها ، شجعوا العلم والعلماء ، وأنشأوا دار العلم وخزائن الكسب ليطلع عليها من يشاء متى يشاء ، وكانوا يطلبون من العلماء تأليف الكسب على النحو الذي سنراه في هذا الكسب ، فظاهر سيف الدين الآن يعمل عكس ما عمله الأئمة ، ويأتي بأراء لم نعهدها في عصر الفاطميين ، ولعله يريد ان يظل أتباعه في جهل مطبق حتى يستطيع أن يخدعهم بهذه الآراء الرجعية التي لا سند لها من تقاليد الأئمة ونظمهم ، ومن يدري لعله يريد أن يستغل ما عليه أتباعه من جهل بحقيقة الدعوة الفاطمية كي يستولى على أموالهم باسم الدين ، شأنه في ذلك شأن كل دجال مشعوذ ، ومع ذلك كله ففي طائفة البهرة عدد من المثقفين المستنيرين الذين لا يعبأون بظاهر سيف الدين ولا يقيمون وزناً لضلالاته ، زودونا بالكسب التي حرصنا على تقديمها للجمهور قبل أن نقدم لإيهم هذا الكسب حتى يدركوا حقيقة الدعوة الفاطمية من كتب الدعاة أنفسهم ، فقد نشرنا ستة كتب فاطمية وسيتمتعها كتب أخرى إن شاء الله .

والدعوة الفاطمية دعوة شيعية وقيل أن نتحدث عنها وعن أثرها في مصر نتساءل : إلى أي حد عرفت مصر التشيع قبل دخول الفاطميين بها ؟

كان المسلمون في مصر بعد الفتح العربي يجمعون على مذهب واحد ، ويخضعون لإمام واحد ، فلم نعرف انه كان بين العرب الوافدين من خالف في مسألة الإمامة ، أو تحدث عن تفضيل خليفة على آخر ، ولكن بدأ المسلمون في عهد عثمان بن عفان يتحدثون عن سياسته وتصرفاته ، فانهز بعض المسلمين في مصر هذه الفرصة ودعوا لخلعه ، ويروي الطبري قصة عجيبة عن ثورة المصريين ضد عثمان ، وأن ذلك كان بتأثير عبد الله بن سبأ !!

يقول الطبري : « كان عبد الله بن سبأ يهوديا من أهل صنعاء ، أمه سوداء ، فأسلم زمان عثمان ، ثم تنقل في بلدان المسلمين يحاول ضلالتهم ، فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ، فلم يقدر على ما يريد عند أحد من أهل الشام ، فاخرجوه حتى أتى مصر ، فاعتمر فيهم ، فقال لهم فيما قال : لعجب من يزعم أن عيسى يرجع ويكذب ، بأن محمدا يرجع ، وقد قال الله عز وجل : « إن الذي

فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد ، فمحمد أحق بالرجوع من عيسى ، فقبل ذلك عنه ، ووضع لهم الرجعة فتسكلموا فيها ، ثم قال لهم بعد ذلك إنه كان ألف نبي ، ولكل نبي وصي وكان على وصي النبي ، ثم قال محمد خاتم الأنبياء وعلى خاتم الأوصياء ... الخ (١) ، وهكذا ساق الطبري هذه الرواية بين روايات عديدة عن سبب قيام المصريين ضد عثمان ، ونحن نعجب لهذه الرواية إذ لم أجد في كتب التاريخ التي وضعها المصريون عن بلدهم وعن تراجم رجال مصر مثل كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم وكتب الكندي وابن الداية وابن زولاق ، أو في كتب المتأخرين الذين نقلوا عن هؤلاء المؤرخين القدماء ما يشير إلى وفود شخصية عبد الله بن سبأ على مصر ، أو أن أحدا من المصريين قال بمثل هذه المقالة التي زعم الطبري أن ابن سبأ عليها للمصريين ، فلو سححت رواية الطبري لرأينا شيئا من إنكار الصحابة الذين كانوا في مصر إذ ذلك لهذه الدعوة السبائية ، ومعارضتهم لها ، ولا سيما أن ابن عبد الحكم وغيره رووا بعض الأحاديث عن صحابة مصر وترجوا لهم ولم يرد ذكر ابن سبأ ولا آرائه . ولم يذكر شيئا عن إنكار هذه الآراء أو معارضتها ، فقصه ابن سبأ في مصر ، وأنه بث آراء التشيع بين المصريين هي أقرب إلى الخرافات منها إلى أي شيء آخر .

حقيقة ثار بعض المصريين على عثمان ، وقام محمد بن أبي حذيفة بانتراع الإمارة في مصر ، وطرده عامل عثمان من القسطنطين سنة ٣٥ هـ وزج بعدد من شيعة عثمان في السجون ، ولكن ليس معنى ذلك أن ابن سبأ هو الذي أثار على الناس وألهم على عثمان ، إنما كان ذلك بتدبير بعض أبناء الصحابة الذين كرهوا أن يكون أمير مصر هو عبد الله بن أبي سرح أخو عثمان في الرضاة ، وكبر في نفوسهم أن يعزل عمرو بن العاص عن مصر ، فلم تسكن ثورة المصريين ضد عثمان تمت بسبب إلى تشيع المصريين إلى علي بن أبي طالب أو المطالبة بإمامته ، وبالرغم من أن المصريين هم الذين بايعوا علياً بالخلافة بعد مقتل عثمان ، فإن ذلك لم يكن عن حب خالص له أو عن عقيدة بأنه أحق الناس بها ، فالمفاوضات التي كانت قبل مبايعته تدل على أنهم نظروا إلى علي بن أبي طالب نظرهم إلى غيره من الصحابة ، أضف إلى ذلك إن المصريين بعد أن بايعوا علياً عادوا إلى القسطنطين وهم يرجزون :

(١) تاريخ الطبري ج ٥ ص ٩٨ (طبعة مصر) .

سحذاها إليك واحذرنا أبا الحسن
إننا نمر الحرب إمرار الرسن
بالسيف ان نحمد نيران الفتن

ففي هذا الرجز تحذير للإمام الجديد علي بن أبي طالب ، فإن سار على نهج
عثمان في سياسته فهي الحروب الدائمة والفتن المستمرة ، فهذا دليل على أن
المصريين لم يذهبوا في علي بن أبي طالب ما رواه الطبري عن ابن سبأ ، وأن
المصريين لم يقدسوا علياً أو يقولوا بوصايته ، ثم أننا نرى المسلمين في مصر
انقسموا بعد مقتل عثمان إلى فريقين : فريق يطالب بدم المقتول ، وفريق يؤيد
خلافة علي ، وكانت مصر من الولايات التي خضعت للأمراء الذين أرسلهم علي ،
ولكن أنصار علي لم يكن لهم شأن كبير في الأحداث التي جرت ، ولم يقيموا
وزناً للنزاع بين علي ومعاوية ، فقد سم الأشر النخعي على حدود مصر ، وقتل
الوالي محمد بن أبي بكر الصديق ، وأدخلت جهته في إهاب حمار وأحرقت علي مرأى
من المصريين فلم يحرك شيعته ساكناً ، فلو كان التشيع في مصر قويا لاسهم الشيعة
في النزاع بين علي ومعاوية ولناصروا علياً ، ونحن نتساءل أيضاً ، أين كان
شيعة مصر عند ما قتل علي وبعد مقتل الحسين ؟ وأين كان شيعة مصر إبان
حركة المختار الثقفي ؟ هذه أسئلة لم يجب عنها المؤرخون ، فالمصادر التي بين أيدينا
لم تذكر شيئاً عن قيام الشيعة بمصر في المساهمة في الحركات الشيعية التي كانت في
الأقطار الأخرى ، مما يجعلنا نذهب إلى أن الشيعة في مصر كانوا من الضعف
لدرجة أنهم لم يؤثروا في الحياة السياسية والعقلية ، ولذلك نوجب لقول المؤرخين
الذين يزعمون أنه بعد أن تم الأمر للأمويين أصبح الجند وأهل شوكة مصر
عثمانية وكثير من أهلها علوية^(١) . والمقصود بالعثمانية أهل الكف الذين قالوا
كن عبد الله المقتول ولا تسكن عبد الله القاتل . وإذا كان هذا موقف الشيعة في
مصر من علي وابنه الحسين فكيف نرى عدداً من المصريين يخرج لمناصرة
عبد الله بن الزبير في ثورته سنة ٦٤ هـ ضد الأمويين ، بل نرى ابن الزبير يرسل
والياً من قبله علي مصر هو عبد الرحمن بن جحدم الفهري وهو من الخوارج ،
وقد قدم مصر ومعه عدد كبير من الخوارج فأظهروا بمصر التحكيم ودعوا إليه^(٢)
ثم عادت الشوكة والقوة للعثمانية بعد فشل الزبيريين وعودة مصر لسلطان

(١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥١ (٢) السكندى : الولاة والقضاء ص ٤١

الأمويين ، وكان الأمويون يظهرون في مصر سب علي بن أبي طالب دون خشية ثورة الشيعة وذلك لضعف شأن الشيعة في مصر ، ومع ذلك فقد روى المقرئ عن يزيد بن أبي حبيب المتوفى سنة ١٢٨ هـ أنه قاله : نشأت بمصر وهي علوية فقلبتها عثمانية (١) فإن صح هذا القول عن يزيد فإنما يدل على أن بعض المصريين كانوا يتحدثون عن فضائل علي ، وأن يزيد استطاع أن يصرف الناس عن ذلك ويجعلهم يميلون إلى رأى أهل الكف والمسائل الفقهية ، ولا نستطيع أن نقول إن المصريين شغلوا بالآراء الشيعية التي شغلت شيعة العراق وفارس ، فإننا نستطيع أن نمر بالعصر الأموي في مصر دون أن نسمع شيئاً عن الشيعة بمصر ، ومن يدري لعله كان بمصر شيعة هواهم مع أبناء علي وقلوبهم مع أهل البيت ولكن سيوفهم كانت مع بني أمية ، وأغفلت كتب التاريخ الحديث عنهم فاصبحنا لاندرى شيئاً عن نشاط الشيعة في مصر في هذا العصر الأموي ولا عن العقائد التي دانوا بها إلا ما قيل عن قصة فرار مروان بن محمد إلى مصر من وجه المسودة ، فقد وجد الدعوة الجديدة سبقتة إلى مصر ووجدت بين المصريين قبولا ، وقد ذكر الكندي أسماء زعماء هذه الحركة بمصر ، ففي الحوف الشرقي كان أول من لبس السواد شرحبيل بن مذيلفة الكلبي ، وفي الاسكندرية كان الأسود بن نافع ، وبالصعيد عبد الأعلى بن سعيد الجيشاني ، وبأسوان يحيى بن مسلم (٢) ، ونحن نعلم أن دعوة المسودة في أول أمرها كانت للرضا من أهل البيت ، وتوهم الشيعة في جميع الأقطار الاسلامية أن الدعوة لهم فاستجابوا لها ونشطوا مع القائمين بها ، فلعل هؤلاء الذين دعوا للمسودة في مصر كانوا من الشيعة وتوهموا ما وهمه غيرهم ، فإن صح ذلك فتكون هذه أول حركة شيعية في مصر علمنا بها . ومهما يكن من شيء فإن مروان استطاع أن يقضى على هذه الحركة وأن يقتل زعماءها ، ولكن القدر لم يمهله كي يستمر في حكم مصر ، فقد دخلت جيوش العباسيين مصر سنة ١٣٣ هـ وقبض على مروان بن محمد ومن معه من الموالين للأمويين وخضعت مصر للعباسيين ، وكان العباسيون في مبدأ أمرهم يتحجبون إلى الشيعة ، فحجى من مصر سب علي وآله ، وظن العلويون أن الأيام أقبلت عليهم ، وجاءت دولتهم التي طالما حلموا بها ، ولكنهم سرعان ما فطنوا إلى أن العباسيين نقمة حلت بهم ، ذلك أن العباسيين نكلوا بأهل البيت

(١) المقرئ : الحط ج ٤ ص ١٤٦ (٢) الكندي : الولاة والقضاة ص ٩٤

ومن لاذ بهم أو من عرف بولايتهم ، فلا غرابة إذا كنا نرى في العصر العباسي سلسلة حركات شيعية تظهر من وقت إلى آخر ، وأمعن الشيعة في التقية وأكثروا من الدعوات السرية المختلفة وكانت مصر من الميادين التي ظهرت فيها بعض حركات الشيعة في العصر العباسي ، ففي خلافة أبي جعفر المنصور قدم مصر سنة ١٤٤ هـ على بن محمد بن عبد الله ودعا لأبيه النفس الزكية ، وانتشرت دعوته في البلاد على يد الداعي خالد بن سعيد بن ربيعة الصدفي ولكن الوالي العباسي استطاع أن يقضى على هذه الحركة (١) . وفي عهد المتوكل العباسي أرسل إلى والي مصر بإخراج كل أهل البيت من مصر إلى العراق فأخرج الوالي اسحق بن يحيى سنة ٢٣٥ هـ بعض أهل البيت بعد أن فرق فيهم الأموال ليتحملوا بها فأعطى كل رجل ثلاثين ديناراً والمرأة خمسة عشر ديناراً (٢) ، فاضطر من كان بمصر من الشيعة إلى التقية خوفاً من بطش العباسيين ، ولا سيما بعد أن أصبح أكثر الولاة في مصر من الأتراك الذين كانوا شديدي التعصب ضد الشيعة ، ولعل أكثر الولاة الأتراك اضطهاداً للشيعة ومطاردة لهم هو الوالي يزيد بن عبد الله الذي ولي مصر سنة ٢٤٢ هـ وظل على مصر حتى سنة ٢٥٥ هـ وتذكر كتب التاريخ قصصاً عديدة عما أتاه هذا الوالي من اضطهاد للشيعة ، من ذلك أنه ضرب رجلاً من الجندي في شيء وجب عليه فأقسم الجندي عليه بحق الحسن والحسين إلا أعفاه فزاده الوالي ثلاثين درة ، ورفع صاحب البريد أمر هذا الجندي إلى الخليفة في بغداد فأمر بضربه مائة سوط ثم حمل بعد ذلك إلى بغداد (٣) ، وفي أيامه دل على علوى هو محمد بن علي بن الحسن بن علي زين العابدين فذهب الوالي وأحرق الموضع الذي به العلوى بعد أن قبض عليه (٤) ، وفي أيامه أيضاً أتاه من بغداد بأن لا يقبل علوى ضيعة ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، ومن كانت بينه وبين أحد العلويين خصومة قبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة (٥) وفي سنة ٢٥٠ هـ أخرج هذا الوالي ستة رجال من الطالبيين إلى العراق ، وفي رجب من السنة التالية أخرج ثمانية منهم (٦) ، وكانت هذه السياسة التعسفية

(١) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٢) السكندى : الولاة والقضاء ص ٩٨
(٣) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٣ (٤) السكندى : الولاة والقضاء ص ٢٠٤
(٥) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٤ (٦) السكندى : الولاة ص ٢٠٥

سبباً في أن ينتظم أحد العلويين وهو عبد الله بن أحمد بن محمد المعروف بابن الأرقط إلى ثورة جابر المدلجي سنة ٢٥٢ هـ وقوى الثائرون بانضمامه إليهم وزاد عددهم فهزموا جيش الوالي الذي استعان بالخليفة العباسي فأمدّه الجيش بقيادة مزاحم ابن خاقان فأخذت الثورة واستأمن ابن الأرقط العلوي فأخرج من مصر (١) ، وفي سنة ٢٥٤ هـ ثار بغا الأكبر وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الله بن طباطبا ولكنه هزم وقتل ، وفي سنة ٢٥٥ هـ في ولاية أحمد بن طولون خرج بغا الأصغر وهو أحمد بن محمد بن عبد الله بن طباطبا وانتشرت دعوته في الإسكندرية وبرقة والصعيد ولكنه قتل ، وفي هذه السنة أيضاً خرج بمصر ابن الصوفي وهو إبراهيم بن محمد بن يحيى من نسل عمر بن أبي طالب واستمر ثائراً يحارب ابن طولون أربع سنوات إلى أن هزم فاضطر إلى أن يهرب إلى مكة سنة ٢٥٩ هـ وكان المصائب التي صيها الجند من السودان على الشيعة بمصر أضعاف مانال الشيعة من اضطهاد الولاة ، فقد كثر عدد السودان في مصر واستفحل أمرهم ، فأصبحوا مصدر فتنة بين أهل السنة والشيعة ، ففي سنة ٣٥٥ هـ خرج شيعة مصر إلى قبر كلثوم بنت القاسم بن محمد بن جعفر الصادق وأقاموا هناك ما تم الحسين ، فتدخل الجند واضطربت الأمور بين الجند والشيعة ، وقتل جماعة من الفريقين فلم يكتف الجند من السودان بذلك بل ساروا في الطرقات يصيحون : معاوية خال علي !! حتى أنهم كانوا يصيحون بنقيب الأشراف الحسينيين أن جعفر مسلم ويهتفون بذلك في وجهه (٢) ، ولما ورد الخبر بقيام بنى الحسن بمكة ومحاربتهم الحاج ، خرج خلق من المصريين ولقوا كافورا الأخشيدى بالميدان وصاحوا : معاوية خال علي !! وسألوه أن يبعث جيشاً لمحاربة بنى الحسن (٣) . وهكذا كان حال الشيعة في مصر ، فقد أصابهم ما أصاب غيرهم في الأقطار الإسلامية من اضطهاد العباسيين ونقماتهم ، وهذه الأمثلة التي أوردنا بعضها إن دلت على شيء فإنما تدل على أن التشيع بدأ يدخل مصر ، بل أخذ يقوى ويشتهد أزره ، وأصبح الشيعة يؤثرون في الحياة العامة بمصر ويقومون بشورات ضد الولاة . أضف إلى ذلك أن مصر في هذا العصر شاهدت عدداً من العلماء الذين كانوا يفضلون علياً على الشيعيين ، ويخلصون في حبههم لأهل البيت ولعل الشافعي

(١) نفس المصدر ص ٢٠٨ (٢) المقرئى : الخطط ج ٤ ص ١٥٥

(٣) شرح ٩٠

أصدق مثل لذلك ، ففي شعره ما يدل على عاطفة مخلصه قوية لأهل البيت فهو يقول : —

يا آل بيت رسول الله حبيكم فرض من الله في القرآن أنزله
يكفيكم من عظيم الفخر أنكم من لم يصل عليكم لاصلاة له (١)

فهذا قول إمام من أئمة أهل السنة ، وصاحب مذهب فقهي من مذاهبيهم ،
فقد ذهب إلى أن حب أهل البيت فرض أنزله الله تعالى في القرآن ، وإن الله
تعالى لا يقبل صلاة من لا يصل على أهل البيت ، وهذه آراء شيعية لا يقول
بها إلا متعصب في تشيعه ، ونحن نشك في أن تصدر مثل هذه الآراء من الشافعي
ونحشى أن تكون موضوعة ونسبت إليه ، ولكن الشافعي يظهر مرة أخرى أنه
يحب عليا ولا ينكر فضل الشيخين ، وهذا الرأي يخالف الرأي السابق فالشافعي يقول

إذا نحن فضلنا عليا فإنا روافض بالتفضيل عند ذو الجهل
وفضل أبا بكر إذا ما ذكرته رميت بنصب عند ذكرى للفضل
فلا زلت ذارفض ونصب كلاهما بحبيهما حتى أوسد في الرمل

وهكذا كان الشافعي في أحاديثه وأماليه وأشعاره يشيد بفضل علي وحبه ،
وأخذ المصريون عن الشافعي فيما أخذوه هذا الحب لأهل البيت . واتخذ المصريون
عادة التبرك بأهل البيت أحياء وأمواتا ، فقد قيل إنه في سنة ٢٠٨ هـ توفيت
بمصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد فأراد زوجها اسحق بن جعفر الصادق
أن يحملها ليدفنها بالمدينة ، ولكن أهل مصر سألوه أن يتركها في مصر ليتبركوا
بها (٢) فدفنت في مصر وبنى قبرها الوالي عبيد الله بن السري بن الحكم ، ولا يزال
قبرها إلى الآن مقصد المسلمين في مصر يتبركون بها . ووضع التتائي المحدث
المعروف كتابا في فضائل علي بن أبي طالب رواه عنه المصريون ومنهم القاضي
الفقيه محمد بن أحمد بن الحداد (٣) وكان هذا القاضي ممن يفضلون عليا ولكنه لم
يستطع أن يصرح بذلك خوفا من السلطان ومن شغب العامة ، ويروي ابن زولاق
أن ابن الحداد كان في مجلس أبي القاسم بن الأخشيد مع جماعة ، فلما نهض ابن الحداد
أمسكه ابن الأخشيد وسأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فقال القاضي
الاثنان حذاء واحد . فكرر عليه السؤال فقال ابن الحداد : إن كان عندك فعلى
وإن كان برّه (في الخارج) فابو بكر (٤) . وشبهه بهذا ما يرويه ابن زولاق أيضاً

(١) الجوهر النفيس ص ٤٦ (٢) المقرئ : الخطط ج ص ٣١٥

(٣) ابن حجر العسقلاني : رفع الإصر (نسخة خطية بدار الكتب المصرية)

(٤) نفس المصدر

عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم فقيه مصر ورئيس مذهب مالك في عصره أن رجلا سأله : أيهما أفضل أبو بكر وعمر أم علي ؟ فاستغفاه ابن عبد الحكم فألح عليه الرجل ، فقال له ابن عبد الحكم : إن أخبرت أحدا عما أقول لك كلمت أحمد بن طولون الأمير فضر بك بالسياط ، علي أفضل (١) . وقيل إن يموت بن المزرع كان في حلقة يلقى دروسه الأدبية واللغوية على المصريين فتطرق الحديث عن أبي بكر وعمر وعلي فانقسم الناس إلى طائفتين طائفة تزيد فضائل علي ، وطائفة تزيد فضائل أبي بكر وكانت هذه الطائفة الأخيرة أكبر (٢) فهذا كله يدل على أن المصريين أخذوا ينقسمون بين أبي بكر وعلي ، وأن الحديث قد كثر في التفضيل بينهما ، ولكن الذين كانوا يفضلون عليا كانوا يتسترون خوفا من شعب العامة وبطش الولاة وجندهم من السودان .

علي أن أمر الشيعة بمصر أخذ يقوى منذ استطاع دعاة عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية من بسط دعوتهم في شمال أفريقيا وتقويض أركان دولة بني الأغلب ، وقد كان المهدي دعاة وأنصار بمصر ، ويحدثنا القاضي النعمان في كتابه افتتاح الدعوة ، أن المهدي نفسه دخل مصر مستترا في زى التجار هربا من العباسيين ، فأنت السكتب من بغداد إلى والى مصر بصفة المهدي والأمر في طلبه وكان بعض أهل خاصة ذلك لوالى وليامؤنا (بدعوة المهدي) فأسرع إلى المهدي بالخبر ، ولطف في أمره إلى أن خرج المهدي من مصر ومعه القائم وبعض عبيده (٣) . ويروي صاحب سيرة جعفر بن علي الحاجب . وسرنا (أى المهدي ورجاله) من الرملة إلى مصر ، فاستقبلنا أبو علي الداعي ، وكان مقبلا يدعو بها وأكثر دعاة الإمام من قبله . وكان فيروز الذى رعاه ورباه وزوجه ابنته أم أبي الحسين ولده ، فتقدم إليه المهدي ع . م قبل دخولنا مصر بأن لا ينزله عنده ولا عند من يشار إليه بشيء من أمرنا ، وأن ينزله عند من يثق به فأنزله عند ابن عياش (٤) . ويقول في موضع آخر عن داعي المهدي بمصر « ولما صح عند فيروز خروج المهدي إلى المغرب تغيرت نيته وعزم على النفاق ، وكان قد زوج ابنته كما ذكرنا أولا بأبي علي الداعي بمصر ، ومحمد أبو الحسين بن أبي علي الداعي ولده ، وقد بلغ محمد أبو الحسين هذا مع الأئمة المهدي بالله والقائم بأمر الله

(١) نفس المصدر (٢) ابن زولاق : أخبار سيبويه المصرى ص ٣٩

(٣) النعمان بن محمد : افتتاح الدعوة (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٤) سيرة جعفر : نسخة خطية بمكتبتي

والمنصور بالله والمعز لدين الله صلوات الله عليهم المحل الجليل العظيم وكان داعي
الدعاة (١). ولما تم الأمر للمهدى بالمغرب سنة ٢٩٦ هـ راسله شيعته بمصر للنهوض
إليها ، وفلا حاول الفاطميون غزو مصر عدة مرات ، منها تلك الحملة التي كانت
بقيادة حباسة بن يوسف السكتامي التي نجحت في دخول الإسكندرية ولكن
تكاثرت جيوش العباسيين فانهزم حباسة (٢) وشعر والى مصر أن بين المصريين
من كاتب الفاطميين لغزو البلاد فتنبههم الوالى وسجن منهم عددا كبيرا ، وعذب
آخرين بقطع أيديهم وأرجلهم (٣) ، وفي ذلك قال الشاعر المصرى ابن مهران :

وقد وافى حباسة فى كتمام بكل مهـند وبكل خطى
وقد حشدوا لمصر ودون مصر له خرط القتاد وأى خرط
وأقبل جاهلا حتى تخطى وجاز بجهله حد التخطى
بكتب جماعة قد كاتبوه من اقباط بمصر وغير قبلى
وكل كاتبوه ونافقونا وكل فى البلاد له موطنى
فقل لحباسة إن كنت عنا مضيت فإن قتلك ليس يبطى (٤)

كذلك نذكر الحملة التي كان يقودها القائم بأمر الله فى سنة ٣٠٧ هـ فقد فتح
القائم بأمر الله الاسكندرية ثم سار إلى الفيوم وكاتب المصريين بالثورة تارة
وبالشعر تارة أخرى ، فكان القائد مؤنس الخادم يصادر هذه المسكيات
ويرسلها إلى الخليفة العباسى المقتدر وظلت أحوال القائم بمصر مضطربة حتى
اضطر إلى العودة إلى المغرب سنة ٣٠٩ هـ ، وقد حفظ عريب بن سعد القرطبي
صورة مقطوعة من الشعر قيل إن القائم أرسلها إلى شيعته من المصريين يستنهض
همهم ، وذهب عريب إلى أن هذه المقطوعة أرسلت إلى بغداد وأن الخليفة أمر
محمد بن يحيى الصولى بالرد عليها ؛ وهاك المقطوعة .

أيا أهل شرق الله زالت حلومكم أم اختدعت من قلة الفهم والأدب
صلاتكم مع من ؟ وحجكم بمن ؟ وغزوكم فيمن ؟ أجيئوا بلا كذب
صلاتكم والحج والغزو ويلكم بشراب نخر عاكفين على الريب
ألم ترنى بعث الرفاهة بالسرى وقت بأمر الله حقا كما وجب
صبرت وفى الصبر النجاح وربما تعجل ذو رأى فأخطا ولم يصب

(٢) السكندى : الولاة ص ٢٧١

(١) نفس المصدر

(٤) السكندى : الولاة والفضة ص ٢٧٢

(٣) المقرئى : المخطوط ج ١ ص ٢٨١

إلى أن أراد الله إعزاز دينه
وناديت أهل الغرب دعوة واثق
فجاءوا سراعا نحو أصيد ماجد
وسرت بنخيل الله تلقاء أرضكم
وأردفتها خيلا عتاقا يقودها
شعارهم جدى ودعوتهم أبى
فكان بحمد الله ما قد عرفتم
وذلك دأبى ما بقيت ودأبكم
فقمتم بأمر الله قومة محتسب
رب كريم من تولاه لم يخب
يبادونه بالطوع من جملة العرب
وقد لاح وجه الموت من خلل الحجب
رجال كأمنال الليوث لها جنب
وقولهم قولى على النأى والقرب
وفزت بسهم الفلح والنصر والغلب
فدونكم حربا تضرم كاللهب (١)

وتتابعت غزوات الفاطميين لمصر فكانت ترد مهزومة مدحورة ، فاضطر
شيعة المهدي إلى اتخاذ التقية وإلى الدعوة السرية حتى ولى كافور نيابة عن ابن
سيده الحسن بن عبد الله بن طغج وكان ابن طغج ضعيفا فطمع فيه الجند وكرهوه ،
واستغل ضعفه أحد دعاة الفاطميين وهو أبو جعفر بن نصر وحبب إليه دخول مذهبه
وهو كتابة المعز لدين الله (٢) ويذكر ابن زولاق أنه كان بمصر داعية آخر يسمى بأبى
عيسى عبد العزيز بن أحمد (٣) ، ويخيل إلى أن أبا جعفر بن نصر الداعي كان
معروفا أكثر من صاحبه وأنه كان من جلساء كافور وبني طغج ، وعرف عنه
الدعوة للفاطميين في مصر ولا أدرى سبب سكوت الأمير عنه ، ويذكر ابن
زولاق أن هذا الداعي بنى دارا له بمصر فر عليه سيديوه المصرى فقال : كافور
الأسود غدا يؤخذ بأذنه ، إنما بنيت هذه الدار لصاحب المغرب تؤخذ فيها البيعة
على كل تابع ومتبوع ، وذليل ومرفوع تغير فيها الأحوال وتحمل إليها الأموال (٤)
معنى هذا كله أن الدعوة الفاطمية كانت أسبق إلى مصر من جيوش الفاطميين
وأن الدعاة استطاعوا أن يبدروا بين بعض المصريين عقائد الفاطميين فاستجاب
لهم من استجاب وكانوا عوناً لجيش جوهر القائد في دخول مصر سنة ٣٥٨ هـ
إذن كان بمصر شيعة ، ولما سكننا لا ندرى إلى أى فرقة من فرق الشيعة كان
المصريون ، ويغلب على ظنى أن المصريين لم يعتنقوا مذهباً من مذاهب التشيع

(١) عريب بن سعيد : صالة تاريخ الطبرى ص ٤٢

(٢) ابن زولاق : أخبار سيديوه المصرى ص ٤٠ ، وأبو الحسن : النجوم ج ٤ ص ٧٣

(٣) نفس المصدر ص ٢٣ (٤) نفس المصدر ص ٤٠

كغيرهم من فرق الشيعة الأخرى ، ولم يتخذوا التشيع من ناحية العبادة العملية كما فعل غيرهم ، إنما كان هواهم مع علي بن أبي طالب وأهل بيته ، ولكنهم لم يجاهدوا كما جاهد الشيعة في الأقطار الأخرى ، ولم يفلسفوا عقيدتهم الدينية على النحو الذي نراه عند غيرهم ، بل اكتفوا بالقول بتفضيل علي ، وحرصوا على حبهم وولائهم لأهل البيت ، يكرمون الأحياء ويتبركون بالأموات ، حتى دخل جوهر مصر ، ووجد المصريون أنفسهم أن لا طاقة لهم بقتاله وصدده عن ديارهم ، فإرسلوا إليه وفدا برئاسة أحد العلويين بمصر كان نقيب الأشراف الحسينيين بها وهو أبو جعفر مسلم بن عبد الله الحسني ، وطلبوا من جوهر الأمان والصلح ، فأجابهم ، وكتب لهم الأمان وفيه نص بتأمين المصريين على عقيدتهم فقد كان السواد الأعظم من المصريين حريصين أشد الحرص على أن لا يتحولوا عن مذهبهم الديني الذي كانوا عليه وهو مذهب أهل الجماعة والسنة ، وإن لا يتعرض الفاطميون لعقائدهم التي دانوا بها ، فألحوا في أن يذكر جوهر ذلك في كتاب أمانه لهم . فهل وفي الفاطميون في مصر بذلك ؟ الواقع أن الفاطميين لم يحترموا الأمان الذي أعطاه جوهر للمصريين فقد عملوا على تشيع المصريين على النحو الذي سنراه في هذا الكتاب ، فأصبحت مصر شيعية لها من الآراء ما تميز به في هذا العصر عن جميع عصورها التاريخية ، وأثرت هذه العقائد الفاطمية الجديدة على الحياة المصرية بل تعدت مصر إلى غيرها من البلدان الأخرى ولاسيما التي خضعت لنفوذ الفاطميين ، فأثرت في الحياة العقلية الإسلامية تأثيراً كان له خطره في جميع البلدان الإسلامية .

وهذا الكتاب هو محاولة الكشف عن الحياة العقلية والأدبية بمصر في عصر الفاطميين ، وهو عصر غامض لنا أشد الغموض بالرغم مما كتب حوله ، وكان عصر الفاطميين عصراً زاهراً في الأدب والعلم والسياسة ما بقي لنا من آثار هذه الفنون والعلوم شيء قليل جداً متفرق في كتب مختلفة ، وقد حاولنا مما بقي لنا أن نعطي صورة لما كانت عليه الحياة العقلية والأدبية ، ونرجو أن نكون قد وفقنا في هذه المحاولة ؟

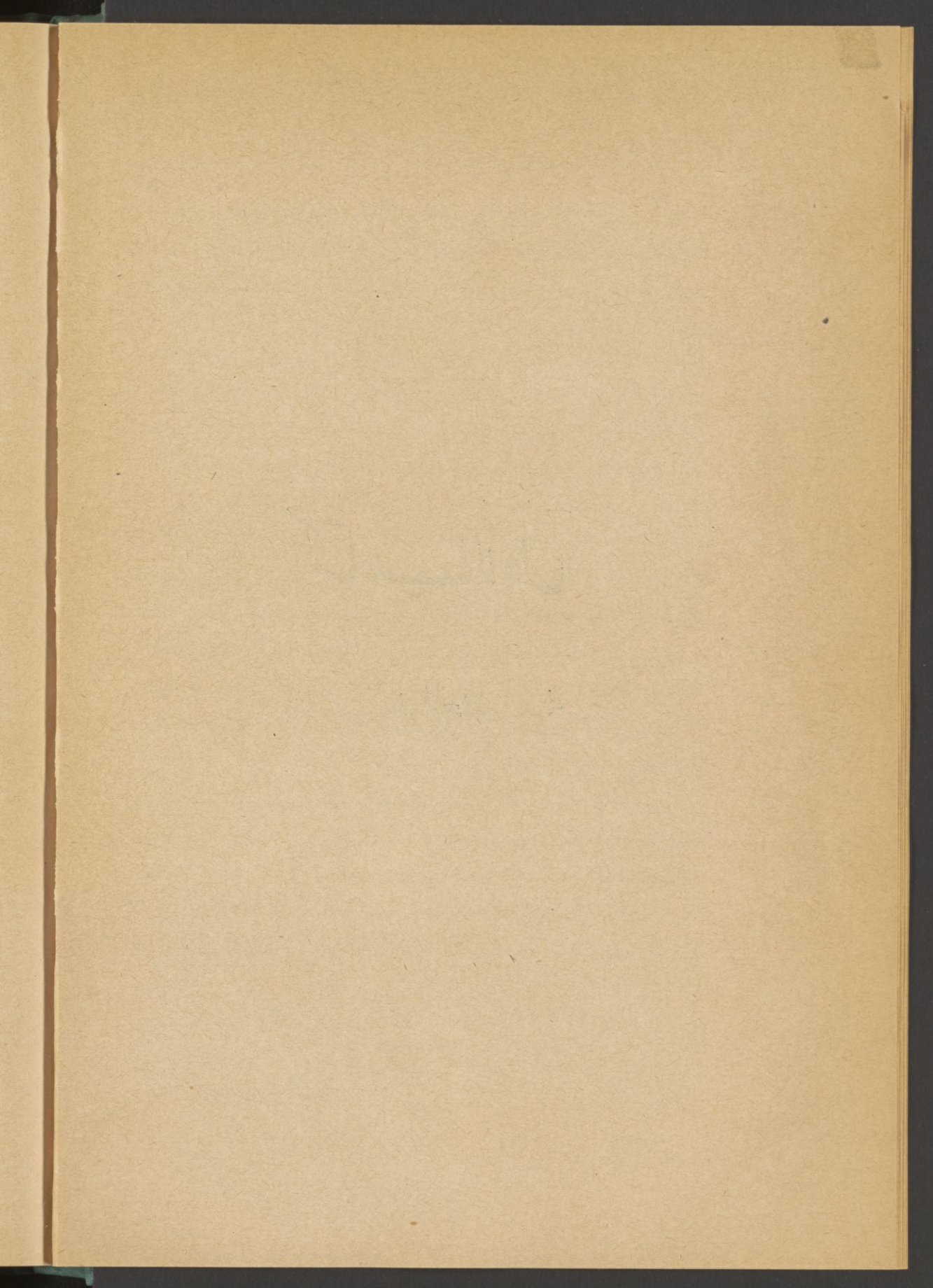
جزيرة الروضة في ١٥ إبريل سنة ١٩٥٠

٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٩

محمد طاهر محيي

الكتاب الأول

الحياة العقلية



الباب الأول

في الدعوة الفاطمية

الفصل الأول

عقائد الفاطميين

جاء الفاطميون مصر يدعون إلى عقيدة تختلف عما كان عليه أكثر المسلمين ، فقد كان السواد الأعظم من مسلمي مصر ينقسمون بين مذهب مالك وبين مذهب الشافعي ، وقليل منهم من كان على مذهب أبي حنيفة . ومهما كانت الفروق بين هذه المذاهب فكلها من مذاهب أهل السنة والجماعة التي تخالف عقائد الفرق الشيعية وتباينها ؛ والفاطميون فرقة من فرق الشيعة عرفت بالإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق . قال الفاطميون بنبوة محمد عليه السلام ، ووصاية علي بن أبي طالب (١) ، وإمامة ابنه الحسن فالحسين ، فزين العابدين ، فمحمد الباقر ، فجعفر الصادق . فهم على هذا النحو يتفقون في تسلسل الإمامة مع الشيعة الاثني عشرية . وبعد وفاة جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ انقسمت الشيعة الإمامية إلى الإسماعيلية وهي الفرقة التي قالت بإمامة إسماعيل بن جعفر فابنه محمد بن إسماعيل فأئمة (دور الستر) وهم عبد الله بن محمد ، فأحمد بن عبد الله فالحسين بن أحمد (٢)

(١) قال الفاطميون إن مرتبة الوصاية أسمى من مرتبة الامامة وأقل من مرتبة النبوة فعلى ابن أبي طالب في مرتبة أقل من مرتبة محمد عليه السلام وأرفع من مرتبة أبنائه الأئمة ولذلك لا يعدونه إماما من أئمتهم بل قالوا إنه وصى النبي ، أما الشيعة الإمامية فقالوا بأن عليا وصى وهو أول إمام من أئمتهم .

(٢) اختلف المؤرخون في هؤلاء الأئمة المستورين ، فمنهم من قال بأن عبد الله بن محمد هو عبد الله بن ميمون القداح الذي ينسب اليه بعض المؤرخين أصل الخلفاء الفاطميين ، ولعل السر الذي لم يعرف كنهه إلى الآن هو في هؤلاء الأئمة المستورين ، فالحديث عنهم أقرب إلى الخرافات منه إلى الواقع ، فالإمام المستور عند الإسماعيلية لا يعرف إلا لأقرب الناس إليه ، وإمعانا في الستر =

ثم أئمة دور الظهور وأولهم عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية . وإذا قرأنا كتب دعاة الفاطميين استطعنا أن نطمئن إلى أن الفاطميين نظروا إلى أئمتهم على أنهم من البشر ، يجرى عليهم ما يجرى على البشر من موت وحياة ، فهم في ذلك يخالفون الغلاة من الشيعة الذين ألهوا عليا والأئمة من ذريته ، وقالوا إنهم أحياء يرزقون . ويخالفون الشيعة الاثني عشرية الذين ذهبوا إلى غيبة الإمام محمد بن الحسن العسكري وأنه سيظل حيا حتى يعود ليلاً الدنيا عدلا كما ملئت جورا . وقال الفاطميون إن الإمامة تنتقل من الآباء إلى الأبناء ولا تنتقل من أخ إلى أخ بعد انتقالها من الحسن إلى الحسين ابني علي بن أبي طالب ، فالأب ينص على ابنه في حياته وهذه العقيدة أصل من أصول المذهب في تسلسل الإمامة عند الفاطميين ، وقد أولوا قول الله تعالى ، وجعلها كلمة باقية في عقبه ، بأن الله سبحانه وتعالى لا يترك العالم خاليا من إمام ظاهر مكشوف أو باطن مستور تنتقل الإمامة إليه بعد أبيه الإمام من نسل علي بن أبي طالب ،

والإمام حجة الله على عباده وهاديهم إلى الطريق القويم . فوجب على كل مؤمن أن يتبع هذا الإمام . وجعلوا ولاية الإمام إحدى أركان الدين ودعائمه ، بل ذهبوا إلى أن الولاية أفضل دعائم الدين وأقواها ولا يستقيم الدين إلا بها . قال المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في مجالسه : « فلو أن رجلا عمل بفرائض الله تعالى وسننه التي جاء بها رسوله كلها ، ثم لم يقترن بعمله اعتقاد ولاية الرسول عليه الصلاة والسلام الآتي بها لم يغن عنه ما عمل فتيلا ، ولم يتبع غير أهل النار سبيلا . إذ ولاية الرسول كالمركز الذي تدور عليه دائرة الفرائض ، فلا يصح وجودها إلا بوجوده ، وإذا كانت هذه نصبة الرسول في حياته كانت نصبة من يوليه أمر دينه مثلها ، وكمثل ذلك نصبة من يليه ومن يلي من يليه ما انتقلت الولاية من واحد إلى واحد ، وورثها ولد عن والد ، إذ الولاية هي الأصل الذي يدور عليه موضوع الفرائض ، ^(١) وهذا الرأي يقول الشيعة الإمامية جميعا ، وهو ما يتمايزون به عن

== يقبهم بلقبه ويسميه باسمه ويكنيهم بكنيته . ومن هنا التبس أمر نسب الفاطميين على المؤرخين بحيث لم يقطعوا برأى فيه إلى الآن ، وكل حديث عن هؤلاء المستورين يحتاج إلى أدلة لإثباته . ومن الصعب الحصول على هذه الأدلة ، ولذلك تمعدنا إغفال الحديث عن نسب الفاطميين إلى أن نستطيع الحصول على نصوص يمكن الاعتماد عليها

(١) المجالس المؤيدية ج ١ ص ٥ (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة)

جمهور أهل السنة ، وأيد الشيعة الإمامية ومنهم الإسماعيلية هذا الرأي بقصة تروى أن النبي بعد أن أدى حجة الوداع ونزل عند (غدير خم) في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة ، هناك أنزل عليه قوله تعالى (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس) فذهب الشيعة إلى أن النبي الكريم صدع بأمر ربه ، وأمر بالصلاة حتى إذا انتهى منها أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال « أستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، قالوا : بلى . قال : أستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه ! قالوا : بلى ، قال : من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله وأدر الحق معه حيث دار ، واعتبر الشيعة قول الرسول عليه السلام تبليغاً لأمر الله تعالى ، ونصاً صريحاً بوجوب اتباع علي وولايته ، ومن بعده من ذريته المنصوص عليهم ، وقد أخرج أحمد بن حنبل في مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب هذه القصة وأتبعها بقوله : فلقبه (أي لقي علياً) عمر بن الخطاب ، فقال : هنيئاً لك يا بن أبي طالب أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة (١) .

فالشيعة الإمامية على اتفاق مع الإسماعيلية في وجوب ولاية الوصي علي ابن أبي طالب ، ويروون عن النبي أحاديث كثيرة في شأن علي مثل قولهم : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » و « علي مني بمنزلة هرون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي » و « أنا المنذر وعلي الهادي من بعدي » و « النجوم أمان لأهل السماء وأهل بيتي أمان لأهل الأرض » و « من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية » و « أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق » و « إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي » (٢) واشترك الفاطميون في رواية هذه الأحاديث وغيرها . واتخذ الفاطميون دليلاً آخر أخذوه من تاريخ الأنبياء الذين سبقوا دور محمد عليه السلام فذهبوا إلى أن لسكن نبي وصياً يكمل إليه أمر المؤمنين ، وأن الله تعالى هو الذي

(١) راجع الجزء الأول من مسند أحمد بن حنبل ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٥٢ ، ٣٣٠ . والجزء الرابع ص ٢٨١ ، ٣٦٨ ، ٣٧٠ والجزء الخامس ص ٣٤٧ ، ٣٥٠ ، ٣٥٨ ، ٣٦١ ، في هذه المواضع نجد هذا الحديث عن النبي عليه السلام . وفي سنن الترمذي (الكتاب السادس والأربعون الباب التاسع عشر) قول النبي لعلي بن أبي طالب (أنت ولي كل مؤمن بعدي)

(٢) راجع ذلك كله في كتاب بحار الأنوار وفي المجالس المؤيدية في مواضع متفرقة .

يوحي إلى نبيه باعلان من اختاره الله وصيا لنبيه ، وخليفة له ، فكان وصى آدم هابيل
ووصى نوح ابنه سام ، ووصى إبراهيم ابنه إسماعيل ، وكان وصى موسى أخاه
هرون ، ووصى عيسى بن مريم حواريه شمعون الصفا (سمعان بن يونا المعروف
بالصفا)^(١) ، فوجب أن يكون لمحمد وصى ، شأنه في ذلك شأن غيره من الأنبياء
السابقين ، وأن الله تعالى اختار علي بن أبي طالب لمرتبة الوصاية ، ويحيل إلى أن
الفاطميين أخذوا هذا الرأي مما جاء في إنجيل يوحنا في مواضع متعددة أن سمعان
ابن يونا هو الذي سماه المسيح بطرس أو صفا ، وأمره المسيح أن يرعى بعده خرافه
أى جماعة المؤمنين ، فصبغ الشيعة هذه العقيدة بالصبغة الإسلامية ، واتخذوا لها
أدلة من القرآن والأحاديث ، على أن الإسماعيلية الذين جعلوا عليا وصيا للنبي
جعلوا عليا من ناحية أخرى يشارك النبي في كل صفاته وخصائصه وفضائله إلا
في مرتبة النبوة والرسالة اللتين خص بهما النبي وحده ، فكل الآيات القرآنية التي
جاءت في النبي كقوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » ، و « إنما أنت منذر
ولكل قوم هاد » ، إلى غير ذلك من الآيات هي في محمد وفي علي أيضا ، بل جعلوها
في كل الأئمة المنصوص عليهم من نسل علي ، ولم يكتف الإسماعيلية بذلك بل ذهبوا
في تأويل كثير من آيات القرآن إلى أن الله تعالى يشير فيها إلى علي والأئمة من
ذريته ، مثل قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتسكنوا شهداء على الناس
ويكون الرسول عليكم شهيدا » ، وقوله « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا
العالمون » ، وقوله : « وأولى الأمر منكم » ، وقوله : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا
من عبادنا » ، وغير ذلك . فقد أولت جميع هذه الآيات بأن الإشارة فيها إلى علي
ابن أبي طالب والأئمة من أهل بيته الذين اصطفاهم الله واختارهم دون غيرهم من
البشر . فمحمد وعلي عندهم صنوان متشابهان في كل الصفات إلا في مرتبة النبوة التي
أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستيداع) فقد اختص بها محمد عليه السلام ، على حين اختص
علي بمرتبة الوصاية والإمامة التي أطلقوا عليها اسم (مرتبة الاستقرار)^(٢) ؛ ولذلك
يروون أن النبي قال : لم أزل أنا وأنت يا علي من نور واحد نتقل من الأضلاب
الطاهرة إلى الأرحام الزكية ، كلما ضمنا صلب ورحم ظهر لنا قدرة وعلم حتى انتهينا

(١) الفترات والقرانات لجعفر بن منصور البين (ص ١٢ ب) نسخة خطية بمكتبتي الخاصة

(٢) راجع ما كتبناه عن هذا الموضوع في كتاب « ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة »

إلى الجدل الأفضل والأب الأكمل عبد المطلب فانقسم ذلك النور نصفين في عبد الله وأبي طالب . فقال الله تعالى : كن يا هذا محمدا ويا هذا كن عليا (١) ، وهذه العقيدة التي تجعل من علي شريكا وشديها للنبي في كل شيء . قال الإسماعيلية بعصمة الأنبياء والأوصياء والأئمة ، بل لعل الفاطميين لم يدينوا بعصمة الأنبياء ولم يؤولوا قصص الأنبياء هذا التأويل الذي نراه في كتبهم (٢) إلا لإثبات عصمة أئمتهم ، ولا ينفرد الإسماعيلية بالقول بهذه العصمة ، إنما هو رأى جميع فرق الشيعة ، وكان موضوع عصمة الأنبياء من موضوعات الجدل بين علماء الكلام .

ولعل المشاركة الكبرى التي جعلوها بين محمد وعلي هي عقيدتهم في التأويل الباطن ، وهو العلم الذي خصوا أنفسهم به ، وسموا من أجله بالباطنية ، فقد جعلوا محمدا هو صاحب تنزيل القرآن ، وجعلوا عليا صاحب تأويله ، أى أن القرآن الكريم أنزل على محمد بلفظه ومعناه الظاهر للناس ، أما أسرار الدين وأسرار التأويل الباطن فقد أنزلت على محمد ولكنه خص بها عليا وأبناءه من بعده دون غيرهم من البشر ، وأن عليا وأبناءه من الأئمة هم الذين يدلون الناس على هذه الأسرار ، أخذ الإسماعيلية بعض آيات القرآن الكريم دليلا على عقيدتهم في وجوب التأويل كقوله تعالى ، وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ، وقوله : « وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث ، وقوله : « وسأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبرا ، إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي ذهبوا في تفسيرها إلى أن الله تعالى : جعل لدينه تأويلا خاصا يختلف عما يقول به جمهور أهل السنة والجماعة الذين أطلق الإسماعيلية عليهم لقب أهل الظاهر أو العامة واستدلوا بقول الله تعالى « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب ، على أن الأنبياء والأوصياء

(١) المجالس المؤيدية في مواضع متفرقة .

(٢) راجع كتاب أساس التأويل للفاضل النعمان نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وكتاب أسرار النطقاء وكتاب سرائر النطقاء لجعفر بن منصور اليمن والمجالس المؤيدية . وكلها نسخ خطية بمكتبتي الخاصة .

والأئمة هم الراسخون في العلم وهم الذين يعلمون تأويله ، وذهب علماءهم إلى أن قوله تعالى (والراسخون في العلم) نسق على الله ؛ وقوله (يقولون آمنا به) أخرجه مخرج الحال بمعنى أنهم ليعلمونه ويقولون آمنا به ، إذ لو لم يكن الراسخون في العلم يعلمونه لكان مستحيلا منهم أن يقولوا آمنا به لأن الإيمان معناه التصديق والتصديق بالشيء لا يثبت إلا بعد إحاطة العلم به ولا يجوز تصديق المرء بما لم يعلمه . ثم أنه ليس يخلو من أن يكون النبي علم بتأويل ما أتى به أو لم يعلم ، فإن كان علم به بطل الوقف بعد لفظه الله ، في الآية السابقة ، ووجب دخول النبي في شرط من علمه ؛ وهو أول الراسخين في العلم وأفضلهم وعنه أخذ من أخذ من الراسخين في العلم ، وإن كان النبي لم يعلم فأرسال الله تعالى إياه بشيء إذا سئل عنه لا يعلمه خارج عن الحكمة والرسالة (١) . فالنبي كان يعلم تأويل القرآن ، ومن يقوم مقام النبي في كل عصر يعلم هذا التأويل أيضا ، وضربوا مثلا بقصة موسى مع الرجل الصالح التي وردت في القرآن الكريم بأن الله خص الرجل الصالح بأسرار لم يعرف كتبها نبي ناطق من الأنبياء وهو موسى ، فقصة موسى هذه دليل عندهم على أن العامة من المسلمين أضعف وأقصر من النهوض بأعباء تأويل القرآن الذي اختص به الوصي والأئمة . وفي ذلك يقول المؤيد في الدين :

ولم أجزنا ظاهر الكلام	في ذلك أسلمناه للخصام
ففي اختلافات القرآن كثره	من كل قول مع كل زمرة
يا قوم سر الملكوت هذا	يجعل أصنامكم جذاذا
سر له صاحب موسى الحضرا	قال معي لن تستطيع صبرا
وقال موسى سوف ألقى صابرا	فلم يكن إذ ذاك إلا قاصرا
تدبروا القصة ماذا يما	من قصها إن لم تكونوا نوما
لعلكم أن تحسبوها سمرا	إذن أسأتم للنفوس النظرا
من كان ذا عقل وذا عيين	يبلغ حقا بجمع البحرين (١)

ولهم أدلة عقلية على وجوب التأويل أخذوها أيضا من القرآن الكريم كقوله تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم » وقوله : « وفي الأرض آيات للموقنين

(١) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٥١ .

(٢) (القصيدة الأولى) من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة .

وفي أنفسكم أفلا تبصرون ، فذهبوا إلى أن مثالة الدين تؤخذ من خلقة السموات والأرض وتركيب الأفلاك وجميع ما يتأمل مما خلقه الله تعالى ، فقد ركزت في المخلوقات كل معاني الدين الذي حمله القرآن الكريم ، فأيات القرآن إذن في حاجة إلى من يخرج كنوز هذه المعاني (١) ، وبناء على هذه الطريقة التي اتخذوها لأنفسهم للتأويل وهذه القاعدة التي بها يستدلون بما في الطبيعة والمخلوقات على الدين جعلوا المخلوقات قسمين : قسم ظاهر للعيان وقسم باطن خفي ، وجعلوا الظاهر يدل على الباطن ، وسموا الباطن ماثولا والظاهر مثالا . ولذلك أستطيع أن أطلق على نظرية التأويل عندهم « نظرية المثل والممثول (٢) » ، وقد أخذت هذا الاسم مما كتبه دعاة الفاطميين ، فال مؤيد في الدين يقول في مجالسه « خلق الله أمثالا وممثولات ، لجسم الإنسان مثل ، ونفسه ماثول ، والدنيا مثل والآخرة ماثول ، وأن هذه الأعلام التي خلقها الله تعالى وجعل قوام الحياة بها من الشمس والقمر والنجوم لها ذوات قائمة يحل منها محل المثل ، وأن قواها الباطنة التي تؤثر في المصنوعات هي ماثول تلك الأمثال (٣) » وقول صاحب المجالس المستنصرية : « معشر المؤمنين إن الله تعالى ضرب لسلك الأمثال جملا وتفصيلا ، ولم يستح من صغر المثل إذا بين به ماثولا ، وجعل ظاهر القرآن على باطنه دليلا (٤) » ، ويقول المؤيد في الدين :

اقصد حمى ماثوله دون المثل ذا لبر النحل وهذا كالعسل (٥)

وإذن فالقاعدة في التأويل عند الإسماعيلية هي تطبيق نظرية المثل والممثول ، فظاهر القرآن مثل وباطنه ماثولات . والظاهر هو هذه المعاني التي يعرفها العامة وينطق بها علماء أهل السنة ، والباطن هو هذه المعاني التي يستخلصها الوصي والأئمة من أهل البيت دون سواهم من سائر المسلمين . وبالرغم من أن الإسماعيلية أتوا بأدلة من القرآن الكريم على التأويل وعلى نظرية المثل والممثول . فإن هذه النظرية

(١) المجالس المؤيدية ج ٢ ص ٥٢

(٢) راجع نظرية المثل والمثول وأثرها في شعر مصر الفاطمية — بحث قرى في مؤتمر

المستشرقين الحادى والعشرين في باريس يوم ٢٩ يولية سنة ١٩٤٨

(٣) المجالس المؤيدية : المجلس الثامن من المائة الثانية

(٤) المجالس المستنصرية ص ٩٨ — ٩٩ (طبع دار الفكر العربي)

(٥) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعى الدعاء

وإن كانت قد صبغت بالصبغة الإسلامية فإنها هي نظرية المثل الأفلاطونية القديمة ، أدخلوها في عقيدتهم بعد أن غيروا فيها بما يتفق مع تعاليمهم وعقائدهم الإسلامية . ويخيل إلى أن فكرة التأويل الباطن على هذا النحو الذي نراه عند الإسماعيلية لم يعرف لدى المسلمين قبل عصر الترجمة والحركة العلمية التي ظهرت في عصر المأمون العباسي وبعده ، وبعد أن ترجمت الكتب الفلسفية اليونانية ، والمعروف أن بعض فلاسفة الإسكندرية وعلى الأخص فيلون وتلاميذه حاولوا تأويل التوراة تأويلا باطنيا — إن صح هذا التعبير — وأن سانت أوغسطين هو أول من حاول تأويل الإنجيل تأويلا باطنيا كذلك . وجاء الإسماعيلية وأخذوا فكرة التأويل مما نقل إلى العرب من آثار هؤلاء الفلاسفة ، ولكنهم صبغوا تأويلهم بالصبغة الإسلامية كعادتهم دائما في كل ما أخذوه عن العلوم والفلسفة الأجنبية . ومع ذلك كله لم يستطع الإسماعيلية ألا يتخلوا جملة عما أخذوه من العلوم والفلسفة الأجنبية فقد ظهرت في تأويلاتهم آثار هذه العلوم والفلسفة كما ظهر تأثيرهم بالعقائد والأديان القديمة التي غمرت العالم قبل الإسلام وبعده . ويخيل إلى كذلك أنهم لم يتخذوا هذا التأويل الباطن إلا إمعانا منهم في زيادة شرف على بن أبي طالب والأئمة ، وخصهم بميزات تبعدهم بعض البعد من سائر البشر ، فكان الولاية هي المحور الذي تدور عليه جميع العقائد الفاطمية ، فتأويلاتهم وفلسفتهم في الإبداع والخلق وكل عقيدة في النفس والعقل كلها تنتهى إلى نتيجة واحدة هي الوصي والأئمة ، ففي التأويل الباطن أن وجه الله ، ويد الله ، و جنب الله ، هم الأئمة ، والشمس محمد والقمر على والأئمة ، والأهله هم الأئمة . بل ذهبوا كما ذهب بعض فلاسفة الإسكندرية إلى أن الله أبدع الكلمة (اللوجوس) فقالوا إن الكلمة هي كُن ، من قوله تعالى : إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ، وكلمة كُن ، حرفان كاف ونون : ولكنهما في التأويل الباطن مثلان للحدود الروحانية المقربة إلى الله ، فالكاف رمز للعقل الأول أو (القلم) وهو أقرب الحدود إلى الله وهو الذي ورد فيه الحديث النبوي الذي رواه البخاري : أول ما خلق الله القلم ، فقال له أقبل فأقبل ، فقال له أدير فأدير ، فقال : بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أعز علي منك ، بك أئيب وبك أعاقب . الخ ، والعقل الأول الذي ذكر في ظاهر القرآن بالقلم ولأنه أقرب الحدود إلى الله تعالى وأسبقهم إلى معرفة الله وتوحيده سمي بالسابق . أما النون فهي رمز

لنفس الكلية وهي التي رمز إليها في القرآن باللوح وسميت بالتالي ، وبناء على نظرية
المثل والمثول يجب أن يكون في العالم الأرضي عالم جسماني ظاهر يماثل العالم الروحاني
الباطن ، فالإمام هو مثل السابق ، وحجته مثل التالي ، وكل خصائص العقل الأول
(السابق) جعلت للإمام ، فمثلا نرى الإسماعيلية ينزهون الله تعالى عن كل الصفات
والأسماء ، وقالوا : إن أسماء الله الحسنى هي أسماء العقل الأول (السابق) وأن الله
سبحانه يتعالى على أن يتصف بصفة وأنه ليس أيسا وليس ليسا ، إنما كل ما جاء في
القرآن الكريم من صفات الله فهي صفات العقل الأول (السابق) وإذن فهذه
الصفات يوصف بها أيضا مثل العقل الأول في العالم الجسماني وهو الإمام ، وعلى
ضوء هذه النظرية نستطيع فهم قول ابن هاني الأندلسي في مدح المعز لدين الله
الفاطمي :

ما شئت لا ماشاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
فقد فهم القدماء من هذا البيت وأمثاله من شعر ابن هاني أنه يؤله إمامه ،
وحكموا بأن الأئمة الفاطميين ادعوا الألوهية بدليل هذا البيت وأمثاله ، ولو كان
القدماء يعرفون حقيقة العقيدة الفاطمية ما وجدوا في هذا القول تأليها ولا غلوا
في العقيدة ، وسنتحدث عن ذلك كله في باب الشعر .

وإذن فالتأويل الباطن عندهم لسبب واحد هو إغداق صفات التمجيد والتفخيم
لأئمتهم . على أن الإسماعيلية الذين قالوا بالباطن وضرورته قالوا أيضا بالظاهر معه
فلا يقبل الظاهر دون الباطن ، ولا ينفع الباطن دون الظاهر ، فإن الظاهر والباطن
كالروح والجسد إذا اجتمعا انقذت الفوائد وعرفت المقاصد ، (١) ومن عبد الله
تعالى بظاهر دون باطن أو بباطن دون ظاهر فهو ممن يعبد على حرف (٢) والظاهر
عندهم هو هذه العبادة العملية من طهارة وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان
وحج البيت والجهاد في سبيل الله ، فيجب على المؤمن أن يؤدي هذه الفرائض العملية
الظاهرة كما ورد في كتاب الله وما سنه رسول الله ، وفي الوقت نفسه يجب أن يؤمن
بعلم الباطن الذي هو العبادة العلمية التي خص بها الوصي والأئمة ، فالفاطميون إذن
لم يعملوا على طرح الأديان وإبطال العبادة كما وهم الكتّاب والمؤرخون الذين

(١) المجالس المستنصرية ص ٢٧ .

(٢) المجالس المستنصرية أيضاً ص ٢٩ .

محدثوا عن الفاطميين ، بل كانوا كما قال شاعرهم المؤيد في الدين :

فإننا لأهل علم وعمل لله دنا بهما عز وجل (١)

وشاركوا غيرهم من المسلمين في هذه العبادة الظاهرة ، ودعوا إلى هدايتهم إلى عبادتهم الباطنة ، وإذا قرأنا كتب الفقه الإسماعيلي مثل كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد وكتاب المجالس المستنصرية ، للداعي ثقة الإمام علم الإسلام وجدنا أن الفقه الإسماعيلي لا يكاد يختلف عن فقه أهل السنة وفقه مالك على وجه خاص ، مع أن الإسماعيلية لا يأخذون في أحكامهم الشرعية بالرأى ولا بالقياس إنما يأخذون بالأحكام التي يشرعها الإمام ، ومع ذلك لم يختلفوا عن مذهب أهل السنة إلا في بعض مسائل فرعية ، لعل أهمها مسألة ابتداء شهر الصوم ، فقد كانت هذه المسألة من أهم المسائل التي أثارها سخط المسلمين على الفاطميين ، ذلك أن الفاطميين لا يبدؤون صوم رمضان برؤية الهلال على ما يذهب إليه جمهور أهل السنة ، فقد وجد الفاطميون أن الهلال إذا غم في بلد من البلاد بسبب سحب أو غيره فقد يظهر في بلد آخر قريب ، فلا يصوم أهل البلد الأول على حين يصوم أهل البلد الآخر ، وكثيرا ما يحدث اضطراب في بدء الصيام في البلد الواحد ، فيقع ما يسمى بيوم الشك ، وهو ما نشاهده كل عام إلى اليوم . ومن ثم لجأ الفاطميون إلى الفلك والحساب فعملوا تقويما قريبا يحسبون بمقتضاه سير القمر ويقدرون منازلته حتى يعرفوا أن هلال رمضان قد أهل حقا ، فجعلوا الشهور العربية شهرا تاما والتالي له ناقصا دائما وبذلك أصبح شعبان ناقصا دائما ورمضان تاما دائما ، ومن هذا التقويم الدقيق عرفوا متى يبدأ رمضان ومتى ينتهي دون الرجوع إلى رؤية الهلال رؤية نظر ، بل جعلوا قول النبي الكريم : « صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته » ، أنها رؤية استبصار لا رؤية إبصار ، وهذا التقويم الفاطمي جعلهم يصومون قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ويبدؤون عيد الفطر قبل جمهور أهل السنة بيوم أو يومين ، ومن هنا أساء المؤرخون والعلماء الذين تحدثوا عن الفاطميين فهم حقيقة دعوتهم ورموهم بالخروج عن الجماعة وعن الإسلام .

ومن الخلافات بين الفاطميين وجمهور أهل السنة بل بين الشيعة عامة وبين السنين مسألة ميراث البنات ، فالشيعة يورثون البنات كل ما تركه الأب إذا لم يترك

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعوة

ولذا ذكرا . ومن الخلافات أيضا مسألة مسح الرجلين في الوضوء ، فقد ذهب الشيعة إلى وجوب المسح ، على حين قال أهل السنة بوجوب غسل الرجلين ، ومن أهم الخلافات التي بين الشيعة الاثني عشرية والإسماعيلية أن الفرقة الأولى تقول بأن إمامهم الثاني عشر حتى يرزق منذ اختفى في السرداب ، وأنه سيظهر ليلاً الدنيا عدلاً كما ملئت جوراً ، على حين يذهب الإسماعيلية إلى أن الإمام من البشر يجري عليه ما يجري على البشر من حياة وموت ، فمن السخف أن يقال إن إماما يعيش طول هذه المدة ، ومن الخلاف أيضاً قول الاثني عشرية بتحليل زواج المتعة على حين يحرمه الإسماعيلية . ولم يذهب الفاطميون بالقول بالرأى كالمعتزلة ولا بالقياس كأهل السنة بل رفضوا الأخذ بالرأى والقياس ، وقالوا بالرجوع إلى الإمام المعصوم وإلى علوم أهل البيت التي خصهم بها الله تعالى دون غيرهم من سائر البشر ، فعلم الباطن الذي خص به الأئمة دعاهم إلى القول بأن إعجاز القرآن من ناحية المعنى أقوى من إعجازه من ناحية اللفظ ، فالقرآن معجز بلفظه ومعناه ، ولكن إعجازه يظهر بما يحتويه من معاني وفي ذلك يقول المؤيد :

إن كان إعجاز القرآن لفظاً ولم ينل معناها منه حظاً
صادقتم معقوده محلولاً من أجل أن أنكرتم تأويله

وفكرة عصمة الإمام دعوتهم كما دعت الشيعة عامة إلى القول بعصمة الأنبياء . أما ما ورد في القرآن الكريم عن معاصي الأنبياء فقد ذهبوا في تأويلها إلى أوجه لم يعرفها المفسرون ، ولا أدري من أين أتوا بها (راجع ما كتبناه عن تأويل الأنبياء في كتاب « ديوان المؤيد في الدين ») .

وهكذا ترى الفاطميين لا يكادون يختلفون في عبادتهم العملية الظاهرة عن غيرهم من المسلمين ، فهم يحرمون ما حرمه الله تعالى ، ويتجنبون المآثم والمعاصي ، ويحللون ما أحله الله تعالى للمسلمين ، ولكن التأويل الباطني للإسماعيلية هو الذي جعلهم يوسعون الهوة بينهم وبين غيرهم من المسلمين ، فقد أرادوا بتأويلهم الباطني إسباغ الفضائل على الأئمة فجعلوا الأئمة يناسبون العقل الأول ، وصفات الله وأسماءه الحسنى المذكورة في القرآن الكريم جعلوها للعقل الأول ، وتبعاً لذلك جعلوها للأئمة ، أما الله سبحانه وتعالى فقد نزوه عن كل صفة ووحده التوحيد كله .

نوحده الله ولا نشبهه قد انتفت عنا بذلك الشبهه (١)

(١) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاء

فالإمام مثل سائر البشر مكون من جسم و نفس ، وبعد موته يتحلل كل قسم إلى ما يناسبه ، فالجسم الترابي يعود إلى التراب ، والنفس الشريفة تعود إلى ما يجانسها ويناسبها ، فتصبح نفس الإمام عقلا من العقول المدبرة للعالم ، فلا تتناسخ ولا تتلاشى ، لأن الفاطميين لا يدينون بالتناسخ ، وهي المنقصة التي رماهم بها خصومهم ، ولا يقولون بالتلاشى بل ناقشوا أصحاب هذه العقائد وسفهوا آراءهم ، كما كفروا الغلاة الذين ألهوا عليا والأئمة من أبنائه ، قال المؤيد في الدين داعي الدعاة :

فكيف شرع الأنبياء ندفع	وما لنا إلا النبي مرجع
بنوره في الدرجات نرتقي	وبالكرام الكاتبين نلتقي
يا رب فالعن جاحدى الشرائع	وارمهم بأجسع الفجائع
والعن إلهي من يرى الإباحه	بلعنة فاضحة مجتاحه
والعن إلهي غالبا وقاليا	ولا تذر في الأرض منهم باقيا
يا رب إنا منهم براء	هم واليهود عندنا سواء
فأخزهم وأخز من رمانا	بريبة ولقه الهوانا (١)

ويقول في الرد على القائلين بالتلاشى والتناسخ :

أيها المدعى التلاشى حمقا	ذا الذي تدعى عليك وكيل
أترى هذه الصنائع طرأ	عينا ما لصانع محصول
حركات الأجرام قل لي لماذا؟	ولماذا طلوعها والأفول؟
ألها في مجالها الفعل أم لا؟	فبغير إذأ يجوز تجول
إن تقل ذلك فعلها باختيار	أنكرت منك ما ادعت العقول
إن فيما دنا من الماء والنار	على ما علا لنا التمثيل
وإن قلت : ذلك غير اختيار	قلت : كل مدبر محمول
فإذا كان هكذا ثبت الحامل	والفَاعِل اللطيف الجليل
فإذا كان فاعل متقن الفعل	وما دونه له مفعول
فالتلاشى لفعله مستحيل	جملَ عما به عليه تحيل
والذي قال إنه النسخ والفسخ	وما ذا بغير دنيا حلول
فهو عن جوهر النفوس البسيطا	ت ومن حيث بدوها مشلول

(١) من الفصيدة الأولى من ديوان المؤيد داعي الدعاة

فلئن كان يثبت الأصل منها فكذا نحوه يكون القبول
ولئن كان نافيا قيل مهلا فلهذي المشاهدات أصول
فتوابع يكون بالأكل والشرب فذاك العذاب والتنكيل (١)
ومع هذا كله نرى المؤرخين والكتاب يرمون الفاطميين بالإباحة المطلقة
والقول بالتناسخ والحلول ، إلى غير ذلك من الاتهامات التي أظهر البحث الحديث
أن الفاطميين براء منها . على أني لا ألوم هؤلاء الكتاب الذين أظهروا العقيدة
الفاطمية على أنها مباينة للإسلام وتوحيد الله بقدر ما ألوم بعض الغلاة من الدعاة الذين
غيروا المذهب الفاطمي وخرجوا به عن منهجه الصحيح ، حتى اضطرت الأئمة إلى
إعلان عصيان هؤلاء الدعاة وطردهم من الدعوة وتحذير الناس من ضلالاتهم . نذكر
من هؤلاء الدعاة علي بن الفضل الذي كان من أسبق الدعاة في أواخر دور الستر
الأول في إظهار الدعوة في اليمن ولكنّه ضل طريق رشده ، فتهرب منه الامام وطلب
من الداعي الحسين بن حوشب المعروف بمنصور اليمن أن يحاربه ويمحو أتباعه (٢)
ونذكر أحمد بن الكيال الذي كان داعيا للاسماعيلية فغير المذهب ودعا لنفسه (٣)
والقرامطة الذين استباحوا المحرمات ونادوا بالإباحة فاضطر عميد الله المهدي قبل
ظهوره بالمغرب إلى عزلمهم عن الدعوة فخاربه وقتلوا بعض أهل البيت وسلبوا
متاعهم ، فاضطر المهدي إلى الفرار منهم إلى الرملة فحصر إلى أن رحل إلى شمال
أفريقيا حيث أقام دولته (٤) واستمر العداء بين القرامطة والفاطميين ردحا طويلا
من الزمان ، وقامت الحروب بين الفريقين على نحو ما ذكر في كتب التاريخ ، وكذلك
نقول عن فرقة الدرزية التي ظهرت في عهد الحاكم بأمر الله ، فأمثال هؤلاء الدعاة
كانوا أسلحة ماضية ضد المذهب ، حتى قال القاضي النعمان وذكر المعز لدين الله رجلا
أصابه بلاء عظيم في نفسه ووصف ما صارت حاله إليه ، وكان هذا الرجل قد أُلحِد
في أولياء الله وغلا في دينه ، وقد كان قلد شيئا منه وناله بسبب ذلك من سخط الأئمة
ما نعوذ بالله منه ، فقال المعز لدين الله لما ذكر ما صار حال هذا الرجل إليه : ما أُلحِد

(١) القصيدة الخامسة من ديوان المؤيد داعي الدعوة .

(٢) راجع كتاب افتتاح الدعوة للقاضي النعمان (نسخة خطية بمكتبتي الخاصة) وكتاب
كشف أسرار الباطنية لمحمد بن مالك اليماني ص ٢١ وما بعدها .

(٣) راجع الشهرستاني .

(٤) راجع افتتاح الدعوة واستتار الامام وسيرة جعفر الحاجب .

أحد فينا ولا أراد إدخال النقص على شيء من أمرنا إلا ابتلاه الله في عاجل الدنيا ببلاد يكون نكالا ، ولعذاب الآخرة أخزى وأشد وأبقى .

ثم ذكر من تجاوز هذا الرجل وتعديه وما أدخل على الدين من الشبهة على ضعفاء المؤمنين ما يطول ذكره . قال : وتقرر عند المنصور بالله أنه يقول : عندنا من حكمة الله وعلمه ما نزيل به الجبال ولنا من أولياتنا في الدين من نزول السموات والأرض ولا يحول ولا يزول . فأعظم ذلك المنصور بالله من قوله وأحضر جماعة من الأولياء فذكر ذلك لهم عنه ولعنه . ثم قال المعز لدين الله : أعظم آيات موسى فلق البحر ، فهذا الشقي ادعى فوق ذلك لنفسه وهو ينسب إلينا ويدعى علينا ومذهبتنا وقولنا ، نحن نبرأ إلى الله من دعواه وقوله ، وما ينسبه إلى نفسه ، أن ينسب إلينا وإلى من يتصل بنا . ثم قال : سمعت القائم بأمر الله يقول : إنما أراد الدعاء إلى النار الذين انتسبوا إلينا بما ينحلوننا إياه أنا نعلم الغيب وما تخفى الصدور ، وأشياء ذلك مما افتروه علينا ونسبوه إلينا أن يجعلوه عدة لتفاهمهم ... الخ (١) . وقال حميد الدين أحمد بن عبد الله الكرماني : إن أعظم الفرق ضللا لفرقة الغلاة ، ضلت وأضلت غيرها ، فانسلخت عن جملة أهل الدين والديانة ، (٢) ويقول المؤيد في الدين : استعبدوا بالله من قوم يقولون بأفواههم أنهم شيعة ، وهم من طلائع الكفر والإلحاد شر طليعة ، يستوطنون مركب الإباحة ، ويميلون ميل الراحة ، ويحتجون بكون الصلاة إشارة إلى حد من حدود الدين ، فإذا عرف سقطت الصلاة ، وأن الزكاة إشارة إلى مثله فإذا عرفت بطلت الزكاة ، وأن الصوم هو السكوت عن إفشاء سرهم إلى غير أهله ، فإذا هم سكتوا لم تبق بهم حاجة إلى الصوم واحتمال كده ، وأن النهي عن شرب الخمر هو النهي عن موالاة بعض الأضداد ، فإذا هم كفوا كان شربها حلالا سهلا القياد ، ولا يزالون كذلك حتى يحلوا من تكاليف الشريعة كل عقد ، ويردوا من مهاوى الردى في تحليل المحرمات شر وورد ، وهؤلاء أضرب بالدين وبالمؤمنين بمن شهر سيفه وشرع رحه إلى أمتهم بالبغضاء . ولم يزل من مضى من أمير المؤمنين علي والأئمة من ذريته إلى إمام الزمان براء إلى الله تعالى بمن هذه سبيله سرأ وجهرا ينشرون في صحف الخزي على من دان دينهم . الخ (٣) فمؤلاه الدعاء الذين نسبوا أنفسهم إلى الدعوة

(١) المجالس والسايرات ورقة ٨٦ م نسخة خطية بمكتبتي الخاصة

(٢) كتاب تنبيه الهادي والمستهدى نسخة خطية بمكتبتي

(٣) المجالس المؤيدية

الإسماعيلية كانوا سببا في أن يذهب المؤرخون القدماء ومن تبعهم من المحدثين إلى فساد عقيدة الفاطميين ، ومن يتعمق في دراسة العقيدة الفاطمية كما جاءت في كتب دعواتهم وعلمائهم — وهي الكتب التي لا يقربها إلا من بلغ درجة رفيعة في الدعوة — يرى الفاطميين براء من كثير مما نسب إليهم ، ولولا هذا التأويل الباطني الذي جعلوه قوام عقيدتهم لتساواوا مع غيرهم من المسلمين في كل شيء ولما وجد خصومهم مطعنا في عقيدتهم .

والذي ألاحظه على عقائد الفاطميين أنها مزيج من مجموعة المذاهب والديانات القديمة التي عرفت وانتشرت في الأقطار الإسلامية منذ زمن بعيد بتأثير امتزاج المسلمين بغيرهم من الشعوب المختلفة ، واستطاع الفاطميون أن يخضعوا هذه المذاهب والآراء القديمة الآراء الإسلامية ويصبغوها بالصبغة الإسلامية ، فالباحث يستطيع أن يتعقب أكثر عقائد الفاطميين ويردها إلى أصولها القديمة ، فمثلا قال قدماء المصريين بأن روح الملوك تنتقل إلى العالم العلوي وتصبح من الآلهة ، فقال الفاطميون إن روح الإمام تصبح ملكا من الملائكة وعقلا من العقول الروحانية المدبرة لعالم الكون والفساد، وذهب بعض فلاسفة اليونان إلى أن الإنسان لا يستطيع أن يرى شيئا إلا بمساعدة ضوء الشمس أو القمر أو الشعل ، فقال الفاطميون إن العقل البشري في تبصره لا يستطيع الوصول إلى معرفة شيء وإدراكه إلا بمساعدة خارجية تأتيه من الآئمة ، ومن أقوال فلاسفة اليونان أيضا أن النفس كانت صفحة بيضاء فإذا حلت في جسم نقش عليها ما اكتسبه الإنسان إن خيرا نغير وإن شرا فشر ، فقال الفاطميون بهذه المقالة . وأخذ الفاطميون عن العبرانيين والبابلية القديمة عقيدة الأدوار السبعة ، وعن الأفلاطونية الحديثة مذهب الإبداع وظهور النفس السكلية عن العقل السكلي وخلق العالم بواسطة الكلمة ؛ مع خلاف أن الأفلاطونية الحديثة جمعت الكلمة هي العقل السكلي على حين قال الإسماعيلية بأن الكلمة هي السابق والتالي أي القلم واللوح وأنها هي كلمة كن من قوله تعالى « إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون » كما أخذ الإسماعيلية عن الأفلاطونية الحديثة القيوضات ومراتبها بأن جعلها الإسماعيلية الحدود الروحانية والجسمانية ، وأخذوا عن أفلاطون نظرية المثل ، وعن الزرادشتية القديمة مذهب التخميمس ، وعن الفيثاغوريين القدماء مذهبهم في التوحيد ، وجعل الأعداد أصولا لعقائدهم ، بل كان نظام دعوتهم

هو النظم الفيثاغورية عينها ، وهكذا يستطيع الباحث أن يرد كثيرا من الآراء والعقائد الفاطمية إلى أصولها الأولى بالرغم من صيغ هذه الآراء والعقائد بالصيغة الإسلامية ، حتى ليتوهم الباحث في كتبهم أن كل عقائدهم إسلامية لم يطرأ عليها أي علم أو رأي دخيل .

وخلاصة القول في العقائد الفاطمية أن الولاية هي محور هذه العقائد ، وأن فلسفتهم كلها تدور حول الإمام وتمجيده أكثر من أي شيء آخر ، وهم يعتقدون بكل ما يعتقد به غيرهم من المسلمين من موت وحياة وبعث ونشر وثواب وعقاب ، ويقومون بفرائض الدين ، ويحرمون ما حرمه الله ، ولا يقولون بالتعطيل أو الإباحة ، ولم يعتقدوا التناسخ أو الحلول أو التلاشي ، غير أنهم قالوا بأدوار الأنبياء ، فلكل نبي دوره ، ويأتي النبي الذي بعده ينسخ شرع النبي قبله ، فلما جاء دور محمد وهو سادس الأنبياء جمع الله له كل أدوار الأنبياء قبله ، فمحمد هو آدم وهو نوح وهو إبراهيم وهو موسى وهو عيسى ، وأن ما حدث في أدوار هؤلاء الأنبياء يحدث مثله في دور محمد ، وما حدث لأوصياء الأنبياء يحدث لوصي محمد والأئمة بعده وأولوا ذلك كله تأويلا يتفق مع عقيدتهم هذه ، ونراه واضحا في أشعار شعرائهم ورسائل كتابهم على النحو الذي نراه في باب الشعر من هذا الكتاب .

الفصل الثاني

مراتب الدعوة الفاطمية ومراكزها

رتب الفاطميون لدعوتهم نظاماً دقيقاً محكما لا أكاد أجد له مثيلاً في تاريخ الدول والدعوات حتى في عصرنا هذا الذي عرف فيه للدعاية قدرها ومكانتها ، ولعل الفاطميين هم أول من أقاموا للدعاية مناصب رسمية في دولتهم ، ومن الحق علينا أن نذكر أنه كان للعباسيين نقباء يدعون لهم قبل أن يستولوا على الحكم ، ولكن هؤلاء النقباء لم يظهر لهم شأن بعد أن تم الأمر للعباسيين ، وكان للمعتزلة دعاة يدعون لآرائهم في الاقطار الإسلامية ، ولكن المعتزلة لم يكن لهم كيان سياسي ولم تكن لهم دولة لها حكومتها . أما الفاطميون فكان لهم نظم لدعوتهم قبل ظهور دولتهم على مسرح السياسة وبعد ظهورها ، بل لانزال هذه النظم قائمة إلى اليوم بين من ورث دعوتهم ، وهم المعروفون بالهجرة والمعروفون بالاسماعيلية الاغاخانية . وكما أنهم في تأويلهم الديني يطبقون نظرية المثل والممثل التي تحدثنا عنها في الفصل السابق ، كذلك نراهم قد طبقوا هذه النظرية أيضا على نظم الدعوة أي أنهم أخذوا هذه النظم من المشاهدات المحسوسة أي من نظام دورة الفلك وتقسيم السنة إلى شهور وأيام وساعات ، فالسنة اثنا عشر شهراً والشهر ثلاثون يوماً واليوم أربع وعشرون ساعة منها اثنا عشرة بالنهار واثنا عشرة بالليل ، فكذلك قسمت مراتب الدعوة : فالسنة التي تجتمع الشهور والأيام مثل على النبي في عصره أو الامام الذي يجمع جميع مراتب الدعوة ، والاثنا عشر شهراً مثل على رؤساء الدعوة في الجزائر (١) ويسمون حجج الجزائر ، ولكل من هؤلاء الحجج ثلاثون داعياً أو

(١) قسم الفاطميون العالم إلى اثني عشر جزءاً ، سوا كل جزء بجزيرة أي إقليم . وحاولت أن أعرف هذه الجزائر دون فائدة ، ويذهب الأستاذ ايفانوف (هامش ص ٢٠ من كتاب Rise of Fatimite) إلى أن هذه الجزائر هي : العرب . الترك . البربر . الزنج . الحبشة . خزر ، الصين . فارس . الروم . الهند . السند . الصقالبة . ولكنني وجدت أن حميد الدين السكرماني كان يلقب بحجة العراقيين . ولم أجد العراقيين بين الجزائر التي ذكرها الأستاذ ايفانوف . وكلمة جزيرة مأخوذة من الأصل (جَزَرَ) بمعنى قسم .

نقيبا ، ولكل داع من هؤلاء الدعاة أربعة وعشرون داعيا مأذونا أو مكسرا .
ولكل مرتبة من هذه المراتب عمل خاص به ، فالامام يختار من شيعته أقواهم لسانا
وأصدقهم جنانا وأحبتهم بالحجة وأعزهم علما ، فيجعله في مرتبة داعي الدعوة أو
باب الأبواب ، وهذه المرتبة أعلى مراتب الدعوة ، لأنها تلي مرتبة الامام مباشرة
من الناحية المذهبية فهو المالك لجماعة الحجج والدعاة ، وإليه الاشراف على الدعوة
في جميع الأقطار ، وقد وصف أحد علماء المذهب هذه المرتبة بقوله : وحد الباب
هو من الحدود الصفوة واللباب ، فهو أفضل الحدود ، وهو حد العصمة ، ولا ينتهي
إلى ذلك إلا الآحاد والأفراد (١) ، وقال آخر : هو باب صاحب الزمان الذي
يؤتى منه إليه ، وحجته على الخلق ، وحامل علمه ، وصاحب دعوته ، (٢) فنسبة الحججة
إلى الإمام كنسبة الوصي إلى الناطق ، والحجة هو صاحب التأويل في عصر الإمام فهو
الذي يعقد مجالس الحكمة ، ويتلو على المستجيبين علوم أهل البيت أى علم الباطن .
ولكل إقليم أو جزيرة من الجزائر التي قسموا إليها العالم حجة هو كبير دعاة الإقليم
والمشرف على الدعوة فيه ، وهو الذي ينوب عن باب الأبواب في عقد مجالس
الحكمة وتلاوة المجالس ، وهذا الحججة على صلة وثيقة بباب الأبواب الذي اختاره
الإمام ، ولكي ندرك مكانة حجة الجزيرة هذا في نفوس أتباعه أنقل ما كتبه
أحدهم وهو المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته وهو يحدث الوزير
بشيراز : « معلوم ما بيني وبين الديلم من الأحوال الممهدة ، والأسباب المؤكدة ، وأن
أحدهم إذا اختصم مع أهله ليلا فإنه يبأ كرنى شا كيا إلى ، ومورد اجملة أمره وتفصيله
على ، (٣) فكانة حجة الجزيرة في جزيرته لا تقل عن مكانة الوالى أو القاضى ؛ ولكل
حجة جزيرة ثلاثون داعيا نقيبا يقومون بهداية الناس وبث الدعوة في نفوس
المستجيبين ، وهم الذين يقاتحون الذين دخلوا في الدعوة بالعلم بعد أن يأخذوا عليهم
العهد والميثاق ، وهم الذين يجمعون النجوى منهم ويكون أمرهم لحجة الجزيرة ، ولكل
نقيب من هؤلاء النقباء أربعة وعشرون داعيا مأذونا مكسرا ، وهو الداعي الذي
يشكك المسلمين في عقائدهم المذهبية ويوقع الوهم في نفوس المتدينين أنهم على

(١) رسالة البيان لما وجب من معرفة الصلاة في نصف رجب (مخطوط رقم ٢٥٧٤٠
بمدرسة اللغات الشرقية بلندن) .

(٢) هامش جامع الحقائق ج ٢ ص ١٥٣ (مخطوط بمكتبتي الخاصة)

(٣) السيرة المؤيدية من مطبوعات دار الكاتب المصرى .

ضلال ، ولا يزال بهم حتى يطلبوا إليه أن يدلهم على الصواب المبين ، ولكنهم يحاورهم ويداورهم حتى إذا وثق من اقتناعهم بأنهم على ضلال أحاطهم على الداعي أو النقيب الذي يبدأ في مفاصلهم بأسرار الدين شيئا فشيئا بعد أن يأخذ عليهم العهود والمواثيق ، وهكذا يصبح المستجيب أو الطالب في زمرة الدعوة ، ومن ذلك يتبين أن الداعي المأذون هو الذي يكامر الناس بأن يحظرهم بأسئلة لا يستطيعون الإجابة عنها ، ولذلك يشترط في من يتولى هذه المرتبة أن يكون على علم وافر بمذاهب الفرق الإسلامية جميعها ، وموضع الضعف في كل مذهب من المذاهب ، وأن يكون متمكنا من أصول مذهبه ، وأن يكون لسنا مجادلا ، وقد حدد الفاطميون الصفات التي يجب أن تتوافر في الداعي ، نلخصها في سعة العلم والثقافة وشدة التقوى والورع والعمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، وأن يكون حسن السياسة مع من يتصل بهم ولا سيما أتباعه ، وهذه المرتبة هي أقل مراتب الدعوة فما بالك بالشروط التي يجب أن تتوافر في مراتب الحدود التي هي أعلى شأنًا من مرتبة المكامر .

ويحدثنا الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى في كتابه راحة العقل عن الحدود الجسمانية الذين إليهم أمر الدعوة ورتبهم بالترتيب الآتى . -

- ١ - الناطق وله رتبة التنزيل
 - ٢ - الأساس وله رتبة التأويل
 - ٣ - الإمام وله رتبة الأمر
 - ٤ - الباب وله رتبة فصل الخطاب
 - ٥ - الحججة وله رتبة الحكم فيما كان حقا أو باطلا
 - ٦ - داعى البلاغ وله رتبة الاحتجاج وتعريف المعاد
 - ٧ - الداعى المطلق وله رتبة تعريف الحدود العلوية والعبادة الباطنية
 - ٨ - الداعى المحدود وله رتبة تعريف الحدود السفلية والعبادة الظاهرة
 - ٩ - المأذون المطلق وله رتبة أخذ العهد والميثاق
 - ١٠ - المأذون المحدود الذى هو المكامر وله رتبة جذب الأنفس المستجيبة (١)
- هكذا ذهب الكرمانى في ترتيب الحدود الجسمانية ولكننا نتسامل عن الطريقة التي رتبوا بها هذه الحدود بعد وفاة الناطق والأساس ولا سيما وقد ذكر الفاطميون

(١) المشرع السادس من السور الرابع من كتاب راحة العقل (مطبوعات الجمعية الاسماعيلية

في كتب الدعوة أن الإمام يقوم مقام الناطق بعد وفاته ، ثم نتساءل مرة أخرى عن مرتبة الإمام في عهد الناطق إذ المعروف أن الناطق له جميع المراتب وأن الإمامة كانت له فما معنى وجود الإمام مع وجود الناطق

وضع هذا النظام للدعاة بحيث لا يخلو بلد من دعواتهم . وفي ذلك قال المعز لدين الله الفاطمي « إن أكثر الناس يجهلون أمرنا ، ولا يظنون أنا لا نعني إلا بمن شاهدناه وكان بحضرتنا ، ولو كان ذلك لسكننا قد ضيعنا من بعد عنا ، وقد اوجب الله على جميع خلقه ولايتنا ومعرفتنا واتباع أمرنا والهجرة والسعي إلينا من قرب ومن بعد ، ولسكننا للرأفة بهم ولما نرجوه ونحبه من هدايتهم قد نصبنا بكل جزيرة لهم من يهديهم إلينا ويدلهم علينا » (١) .

وبالرغم من أن الدعوة كانت سرية قبل العصر الفاطمي وكان الأئمة ودعاتهم يتخذون الستر تقيّة على أنفسهم خوفاً من بطش العباسيين فقد استطاع الباحثون المحذثون بفضل الكشف عن بعض مخطوطات الفاطميين أن يعثروا على أسماء بعض الدعاة الذين كانوا في دور الستر الأول ، نذكر من هؤلاء الدعاة الحسين بن حوشب ابن زادان الملقب بمنصور اليمن ، وهو الذي أوفده الإمام الثالث من أئمة دور الستر — الحسين بن أحمد بن عبد الله — للدعوة باليمن ، وهو الذي أوفد تلميذه أبا عبيد الله الشيعي داعية إلى المغرب (٢) ومنهم الداعي فيروز وكان داعي الدعوة في زمن المهدي قبل ظهوره بالمغرب ، وكان من أجل الناس عند الإمام ومن أعظمهم منزلة والدعاة كلهم أولاده ومن تحت يده ، وهو باب الأبواب إلى الأئمة (٣) ، ومنهم أبو جعفر الجزري وكان له أيضا محل جليل عند المهدي لأنه كان من كبار الدعاة ، ووكله المهدي بالحريم عندما فر من سلمية (٤) ، وتوفي هذا الداعي بقرادة بعد أن فتحها المهدي . وكان الداعي بمصر في وقت فرار المهدي إلى المغرب رجلا يعرف بأبي علي الداعي ، وكان رأس الدعوة بمصر وأبو علي هذا هو الذي ذكره جعفر بن منصور اليمن في كتابه « الفترات والقرانات » ملقبا بالشيخ الأجل المفيد وهو أحد تلاميذ فيروز وزوج ابنته (٥) وانجب ابنته محمداً أبا الحسين بن أبي علي الداعي

(١) المجالس والمسائرات للقاضي النعمان ورقة ١٠٥ B مخطوط .

(٢) افتتاح الدعوة للقاضي النعمان نسخة خطية .

(٣) سيرة جعفر الحاجب نشرت بمجلة كلية الآداب ، الجزء الثاني من المجلد الرابع ، عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ . (٤) المصدر السابق . (٥) المصدر السابق .

الذي بلغ مع الأئمة المهدي بالله والقائم بأمر الله والمنصور بالله والمعز لدين الله المحل الجليل العظيم وكان داعي الدعاة (١) ، وجاء في كتاب استتار الإمام أن عددا من الدعاة اجتمعوا للبحث عن الإمام المستور ، وهم ابو غفير وأبو سلامة وأبو الحسن ابن الترمذي وجمياد الخثعمي وأحمد بن الموصلى وأبو محمد الكوفي (٢) وهؤلاء جميعا لا نعرف عنهم شيئا . أما في دور الظهور - الذي يبدأ بظهور المهدي بالمغرب إلى انقراض الدولة الفاطمية - فقد وصلت إلينا أسماء عدد كبير من الدعاة كما وصلت إلينا بعض كتبهم (٣)

قلنا: إن من أهم أعمال داعي الدعاة هو عقد مجالس الحكمة التأويلية لقراءة علوم أهل البيت على جمهور المؤمنين ، فاتخذت مراكز لإلقاء هذه المجالس التأويلية ، ولعل أهم هذه المراكز في مصر هي :

(١) المساجد (٢) القصر (٣) دار العلم

١ - المساجد : كانت المساجد تقوم مقام المدارس والجامعات في أيامنا الحديثة ، فقد كان الناس يتحلقون في المساجد حول العلماء يستمعون إلى ما يلقىه هؤلاء عليهم من علوم وآداب على النحو الذي نراه إلى الآن في بعض المساجد في مصر ، فالمساجد على هذا النحو لم تكن مكانا لإقامة الشعائر الدينية فحسب بل كانت دور علم أيضا . وعرف الفاطميون هذه الحقيقة فلم يتوانوا في اتخاذ المساجد مجالا لنشر دعوتهم الدينية وبث عقائدهم المذهبية ، ولعل هذا هو السبب الذي من أجله أكثروا من بناء المساجد وجعلها تتناسب مع عظم ملكهم أولا وما أرادوه من اتخاذها وسيلة من وسائل نشر دعوتهم ثانيا ، لذلك نرى القائد جوهر الصقلي عند ما وضع أساس مدينة القاهرة لم يفس أن يبني مسجده العتيق - الجامع الأزهر - أنشأه بأمر مولاه الإمام المعز لدين الله ، وشرع في بنائه في يوم السبت لست يقين من جمادى الأولى سنة تسع وخمسين وثلاثمائة (٤) وتم بناؤه لتسع خلون من رمضان سنة إحدى وستين وثلاثمائة ، ثم جدد فيه العزيز بالله والحاكم بأمر الله

(١) المصدر السابق ص ١١٤ .

(٢) استتار الإمام ، نشر بمجلة كلية الآداب بالجزء الثاني من المجلد الرابع عدد ديسمبر

سنة ١٩٣٦ ص ٩٣ .

(٣) راجع مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

(٤) خطط القريري ج ٤ ص ٤٩ (طبع مطبعة النيل) .

الذي وقف عليه رباعاً بمصر ، ثم جدد المستنصر بالله والحافظ لدين الله الذي أنشأ فيه مقصورة بجوار الباب الغربي ، وهكذا كان هذا المسجد في العصر الفاطمي محل رعاية الأئمة وعنايتهم ، فلم يقصر وافي تجديده والزيادة فيه ، حتى قيل إنه كان يصدر في محرابه منطقة فضة قلعها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ فكان وزنها خمسة آلاف درهم سوى قناديل الفضة وتنورين من الفضة ، ووقفوا المؤذنين وخدمه ووسائل نظافته وإنارته وفرشه ما هو المذكور في كتب التاريخ ، والذي يهمننا الآن هو أن الفاطميين كانوا يشجعون العلماء والفقهاء للتخليق في هذا المسجد العتيق واتخذوا منه جامعة علمية ، فقد بحق أقدم جامعة عرفها التاريخ ، ففي هذا المسجد اتخذت الدعوة الفاطمية مكاناً لها بين أماكن أخرى ، ففيه عقد أول إجتماع بمصر للاحتفال بعيد الغدير - وفي ذلك يروي المقرئ عن المسيحي أنه في يوم الغدير ثمانية عشر من ذي الحجة سنة ٣٦٢ هـ اجتمع الناس بجامع القاهرة والقراء والفقهاء والمنشدون فكان جمعا عظيماً أقاموا إلى الظهر ثم خرجوا إلى القصر فخرجت إليهم الجائزة وكان هذا أول ما عمل بمصر (١) ، وبالجامع الأزهر كان داعي الدعوة يعقد مجلساً للنساء يلقي عليهن شيئاً من علوم أهل البيت (٢) وفيه جلس القاضي عبد العزيز بن محمد بن النعمان وابتدأ في قراءة كتاب جده ، اختلاف أصول المذاهب (٣) ويذهب المقرئ إلى أن أول ما عرف من إقامة درس من قبل السلطان بمعلوم جار لطائفة من الناس بديار مصر في خلافة العزيز بالله نزار ، وعمل ذلك بالجامع الأزهر (٤) ، ويقول القلقشندي إن الوزير أبا الفرج يعقوب بن كلس سأل العزيز بالله في حمله رزق جماعة من العلماء كانوا بمسجد القاهرة وأطلق لكل منهم كفايته من الرزق وبني لهم داراً بجانب الجامع الأزهر ، فإذا كان يوم الجمعة حلّقوا بالجامع بعد الصلاة وتكلموا في الفقه ، وأبو يعقوب قاضي الخندق رئيس الحلقة والملق عليهم إلى وقت العصر وكانوا سبعة وثلاثين نفر (٥) ، وجاء في خاتمة النسخة الخطية من رسالة مباسم البشارات . وتمت رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عليه السلام وصلواته وبركاته وتحياته على رسوله وخيرته من خاتمه محمد وآله الأئمة الطاهرين وهي الرسالة التي كتبها علي بن حسين بن أحمد الأصهباني المؤذن بالجامع الأزهر عن الداعي

(١) المقرئ الخطط > ٢ ، ٢٢٣ . (٢) خطط المقرئ > ٢ ص ٢٢٦ .

(٣) رفة الإصر ص ٧٣ . (٤) خطط المقرئ > ٤ ص ١٩٢ ، > ٢ ص ٢٢٢

(٥) صبح الأعشى > ٣ ص ٣٦٦

احمد بن عبد الله بن محمد الكرمانى مؤلفها قدس الله روحه ، كتبت من نسخته
وقرأت عليه وعلى جمهور المؤمنين (١) ويحدثنا الكرمانى فى مقدمة هذه الرسالة أنه
وفد إلى مصر — ويخيل إلى أنه جاء مصر إبان ثورة الدرزى — فاضطر إلى
تأليف هذه الرسالة وقراءتها على الناس فنقلها عنه مؤذن الجامع الأزهر . فهذا كله
يؤيد ما ذهبنا إليه من أن الفاطميين اتحدوا من المسجد الجامع الأزهر مركزا من
مراكز دعوتهم ومعهدا تلقى فيه علوم أهل البيت .

وهنا نقف لتتأمل ، هل كان هذا المسجد معهدا لتعليم الدعوة الفاطمية فحسب
فلا نجد أثرا لحلقات الشافعية والمالكية والحنفية ؟ يخيل إلى أن الفاطميين كانوا
يتساحون مع علماء أهل السنة بأن أذنوا لبعض فقهاء أهل السنة أن يلقي دروسه
وتعاليمه فى الجامع الأزهر ، فقد قيل إنه فى سنة ٣٨٣ هـ رتب رجل جمعوى للجلوس
فى الجامع للفتوى على مذهب أهل البيت فشعب عليه الفقهاء من أهل الجامع ، فبلغ
القاضى ذلك فقبض على بعضهم (٢) فمن هذا النص نستطيع أن نتيين أنه كان بالجامع
فقهاء يخالفون العقيدة الفاطمية ، وأنهم كانوا يفتون على حسب مذهبهم وعقيدتهم ، فلما
جاء هذا الفقيه للفتيا على المذهب الفاطمى شغبوا عليه فاضطر القاضى إلى أن يقبض
على بعضهم لاشئ سوى أنهم لم يتساحوا مع هذا الفقيه مثل ما تساحت الدولة معهم .
ويروى أيضا أن الحاكم بأمر الله أمر بطلب فقيهين وأمرهما بتدريس مذهب مالك
فى الجامع ثم بدا له فقتلهما بعد ذلك (٣) . أضف إلى ذلك أن مصر شهدت فى العصر
الفاطمى عدداً من فقهاء الشافعية والمالكية ، كذلك وفد على مصر عبد السلام بن محمد
ابن بندار أبو يوسف القزوينى شيخ المعنزة وأقام بها أربعين سنة (٤) يلقي تعاليمه
التي تخالف تعاليم الفاطميين ، وستحدث عن ذلك كله فى الفصل الخاص بفقهاء أهل
السنة ، وإذن نستطيع أن نقول إن الفاطميين كانوا يسمحون لأصحاب المذاهب
الأخرى بإلقاء تعاليمهم بجانب ما كان يلقي من تعاليم الفاطمية . وقد تكون هذه
سياسة وضعت لأن تقام المناظرات بين علماء هذه المذاهب وبين دعاة الفاطميين
حتى يستطيع جمهور المستمعين أن يتبينوا بعض المآخذ على المذاهب غير الفاطمية
وأن يقتنعوا بحجج الدعاء وأدلتهم وتبرهنهم فصاحتهم فيدخلوا فى الدعوة .

(١) رسالة مباسم البشارات : نسخة خطية بمكتبى الخاصة .

(٢) الكندى ص ٥٩٤ . (٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨ .

(٤) المصدر السابق ج ٥ ص ١٥٦ .

وإلى جانب الجامع الأزهر نرى الفاطميين قد بنوا جامع الحاكم خارج باب الفتوح وجامع راشدة وجامع المقس وجامع القرافة والجامع الأحمر وكثيرا من المساجد التي لا يزال بعضها ماثلا أمام أعيننا الآن ، وقد نقل الفاطميون إليها المصاحف وجلس فيها الفقهاء والعلماء ودعاة المذهب الفاطمي فكانت هذه المساجد بمثابة مدارس لتلقي الدعوة الفاطمية .

٢ — القصر : يحدثنا القاضي النعمان بن محمد بأنه د لما فتح المعز لدين الله (ص) للؤمنين باب رحمة وأقبل عليهم بوجه فضله ونعمته أخرج إلى كسابة من علم الباطن وأمرني أن أقرأه عليهم في كل يوم جمعة في مجلس في قصره المعمور بطول بقائه ، فكثير ازدحام الناس وغص بهم المكان ، وخرج احتفالهم عن حد السماع وملاؤا المجلس الذي أمر باجتماعهم فيه (١) .

وفي موضع آخر قال القاضي النعمان : وسمعت صلي الله عليه (أى سمع المعز) يقول لبعض الأولياء : ما تنظرون اليوم في شيء تنتفعون به ، ما تقرأون شيئا ، ما تسمعون شيئا ؟ فسكتوا ، وكنت قبل ذلك قد سمعت بعضهم يحرض بعضا في الاجتماع لقراءة كتاب دعائم الإسلام الذي بسطه المعز لدين الله (صلى) وجعله في مجلس من مجالس قصره ، وأباح لهم حتى أحبوا استماعه وقراءته وانتساخه والتعلم منه والتفقه فيه ، وقال بعض من حرض على ذلك : ويحك أما تخافون إن قصرتم في هذا أن يكون حجة من الله ومن وليه عليكم أن يختبركم فيه ، وقد أباحه لكم دهورا طويلا فيختبركم فيه أو في بعض أبوابه فلا يجحدكم حفظتم شيئا منه ولا انتفعتم به ، فيقال لكم إذا كنتم لم تقوموا بما أعطيناكم من ظاهر دينكم الذي تهبذكم الله بالقيام به فكيف ينبغي لنا أن نعطيكم من باطنه (٢)

ولعل هذه القاعة التي أشار إليها النعمان والتي ألقى فيها هذا العلم الباطن هي المسكان نفسه الذي خصصه الفاطميون للدعوة وعرف باسم المحول . فكان المحول في العصر الفاطمي أشبه شيء بقاعات المحاضرات العامة في عصرنا الحديث ، وكان يوم المحول الخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر والطارئون على مصر وعامة الناس (٣) ، وهكذا جعل الفاطميون جزءا من قصرهم للدعوة لمذهبهم ، ومكانا

(١) المجالس والمسائرات ورقة ٦٨ ب .

(٢) المجالس والمسائرات ج ٢ ص ١٢٣ — ١٣٤ .

(٣) خطط القرظي ج ٢ ص ٢٢٦ .

يلقى فيه العلماء والدعاة علوم أهل البيت ، وهي المجالس التي عرفت بمجالس الحكمة
التأويلية . ولم يكتف الأئمة الفاطميون بأن يكون المحول في قصرهم بل نراهم
يهتمون اهتماما خاصا بمكتبة القصر حتى عدت هذه المكتبة من مفاخر الفاطميين ،
فقد تميزت عن جميع مكتبات العالم الإسلامي في ذلك الوقت ، ويقول المقرئ
نقلا عن ابن أبي طي بعد ما ذكر استيلاء صلاح الدين الأيوبي على القصر : « ومن
جملة ما باعوه خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا ، ويقال إنه لم يكن في جميع
بلاد الإسلام دار كتب أعظم من التي كانت بالقاهرة في القصر ، ومن عجائبها أنه
كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبري إلى غير ذلك ، ويقال إنها كانت تشتمل
على ألف وستائة ألف كتاب (١) . ويقول المقرئ : وبما يؤيد ذلك أن القاضي
الفاضل عبد الرحيم بن علي لما أنشأ المدرسة الفاضلية بالقاهرة جعل فيها من كتب
القصر مائة ألف مجلد (٢) . ويزوي عن المسبحي أن عدة الخزان التي برسم الكتب
في سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة بعضها داخل القصر لا يتوصل إليها أحد
وبعضها في خزائن القصر البرانية . وكانت هذه الخزائن تشتمل على مجلدات في كل
فن من فنون العلوم الإسلامية ، فمن فقه على سائر المذاهب إلى نحو ولغة وكتب
حديث وتاريخ ونجامة ، وروحانيات وكيمياء غير المصاحف الكثيرة ، ويقال إن
العزير بالله ذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره فأخرجوا
من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة من كتاب العين منها نسخة بخط الخليل نفسه ، وحمل
إليه رجل نسخة من كتاب تاريخ الطبري اشتراها بمائة دينار فأمر العزير خازنه
فأخرج له من الخزانة ما يئيف عن عشرين نسخة منها نسخة بخط ابن جرير . الخ (٣)

وهكذا كانت خزانة كتب القصر . ولعلنا نستطيع أن ندرك من هذه اللوحة القصيرة
مدى عناية الخلفاء الفاطميين باقتناء الكتب في كل فن وحرصهم على أن تجمع
خزائنهم الطرائف والنفائس في كل علم ، وذلك تشجيعا منهم للعلم والعلماء . ولا
غرو في ذلك ، فإن مذهبهم الديني يدعو إلى العلم والعمل وإلى الاستزادة من جميع
العلوم والآداب ، حتى يتسنى لدعاتهم أن يكامروا خصومهم بأدلة علمية ، وأن
يتخذوا من سعة أفتقهم ومداركهم وثقافتهم مجالا يجولون فيه حتى يبزوا غيرهم . فلا
تعجب إن رأينا داعيا من دعاتهم مثل هبة الله بن موسى الشيرازي المعروف بالمؤيد

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥٥ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٥٣ .

في الدين كان يلم بجميع ألوان العلوم التي كانت معروفة في عصره ، واستطاع بما حصله من علم أن يرد على جميع المذاهب والفرق الإسلامية ، وأن يدحض رأى الزنادقة المارقين أمثال ابن الراوندي والثغوري ، وأن يناظر بعض الشاكين أمثال أبي العلاء المعري ، وأن يجادل خصومه هؤلاء بأدلة علمية منطقية وحجج قوية ، فلولا ما أوتيته من علم لما استطاع أن يعرف مواطن الضعف عند هؤلاء جميعا فيها جهم ويدحض حججهم نثرا وشعرا ويترك لنا هذه الذخيرة في مجالسه وديوانه ونستطيع أن نقول كذلك عن الداعي أحمد حميد الدين الكرمانى وعن الداعي أبي حاتم الرازى وعن السجستاني وغيرهم من ثغول دعاة المذهب الذين تم على أيديهم فلسفة المذهب وتبلورت عقائده .

لكن هذه الكنوز العلمية من نفائس السكتب التي حافظ عليها الفاطميون في قصرهم أصابها ما أصاب الفاطميين أنفسهم ، وكان ابتداء هذه الخيبة التي تكسبت بها مكتبات القصر إبان الشدة العظمى التي حلت بالبلاد أيام المستنصر بالله الفاطمي وقد شاهد المسيحي المؤرخ المصري شيئا من هذه الخيبة وصفها بقوله ، وكنت بمصر في العشر الأول من محرم سنة إحدى وستين وأربعمائة فرأيت فيها خمسة وعشرين جملا موقرة كتبها محمولة إلى دار الوزير أبي الفرج محمد بن جعفر المغربي فسألت عنها فعرفت أن الوزير أخذها من خزائن القصر هو والخطير ابن الموفق في الدين بإيجاب وجبت لهما عما يستحقانه وغلماهما من ديوان الجليلين ، وأن حصه الوزير أبي الفرج منها قومت عليه من جارى مماليكه وغلمايه بخسمة آلاف دينار ، وذكر لى من له خبرة بالسكتب أنها تبلغ أكثر من مائة ألف دينار ، ونهب جميعها من داره يوم انهزم ناصر الدولة ابن حمدان من مصر في صفر من السنة المذكورة مع غيرها مما نهب من دور من سار معه من الوزير أبي الفرج وابن أبي كديشة وغيرهما ، هذا سوى ما كان في خزائن دار العلم بالقاهرة وسوى ما صار الى عماد الدولة أبي الفضل بن المحرق بالأسكندرية ثم انتقل بعد مقتله إلى المغرب ، وسوى ما ظفرت به لوانة محمولا مع ما صار إليه بالاتباع والغصب في بحر النيل والإسكندرية في سنة إحدى وستين وأربعمائة وما بعدها من السكتب الجليلة المقدار المعدومة المثل في سائر الأمصار صحة وحسن خط وتجليد وغرابة التي أخذ جلودها عبيدهم وإماؤهم برسم عمل ما يلبسونه في أرجلهم ، وأحرق ورقها تأولا منهم أنها خرجت من قصر السلطان .

أعز الله أنصاره ، وأن فيها كلام المشاركة الذي يخالف مذهبهم ، سوى ما غرق وتلف وحمل إلى سائر الأقطار وبقى منها ما لم يحرق ، وسفت عليه الرياح التراب فصار تلالاً باقية في نواحي آثار تعرف بتلال الكتبت^(١) هذا ما عاينه هذا المؤرخ المصرى الكبير وذكره في كتبه ، وعنه أخذ من جاء بعده عن هذه الذخيرة العلمية ومقدار ما أصابها إبان الشدة المستنصرية من تلاعب الوزراء والخدم بعد أن ضعف أمر الخلافة الفاطمية وأصبح الوزراء والأمراء أصحاب الحول والطول في البلاد ، ومع ذلك كله بقي في مكتبات القصر عدة آلاف من الكتبت ، ويحدثنا ابن ميسر أنه وجد في ثروة الأفاضل بن بدر الجمالي خمسمائة ألف مجلد من الكتبت^(٢) لأشك أن أكثرها كان في خزائن القصر وأبادهها صلاح الدين الأيوبي كأباد دولة الفاطميين وقد ذكرنا ما أخذه القاضي الفاضل من خزائن القصر لمدرسته الفاضلية ، ويذكر المقرئى أن ابن صورة دلال الكتبت باع منها جملة في مدة أعوام^(٣) وكذا ضاعت كتوز الفاطميين العلمية بيد التعصب الممقوت .

كان في هذه الخزائن كتب الدعوة وما ألفه الأئمة وكانت هذه الكتبت بما يحافظ عليه الفاطميون أشد المحافظة حتى لا يصيبه الفساد ، ويحدثنا منصور الجوزرى الكاتب أن المنصور بالله أرسل إلى جوذر الصقلي رسالة نسختها : « بعثت إليك كتي وكتب الأئمة آبائى الطاهرين ، وقد ميزتها فأقررها عندك مصونة من كل شر ، فقد وصل الماء إلى بعضها فغير فيه ، وما من الذخائر شيء هو أنفس عتدى منها فأمر محمدأ كاتبك ينسخ لك منها ثلاث كتبت ففيها من العلوم والسير ما يسرك الله به^(٤) فهذا يدل على شدة العناية التي كان يوجهها الفاطميون إلى كتبت الأئمة وهي كتبت الدعوة ومحافظتهم عليها . فلا شك أن مثل هذه الكتبت العزيزة لديهم كانت تحفظ داخل القصر فلا يقرها إلا الأئمة والدعاة فقط ، أما المكتبات التي عبر عنها المسبجى « بالبرانية » فأرجح أنها كانت كالمكتبات العامة في عصرنا هذا ، ولا سيما في تلك الأيام التي كان يجتمع فيها الناس بالقصر لسماع مجالس الحكمة التأويلية .

فهذه المكتبات التي كانت في القصر لعبت دوراً هاماً في الدعوة ونشرها ،

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٥٤ . (٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٥٧ .

(٣) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٥٥ .

(٤) سيرة الأستاذ جوذر ، نسخة خطية بمكتبي الخاصة .

فحرص الفاطميين على اقتناء الكتب على اختلاف فنون العلم والآداب ، وشغفهم بالمحافظة عليها ، سهل للدعاة الاطلاع وإدمان النظر فيها ، والمجادلة فيها بينهم ، والمناظرة في هذه العلوم حتى يتخذوا منها وسيلة لغايتهم ، وسلاحا من أسلحة دعوتهم . حقا لم يذكر لنا القدماء أن الفاطميين استخدموا هذه المكتبات التي كانت بالقصر في خدمة الدعوة ، فلم يعقد فيها الدعاة مجالس الحكمة ، ولكن هذه الكتب الكثيرة لم توجد في القصر عشا ، ولم يحافظ عليها الفاطميون ليباهوا بها غيرهم ومناقسيهم فحسب ، بل كانت أداة من أدوات تثقيف الدعاة وتعليمهم حتى تكون لديهم ذخيرة علمية للقيام بما تفرضه عليه طبيعة عملهم ، ولا سيما هذه الكتب التي كانت في داخل القصر والتي لا يقربها إلا الخاصة ، وهي الكتب التي قلنا إنها كتب الأئمة أي كتب الدعوة ، فكيف يتأتى للداعي أن يقوم بما فرض عليه من الدعوة إلا بمعرفة هذه الكتب ودراسة ما فيها دراسة كاملة شاملة ، ولا سيما أن الداعي كان عرضة دائما للمجادلات والمناظرات مع علماء المذاهب الأخرى المخالفين لمذهبه ، وقد ذكرنا شيئا من صفات الداعي العلمية ، وما يجب أن يكون عليه من سعة الاطلاع والإلمام بمذهبه ، وإذن فلنا أن نقول إن هذه المكتبات التي كانت في القصر استخدمت في الدعوة من طريق غير مباشر . وهكذا استخدم القصر في العصر الفاطمي في نشر الدعوة الفاطمية بمحولة ومكتباته ، وفي المحول كان يجتمع الناس لسماع المحاضرات - مجالس الحكمة التأويلية - وكان الجمهور يقسم إلى أقسام فكان الأولياء مجلس ، وللخاصة وشيوخ الدولة وخدم القصر مجلس ، ولعوام الناس مجلس ، وللطارين مجلس وللنساء مجلس (١) ، وهكذا ، وسنتحدث عن ذلك في فصل مجالس الحكمة التأويلية .

دار العلم : ومن مآثر الفاطميين تلك الدار التي أنشأها الحاكم بأمر الله سنة ٣٩٥ هـ وسماها بدار العلم وجعلها جزءا من قصره ، ولعلها هي الخزانة التي أشار إليها المسيحي باسم الخزانة البرانية ، وقد حمل إلى هذه الدار الكتب من خزائن القصر من سائر العلوم والآداب ما لم ير مثله مجتمعا لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها فجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، فكان ذلك من المحاسن المأثورة التي لم يسمع بمثلها من إجراء الرزق السني لمن رسم له بالجلوس فيها والخدمة لها من فقيهه

(١) خطط القريري ج ٢ ص ٢٢٦ .

وغيره ، وحضرها الناس على اختلاف طبقاتهم وتباين ثقافتهم وفنونهم العلمية ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم ، وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الخبر والآقلام والورق (١) ، فدار العلم إذن كانت مكتبة عامة على نحو ما نراه اليوم في المكتبات العامة ، ولكنها بجانب ذلك كانت جامعة علمية للتعليم ، وكثيرا ما كانت تقام المناظرات بين علماءها . من ذلك ما يرويه السيوطي أن جنادة بن محمد بن الحسين الأزدي الهروي أبا أسامة اللغوي النحوي قدم مصر وصحب الحافظ عبد الغني بن سعيد وأبا إسحاق علي ابن سليمان المعري النحوي ، وكانوا يجتمعون في دار العلوم بالقاهرة وتجري بينهم مباحثات ومذاكرات (٢) ، ويروي المقرئ عن المسيحي أنه في سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بإحضار جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الفقهاء منهم عبد الغني بن سعيد ، وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، للمناظرة بين يديه ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد ، ثم يخلع الحاكم على الجميع ويصلهم (٣) .

ومن أشهر العلماء الذين ألقوا بعلومهم في دار العلم رجل مكشوف يقال له أبو الفضل جعفر ، قدم مصر فأعجب به الحاكم وخلع عليه ، ولقبه بعالم العلماء ، وجعله يجلس في دار العلم يدرس النحو واللغة (٤) ، ومنهم أبو بكر الأنطاكي الفقيه المالكي الذي سمح له الحاكم والشيخ مالكي آخر أن يقيم بدار العلم ويلقي دروسا في المذهب المالكي (٥) . فهذا كله إن دل على شيء فإنه يدل على أن دار العلم كانت بمثابة جامعة فيها أساتذتها ومها مكنتها ، وفيها كل ما يبعث على النشاط العلمي والبحث والتحصيل ، فالفاطميون بإنشائهم الجامع الأزهر ودار العلم كانوا أسبق الناس إلى إنشاء الجامعات التي تمتاز بها المدنية الحديثة في أيامنا هذه !

جعل الحاكم بأمر الله النظر على دار العلم إلى عبد العزيز بن محمد بن النعمان قاضي القضاة (٦) ، وظلت تؤدي أغراضها العلمية ، ويقبل عليها الطلاب والعلماء من كل صوب ، إلى أن كانت أيام وزارة الأفاضل بن بدر الجمالي ، وعلم الوزير أن جماعة من المترددين على دار العلم يحاولون بث دعوة إلحادية بين الطلاب . وأن بعضهم ادعى الألوهية ، فاضطر الوزير إلى أن يغلق هذه الدار سنة ٥١٦ هـ بعد أن عمرت

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٤ . (٢) بقية الوعاة للسيوطي ص ٢١٣ .

(٣) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٣٥ .

(٤) رفع الإصر (ص ١٩ ب) نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ . (٦) الولاة والقضاة للسكندى ص ٦٠٠ .

أزيد من قرن ، وكان إغلاق هذه الدار العلمية وقع وقع الصاعقة على الخليفة الفاطمي الأمر بأحكام الله وعلى بعض العلماء الذين كانوا في خدمته ولكن الخليفة كان مسلوب الإرادة مع وزيره ، فصبر على مضض ، حتى قتل الأفاضل وتولى الوزارة المأمون البطائحي ففاته الأمر في إعادة دار العلم على ما كانت عليه ، وما زال الخليفة بوزيره حتى قبل أن يعيد افتتاحها بشرط أن تكون بعيدة عن القصر ، وأن يتولاها رجل دين ، وأن ينظر فيها الداعي ابن عبد الحقيق ، وأن يقام فيها متصدرون برسم قراءة القرآن . فوافق الخليفة الأمر على ذلك كله ، واستخدم في هذه الدار الجديدة أبو محمد حسن بن آدم (١) ، ولكن هذه الدار الجديدة لم تعمر طويلا إذ قضى عليها بالقضاء على الدولة الفاطمية .

كانت دار العلم من مراكز الدعوة الفاطمية ، فكان الداعي يجلس فيها ويحتمع إليه من التلاميذ من يتكلم في العلوم المتعلقة بمذهبهم (٢) ، كما كانت هذه الدار المسكان الذي يحتمع فيه داعي الدعاة بالدعاة والفقهاء لتنظيم أمور الدعوة (٣) ، ومن يدري لعل في دار العلم كانت تحضر مجالس الحكمة والتأويلية التي كان يلقيها داعي الدعاة نائبا عن إمامه .

ومهما يكن من شيء فالقصر والمساجد ودار العلم كانت أبرز مراكز الدعوة في العصر الفاطمي . ولما كانت هذه المراكز في القاهرة كان في كل بلد من البلدان مركز للدعوة هو المسجد أو منزل الداعي في هذا البلد . يحدثنا المؤيد في الدين وكان داعيا في أول الأمر بشيراز : « فلما كان يوم عيد الفطر من سنة تسع وعشرين وأربعمائة كنت يوم قبله مستعدا له في تحصيل فرش وآلة وسجادات يصلي عليها المصلون ولا يستغنى عنها المتعبدون ، فرفع الخبر بأنني أستجمع الجموع للصلاة والخطبة في غد وأضرب في ساحة دارى المضارب والغازات ولما كان في غد وهو العيد اجتمع الخلق الكثير من الديلم للصلاة فصليت بهم ، فلما أتممت عكفت عليهم بالوعظ والإندار . . الخ (٤) فالداعي هنا كان يتخذ منزله مركزا للدعوة ولما كسبه كان في بلد يخضع لحكم العباسيين ، أما في مصر فقد كانت الدعوة ظاهرة مكشوفة تؤيدها الدولة بما لها وسلاحها ، فكان الدعاة يتخذون المنازل والمساجد للدعوة دون خشية ، وفي المساجد كانوا يلقون مجالسهم التأويلية .

(١) المقرئى ج ٢ ص ٣٣٧ . (٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٦٦ .

(٣) خطط المقرئى ج ٢ ص ٢٦٦ . (٤) السيرة المؤيدية .

الفصل الثالث

مجالس الحكمة التأويلية

من أجل أعمال داعي الدعوة ونوابه في الجزائر عقد مجالس الحكمة التأويلية ،
أو بعبارة أخرى إلقاء محاضرات على جمهور المؤمنين بدعوتهم يبشرون فيها الداعي
عقائد مذهبهم والتأويل الباطن للدين ، وهي العلوم التي عرفت بعلوم أهل البيت ،
والتي هي السر الذي يجب أن يظل مدفوناً في صدور الأولياء لا يبوحون به لأحد ،
فكل المجالس التي عقدها الدعوة هي مجالس تعليمية ، ولكن هذه المجالس درجات ،
ولكل طبقة من المؤمنين مجلس خاص كما ذكرنا من قبل ، فللعامة مجلس ، وللنساء
مجلس ، وللخاصة مجلس ، وهكذا. ولم تقسم هذه المجالس على حسب الطبقات الاجتماعية
لجمهور المؤمنين ، إنما قسمت على حسب مرتبة الحاضرين في مدارج الدعوة ، فلا يلقى
داعي الدعوة على دعائه ما يلقيه على المبتدئين في دخول الدعوة ، ولا يلقى على العامة
من أهل البلد ما يلقيه على الغرباء ، فلكل طبقة من هذه الطبقات أسلوب خاص ،
وعلوم خاصة ، بحيث ينتهي إلى أسرار الدعوة التي يجب ألا يقربها إلا كل ذي
قدم راسخة في الدعوة ، ومن بلغ فيها مرتبة رفيعة كأن يكون داعياً مثلاً .

وداعي الدعوة — ويعرف بسباب الأبواب ، وباب حطة ، وبالْحِجَّة — هو
الذي يعد هذه المحاضرات ويرفعها إلى الإمام فيوقعها هذا بعلامته ويعيدها إلى كبير
دعائه فيلقها على المستجيبين في المحول أو غيره ، فإذا انتهى من قراءتها مسح على
رأسه والناس بعلامة الإمام تبركاً بها ، وتكتب هذه المجالس عادة على أنها صادرة
من الإمام فتظهر للجمهور وكأن الإمام هو الذي كتبها وأن داعي الدعوة هو قارئها
لما كتب الإمام ، ولذلك يخفى اسم الداعي ولا يظهر في كتب المجالس ، مع أن
المعروف أن حجة الإمام هو صاحب التأويل في عصره .

تبدأ هذه المجالس عادة بحمد الله والصلاة على نبيه والائمة من نسل علي ،
ويردفا الداعي بشيء من الوعظ والإرشاد ، ثم يبدأ في تأويل آية من آيات القرآن
أو حديث نبوي أو أثر عن الأئمة أو يؤول شيئاً من فرائض الدين العملية ،

ويختتم مجلسه بالدعاء والصلاة والحمد وتلقى هذه المجالس مرتين في الأسبوع :
يوم الاثنين ويوم الخميس ، ويخيل إلى أن مجالس يوم الخميس كانت للخاصة ، وفيها
يقول المؤيد :

يا صباح الخميس أهلا وسهلا زادك الواحد المهيمن فضلا
أنت عيد للمؤمنين عتيد جمع الدين منهم فيك شملا
نحن نجني ثمار الجنة عدن كلها أقبل الخميس وولى
من رياض أنهارها جاريات وبها الحور في المقاصر تجلي
تروى الأرواح منها بماء هو أشقى من الزلال وأحلى
رتبة خصنا بها صاحب العصا رأمين الإله عز وجل (١)

وبين يدي الآن عدة كتب جمعت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها بعض
الدعاة ، مثل كتاب تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد ، وكتاب المجالس
المؤيدية ويحتوي على ثمانمائة مجلس من مجالس التأويل ، وكتاب المجالس
المستنصرية للداعي الموسوم بعلم الإسلام ثقة الإمام (٢) ، وهذه المجالس تختلف
باختلاف الداعي ، فمجالس القاضي النعمان في تأويل فقه الفاطميين ، والمؤيد يميل
في تأويله إلى فلسفة المذهب ، أما ما جاء في المجالس المستنصرية فهو تأويل بدائي ،
ويخيل إلى أن المجالس المستنصرية كانت تلقى على المبتدئين في الدعوة ، وقد رأيت
أن أقدم صورة من هذه المجالس المختلفة .

المجالس العاشرة من الجزء الرابع من تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي جل عن تقدير المتوهمين ، ولطف عن
لطيف بحث المتوسمين ، وصلى الله على محمد النبي وعلى الأئمة من ذريته الطاهرين ،
ثم إن الذي يتلو ما تقدم ذكره ما جاء عن أمير المؤمنين على عليه السلام أنه قال :
أول الصفوف أفضلها ، وهو صف الملائكة ، وأفضل المقدم ميامن الإمام . تأويله
ما تقدم القول به من أن أمثال الصفوف في الصلاة أمثال درجات المستجيبين إلى
دعوة الحق على مقادير فضلهم وسبقهم ، وأن أمثال الملائكة من الناس أمثال

(١) ديوان المؤيد داعي الدعوة .

(٢) طبع هذا الكتاب سنة ١٩٤٦ بدار الفكر العربي بالقاهرة .

المعلسكين أمور العباد ، وهم أولياء الله من رسله وأئمة دينه ومن ملسكوه شيئا من أمور العباد وأرسلوه لهم وما أرسلوه لهم له ، والمملك والملائكة فيما ذكر أهل اللغة مشتقة أسماؤها من الرسالة ، والألوك والملائكة في لغة العرب الرسالة ، وقد قال الله جل من قائل : والله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، فالصف الأول من صفوف ظاهر الصلاة لا ينبغي أن يقف فيه إلا أفضل أهل المسجد من علمائهم ، كما قال رسول الله (ص) : ليلني منكم أولو النهى والعلم . وينبغي أن يكون على يمين الإمام في الصف من خلفه أفضلهم ، ومن يصالح أن يكون إماما إن حدث به حدث يوجب خروجه من الصلاة ، لأن انصرافه إذا انصرف من الصلاة إنما يكون عن ذات اليمين ، فيكون من مقدمه هناك ، فيأخذ بيديه ويقدمه مكانه ، وعلى هذا تجرى مراتب أهل الدعوة في حدودها : أن يكون الذين يلون القائم بها في الدرجة العالية من درجات المؤمنين الذين هم أهلها ، وأن يكون أقربهم منه عن يمينه ، وهي أفضل درجاتهم ، من يصالح لمقامه من بعده ، ويتلوه ذلك ما جاء عنه عليه السلام أنه قال : سدوا فرج الصفوف ، ومن استطاع أن يتم الصف الأول أو الذي يليه فليفعل ، فإن ذلك أحب إلى نبيكم ، وأتموا الصفوف فإن الله وملائكته يصلون على الذين يتمون الصفوف . وعن جعفر بن محمد صلوات الله عليه أنه قال : وأتموا الصفوف ولا يضرك أن تتأخر إذا وجدت تضييقا في الصف الأول فتم الصف الذي خلفك ، وإن رأيت خللا أمامك فلا يضرك أن تمشي منحرفا حتى تسده . يعني وهو في الصلاة . وعن رسول الله (ص) أنه قال : صلوا صفوفكم ، وحاذوا بين مناكبكم ، ولا تخالفوا بينها فتختلفوا ويتخللكم الشيطان كما يتخلل أولاد الخذف . فتعدّل الصفوف وسد ما فيها من الفرج وتماها واعتدال وقوف القيام فيها من واجب الصلاة وحدودها في الظاهر ؛ ومثله في الباطن اعتدال أهل الدرجات في دعوة الحق على درجاتهم وحدودهم التي حدث لهم ، لا يتجاوز أحد منهم حده إلى غيره ، ومن رأى منهم خللا في حد من الحدود التي فوّقه أو دونه فينبغي له أن يسعى ويحتهد فيما يبلغه إلى تلك الدرجة ويوجب له سد ذلك الخلل ، وبأن يكون أهل كل حدود درجة قد استوت بهم الحال فيها ، وأوجب لهم الأحوال والأعمال أن يكونوا متساوين في ذلك على ما أمروا به من التساوي فيه ، لا يتقدم أحد منهم

أحد في ذلك ، كما وجب في ظاهر الصلاة أن يحاذي أهل كل صف منها بين مناهجهم ، ولا يتجاوز أحد منهم أحداً ، وأنهم إن فعلوا ذلك اختلفوا وتخللهم الشيطان ، وتأويل ذلك أن أهل مراتب الدعوة إذا تعدى أحدهم حده ، وخرج عنه إلى حد غيره ، أو جب ذلك اختلافهم ، ودخل بينهم ما يجب أن يختلفوا عن أعداء أولياء الله الذين أمثالهم أمثال الشياطين ، وقوله : « كما يتخلل أولاد الحذف » . فالحذف ضرب من الغنم الصغار السود ، واحدها حذفة ، تتخلل الغنم وتمشي بيئها ، فشبهه رسول الله (صلع) تخالما ومشها بتخلل الشيطان ومشيه بالتخريب بين المؤمنين لما يريد من تقاطعهم وتدابره إذا وقع مثل ذلك فيهم ، وتنافسوا في الرياسة بالخروج من حدودهم التي حدث لهم وأمروا بلزومها . ويتلو ذلك ما جاء عن علي (ص) أنه قال : قال لي رسول الله (ص) يا علي لا تقوم في العيكل . قلت : وما العيكل يا رسول الله ؟ قال : تصلي خلف الصفوف وحده ، فهذا مما يكره في ظاهر الصلاة ، أن يقف المصلي خلف الصفوف وحده ، وهو يجرد فيها مكانا يقوم فيه ، فإن لم يجد ذلك قام إلى أن يأتي من يقوم إلى جانبه أو يصلي كذلك وحده إن لم يأت أحد ولم يجد في الصفوف موضعا يقوم فيه ، وتأويل ذلك في الباطن ؛ نهى رسول الله (ص) عليا عليه السلام عن أن يفعله في الظاهر لأنه ليس هو حده في الباطن ، وحده في الباطن أعلى الحدود وأرفع الدرجات دون درجة النبوة ، فكره له أن يقوم في الظاهر في مكان لا يشبه مكانه في الباطن ، وكذلك لا ينبغي له أن يخلف بنفسه وأن يتواضع عن الدرجة التي جعلها له رسول الله (ص) . ويتلو ذلك قول محمد بن علي عليه السلام : « ليكن الذين يلون الإمام أولو الأحلام والنهي فإن تعابا لقنوه ، وقد جاء في مثل ذلك عن رسول الله (ص) أنه قال : ليلني منكم أولو النهي والعلم . وتأويل ذلك ما تقدم القول به من أن ذلك كذلك يجب في ظاهر الصلاة أن يكون الذين يلون الإمام إذا صلى بالناس علماءهم وأهل الفضل منهم ، فإن تعابا وتوقف في القراءة لقنوه وإن سها في الصلاة سبحوا له ليتذكر ما سها فيه ، فيرجع إلى الواجب منه ، وإن ذلك في الباطن كذلك لا يلي صاحب دعوة الحق في الرتبة والدرجة إلا أفضل أهل تلك الدعوة فإن سها عن شيء عندهم من علم ذكره إياه على ما تقدم القول به ، ويتلو ذلك قول أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام : « إذا صلى النساء مع الرجال قمن في آخر الصفوف لا يتقدمن رجلا ولا يحاذينه إلا أن

يكون بينهن وبين الرجال سترة ، فهذا هو الواجب في ظاهر الصلاة . وتأويله ما قد تقدم القول به من أن الرجال أمثال المفيدين والنساء أمثال المستفيعين ، وأن درجة المفيدين فوق درجة المستفيعين ، ولا ينبغي للمستفيع أن يتجاوز حداً إلى حد المفيد ولا أن يدانيه ، بل ينبغي له كما ذكرنا أن يقع دونه ويتواضع له ، وأما قوله : « إلا أن تكون بينهن وبين الرجال سترة » ، وتأويله أن يكون المفيد مستتراً لحال التقية ، فيعامل المستفيع منه في السر ويفيدهه ويتقدم إليه ألا يدل عليه شيء من إجلاله ولا التواضع له فيطرح ذلك المستفيع في ظاهر أمره تقية على مفيده وعلى نفسه . فافهموا بيان التأويل يا ذوى النهى والعقول ، جعلكم الله عن يفهم ويعلم ويعمل بما علم ، وصلى الله على محمد نبيه وعلى الأئمة من ذريته وسلم تسليماً ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

صورة من المجالس المؤيدية :

المجلس التاسع من المائة الثمانية

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذى علا عن كل معلوم ، وسما عن كل موسوم ، وكبر عن كل موهوم ومفهوم ، وصلى الله على ربيب رحمته المعمور ، وبحر حكيمته المسجور ، محمد المبشر به فى التوراة والإنجيل والزيور ، وعلى أخيه وابن عمه فارس يوم الهياج ، ومستودع سر ليلة المعراج ، على بن أبى طالب البرزخ بين البحرين العذب والفرات والملح الأجاج ، وعلى الأئمة من ذريته هداة من ذرأ الله من خلقه ، والمستحفظين لدينه وحقه ، والمتمين كلبه عدله وصدقته . معشر المؤمنين ، آمنكم الله من الفزع الأكبر ، وحشركم مع من تحبون فى يوم المحشر ، القليل الطيب خير من الكثير الخبيث ، فكونوا طيباً ، وكونوا فى جانب الخير ولا تميموا لشر جناباً ، والخير كله طاعة الله واتباع رسوله (صلح) فيما شرع ، والافتداء به فى وصل ما وصل وقطع ما قطع ، فصلوا ما أمر الله به أن يوصل بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، واقطعوا ما أمر الله به أن يقطع بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ، يرض عنكم ، وبدلوا حرصكم على الدنيا فتورا ، وفتوركم عن الآخرة حرصاً ، وعوضوا

عن نقصكم في طلب الباقي ازديادا. وعن ازبادكم في طلب الغاني نقصا ، من قبل أن
يفشيكم غواشي الندم ، ويطوف عليكم طوائف العدم ، فلا دنيا أدر كنتم ، ولا بعقي
تمسكنتم ، وأنصتوا لما يلقي إليكم من الحكمة فإنها تنقش صور نفوسكم المستجئمة في
الأجسام ، كما تنقش قوى الشراب والطعام صور الأجنة في الأرحام . واعلموا أنها
نعمة الله سبحانه على خالصة عباده ، وأنتم بها مشمولون ، وعلى حالتكم حفظكم لها
وإضاعتهم لا محالة مسئولون . قال الله أصدق القائلين : ثم لتسألن يومئذ عن النعيم .
زعم الزاعمون أنه الماء البارد في اليوم الصائف ، وحى الماء البارد للبهائم كما
للإنسان مباح ، وأحق منه بالسؤال عنه ما هو للإنسان دون البهائم متاح ، وهو
علم الحقيقة الذي يؤثر في النفوس اللطيفة لصالح المعاد أكثر مما يؤثر الماء البارد
لصالح الأجسام . وفسر بعض مفسري الشيعة أن النعيم المسئول عنه هو ولاية
علي بن أبي طالب (ص) وقد صدقوا إن اعتقدوا فيه أن الولاية مصححة التوحيد ،
ومعرفة الحدود الوقوف على معالم الإيمان ، وعلم التأويل الذي نفك به أقفال
القرآن ، وكذبوا إن اعتمدوا في معرفة الله سبحانه على عقولهم ، وادعوا وقوع
الغناء فيها عن الرسول والوصي ، على ما عليه رأى كثير من الشيعة بزعمهم من
الاستظهار بالولاء والاعتداء في معرفة التوحيد بذوى القياس والآراء والجمود
بالتأويل الذي يتفند من ظلمات الاختلاف ويفضي إلى نور الائتلاف ، وإنما
الافتقار إلى الرسول والوصي عليهما السلام لبلوغ ما هم بزعمهم بالغوه من معرفة
الله جل جلاله ، فإذا كانت معرفة الله سبحانه تصحح من دونهما فأى حاجة تبقى
بعدها إليهما للناس ، وأية فضيلة تخلص لهما ، وسوى هذا فإن كانت المعتزلة التي
هي الفئة المبرزة بدعاوى معرفة الله سبحانه بغير واسطة رسول نزولا على رأى
بعض الفلاسفة وإشراف منهم بقوا مأمونين عند من أشرنا إليهم من الشيعة أن
يقتدوا بهم في توحيد ربهم والقول في العدل على قضايا مذهبهم ، فلم لا يكونون
مأمونين على الإمامة التي هي دونهما فيرجعوا إلى ربهم فيها ، ولا يناقضوهم في
نقض مبادئها ، عهد من يكون مأمونا على انتظار ، ولا يكون مأمونا على دينار ، فقد
اختل عليهم القول بولاية علي (ص) بقطعهم ما أمر الله به أن يوصل من نظام
الإمامة في ولده ، فصاروا في معالم توحيدهم وعدهم على أضدادهم عبالا ، ولو

فأوا إلى جملة المعتصمين بحبل الله الممدود باتصالها لوردوا عيوننا وظلالا ،
ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله ، وكرهوا رضوانه ، فأحبط أعمالهم ، وقد كان قريء
عليكم من قول الله سبحانه: «فأما الذين آمنوا فיעلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين
كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا . ما شفيع بالإبانة عن معنى الحق ، ولم سمى
حقا؟ وإن ذلك جهة كونه أصلا يحتمل الوضع عليه . وانتهى الشرح إلى القول بأن الأشكال
الجسمانية السكيفة موضوعة على القوى النفسانية اللطيفة ، ومثال ذلك : أن السموات
والأرض وما بينهما محمولة على قوة إلهية لطيفة يعبر عنها بأمر الله كما قال الله سبحانه:
ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره ، وكذلك أجسام البشر على ثقلها محمولة
على الأرواح اللطيفة التي هي من أمر الله سبحانه .. ويسألونك عن الروح قل الروح
من أمر ربي .. الآية .. فقد تبنت العلم أن النفسانيات حاملة والجسمانيات محمولة
عليها ، وأن النفوس المحقوقة بالثواب إذا انفكت عن عالم الجسم ثابت إلى عالم النفس
الذي هو الحق والأصل الحامل ، وثبت أيضا من اتلاف الجسم والنفس الإنسانية
عن غير قصد منها ولا إرادة ، وتفرقتهما عن غير قصد ولا إرادة على كون تألف
النفس السكيفة بالجسم السكيفة وعالم الجسم من السماء والأرض وما بينهما أيضا عن غير قصد
منها ولا إرادة ، بل بأمر المبدع سبحانه ، وأنه إذا أراد أن يبطل دار الدنيا بأفلاكها
وأجسامها وسفلها وعلوها أمكنته القدرة منه على حسب الإمكان من التفريق بين
الأنفس والأجسام الذي يصير به عامر الأجسام خرابا . وأتم تسمعون ما نقرأه
الآن عليكم من قوله تعالى : « يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به
إلا الفاسقين ، وما نلوح به في معناه . وقال قوم : إن الضلال والهدى من الله سبحانه
وهم جمهور العامة ، واستشهدوا عليه بهذه الآية وما هو في معناها من مثل قوله : « ولو شئنا
لأنتينا كل نفس هداها ، وقوله تعالى : « إنك لاتهدى من أحببت ولكن الله يهدى
من يشاء ، وقوله حكاية عن نوح ع . م : « ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح
لكم ، إن كان الله يريد أن يغويكم هو ربكم وإليه ترجعون ، ونظائرها كثيرة في
القرآن ، وقال أهل الرأي : إنه إن كانت الصورة هذه فقد بطل ثواب المحسنين
وعقاب المسيئين ، وإن لهذه الآيات تأويلا يرجع إليه ويحمل الأمر عليه ، وهو مثل
قولهم في معنى الآية : يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا . أي يضل به عن الثواب

الضالين ويهدي به إلى الثواب المهتدين بفعلهم وكسب أيديهم . واستشهدوا على ذلك بقوله سبحانه : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ، وما يجرى مجراه وهو كثير في كتاب الله تعالى . وقد سئل الصادق عليه السلام عن ذلك فقيل : يا بن رسول الله الناس مجبورون على المعاصي؟ فقال : الله أعدل أن يجبر خلقه على المعاصي ثم يعاقبهم عليها . قيل : فمفوض إليهم؟ قال : هو أعز من أن يكون لأحد في ملكه سلطان . قيل : فكيف ذلك؟ قال عليه السلام : أمر بين أمرين لا جبر ولا تفويض ، فقوله تعالى « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » ، ويجب أن كثير الضالين قليل وقليل المهتدين كثير ، وذلك أن الإنسان كثير بنفسه البسيطة لا يحسمه الكشيف ، فالنفس الصالحة منسرحة في فضاء عالم النفس منفسحة ، وصاحبها قليل من حيث الجسم المحدود المحصور ، كثير من حيث النفس البسيطة غير المحصورة ، قال الله تعالى : « إن إبراهيم كان أمة » والنفس الطالحة ضيقة حرجة كأنفس البهائم لا خطر لها في العالم العلوي ، فأربابها وإن كثروا عددا فلقد قفوا محصولا كما قال الله سبحانه : « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، وكما قال سبحانه : قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث ، وقال رسول الله (صلح) لعلي عليه السلام : لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك مما طلعت الشمس عليه . وقوله : « يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا » وما يضل به إلا الفاسقين ، معنى الفسوق الخروج من الطاعة وعقد البيعة ، وأما « الفاسقين » فنفس الفسوق ففسق عن أمر ربه دور آدم عليه السلام الذي هو أول الأدوار وهو إبليس لعنة الله عليه فنقض بيعة الله ، وفيه قال الله سبحانه : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، ثم نزل على مكانه في آخر الأدوار الذي هو دور محمد (صلح) فنقض بيعة الغدير ، وسار الآخر على منهاج الأول ، فأبليس إمام الفاسقين أولا وهو إمام الفاسقين آخر ، جعلكم الله برا من الفاسقين ، وألحقكم بالصالحين ، لتكونوا لهم في منازلهم مرافقين ، والحمد لله الذي له في إظهار دينه أمر يبلغه ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه ، وصلى الله على رسوله الأمين ، محمد المبعوث بالبرهان المبين ، وعلى وصيه السني الأقدار ، علي بن أبي طالب معدن الفخار ، وعلى الأئمة من ذريته هداة الحق ، وأولياء الحق .

هكذا كانت مجالس الحكمة التأويلية التي كان يلقيها كبار الدعاة على جمهور المستجيبين، كل بحسب درجته ووحده في مراتب الدعوة ، فكل مجالس التأويل كما ذكرنا هي تطبيق النظرية التي أطلقت عليها نظرية المثل والمثول ، وكل العقيدة الفاطمية إنما تدور حول الإمام وولايته ومحاولة إثبات أن الله سبحانه أشار إلى الأئمة في كتابه الكريم ورمز إليهم فيه، وعلى المسلمين المؤمنين طاعة الأئمة وولايتهم وتصديق ما جاءوا به ، وأن الله سبحانه وتعالى خص الأئمة بعلم التأويل الباطن وأمرهم بستره إلا لمستحقيه من المؤمنين .

الفصل الرابع

أشهر علماء الدعوة الفاطمية

١ - بنو النعمان (١)

لأكد أعرف في تاريخ مصر الإسلامية حتى نهاية الدولة الفاطمية أسرة كان لها من الأثر في الحياة العقلية والسياسية ما كان لها تين الأسرتين: أسرة عبد الحكم (٢) قبل العصر الطولوني وأثناءه وأسرة النعمان في العصر الفاطمي ، فبنو عبد الحكم كانوا أساتذة المدرسة المالكية في مصر ، وكذلك كان بنو النعمان أساتذة مدرسة المذهب الفاطمي بمصر ، وكان بين بني عبد الحكم من اتجه إلى التاريخ وتدوينه ، كذلك كان بين بني النعمان من دون التاريخ ، وكان بنو عبد الحكم مقرين إلى الولاية في مصر ، كذلك كان بنو النعمان في مكانة لا تقربها مكانة أخرى لدى أئمة الفاطميين ، فالأسرتان - بنو عبد الحكيم وبنو النعمان - من أشد الأسرات أثرا في الحياة المصرية ، ولا سيما من الناحية العقلية .

أسس أسرة النعمان رجل عرف أنه من أشهر فقهاء المذهب الفاطمي ومن أكثرهم تأليفا للكتب ، وتعد مؤلفاته من الأسس التي تبعها من جاء بعده من علماء هذا المذهب ، بل لا تزال بعض كتبه إلى اليوم من أهم الكتب وأقومها لدى طائفة البهرة الإسماعيلية ، هذا الرجل هو القاضي أبو حنيفة النعمان ابن أبي عبد الله محمد بن منصور بن حيون التيمي المغربي ، ويعرف في تاريخ الدعوة الفاطمية باسم القاضي النعمان تميزا له عن سمييه أبي حنيفة النعمان صاحب المذهب السني المعروف . اختلف الناس في تاريخ مولده فذهب بعضهم مثل الأستاذ جوثيل إلى أنه ولد سنة ٢٥٩ (٣) وتبعه الأستاذ ماسينيون في ذلك الرأي . ولكن الأستاذ آصف فيظي خالفهما وذهب إلى أنه ولد في العشر الأخير من القرن الثالث (٤) وليس لدينا

(١) راجع ما كتبناه عن بني النعمان في مقدمة كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة . (طبع دار الفكر العربي)

(٢) راجع ما كتبناه عن بني عبد الحكم في كتاب أدب مصر الإسلامية - عصر الولاية

(٣) J.A.O.S. 1907 Pvol. XXVII P.227.

(٤) J.R.A.S. I I P.34

ما يرجح أحد الرأيين ، بل نصرح بأنه لم يصلنا شيء عن نشأته الأولى ولا عن آبائه وأسرته إلا ما رواه ابن خلكان أن والده أبا عبد الله محمد قد عمر طويلاً ، وأنه كان يحكى أخباراً كثيرة نفيسة حفظها في كبره ، وتوفى في رجب سنة ٣٥١ وصلى عليه ولده أبو حنيفة النعمان ودفن بأحد أبواب القيروان (١) فحياة الأسرة غامضة أشد الغموض ، ولم يحفظ التاريخ شيئاً عنها ، ولا أدرى من أين استقى الأستاذ جوئيل ما رواه من أن والد النعمان كان من رجال الأدب ، إلا إذا كان قد فهم من نص ابن خلكان ذلك .

وليس لدينا شيء عن حياة النعمان قبل قيام الدولة الفاطمية سنة ٢٩٦ هـ وقبل اتصاله بعميد الله المهدي الفاطمي مؤسس الدولة الفاطمية ، إلا أنه كان مالكي المذهب وتحول إلى المذهب الفاطمي (٢) ، ولكن مؤرخي الشيعة الاثني عشرية قالوا إن النعمان كان مالكي المذهب ثم تحول إلى الشيعة الاثني عشرية ثم انتقل إلى الإسماعيلية الفاطمية (٣) ويذهب أبو المحاسن إلى أنه كان حنفي المذهب قبل أن يعتنق المذهب الفاطمي (٤) . ولكن إذا أمعنا النظر في هذه الخلافات وجدنا أن الأرجح هو ما رواه ابن خلكان ، فالمذهب المالكي هو المذهب الذي كان يسود شمال إفريقيا والأندلس ، على أن المذهب الحنفي كان قليل الانتشار بين المسلمين في إفريقيا وفي مصر أيضاً ، وأن خاصة تلاميذ مالك كانوا مصريين ، وعن مصر انتقل هذا المذهب المالكي إلى شمال إفريقيا والأندلس وساد هذه البلاد حتى قل أن نجد فيها مذهبا آخر من مذاهب أهل السنة ، فمن المرجح أن النعمان كان على مذهب أهل بلاده ، أما ما يدعيه الأستاذ آصف فيظن أن النعمان كان إسماعيلي المذهب منذ نعومة أظفاره وأنه اتخذ التقية والستر خوفاً على نفسه وعلى مذهبه فهو كلام يحتاج إلى ما يؤيده ، وكذلك لم يتحدث أحد من المؤرخين الذين ذكروا النعمان عن إسماعيليته إلا بعد صلته بالمهدي سنة ٣١٣ هـ أي بعد أن أظهر المهدي نفسه في المغرب وهزم الأغالبة واحتل ديارهم . دخل النعمان في خدمة المهدي واتصل به ، ولا ندري نوع الخدمة

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٦٦

(٢) المصدر نفسه .

(٣) المستدرک ج ٣ ص ٣١٣

(٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢

التي كان يؤديها ولا الصلة التي اتصلها به ، ولكن بعد وفاة المهدي اتصل النعمان بالقائم بأمر الله طوال مدة حكمه . وفي أواخر أيام القائم ولي النعمان قضاء مدينة طرابلس الغرب . أما قبل ولايته قضاء طرابلس فلا نكاد نعرف عنه شيئا . ولما بنى المنصور مدينة المنصورية كان النعمان أول من ولي قضاءها ، بل ولاه المنصور القضاء على سائر مدن إفريقية .

وأصبح النعمان شديد الصلة بالإمام الفاطمي مقربا منه ، وظل قاضي قضاء هذه المدن ومن تحته قضاتها ، إلى أن ولي المعز لدين الله الإمامة فاشتدت صلة النعمان به حتى إنه كان يجالسه ويسايره وقل أن يفارقه بعد أن كان مستوحشا منه عقب ولايته . ولكن المعز طلب إليه أن يكون في عهده كما كان في عهد أبيه المنصور بالله ، ثم قويت الصلة بين المعز والنعمان حتى أصبح النعمان جليسه ومسايره ، ووضع النعمان كتابه المجالس والمسائرات جمع فيه كل ما رآه وما سمعه من إمامه المعز . ولما رحل المعز من إفريقية إلى مصر سنة ٣٦٢ هـ اصطحب معه بنى النعمان ، وكان النعمان إذ ذاك قاضي الجيـش ، وكان من الطبيعي أن يقلد النعمان قضاء مصر ، ولكن المعز بعد أن استقر بمصر ترك القضاء لأبي طاهر الذهلي محمد بن أحمد الذي كان على قضاء مصر منذ سنة ٣٤٨ هـ وطلب إلى أبي طاهر أن يحكم بفقهِ الفاطميين ، فكان لا بد للقاضي من أن يسترشد في أحكامه بالقاضي النعمان ، وما زال كذلك حتى توفي النعمان سنة ٣٦٣ هـ .

ويقول ابن حجر: إن النعمان كان يسكن مصر أي الفسطاط ويفدو منها إلى القاهرة في كل يوم (١) ويروي ابن خلكان عن المسيحي أن النعمان كان من أهل العلم والفقهِ والدين والنبيل ما لا مزيد عليه (٢) ، ونقل ابن خلكان عن ابن زولاق أن النعمان بن محمد القاضي كان في غاية الفضل من أهل القرآن والعلم بمعانيه . وعلمنا بوجوه الفقهِ وعلم اختلاف الفقهاء واللغة والشعر الفحل والمعرفة بأيام الناس مع عقل وإنصاف (٣) . وكل من تحدث عن النعمان من المؤرخين يذكر فضله وعلمه وسعة ثقافته ، فلا غرابة إذن أن نرى هذه السكتب الكثيرة التي ألفها النعمان والتي

(١) يُرفَع الإصر ص ١٣٦ ب نسخة خطية يدار السكتب المصرية .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) المصدر نفسه .

أصبحت عمدة كل باحث في المذهب الفاطمي بل أصبحت الأصل الذي يستقى منه علماء المذهب ، فلا أكاد أعرف عالماً من علماء الدعوة الفاطمية لم يهجم نهج النعمان في فقهه أو اختلف معه في رأى في المسائل الفقهية ، وقد يكون ذلك لأن النعمان قال في كتابه المجالس والمسائرات : إن الإمام المعز لدين الله طلب إليه أن يلقي على الناس شيئاً من علم أهل البيت ، فألف النعمان كتبه ، وكان يعرضها على المعز فصلاً فصلاً وباباً باباً حتى أتمها ، فهو يقول مثلاً :

أمرني المعز لدين الله (صلح) بجمع شيء لخصه لي وجمعه وفتح لي معانيه وبسط لي جملة فابتدأت منه شيئاً ثم رفعته إليه ، واعتذرت من الإبطاء فيه لما أردته من إحكامه ورجوته من وقوع ما جمعته منه بموافقته (ص) فظالعته في مقداره ، فوقع إلى : يا نعمان لا تبال كيف كان القدر مع إشباع في إيجاز ، فكلما أوجزت في القول واستقصيت المعنى فهو أوفق وأحسن ، والذي خشيت من أن يستبطأ في تأليفه فوالله لولا توفيق الله عز وجل إياك وعونه لك لما تعتقده من النية ومحض الولاية لما كنت تستطيع أن تأتي على باب منه في أيام كثير ، ولما كنت النية يصحبها التوفيق (١) ، وفي كتابه هذا كثير من النصوص التي تدل على أنه كان يعرض كتبه على المعز قبل إذاعتها ونشرها بين الناس ، كما أنه كان يقرأ مجالس الحكمة التأويلية ومن هنا لقبه ابن زولاق بالداعي (٢) وليس لدينا من النصوص ما يثبت أن النعمان كان من الدعاة وإن كان مؤرخو المذهب المحدثون مثل الداعي إدريس محدثنا في كتابه عيون الأخبار أن النعمان كان في مكانة رفيعة جداً قريبة من الأئمة ، وأنه كان دعامة من دعائم الدعوة ، ولكنه لم يصرح بأن النعمان ولي مرتبة داعي الدعوة ، ويخيل إلى أن النعمان كان داهية في سياسة التقرب إلى الأئمة ، وأنه استطاع بعلمه وثقافته أن يجذب إليه قلوبهم ، فقر به إليهم وعرف أمرهم ونياتهم ، فوضع هذه الكتب الكثيرة وادعى أن الأئمة هم الذين لقنوه إياها ، بل لعلى لا أغالي إذا قلت إن النعمان هو أول من دون فقه المذهب الفاطمي ، فلا أكاد أعرف فقيهاً من فقهاء المذهب قبله كتب في هذا الفن ، وبين يدي الآن كتاب المرشد إلى أدب الإسماعيلية (٣)

(١) المجالس والمسائرات ورقة ٧٥ ب .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

(٣) Inavow: Griol to Ismah. Litérqtire

وهو ثبت لأسماء المؤلفين والكتب الإسماعيلية ، وأما فهرست ابن النديم ، ومجموعة خطية قديمة لمؤلف مجهول جمع فيه أسماء الكتب التي ألقت منذ أوائل الدعوة الإسماعيلية ، فلم أعثر في هذه الكتب كلها على كتاب واحد في الفقه الإسماعيلي قبل كتب القاضي النعمان بن محمد . فلا غرو أن يعرف المعز فضل هذا العالم وأن يرفعه إلى أعلى الدرجات ، ولا سيما أن النعمان ذكر في كتبه أنه اقتبس هذه العلوم من الإمام ١١ حتى قال المعز عن النعمان : من يؤدي جزءا من مائة بما أداه النعمان أضمن له الجنة بجوار ربه (١) ويحدثنا المؤيد في الدين في سيرته أن الوزير اليازوري قال له : إن النعمان بنى هذا الأمر وإن أحق الناس بمكانه أباؤه (٢) ، فالنعمان إذن قد أدى للدعوة الفاطمية هذا الفضل الذي عرفوه له ، إذ لا يزال علماء الدعوة يعيشون على الفقه الذي وضعه لهم النعمان ، وربما على التأويل الذي ذكره في كتبه .

ولننظر الآن إلى هذه الكتب التي وضعها النعمان لأهل الدعوة ، فيقول ابن خلكان : إن النعمان ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وعمل في المناقب والمثالب كتابا حسنا ، وله ردود على المخالفين ، له رد على أبي حنيفة وعلى مالك والشافعي وعلى ابن سريج ، وكتاب اختلاف الفقهاء يتنصر فيه لأهل البيت ، وله القصيدة الفقهية لقبها بالمنتخب (٣) وسرد الأستاذ إيفانوف مؤلفات القاضي النعمان فإذا بها نحو أربعة وأربعين كتابا بعضها لا يزال يحتفظ به أتباع المذهب وهم طائفة الهرة ، ومنها كتب عشر على بعض أجزاءها ومنها ما فقد ولم يعرف إلا أسماؤه ، ولا تعرف مكتمات أوربة إلا ستة كتب من كتب النعمان هي :

(١) جزء من كتاب شرح الأخبار بمكتبة برلين ، وأحضرت دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

(٢) كتاب دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفي دار الكتب المصرية صورة فتوغرافية منه .

(١) كتاب عيون الأخبار ج ٦ ص ٤١

(٢) السيرة المؤيدية .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦

- (٣) تأويل دعائم الإسلام بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفي مكتبة جامعة فؤاد الأول صورة فتوغرافية منه .
- (٤) أساس التأويل بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .
- (٥) جزء من كتاب المجالس والمساربات بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن وفي مكتبة جامعة فؤاد الأول .
- (٦) كتاب الهمة في اتباع الأئمة بمكتبة مكتب الهند بلندن . وعندي نسخة خطية منه .

ويحفظ أصحاب الدعوة الآن في مكتباتهم الخاصة بالسكتب الآتية :

- (١) افتتاح الدعوة ، وعندي نسخة خطية منه كما تحتفظ مكتبة جامعة فؤاد بصورة منه (٢) كتاب الإيضاح (٣) كتاب الينبوع (٤) مختصر الآثار (٥) كتاب الطهارة (٦) القصيدة المختارة (٧) القصيدة الممتحنة (٨) منهج الفرائض (٩) الرسالة ذات البيان في الرد على ابن قتيبة (١٠) اختلاف أصول المذاهب (١١) كتاب التوحيد والإمامة (١٢) مناقب بني هاشم (١٣) تأويل الرؤيا (١٤) مفاتيح النعمة .

أما كتبه التي لم يعثر عليها وعرفت أسماؤها فهي :

- (١) مختصر الإيضاح (٢) كتاب الأخبار (٣) كتاب الاقتصار (٤) كتاب الاتفاق والافتراق (٥) كتاب المقتصر (٦) كتاب يوم وليلة (٧) كتاب كيفية الصلاة (٨) الرسالة المصرية في الرد على الشافعي (٩) كتاب في الرد على أحمد بن سريج البغدادي (١٠) دامخ الموجز في الرد على العتكي (١١) نهج السبيل إلى معرفة علم التأويل (١٢) حدود المعرفة في تفسير القرآن والتنبيه على التأويل (١٣) كتاب إثبات الحقائق في معرفة توحيد الخالق (١٤) كتاب في الإمامة في أربعة أجزاء (١٥) كتاب التعاقب والانتقاد (١٦) كتاب الدعاة (١٧) كتاب الحلبي والثياب (١٨) كتاب الشروط (١٩) أرجوزة ذات المنن وهي في سيرة الإمام المعز (٢٠) أرجوزة ذات المنن وهي في تاريخ ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد (٢١) كتاب معالم المهدي (٢٢) كتاب منامات الأئمة (٢٣) كتاب التفریع والتعنيف .

هذه هي السكتب التي تركها النعمان بن محمد ، ولعل أهم كتاب خالد له هو كتاب

دعائم الإسلام ، في ذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، وهو الكتاب الذي أمر الظاهر بأن يحفظه الناس وجعل لمن يحفظه مالا جزيلا ، ويشتمل هذا الكتاب على جميع فقه الفاطميين ، فدعائم الإسلام عندهم الولاية والطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد ، وكل فريضة من هذه الفرائض لها أصولها وفروعها وآدابها فهو يتحدث عن ذلك كله بشيء من الإطناب ، ويروى عن كل فريضة ما ورد عنها في القرآن الكريم وفي الأحاديث النبوية وما جاء عن الأئمة ، ومن يقرأ هذا الكتاب ويقارن بين الفقه فيه وبين فقه مالك لا يكاد يجد اختلافا إلا في بعض أمور لا تمس الدين في شيء ، اللهم إلا ما ورد في القسم الخاص بالولاية .

والفصل الخاص الذي في أول الكتاب يتحدث فيه عن الإيمان وجعل الولاية شرطا أساسيا للمؤمن ، أما ما سوى ذلك من أحكام فرائض الدين وسننه والمعاملات وغيرها فلا تختلف عن الأحكام الشرعية عند المالكية . وتظهر قيمة هذا الكتاب عند علماء المذهب - منذ عرف هذا الكتاب - إذا عرفنا أن عالمين من أكبر علمائهم ذكراه في كتبهم واعتمدا عليه ونوها به ، أما العالم الأول فهو أحمد حميد الدين بن عبد الله بن محمد الكرمانى المتوفى ٤١٢ هـ فقد ذكر في مقدمة كتابه «راحة العقل» الكتاب الذى يجب أن تقرأ قبل قراءة راحة العقل ومن هذه الكتب كتاب «دعائم الإسلام» ، والعالم الثانى هو المؤيد فى الدين هبة الله بن موسى الشيرازى المتوفى ٤٧٠ هـ فقد ذكر فى السيرة المؤيدية ، أنه كان يعقد مجلسا خاصا كل يوم خميس يقرأ فيه على السلطان أبى كاليبجار البويهى فصول كتاب دعائم الإسلام . ويعتبر هذا الكتاب الآن من أهم كتب الإسماعيلية بالرغم من أنه فى علم الظاهر ، ويعد من كتبهم السرية التى لا يقربها إلا علماء المذهب فقط .

وقد أتبعه القاضى النعمان بكتاب تأويل دعائم الإسلام واسمه الكامل : كتاب تربية المؤمنين بالتوفيق على حدود باطن علم الدين فى تأويل دعائم الإسلام ، وهو فى ذكر التأويل الباطنى للأحكام والفرائض التى وردت فى كتاب دعائم الإسلام ، وهو من أهم كتب التأويل عند الإسماعيلية ، وعليه اعتمد الدعاة بعد النعمان (١) ، وقد توفى النعمان قبل أن يتم هذا الكتاب .

(١) راجع ما ذكرناه عن ذلك فى مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

ومهما يكن من شيء فالقاضي النعمان يعد من أكبر علماء الدعوة وفقهائها الأعظم ،
وتوفى هذا الرجل بمصر سنة ٣٦٣ هـ

كان هذا الفقيه رأس هذه الأسرة ومؤسسها ، وجاء بعده أبنائه وحفدته
وعرفوا جميعا بالعلم والفقه ، وتولوا الدعوة والقضاء بعده .

٢ — ولد ابنه الأكبر أبو الحسين علي بن النعمان بالقيروان في رجب سنة ٣٢٨ هـ (١)
وقدم مصر مع باقي أفراد الأسرة في صحبة المعز لدين الله ، ولمامات النعمان اشترك علي بن
النعمان في قضاء مصر مع أبي طاهر الذهلي فضلا يقضيان حتى توفى المعز وولى العزيز
وعرض لأبي طاهر القاضي مرض الفالج ، فقوض العزيز الحكم إلى علي بن النعمان
وذلك في صفر سنة ٣٦٦ هـ ، وظل منفردا بالقضاء وافر الحرمة عند الإمام العزيز
حتى أصابته الحمى وهو بالجامع يقضى بين الناس ، فقام من وقته ومضى إلى داره
وأقام عيلا أربعة عشر يوما ، وتوفى يوم الاثنين لست خلون من رجب سنة ٥٣٧٤
وصلى عليه العزيز ، وهو أول من لقب بقاضي القضاة في مصر ، وكان عالما فقيها مثل
أبيه ، وكان شاعرا أورد له الثعالبي شيئا من شعره ، مثل قوله :

ولى صديق ما مسنى عدم منذ وقعت عينه على عدى
أغنى وأقى فما يكلفنى تقبيل كف له ولا قدم
قام بأمرى لما قدمت به ونمت عن حاجتى ولم ينم (٢)
ومن شعره ، وقيل بل من شعر أخيه محمد بن النعمان (٣)

رب خود عرفت فى عرفات سلبتى بحسبها حسناق
حرمت حين أحرمت نوم عيني واستباححت دى بذى اللحظات
وأفاضت مع الحجاج ففاضت من جفونى سوابق العبرات
لم أنل من منى منى النفس حتى خفت بالخييف أن تكون وفاتى (٤)
ومن شعره أيضا :

صديق لى له أدب صداقة مثله نسب
رعى لى فوق ما يرعى وأوجب فوق ما يجب

(١) رفع الإصر ورقة ٨٥

(٢) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٠٥

(٣) يتيمة الدهر للثعالبي ج ١ ص ٣٠٦

(٤) دمية القصر للباخرزى ص ٨٨

فلو نقدت خلافة اهرج عندها الذهب (١)
فمن هذه الأبيات القليلة نستطيع أن ندرك أنه كان شاعرا رقيق الشعر عذب
الديباجة متلاعبا باللفظ، ومن سوء الحظ أن شعره لم يصل إلينا كاملا حتى نستطيع
أن نكون رأيا دقيقا في شاعريته .

ولا أدري أيضا من أين استقى الأستاذ آصف فيظلي أن أبا الحسن علي بن
النعمان كان في مرتبة داعي الدعوة ، فليس لدى من النصوص ما يؤيد ذلك ، بل
الذي ذكره المؤرخون أن أول من أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين هو ولده
الحسين بن علي بن النعمان على نحو ما ستركه بعد .

٣ — ولما توفي علي بن النعمان أرسل الإمام العزيز بالله إلى أبي عبد الله محمد
ابن النعمان يقول : إن القضاء لك من بعد أخيك ولا تخرجه عن هذا البيت (٢)
وهكذا ولي مرتبة قاضي القضاء بعد أخيه، وكان في حياة أخيه يتوب عنه في القضاء ،
فإنه لما سافر العزيز بالله إلى حرب القرامطة سنة ٣٦٨ وسار على في صحبته استخلف
أخاه محمدا في القضاء . ولد محمد بالمغرب سنة ٣٤٥ هـ (٣) وقدم القاهرة مع أفراد
الأسرة ، وما زال بها حتى ولي القضاء وكان جيد المعرفة بالأحكام، متفنتا في علوم
كثيرة، حسن الأدب والدراية بالأخبار والشعر وأيام الناس (٤) . وقدمه الشاعر
عبد الله بن الحسن الجعفرى السمرقندى بقوله :

تعادلت القضاء على أما أبو عبد الإله فلا عدل
وحيد في فضائله غريب خطير في مفاخره جليل
تألق بهجة ومضى اعتزاما كما يتألق السيف الصقيل
ويقضى والسداد له حليف ويعطى والنعام له زميل
لو اختبرت قضاياهم لقالوا يؤيده عليها جبرئيل
إذا رقى المنابر فهو قس وإن حضر المشاهد فالخليل

فلما قرأ محمد بن النعمان هذه القصيدة كتب إلى الشاعر :
قرأنا من قريضك ما يروق بدائع حاكها طبع رقيق

(١) ينمة الدهر ص ٣٠٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ .

(٣) رفع الإصر ص ١٢٩ (٤) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨

كان سطورها روض أنيق توضع بينها مسك فتيق
إذا ما أنشدت أرجت وطابت منازلها بها حتى الطريق
وإننا تائقون إليك فاعلم وأنت إلى زيارتنا تتوق
فواصلنا بها في كل يوم فأنت بكل مكرمة حقيق (١)
ومما يروى له أيضا قوله :

أيا مشبه البدر بدر السماء لسبع وخمس مضت واثنتين
وبأ كامل الحسن في نعمته شغلت فؤادي وأسهرت عيني
فهل لي من مطمع أرتجيه وإلا انصرفت بخفي حنين
ويشممت بي شامت في هواك ويفصح لي ظلت صفر اليدين
فأما منتنت وإما قتلت فأنت القدير على الحاليتين (٢)

وفي سنة ٣٧٥ عقد لابنه عبد العزيز بن محمد بن النعمان على ائمة القائد جوهر الصقلي في مجلس العزيز ، ثم قرر ابنته هذا في نيابته عنه في الأحكام بالقاهرة ومصر ، وعلت منزلة محمد بن النعمان عند الإمام العزيز بالله حتى إنه كان يصعد معه على المنبر (٣) وكان مهيبا محترما ، حتى إن أحدا لم يكن يخاطبه إلا بسيدنا (٤) ويروى ابن خلكان عن ابن زولاق المؤرخ المصرى : « ولم نشاهد بمصر لقاض من القضاة من الرياسة ما شاهدناه لمحمد بن النعمان ولا بلغنا ذلك عن قاض بالعراق ، ووافق ذلك استحتماقا لما فيه من العلم والصيانة والتحفظ وإقامة الحق والهيبة » (٥) فكانت هذه المسكنة التي حظي بها هذا القاضى سببا في أن يتقم عليه الوزير يعقوب بن كلس . ويخيل إلى أن الوزير كان يخشى اتساع نفوذ بنى النعمان فحاول ما استطاع أن يكسر شوكتهم وينقص من قدرهم ، فكان يعتمد إلى أن ينقض أحكام القاضى ، ويروى ابن حجر العسقلانى عن المسبجى أن الوزير ابن كلس كان كثير المعارضة لبنى النعمان في أحكامهم ، (٦) وروى قصة تدل على مدى خوف الوزير من اتساع سلطانهم ونفوذهم وما كان يضمه لهم . وبعد أن توفى العزيز بالله سنة ٣٨٥ وولى الحاكم بأمر الله أقر القاضى محمد بن النعمان على ما بيده من القضاء ، وزادت منزلته عنده

(٢) المصدر نفسه

(٤) الكندى ص ٥٩٤

(٦) رفع الإصر ص ١٢٩

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨

(٣) المصدر نفسه

(٥) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٨

رفعة ، ولكن محمداً تراخمت عليه العلل ، فتوفي ليلة الثلاثاء رابع صفر سنة ٣٩٩ هـ وصلى عليه الحاكم ووقف على دفنه ، وحزن الحاكم لوفاته ، فلم يول أحداً مرتبة القضاء إلا بعد شهر ، فقلد القضاء أبا عبد الله الحسين بن علي بن النعمان .

٤ — ولد أبو عبد الله الحسين بن علي بن النعمان بالمهديّة سنة ٣٥٣ هـ وقدم مع أسرته إلى القاهرة المعزية ، ومهر في علوم الفقه حتى صار أحد أقطاب فقهاء المذهب الفاطمي ، وكان يشوب أحياناً عن عمه محمد بن النعمان في القضاء حتى وليه بعد وفاة عمه . وفي صفر سنة ٣٩١ بينا كان القاضي جالسا في الجامع بمصر يقرأ عليه الفقه أقيمت صلاة العصر ، فقام يؤدى الفريضة ، وبينما هو في الركوع إذ هجم عليه رجل مغربي وضربه بمنجل في رأسه ووجهه ، فحمل القاضي جريحا إلى داره ، وظل حتى اندمل جرحه ، فصار من ذلك اليوم يحرسه عشرون رجلا بالسلاح ، وكان إذا صلى ووقف خلفه الحرس بالسيوف حتى يفرغ من الصلاة ثم يصلى حرسه ، ولا نكاد نسمع أن قاضيا من قضاة المسلمين في التاريخ الإسلامي كله كان يصلى والشرطة تحرسه غير الحسين بن علي بن النعمان . وزاد الحاكم في إكرامه حتى أمر أن يضاف له أرزاق عمه وصلاته وإقطاعاته ، وفوض إليه الخطابة والإمامة بالمساجد الجامعة ، وولاه الدعوة وقرارة مجالس الحكمة التأويلية بالقصر وكتابتها وهو أول قاض أضيفت إليه الدعوة من قضاة الفاطميين^(١) . ويظهر أنه في ذلك الوقت دب ديب الشقاق بين أبنائه هذه الأسرة ، فهذا القاضي طالب ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان ببعض ودائع كانت في الديوان أيام ولاية محمد بن النعمان على القضاء ، وتشدد القاضي في مطالبة ابن عمه بهذه الودائع حتى ألزمه أن يبيع كل ما خلفه أبوه سدا لهذه المطالبة ، ولست في مركز يسمح لي أن أقول أكان تشدد القاضي عن ورع ودين أم عن حسد وغيره وشقاق بين بنى الأعمام . ومهما يكن من شيء فقد صرف هذا القاضي عن رتبة القضاء والدعوة في رمضان سنة ٣٩٤ هـ ، وأمر الحاكم بحبسه ثم ضربت عنقه في مطلع سنة ٣٩٥ هـ وهكذا لقي حتفه بيد الحاكم ، بعد أن كان مكرما لديه مقربا إليه .

٥ — وولى القضاء بعده ابن عمه عبد العزيز بن محمد بن النعمان المولود في أوائل ربيع الأول سنة ٣٥٥ هـ وهو الذي كان ينوب عن أبيه في القضاء ، وكان

(١) الكندي ص ٥٩٦ وما بعدها

علما من علماء الدعوة الفاطمية ينسب إليه كتاب البلاغ الأكبر والناموس الأعظم في أصول الدين ، وهو الكتاب الذي رد عليه القاضي أبو بكر الباقلاني (١) ، وقيل إن هذا الكتاب من تصنيف عمه علي بن النعمان ، ومهما يكن من شيء فالقاضي عبد العزيز بن محمد هو أول من ولي النظر على دار العلم (٢) ، وكان يجلس في الجامع ويقرأ على الناس كتاب جده النعمان ، واختلاف أصول المذاهب ، وبالرغم من أنه خص بمجالسة الحاكم ومسايرته فإنه لم ينجح من نزوات الحاكم وتقلباته ، فعزله عن القضاء سنة ٣٩٨ هـ ثم اعتقله في السنة التالية ثم عفا عنه وأعاد إليه النظر في المظالم وخلع عليه ، وفي سنة ٤٠١ هـ اضطر هذا القاضي إلى أن يهرب من وجه الحاكم هو والقائد الحسين بن جوهر الصقلي ، فصادر الحاكم بيوتهما وحمل كل ما كان فيها ، ثم كتب الحاكم لها بالأمان وخلع عليهما ، ولكنه أمر بعد ذلك بقتلهما في ثاني عشر جمادى الآخرة سنة ٤٠١ هـ .

وبعد هذه المأساة ضعف أمر بني النعمان وساءت حالهم ، ولم تبق لهم تلك السطوة ولا ذلك النفوذ ، حتى إن القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان ولي القضاء سنة ٤١٨ هـ ولكنه لم يمكث في هذه المرتبة سوى عام وشهرين ، وأعيد مرة أخرى إلى القضاء سنة ٤٢٧ هـ وأضيفت إليه الدعوة ويقول عنه المؤيد في الدين : « وتوجهت إلى الموسوم بالقضاء والدعوة ، وهو يومئذ القاسم بن عبد العزيز بن محمد بن النعمان رحمه الله وإيانا ، فرأيت رجلا يصول بلسان نسيه في الصناعة التي رسم بهادون لسان سبيه ، فارغا مثل فؤاد أم موسى عليه السلام ، وفيه جنون يلوح من حركاته وسكناته » (٣) وعزل القاسم عن هذه المراتب سنة ٤٤١ هـ ويحدثنا المؤيد أن نساء بني النعمان تشفعن للقاسم عند أم المستنصر وألحفن عليها بالسؤال لإعادته ، فعيّنه الوزير اليازوري سنة ٤٤٢ هـ نائبا له في الدعوة ، فقبل القاسم أن يكون تابعا لداعي الدعاة بعد أن كان أصلا في هذه الخدمة ، واستمر القاسم بن عبد العزيز نائبا لليازوري في مرتبة الدعوة حتى أقعده المرض ، فأناج ابنه محمد بن القاسم في الدعوة بدله ، واستمر محمد نائبا عن والده في نيابة الدعوة حتى سنة ٤٥٠ هـ . ثم لم نعد نسمع شيئا عن هذه الأسرة التي ظلت زهاء قرن في مكانة رفيعة عالية وفي اتصال

(١) الكندي ص ٦٠٣

(٣) السيرة المؤيدية

(٢) المصدر نفسه

بالأئمة الفاطميين ، كما كان لهذه الأسرة أثرها في بث العقائد الفاطمية في نفوس الناس بما ألفوه من كتب وما ألفوه من مجالس الدعوة ، وبما كانوا يحكمون به في القضايا على حسب فقه المذهب الفاطمي الذي وضعه لهم النعمان بن محمد مؤسس هذه الأسرة .

٢ — يعقوب بن كلس

ومن أشهر علماء الدعوة الفاطمية الذين كان لهم أثر قوي في الحياة العقلية بمصر أبو الفرج يعقوب بن يوسف بن كلس ، ولد ببغداد في أسرة يهودية ونشأ بها حيث درس شيئاً من الكتابة والحساب واتخذ التجارة متكسباً له ، شأن غيره من أبناء جلدته الذين لا يتورعون عن كسب المال بشتى الطرق والوسائل ، ثم رحل مع أبيه إلى الشام في بعض مسائل تجارية فنزل مدينة الرملة وأقام بها فصار وكيلاً للتجار بها ، ثم فر منها إلى مصر . قيل إن سبب ذلك أنه اجتمع قبله مال عجز عن أدائه فهرب (١) وقيل بل أرسله أبوه إلى مصر للتجارة بها (٢) ومهما يكن من شيء فقد وفد يعقوب على مصر إبان ولاية كافور الإخشيدي ، فاستطاع بذكائه وكياسته أن يتصل بكافور ، وأظهر من علو النفس والجد ما جعل كافور يقربه إليه ويثق به حتى اشتمت صلة يعقوب بكافور ، فعرض عليه كافور الإسلام ، فترك يعقوب اليهودية ودخل دين الإسلام ، وذلك يوم الاثنين لثماني عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ٣٥٦ ولزم التعبد ودراسة القرآن ، ورتب لنفسه رجلاً من أهل العلم يدرس له أصول الدين الإسلامي ، وكأنه في ذلك الوقت كان يتطلع إلى ما وصل إليه بعد ذلك ، فعمل على إتمام النقص الذي كان يشعر به ، وهو يهوديته السابقة ، فأراد ألا يرمى بضعف إسلامه إذا بلغ ما تآقت إليه نفسه ، فاجتهد في الدرس والتحصيل حتى بلغ فيهما درجة عالية ، وكأني بالوزير أبي الفضل جعفر بن الفرات المعروف بابن حنزابة وزير كافور عرف ما كان يرمى إليه يعقوب ، فخشى من صلة كافور بهذا اليهودي التاجر ، فإنه بعد أن أسلم يعقوب بن كلس اشتمت مقت ابن حنزابة له ، فنصب له الحياثل لإخراجه من البلاد ، فلما توفي كافور سنة ٣٥٧ قبض ابن الفرات على جميع السكتاب وأصحاب الدواوين ، وطلب يعقوب بن كلس فوجده قد هرب إلى المغرب ، واتصل يعقوب

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٣٣٣

(١) المقرئ ج ٣ ص ٧

بالمعز لدين الله، فقرر به المعز إليه وصحبه معه إلى مصر بعد أن فتحها الفاطميون . وقيل إن ابن كلس هو الذي أطلع المعز على أسرار مصر وسهل له أمر فتحها بعد أن استعصمت على جيوش الفاطميين من قبل . وبعد أن استتب الأمر في مصر للمعز ونقل عاصمة مملكته إلى مدينة القاهرة ، ولي يعقوب بن كلس الخراج وجميع وجوه الأموال والحسبة وذلك في سنة ٣٦٣ هـ ومن مثل ابن كلس يصلح لأمر المال !! فاستمر في عمله حتى سنة ٣٦٥ فقد زادت صلته بالمعز واكتسب حبه وثقته ، فولاه المعز النظر في جميع أموره في قصره ، وبعد قليل توفي المعز لدين الله فقوض العزيز بالله ليعقوب النظر في سائر أموره وجعله وزيراً له وذلك في المحرم ٣٦٧ ، وفي رمضان ٣٦٨ خلع العزيز عليه ، ولقبه بالوزير الأجل ، فكان يعقوب بن كلس أول وزير في مصر الفاطمية ، ويروي ابن زولاق مؤرخ مصر ومعاصر ابن كلس أنه لما خلع على الوزير يعقوب بن كلس وكان مكيناً من العزيز وكنيت حاضراً مجلسه ، فقالت أيتها الوزير : روى الأعمش عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود أنه قال حدثني الصادق رسول الله (ص) أن الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه ، وهذا علو سماوى ، فقال الوزير : ليس الأمر كذلك وإنما أفعالى وتوفيراتى وكفائى ونيايتى ونيتى وحرصى الذى كان يهيجى ويعاب ، وقد مات قوم بمن كان وبقى قوم . وكان هذا القول بحضرة القوم الذين حضروا قراءة السجل الذى خرج من العزيز في ذكر تشريفه ، قال ابن زولاق : فأمسكت ، وقلت : وفق الله الوزير ، إنما رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً صحيحاً . وقمت وخرجت وهو ينظر إلى . وحدثني أبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الحسينى قال : عاتبت الوزير على ما تكلم به ، وقلت : إنما روى حديثاً صحيحاً بجميع طرقه ، وما أراد إلا الخير ، فقال الوزير : خفي عنك ، إنما هذا مثل قول المتنبي في كافور :

ولله سر في عسلاك وإنما كلام العدى ضرب من الهديان
وأجمع الناس على أن ذلك هجو في كافور لأنه أعلمه أنه تقدم بغير سبب ،
وابن زولاق هجاني على لسان صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم ، فما أمكنتى السكوت ،
وكان في نفسى شيء فجعلت كلامه سبباً^(١) . فركب النقص عند يعقوب دفعه إلى أن
يعتقد أن تهمة ابن زولاق هجاء له ، وشعوره يهوديته الأولى وأنه أصبح وزيراً مقرباً

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ٢٢٥ .

إلى إمام من أئمة المسلمين دفعته إلى أن يتعمق في دراسة الدين الإسلامي حتى أصبح علما من أعلام علماء الدعوة الفاطمية . ومع ذلك فنحن لا ندرى السبب الذي من أجله اعتقل الوزير في القصر سنة ٣٧٣ هـ عدة أشهر ، فلمؤرخون لم يذكروا لنا شيئا عن ذلك ، ثم نرى العزيز يطلقه سنة ٣٧٤ هـ ويأمر بحمله على عدة خيول وقرى سجل برده إلى تدبير أمور الدولة مرة أخرى ، ووهبه العزيز خمسمائة غلام من الناشئة وألف غلام من المغاربة ، فآسعت دائرته وعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي السكتب (١)

بجانب هذه المسكاة الرفيعة التي بلغها الوزير يعقوب بن كلس ، وهذا السلطان القوى الواسع الذي أحرزه ، كان هذا الوزير محبا للعلم والعلماء مشجعا لمن طلب العلم ، يفتقد المنح والعطايا للكتاب والشعراء ، ويروي ابن خلسكان : « كان يعقوب يجمع عنده العلماء ، وكان في داره قوم يكتبون القرآن الكريم وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب والطب ويعارضون ويشكلون المصاحف وينقطنها ، وكان ينصب كل يوم خوانا لخاصته من أهل العلم والكتاب وخواص أتباعه (٢) فكان من خاصة جلسائه الحسين بن عبد الرحيم المعروف بالزلازلي مصنف كتاب الأسجاع (٣) والتميمي المقدسي الطيب الذي صنف للوزير كتابا ضخما في عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء ، (٤) وأخذ الوزير علم العروض عن شيخه البديهي وفتحه وهدايته قال الشعر (٥) وبلغ هو نفسه في علم الفقه الفاطمي درجة أهله لأن يؤلف السكتب ويعقد مجالس التأويل ، فقد رتب لنفسه مجلسا في كل ليلة جمعة يقرأ فيه مصنفاة على الناس ، وكان يحضر هذا المجلس القضاة والفقهاء والقراء والنحاة وجميع أرباب الفضائل والعدول وغيرهم من وجوه الدولة (٦) ، كما نصب مجلسا في داره يحضره في كل يوم ثلاثاء الفقهاء والمتكلمون وأهل الجدل للمناظرة بين يديه (٧) فرغايته للعلم والعلماء ساعدته على أن يؤلف هذه السكتب التي قرأها على الناس والتي منها كما ذكر ياقوت (٨)

(١) المقرئى ج ٣ ص ٨ (٢) ابن خلسكان ج ٢ ص ٣٣٤

(٣) ابن خلسكان ج ٢ ص ٣٣٤ (٤) أخبار الحكماء للقفطى ص ٧٤

(٥) الإشارة إلى من نال الوزارة ض ٢٢ (٦) ابن خلسكان ج ٢ ص ٣٣٤

(٧) المقرئى ج ٢ ص ٣٣٤ .

(٨) معجم الأدباء ج ١٠ ص ١١٨ ط دار المأمون

(١) كتاب في القراءات (٢) كتاب في علم الأبدان وصلاتها (٣) كتاب في الفقه مما سمعه من المعز والعزير (٤) كتاب في الأديان وهو في الفقه (٥) مختصر الفقه وهو المعروف بالرسالة الوزيرية (٦) كتاب في آداب رسول الله صلى الله عليه وسلم . هذه بعض الكتب التي ألفها هذا الوزير . ويقول إيقانوف إنها فقدت جميعها ولم يبق منها إلا الرسالة الوزيرية في مختصر الفقه وهو الكتاب الذي طلب الإمام الظاهر إلى الناس أن يحفظوه ، وشجع على ذلك بترتيب أموال لمن حفظه (١) ويحدثنا المقرئ أن الناس كانوا يقتنون بكتابه في الفقه ، ودرس فيه الفقهاء بجامع مصر ، وأن العزيز بالله أجرى لجماعة فقهاء كانوا يحضرون مجلس الوزير أرزاق كل شهر تكفيهم (٢) ، وقد ذكرنا أن هذا الوزير هو أول من جعل من الجامع الأزهر جامعة علمية ، ورتب لعلماها الأرزاق ، معنى هذا كله أن الوزير يعقوب بن كلس رعى العلم والعلماء ، فأتسعت بفضل الثقافة ، وازداد الإقبال على العلم . وكذلك لقي الشعر على يديه التشجيع الذي لقيه العلم ، فقد كان الوزير بعد أن ينتهي من مجالسه العلمية يأذن للشعراء في إنشاده مدائحهم فيه (٣) وكان يعقد عليهم الهبات والعطايا ، ولعل أكثر الشعراء مدحا له هو الشاعر أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكي المنبوز بأبي الرعمق وعبدالله بن محمد بن أبي الجوع ، فن قول ابن أبي الجوع وقد مرض الوزير من علة أصابت يده :

يد الوزير هي الدنيا فإن أمت	رأيت في كل شيء ذلك الأما
تأمل الملك وانظر فرط علته	من أجله ، وأسأل القرطاس والقلم
وشاهد البيض في الأغهاد هائمة	إلى العدى وكثيرا ما روين دما
وأنفس الناس بالشكوى قد اتصلت	كأنما أشعرت من أجله سقما
هل ينهض المجهد إلا أن يؤيده	ساق يقدم في إنهاضه قدما
لولا العزيز وآراء الوزير معسا	تحيفتنا خطوط تشعب الأما
فقل لهذا وهذا أنتما شرف	لا أوهن الله ركنيه ولا انهتما
كلا كما لم يزل في الصالحات يدا	مبسوطة ولسانا ناطقا وفا
ولا أصابكما أحداث دهر كما	ولا طوى لسكنا ما عشتما علما
ولا انمحت عنك يامولاي عاقية	فقد محوت بما أوليتني العدا

(٢) خطط المقرئ ج ٣ ص ٩ .

(٤) المصدر السابق

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ١٦٩ .

(٣) المصدر السابق

ومن قول أبي الرقعمق :

إن يعقوب قد أفاد وأقنى وأعاد الندى وأغنى الضعيفا
سل سيفاً من البصيرة والرأى ي فأغناه أن يسل السيوفاً
بأدلاً للعزير دون حماءه مهجة حرة ورأيا حصيفاً
ما رأيتاه قط إلا رأيتا خلقا طاهرا وفعلا شريفا
ورأيتا قرما كبيرا هماماً منعا مفضلا رحيا رءوفا (١)

ووجد بين شعراء مصر في ذلك الوقت من كان يهجو الوزير ابن كلس، ويحدثنا ابن الأثير أن الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي هجا يعقوب بن كلس وهجا كاتب الإيضاء أبا نصر عبد الله الحسين القيرواني بقوله :

قل لأبي نصر صاحب القصر والمتأقنى لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفن منه بحسن الثناء والذكر
واعط أو امنع ولا تخف أحدا فصاحب القصر ليس في القصر
وليس يدرى ما ذا يراد به وهو إذا ما درى فما يدرى

فشكاه ابن كلس إلى الإمام العزير وأنشده الشعر ، فقال له : هذا شيء اشتركنا فيه في الهجاء ، فشاركني في العفو عنه ، ثم قال هذا الشاعر أيضا وعرض بالفضل القائد :

تنصر فالتنصر دين حق عليه زمانتنا هذا يدل
وقل بثلاثة عزوا وجلوا وعطل ما سواهم فهو عطل
فيعقوب الوزير أب وهذا البعير ابن وروح القدس فضل
فشكاه يعقوب إلى العزير فامتعض منه إلا أنه قال : اعف عنه . فعفا عنه ،
ثم دخل الوزير على العزير فقال له : لم يبق للعفو عن هذا معي وفيه غض من
السياسة ونقض لهيبة الملك ، فإنه قد ذكرك وذكرني وذكر ابن زبارج نديمك
وسبك بقوله :

زبارجي نديم وكلس وزير

نعم على قدر المكا ب يصلح الساجور

فغضب العزير على هذا الشاعر وأمر بالقبض عليه ، ثم بدا للعزير إطلاقه فأرسل

يستدعيه ، وكان للوزير عين في القصر فأخبره بذلك ، فأمر بقتل الشاعر ، فقتل (١) وهكذا كان لهذا الوزير أعداء كما كان له أنصار ومحبون ، وقد حزن الناس حين ابتدأت علته في الحادى والعشرين من شوال سنة ٣٨٠ هـ ونزل إليه العزيز بالله يعودده وقال له : « وددت أنك تباع فأبتاعك بمالى أو تفدى فأفديك بولدى » (٢). وتوفى يعقوب بن كلس ليلة الأحد لخمس خلون من ذى الحجة سنة ٣٨٠ هـ واجتمع الناس فيما بين القصر وداره لتشيعه إلى مقره الأخير ، وخرج العزيز من القصر على بغلة ، والناس يمشون بين يديه وخلفه بغير مظلة والحزن ظاهر عليه ، وأقام ثلاثا لا يأكل على ما نذته ولا يحضرها من عاداته الحضور ، وأقام الناس عند قبر الوزير شهرا ، وغدا الشعراء إلى قبره فرثاه مائة شاعر أجزوا كلهم . فهذا كله يدل على أنه كان للوزير مكانة في نفس إمامه وفي نفوس معاصريه جميعا ، وذلك لما عرف عنه من إنصافه وكرمه وعلمه ، وما أظهره من شدة تمسكه بأهداب الدين الإسلامى على مذهب القوم .

٣ — المؤيد في الدين داعى الدعوة (٣)

وهل نستطيع أن نتحدث عن علماء الدعوة الفاطمية دون أن نتحدث عن هذا العالم الذى بلغت علوم الدعوة الذروة على يديه ، ذلك هو المؤيد فى الدين داعى الدعوة الذى عرف فى تاريخ الأدب العربى بمناظرته مع أبى العلاء المعرى فى تحريم أكل اللحم ، والذى أراد الأستاذ مرجوليوث المستشرق الإنجليزى أن يعرف شيئا عن حياته فخانه التوفيق واكتفى بذكر اسمه دون حياته ، فبالرغم من أن المؤيد لم يكن مصرى المولد والنشأة فقد وفد على مصر ، وأقام بها زهاء ثلاثين عاما ، واستمع له جمهرة من المصريين ، أخذوا عنه علوم الدعوة فأثر فى الحياة العقلية المصرية بمبادئه التى كان يتنادى بها ، وفى مصر أخذ عنه ملك بن مالك قاضى الصليحيين باليمن فنقلت عن مصر علوم الدعوة إلى اليمن وأصبح اليمنيون يدينون للمؤيد بالاستاذية فى علوم الدعوة ، وفى مصر أنشد المؤيد أكثر قصائد ديوانه ، وألقى مجالسه التى بلغت

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٨ (٢) المقرئ ج ٣ ص ٩
(٣) راجع « ديوان المؤيد داعى الدعوة » وكتاب « السيرة المؤيدية » — طبع شركة
الكاتب المصرى .

الائمة مجلس ، فلا غرابة أن نتحدث عنه في كتابنا هذا ، وهو كتاب خاص بمصر .
اسمه هبة الله بن أبي عمران موسى بن داود الشيرازي ، ولد بشيراز في العشر
الآخيرة من القرن الرابع من الهجرة في أسرة اتخذت العقيدة الفاطمية مذهبا لها ،
وكان أبوه حجة جزيرة فارس أيام الحاكم الفاطمي ، فنشأ ابنه هبة الله ليأخذ
مكاتبه في الدعوة في هذا الأقليم ، وأخذ منذ نشأته بالإمام بكل شيء يخص
الدعوة وأسرارها ، وكاتب الحاكم بأمر الله بأن يولي ابنه هبة الله أمر فارس من
بعده ، وبالفعل أصبح هبة الله حجة فارس بعد أبيه ، وما لبث أن أصبح يملك
نفوس أتباعه فانقادوا له الانقياد كله ، فكانوا يفشون إليه أسرارهم الخاصة حتى
مع أهل بيتهم ، ويضحون في سبيله بأراوحهم ، وكثر أتباعه حتى خشى السلطان
أبو كاليبجار البويهى سطوته ونفوذه ، وهم أن يتفسيه مرارا من شيراز ، ولسكنه كان
يخاف ثورة أتباع المؤيد ، وبلغت كراهية السلطان أبي كاليبجار للمؤيد أنه كان يكره
سماع اسمه في مجالسه ، ولكن المؤيد في الدين احتمال حتى استطاع أن يتصل بأبي
كاليبجار ، وأن يجعل السلطان يستمع إليه وأن يعقد مجالس المتأطرة بين المؤيد
وعلماء المعتزلة والشيعة وأهل السنة ، فكان المؤيد يبرز على خصومه ومناظريه
فاضطر السلطان أمام قوة بيبانه ودماغ حجته إلى أن يخضع للمؤيد ، بل لأن يدخل
في دعوته وأن يعقد مجلسا خاصا يلقي فيه المؤيد على السلطان شيئا من علوم أهل
البيت والفقهاء الفاطمي من كتاب دعائم الإسلام للقاضي النعمان . كان ذلك كله سببا
في غضب جمهور أهل السنة في فارس ولا سيما القضاة والعلماء ، فأخذوا يوغرون
صدور المقرئين من أبي كاليبجار وندمائه على المؤيد ، واتهموا فرصة واتهم للإيقاع
به ، ذلك أن المؤيد زار أتباعه في مدينة الأهواز فوجد مسجدا قديما تهدمت
جدرانه فأمر شيعته بتجديده ونقش على محرابه بالذهب أسماء الأئمة الفاطميين
وطلب من نقبائه الأذان فيه ، دبحي على خير العمل ، أذان الشيعة ، وخطب يوم
الجمعة باسم المستنصر الفاطمي ، فجهر بالدعوة الفاطمية دون خشية وأعلن عصيانه
في بلد يدين للعباسيين ، مما جعل قاضي الأهواز يرسل إلى الخليفة العباسي ببغداد
ينعى الدولة العباسية وضياع خلافتها على يد المؤيد في الدين كما ثار أهل السنة على
أبي كاليبجار وجاء الوزير العباسي ابن المسلمة موفدا من قبل العباسيين للقبض على
المؤيد ، وكان أبو كاليبجار إذ ذاك يرنو إلى ملك بغداد ، فكان بين عاملين إما

ضياح هذه الفرصة من يده في سبيل رعاية ذمة المؤيد، وإما أن يضحى بالمؤيد في سبيل أطاعه. وأدرك المؤيد تردد أبي كاليبجار في هذا الأمر، ولا سيما بعد أن قطع السلطان مجالسه الليلية مع المؤيد، ورغبته عن لقائه. فلم يجد المؤيد بدامن النزوح عن وطنه، فسار مخفيا متجنباً الطرق العامة، سالكا البراري والقفار حتى وصل إلى مصر سنة ٤٣٧ هـ. جاء مصر يحدوه الأمل فيما سيكون عليه شأنه من جاه وسلطان وتوقير، لأنه خدم دعوته بما لم يخدمها به أحد من الدعاة قبله، وقام بأمرها حق قيام، ولكنه من جهة أخرى كان يعلم أن الأمر في مصر ليس بيد إمامه المستنصر، بل كانت السلطة كلها بيد أم المستنصر ووكلائها أمثال التستري واليازوري وغيرهما. ويصرح المؤيد بذلك في سيرته بقوله: «بلغت بشق النفس الياب الطاهر، مترجحا بين أمل وبأس، ومتعقبا للمتقى ما يلقاني من طرفي إيجاش وإيناس، فأما الأمل فن جهة خدمة ما خدم مثلها غيري، حداني حاديا، وناداني بالأهل والمرحب مناديا. وأما اليأس فن حيث علمت أن المقصود شمس توارت بالحجاب، ووجه نهار تبرقع بالسحاب، وأن المسافة لعلها تقذفني من الإضاءة في يم. وتوويني من حيث ارادت غنما إلى غرم... أدخلوني من باب القاهرة المعزية إلى قصر الخلافة، عمرها الله تعالى — فاستلمت على جاري العادة في مثله الأبواب. ولحمت الثريا ترابا تحت قدمي إذ ترشفت ذاك التراب، وأجلسوني هنيهة لأفبق من غشمية الهيبية التي ملأت جوانحي لما غشيت المسرة بمشاهدة ذلك المقام قلبي وجوارحي، ثم أدخلوني إلى الوزير المعروف بالفلاحى — رحمه الله — فرأيت شيخا عليه من الوقار مسحة، ومن الإنسانية سمة، فأدنى وقرب، وأكرم ورحب، وأخرجت، فأخذوني إلى دويرة كانت فرشت لي هي من الكرامة في الدرجة الوسطى من الحال، لا بالإكثار ولا بالإقلال... وهكذا استقر بمصر واتصل برجالها وحضر مجالس الدعوة فيها، ولكن الوشايات لم تنقطع عنه، والدمائس تحاك حبالها حوله، فكان يقربه الوزراء حينما ويبعدونه حينما آخر، فعاش في مصر بين الرضا والغضب، وكثيرا ما فكر في الرحيل عن مصر، ولكن القوم لم يسمحوا له بالرحيل، وكان يأمل أن يولى مرتبة داعي الدعوة ولكنها كانت تفر منه كلما حاول الإمساك بها، وأخيرا عينه الوزير اليازوري رئيسا لديوان الإنشاء، وزاد في معاشه، فتحسنت حاله، فظل في

هذا العمل إلى أن علم بقيام طغرلبك التركياني لامتلاك بغداد . وهنا تظهر لنا موهبة المؤيد وتوقد ذكائه ، إذ أدرك أن التركيانية خطر على الدولة الفاطمية وأنه إذا تم أمر بغداد لطغرلبك فإنه لا ينمئى عن محاربة أملاك الفاطميين في بلاد الشام وأعلى الجزيرة ، فأسرع المؤيد في الدين في دره هذا الخطر عن أملاك إمامه ، فكتب رجال طغرلبك يستميلهم إلى الدعوة الفاطمية ، كما راسل البساسيري وغيره من رجال العباسيين الذين يحقدون على التركيانية ويخشون تملكهم للبلاد ، ووعد هؤلاء بإمدادات الفاطميين إن قاوموا طغرلبك ، أما البساسيري ورجاله فرحبوا بالعمل باسم الفاطميين على حين لم يستجيب رجال طغرلبك . فأيقن المؤيد أن الحرب لاشك ناشبة بين الفاطميين والتركيانية ، فنشط للدعوة بين الوزراء ورجال مصر لحرب طغرلبك ، ووجدت دعوته قبولا منهم وأعدت مصر الخلع والسلاح والعتاد والأموال ، وأنفقت الدولة على هذه الحملة أموالا لا حصى ذكرها المؤرخون في كتبهم ، وهى الأموال التى أدت إلى ضعف مصر اقتصاديا وجرتها إلى ما عرف بالشدة العظمى ، وطلب من المؤيد أن يكون على رأس هذه القافلة لتسليم هذه الذخائر إلى البساسيري . فاعتذر المؤيد ولكن ، المستنصر الفاطمى أصدر أمره بأن يكون المؤيد على رأس الركب فلم يسمع المؤيد إلا الخضوع لأمر إمامه . وطلب المؤيد لأن يلبس خلع الوزارة فأبى وأمعن فى الإباء ، وهكذا بدأ المؤيد حياة جديدة . حياة الرجل العسكرى وحياة السياسى الداهية ، فقد خرج من مصر وليس معه جندى واحد وإنما كانت معه ذخائر وأموال وعتاد حربى ، ورسم له أن يصطنع من الأعراب وأمراء البادية ومن العرب والأكراد من يشاء ، وبغيرهم جميعا بالأموال والخلع والألقاب من قبل الفاطميين ، فإذا كانت إنجلترا تعترف لأحد أبنائها وهو « لورنس » بمخدماته فى تأليب العرب على العثمانيين فى الحرب العالمية الأولى ، وتشيد بذكر أعماله وتمجد بطولته ، فكيف ينسى المصريون المؤيد فى الدين وقيامه بما عهد إليه من حفظ ممتلكات الفاطميين ، بل ما أداه من نشر الدعوة الفاطمية فى بلاد لم تذكر الدعوة فيها من قبل ، وفى إعادة بلاد أخرى كانت خرجت عن الدعوة وسلطانها . لقد وصف لنا المؤيد فى سيرته حركاته ومكاتباته مع أمراء العرب ، وكيف استلهم جميعا للنهوض معه فى حرب التركيانية ومساعدته فى طردهم من العراق ، حتى تكاثر الأناصر حوله ، وسارع أمراء الكوفة وواسط وحلب إلى الدعوة باسم الإمام المستنصر ، فاستطاع المؤيد بما تجمع حوله أن ينتصر

على طغربك في موقعة سنجار التي ذكرها الشاعر ابن حيوس في قصيدة منها :

عجبت لمدعي الآفاق ملكا وغايته ببغداد الركون
وبهذا النصر الذي أحرزه المؤيد دانت له الموصل والجزيرة وديار بكر، ولكن
جموعه كانت تضم نفوساً متباغضة متشاحنة فسرعان مادب بينهما النفور وحل الشقاق
وتفرق عنه أكثر الأمراء حسدا منهم لمن قربهم المؤيد إليه ، ووصف المؤيد حالهم
بأنه كان بين ذئاب تتخادش وكلاب تتهارش . . . وكان يحاول تهدئتهم وإصلاح
ما بينهم فلم يوفق ، وعلم طغربك بحالهم فأسرع إليهم وهزمهم ، وكان المؤيد
إذذاك في الرحبة ، فأصطنع الصبر والثبات وأخذ يبحث من تفرقوا عنه إلى الرجوع
إليه ويعددهم ويمنيهم ، ولكنهما كانت صيحة في واد ، وخشى أن يدركه العدو
وهو حى ، فأثر أن ينسحب إلى حلب واتخذها مقرا لقيادته ، وكانت حلب في يد
المرداسيين الذين قطعوا خطبة الفاطميين ، فزال المؤيد بهم حتى سلوا بلدهم إلى الوالى
الذى أرسله المستنصر الفاطمى ، وفي حلب استطاع المؤيد أن يتصل بآبراهيم بن
يئال وأغراه أن يخالف طغربك ووعدته بالتلقيب والخلع الفاطمية ، فكانت مؤامرة
ناجحة إذ انفصل إبراهيم بن يئال عن جيوش طغربك وخرج هذا لمخاربه فانتهر
المؤيد هذه الفرصة ، وأمر البساسيرى بالمسير إلى بغداد فتم له ذلك سنة ٤٥٠ هـ
ودعى على منابرها باسم المستنصر الفاطمى لمدة عام ، ولو كان وزراء مصر استمعوا
لنصائح المؤيد لتغير وجه التاريخ الإسلامى ، وكانت هذه الحركة سببا في بحوالفة
العباسية منذ دخلت جيوش البساسيرى بغداد سنة ٤٥٠ هـ ، ولكن المؤيد عاد إلى
مصر دون أن يحفل به أحد ، ولم تحتفل مصر بامتلاك بغداد فلم ينفخ فيها بوق واحد
ولم يقرع فيها طبل واحد ، ولا غرابة في ذلك فقد كان الوزير فى مصر إذذاك هو
الوزير المهرى الذى لم ينس ما فعله الفاطميون بأجداده وآبائه . وهكذا أضاع
وزراء مصر تلك الفرصة الذهبية التى هياها لهم المؤيد بدهائه وسياسته .

عاد المؤيد إلى مصر فولى مرتبة داعى الدعاة ، وبذلك أصبح فى المرتبة التى شقى
بالتطلع إليها ردحا طويلا من الزمان ، ولكنه لم يمكث فى تلك المرتبة طويلا إذ
خشى الوزراء مكاتته ونفوذه وسلطانه ، فتنفى مرة من مصر ، ثم أعيد إليها وولى مرتبة
الدعوة ، ثم عزل عنها وولى ديوان الإنشاء مرة ثانية . وهكذا عاش حتى توفى ٤٧٠ هـ
بالقاهرة ودفن فى دار العلم بجوار القصر ، وصلى عليه الإمام المستنصر نفسه .

كان المؤيد في الدين من أكبر علماء عصره ، وتدلنا كتيبه التي وصلت إلينا على أنه كان واسع الثقافة ملما للمأما تماما بجميع العلوم التي عرفت في العالم الإسلامي إذ ذاك ، قوى الحججة في مناظراته وجداله مع مخالفيه ، وقد صدق أبو العلاء المعري حين وصفه بقوله : « وسيدنا الرئيس الأجل المؤيد في الدين ، لازالت حججته باهرة ودولته عالية . . . ولو ناظر أرسطاليس لجاز أن يفحمه أو أفلاطون لتبذ حججه خلفه (١) ويكفي أن ننظر إلى مناظرات المؤيد مع المعري لتدرك كيف كان شيخ المعرة يتهرب من هذه المناظرة ، وأنه كان يخشى قوة منطق المؤيد وحججته مع فصاحة بيانه ، فاعترف له بالتفوق في الجدل ، وأنه ورث علم الأولين .

وضع المؤيد في الدين عدة كتب أهمها :

١ — المجالس المؤيدية وهو أكبر كتاب وصل إلينا في الدعوة الفاطمية إذ يضم هذا الكتاب ثمانمائة مجلس من مجالس الدعوة التي كان يلقيها المؤيد ، ويثبت من هذا الكتاب أن الدعوة وعلومها بلغت ذروتها على يد المؤيد ، ويعد هذا الكتاب من أقوم الكتب عند طائفة البهرة ولا يقربه إلا من بلغ مرتبه خاصة من مراتب دعوتهم . وقد رتب حاتم بن إبراهيم الحامدي الداعي اليميني هذا الكتاب وقسمه إلى أبواب حسب موضوعاته ، وسمى الكتاب « جامع الحقائق » ، وإذا نظرنا في كتب الدعوة لدعاة اليمن ، نرى أن جميع الدعاة كانوا يتمتظون من المجالس المؤيدية ويستشهدون بها . ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب القيم ، فهو موسوعة في علوم الدعوة الفاطمية ، وفي هذه المجالس نرى مناظرات المؤيد وردة على المخالفين .

٢ — ديوان المؤيد في الدين : كان المؤيد شاعرا كما كان أدبيا وعالما وقد وصل إلينا ديوانه فإذا به مجموعة من قصائده التي أنشدها في مدح الأئمة ، وفي هذا الديوان نرى تطور حياة المؤيد ووصف أحواله وإشارات إلى جهوده ، كما ملأ قصائده بالعقائد الفاطمية ومصطلحاتها ، وطبع هذا الديوان بشركة الكتاب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

٣ — السيرة المؤيدية ، وأهل هذا الكتاب أقوم كتاب تاريخي يفصل لنا الحياة السياسية والاجتماعية في فارس والعراق ومصر في المدة من سنة ٤٢٩ حتى سنة ٤٥٠

(١) أنظر الرسالة الثانية من الرسائل التي دارت بين المؤيد في الدين وأبي العلاء المعري في معجم الأدباء ج ٣ ص ٢٠٢ طبعة دار المأمون .

كما يعد سجلا للوثائق التي تبودلت بين المؤيد وأمرأه العرب ، وبينه وبين الوزراء المصريين إبان الثورة التي عرفت في التاريخ باسم ثورة البساسيري ، وكذلك لم أجد كتابا من كتب التاريخ تحدث عن هذه الثورة كما تحدث عنها المؤيد ، ولا غرو في ذلك إذ كان المؤيد سبب هذه الثورة ومدبرها والمشرف عليها . وقد طبع هذا الكتاب بشركة الكاتب المصري في سلسلة مخطوطات الفاطميين .

وللمؤيد غير هذه الكتب كتاب شرح المعاد ، وكتاب الإيضاح والتبصير في فضل يوم الغدير ، وكتاب الابتداء والانتهاه وكتاب تأويل الأرواح وكتاب نهج العبادة وكتاب المسألة والجواب ، وترجم إلى اللغة الفارسية كتاب أساس التأويل للقاضي النعمان وهو في تأويل قصص الأنبياء .

ويعتبر المؤيد أستاذ الدعوة في اليمن والهند . فعنه أخذ القاضي ملك بن مالك علوم الدعوة وعاد إلى اليمن يلقي على المستجيبين ما تلقاه عن المؤيد . كما يعد أستاذ ناصري خسرو الشاعر الفارسي المعروف ، فقد ذكره ناصر في أشعاره ووصف بحالسه . وهكذا كان للمؤيد أثر في الحياة السياسية والعقلية والأدبية .

الباب الثاني

في الحياة العلمية

بعد عصر الفاطميين من أزهى عصور مصر الإسلامية من الناحية العلمية ، فقد بلغت الحياة العلمية في مصر الفاطمية درجة كبيرة من النمو والازدهار لكثرة العلماء الذين كانوا في مصر أو وفدوا عليها ، وكثرة المؤلفات في كل فن من فنون العلم . وقد ذكرنا أن أئمة الدعوة الفاطمية كانوا يقربون العلماء ويشجعون الطلاب ، وأنهم أوقفوا أرزاقاً ثابتة للشغلتين بالعلم حتى يتهاها لهم التفريغ لما أهلوا أنفسهم له ، فكان الفاطميون على هذا النحو من الاهتمام بشئون العلماء أسبق مما عليه كثير من الدول التي لم تعرف للعلماء قدرهم ولم توفهم حقهم ، فشغل العلماء بأمر أرزاقهم أولاً ، فركدت الحركة العلمية عند هذه الدول . وقد رأينا كيف اهتم الفاطميون بإنشاء خزائن المكتب في القصر وفي دار العلم حتى يتسنى للعلماء أن يطالعوا ويستفيدوا مما تركه السابقون ، وبلغ من تشجيع الفاطميين لطلاب العلم أن القاضي النعمان سمع إمامه المعز يقول : وإنا لنسر بمن نراه من أوليائنا يطلب العلم والحكمة ويرغب في الخير كما نسر بذلك في الولد . (١) ففي ظل هؤلاء الأئمة ، وعلى ضوء ما ذكره الإمام المعز ، وجد العلماء ملاذاً يؤويهم من العوز ، ويحميهم من الفاقة ، بل وجدوا ما يشجعهم على مواصلة البحث والدرس والتأليف .

ويذكر المؤرخون عدداً من العلماء الذين وفدوا على مصر الفاطمية ووجدوا من التشجيع ما جعلهم يذكرون مصر والأئمة بالخير . فيحدثنا ابن أبي أصيبعة أنه لما وصل المهذب بن النقاش — وكان فاضلاً في صناعة الطب — إلى الشام من بغداد أقام بدمشق مدة ولم يحصل له بها ما يقوم بكفايته وسمع بالديار المصرية وإنعام الخلفاء فيها وكرمهم وإحسانهم إلى من يقصدهم ولا سيما من أرباب العلم والفضل ، فترجعه إلى مصر واتصل بالقاضي الأجل السيد أبي المنصور عبد الله بن الشيخ السيد

(١) المجالس والمسائرات (ورقة ٤٦)

أبي الحسن على فوهب له الأموال وأقام في مصر مكرماً (٢). ونردد ما ذكره المؤرخون عن القاضي عبد الوهاب بن علي أحد فقهاء المالكية المجتهدين في المذهب حتى قال عنه صاحب تاريخ بغداد: ولم أر في المالكية أفقه منه، إذ وفد على مصر لضيق حاله ببغداد، وأكرمه المصريون بالرغم من تدميره بمذهب يخالف ما هم عليه، حتى تمول وحسنت حاله جداً، ولكن أدركه المرض، وكان يقول وهو في مرضه: لا إله إلا الله عندما عشناً متغماً، وتوفي بمصر سنة ٤٢٢ هـ. وسنذكر غير هذين العالمين في الفصول التالية.

فالقاهرة المعزية أصبحت مطمع أنظار العلماء ومحط رجال الطلاب. وفي العصر الفاطمي استطاعت مصر أن تنتزع زعامة العالم الإسلامي في الحياة العلمية، وأن تبسط آراءها وتعاليمها على البلدان الأخرى، حتى نرى بعض العلماء الذين كانوا ينتمون على الشيعة عامة والفاطميين خاصة يفدون على مصر ويتأثرون ببعض الآراء التي كانت سائدة فيها. وأقرب مثل نقدمه لذلك هو الإمام الغزالي، فقد هاجم الفاطميين في كتبه القسطاس والمنقذ من الضلال والمستظهرى أو الرد على الباطنية وغيرها من كتبه، ولكنه وفد على مصر في أواخر حياته ووضع كتابه مشكاة الأنوار متأثراً ببعض العقائد الفاطمية، ولا سيما نظريتهم في ترتيب العقول.

ويخيل إلى أن السبب الذي من أجله شجع أئمة الفاطميين العلم والعلماء أن المذهب الفاطمي نفسه يقوم على العلم والعقل قبل كل شيء، ومن طريق العلم وبالجدل والمناظرات استطاعت الدعوة الفاطمية أن تنتشر في العالم الإسلامي. واستطاع الفاطميون أن يكونوا دولتهم العقيدة، فعقيدة الفاطميين كانت تقوم على العمل والعلم، فالعمل هو الظاهر والعلم هو الباطن، وعلم الباطن يقوم على استخدام العقل ومطابقة المحسوس للمعقول، فلا غرو أن رأينا الفاطميين يشجعون العلم الذي هو دعامة من دعائم العقيدة الفاطمية. وقد أثرت الفلسفة اليونانية والمذاهب الدينية القديمة في أرباب هذه الدعوة وعلمائها على نحو ما رأيناه في الباب السابق من هذا الكتاب، فسكان الفاطميون يهتمون بهذه الألوان من الدراسة الفلسفية والمذهبية، إما لإدخال بعض عناصر منها في عقيدتهم وآرائهم أو للرد عليها وتهجين

(٢) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٠٩ (طبعة مصر سنة ١٨٨٢).

هذه الآراء القديمة ، فعل ذلك الفاطميون في الوقت الذي كان فيه أهل السنة في البلاد الأخرى يرمون من يشتغل بالفلسفة بالزندقة والإلحاد ، فالفكر اليوناني وجد ترحيبا من الفاطميين وتوسعوا في دراسته ، وقد لاحظ المستشرق أوليري ذلك فقال : « إن الحركة الفاطمية بأكملها أخذت مكانتها في جو مشبع بالمكر الهليني ، وإحياء دراسة المواد اليونانية هو الإلهام المباشر لطائفة الإسماعيلية (١) . وسنرى في الفصل التالي مبلغ اهتمام الفاطميين بالعلوم الفلسفية واصطفاها لهم لسلك من عرف بالاشتغال بفرع من فروع الفلسفة. فقد قيل إن العزيز بالله كاتب جبرائيل بن بختيشوع واستدعاه إلى مصر فاعتذر (٢) ، وأرسل الحاكم بأمر الله إلى ابن الهيثم يستدعيه فأجاب ، وكتب الوزير الفلاحى إلى والى حلب وأعمالها بحمل أبى العلاء المعرى إلى مصر ليبنى له دار علم يكون متقدما فيها ، وسمح بخراج معرة النعمان له في حياته وبعده ، وان والى حلب سار إلى معرة النعمان واجتمع بأبى العلاء وقرأ السجل عاياه فاستمعه ، وكتب إلى الوزير الفلاحى يستعفيه من ذلك فأعفاه . وتسامح الفاطميون مع العلماء الذين لم يعتقدوا مذهبهم ، بل كانوا متسامحين مع أصحاب الأديان غير الإسلامية ، فأبو الفتح منصور بن مقشّر كان طبيبا للعزيز والحاكم بأمر الله ومن المقربين إليهما ، وبمد وفاته استطب الحاكم إسحق بن إبراهيم بن نسطاس وهما من أهل الذمة ، ولكن الفاطميين أغدقوا عليهما وعلى غيرهما من أصحاب الفلسفة الأموال والخنازق والألقاب ، وحفظ لنا التاريخ أسماء عدد كبير منهم .

وقد ذكرنا أن الفاطميين كان لهم دعاة في جميع أرجاء البلاد الإسلامية يناقشون ويجادلون أصحاب المذاهب الأخرى ، ورأينا كيف اتفد عدد كبير من المسلمين حول هؤلاء الدعاة وأخذوا عنهم علوم الدعوة ، فنستطيع إذن أن ندرك في سهولة ويسر أن هذه الدعوة الفاطمية لم تؤثر في مصر فحسب بل أثرت في جميع البلاد الإسلامية ، وتبع ذلك أن الآراء اليونانية وغيرها من المذاهب القديمة من إسرائيلية ومسيحية وزرادشتية ووثنية وهى التى صبغها الفاطميون بالصبغة الإسلامية قد انتشرت في العالم الإسلامى على أيدى دعاة الفاطميين . وإذا درسنا الحياة العقائدية في العالم الإسلامى في القرن الرابع وما بعده رأينا أكثر العلماء كانوا متأثرين بهذه

(١) O'Leary : Hist. of the Fatimid Khalifa P. 140 (London 1923)

(٢) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٠٥ .

الآراء التي بثها دعاة الفاطميين ، ونرى بعض الفلاسفة الذين نبغوا في القرن الرابع وما بعده كانوا على صلة قريبة أو بعيدة من العقائد الفاطمية أو العقائد الشيعية عامة ، فابن حوقل كان متشيعا لهم حتى قيل إنه من دعاةهم ، والفارابي مثلا في حديثه عن القلم واللوح يكاد يتحدث بلسان دعاة الفاطميين ، ويكاد يشاركهم في حديثه عن التوحيد (١) ، وابن سينا قيل إنه إسماعيلي المذهب وأن أباه كان أحد دعاةهم فنشأ متأثرا بعقائدهم ، وجماعة إخوان الصفاء الذين يرجح أنهم ازدهروا في ظل البويهيين الذين كانوا يميلون إلى التشيع ومنهم من اعتنق الدعوة الفاطمية وكان يرسل الخليفة الفاطمي ، وظهرت في رسائل إخوان الصفاء إسماعيليتهم . وابن الهيثم كان متصلا بالحاكم بأمر الله الفاطمي وعاش في كنفه ، وأبو العلاء المعري حكيم المعرفة كان متأثرا تأثرا تاما بهذه الآراء التي كانت تحيط به ، فقد امتد ظل الحكم الفاطمي إلى بلاد الشام وانتشرت فيها آراء الفاطميين كما انتشرت في كل البقاع التي خضعت أو لم تخضع لهم ، فترى في أشعار أبي العلاء وكتابه كثيرا من الآراء الفاطمية التي كانت تسود ذلك العصر ، ونذكر أحمد حميد الدين بن عبد الله الكرمانى فيلسوف الدعوة وحجتها في العراق وكرمان وصاحب الكتب الفلسفية الفاطمية مثل كتاب راحة العقل وكتاب المصاييح وكتاب الهادي والمستهدى وكتاب الأقوال الذهبية وغيرها التي تدل على أن الكرمانى فيلسوف ناضج التفكير ، وأنه متأثر بما أخذ من فلسفة اليونان وغيرها (٢) ، ونذكر المؤيد في الدين فهو من شيوخ الدعوة وفلاسفتها . وهكذا نستطيع أن نتبع كثيرا من فلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية وصبغوها بالصبغة الإسلامية ، وكان لهم فضل تقريب هذه الدراسات إلى جمهور المسلمين ، فإن هؤلاء الفلاسفة تأثروا بالعقائد الشيعية عامة والفاطمية خاصة .

ولم ينس الفاطميون العلوم العربية الخالصة ، بل وجها إليها اهتماما ملحوظا وعناية خاصة ، وقد رأينا كيف كان الحاكم يجمع علماء اللغة والأدب للمناظرة بين يديه ، ورأينا أثر يعقوب بن كلس في نشاط الحركة العلمية والأدبية ، ويحدثنا عمارة اليمنى أن مجالس الوزير الصالح بن رزيق لم تكن تنقطع إلا بالمذاكرة في أنواع العلوم

(١) راجع ما ذكرناه في كتاب راحة العقل في المقارنة بين رأى الكرمانى ورأى الفارابي

(٢) راجع كتاب راحة العقل (من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية بالهند)

الشرعية والأدبية وفي مذاكرة وقائع الحرب مع أمراء دولته (١) . فكانت هذه العناية الخاصة التي وجهها الأئمة ووزراؤهم وأمراء دولتهم للعلوم سببا في قيام هذه النهضة العلمية الرائعة التي ظهرت في مصر الفاطمية ، وفي أن يكثر علماء مصر من التأليف وإنتاج الكتب في مختلف الفنون والعلوم .

حقيقة كان علماء مصر في ذلك العصر يشرحون أو ينقدون ما خلفه علماء المسلمين قبلهم في هذه العلوم العربية ، ولا نكاد نجد في مؤلفات المصريين في هذا العصر آراء أصيلة يتميزون بها عن الذين سبقوهم ، ولكن ليس ذلك بغريب فالتاريخ يحدثنا أن العلوم إذ اتهم تكويشها ووضعت قواعدها تمر على العلماء فترة بعد ذلك طويلة أو قصيرة لشرح هذه القواعد أو نقدها ، ويكثرون من التأليف حول هذه القواعد دون أن يحاولوا وضع قواعد جديدة ، بل يفرعون على هذه الأصول القديمة دون مساس بالقديم . هذا ما كان عند اليونان بعد عصر الفلاسفة ، وهذا ما حدث أيضا للمسلمين في جميع الأقطار الإسلامية بعد أن وضعت قواعد اللغة ودون الأدب العربي بألوانه وفنونه ، وبعد أن صيغت القواعد الفقهية على اختلاف المذاهب ، فهذه الفترة فترة ركود ذهن العلماء عن وضع أصول جديدة وقواعد متباينة عن القديم مرت بها مصر الفاطمية بل مرت بها جميع الأقطار الإسلامية ، بل أستطيع أن أقول إننا لا نزال نعيش على هذه الأصول القديمة ، ولم نستطع أن نتحرر منها إلى الآن ، فقواعد اللغة التي دونها سيبويه وأصول الصرف كما تركه ابن جني وعروض الخليل بن أحمد وأصول الفقه كما دونه الشافعي ومالك وأبو حنيفة وابن حنبل هي التي تسيطر على حياتنا العلمية العربية إلى الآن ، بالرغم من أن عددا كبيرا من دعاة حرية الفكر ينادون بضرورة التحرر من القديم وتعديل هذه العلوم تعديلا يلائم حياتنا الحديثة ، ولكن لا تزال السيطرة للقديم ، ولم يستطع المصلحون إلى الآن أن يجدوا وسيلة للخلاص منه .

فبالرغم من تشجيع الفاطميين للعلماء حتى ألفوا هذه المؤلفات الكثيرة التي تحتاج إلى مجلد ضخم لسرد أسمائها . وأن هذه المؤلفات كانت التراث العلمي للعصور التي تلت عصر الفاطميين ، فإن هذه الكتب الكثيرة ولا سيما ما كان منها

في العلوم العربية لا تظهر فيها شخصية مصر ولا أثر مصر ، إلا إذا استثنينا كتب التاريخ التي تحدثت عن مصر ، ففي هذه الكتب استطاع مؤرخو مصر أن يتأثروا بما حولهم وأن يظهروا شيئاً مصرياً لا يستطيع غير المصريين أن يأتوا به .

وهناك سبب آخر لعدم ظهور شخصية مصر في كتب العلماء المصريين في العلوم العربية ، ذلك هو رحلات العلماء في الأقطار الإسلامية طلباً للعلم ، فصر بموقعها الجغرافي الممتاز الذي جعل منها مركزاً وسطاً بين الشرق والغرب وطريق الغرب إلى الأراضي المقدسة ، هذا الموقع الجغرافي جعل مصر مركزاً هاماً لتبادل الآراء العلمية بين الأقطار الإسلامية ، فعلماء الأندلس والمغرب وصقلية كانوا مضطرين إلى التعرّيج على مصر في رحيلهم لتأدية فريضة الحج . أو في رحيلهم لطلب العلم في العراق وفارس ، وتطول مدة إقامتهم في مصر أو تقصر يأخذون عن علماء مصر أو يلقون على المصريين ما عندهم من علم فتتلاقح الآراء وتترج وتصبح متشابهة لا فرق بين أندلسي ومصري ومغربي وصقلّي ، ولا تظهر الشخصية الإقليمية في هذا النحو من العلم ، وكذلك نقول عن علماء مصر الذين رحلوا في طلب العلم من الأقطار الأخرى وعلماء الأقطار الأخرى الذين رحلوا في طلب العلم أو للتعليم في مصر ، فهذه الرحلات الكثيرة كانت سبباً في ألا تتمايز العلوم العربية بتمايز الأقطار ، حتى أصبحنا لا نفرق بين كتب المشاركة وكتب المغاربة إلا عن طريق تاريخ المؤلفين أنفسهم . أما من الناحية الموضوعية للكتب فمن الصعب العسير أن نصل إلى نتيجة يطمئن إليها الباحث ، والأقطار العربية التي كانت تتنازع فيما بينها في السياسة والمذهب الديني ، وتتشب فيها الحروب المختلفة ، كانت تربطها وتوحدتها هذه الحياة العلمية ، فجعلتها كتلة واحدة تدرس علومها واحدة لا فرق بين قطر وقطر ، ولا تزال هذه الظاهرة إلى الآن في العلوم العربية الخالصة والعلوم الإسلامية ، وأملنا عظيم اليوم وقد توحدت البلاد العربية في آرائها السياسية أن تتم وحدتها في مختلف ألوان الثقافة حتى يعود للعرب مجددهم القديم بهذه الوحدة التي لن تنفصم بعون الله وبفضل يقظة البلاد العربية .

الفصل الأول

العلوم الفلسفية

إذا قلت العلوم الفلسفية فإنما أقصد بها جميع العلوم التي كانت تشتمل عليها الفلسفة في القرون الوسطى ، والتي تضمنها رسائل إخوان الصفاء من رياضيات وموسيقى وطب وتنجيم وطبيعيات وإلهيات ومنطق إلى غير ذلك من هذه العلوم التي كان يحذقها فلاسفة هذه العصور ، والتي لا يستحق طالب الفلسفة هذا اللقب إلا إذا ألم بها جميعا ، وقد رأينا كيف كانت العقائد الفاطمية تعتمد قبل كل شيء على العلم وتمييز الإلهيات من الطبيعيات ، فلا غرو أن نرى هذه العلوم الفلسفية على اختلاف ألوانها وفنونها تزدهر في العصر الفاطمي ويرعاها الفاطميون ، بل كان من الخلفاء الفاطميين من أتقن هذه العلوم وبرز فيها ولا سيما رصد الكواكب ، فالمؤرخون يذكرون أن المعز لدين الله والعزير والحاكم بأمر الله والحافظ كانوا يرصدون النجوم لاستقراء ما وراها من أحداث ، ويذكر المؤرخون أن اهتمام الأئمة بهذه العلوم كان وسيلة لدعوتهم معرفة الغيب، ويروى المؤرخون بعض روايات هي أقرب إلى الخيال منها إلى الحقيقة، كما يروون بعض الأشعار كلن يتكلم بها المصريون على ادعاء الفاطميين معرفة الغيب ، من ذلك ما روى أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة

وتضيف الرواية أن العزيز بالله أطلع عن ادعائه الغيب بعد ذلك ، ويروى ابن ميسر في تاريخه أن القليل زاد وبلغ الماء الباب الجديد أول الشارع خارج القاهرة ، فلما بلغ الحافظ ذلك أظهر الحزن والانقطاع ، فدخل إليه بعض خواصه وسأله عن السبب فأخرج له كتابا فإذا فيه : إذا وصل الماء الباب الجديد انتقل الإمام عيد المجيد ، ثم قال : هذا الكتاب الذي نعلم منه أحوالنا وأحوال دولتنا وما يأتي

بعدها (١) فإن صحت هذه الرواية فهي تؤيد ما أذاعه الناس وتناقله الرواة عن ادعاء الفاطميين الغيب وأن الأئمة يعرفون ما كان وما يكون إلى يوم القيامة . وبين يدي الآن كتاب ، الفترات والقمرات ، المنسوب إلى جعفر بن منصور اليماني من علماء الدعوة في القرن الرابع الهجري — ولكنني أشك في نسبة هذا الكتاب إليه — يتحدث في هذا الكتاب عن أثر الكواكب في عالم الكون والفساد ويتنبأ بما سيحدث في الأيام المقبلة . وذهب مؤلفه إلى أن علم القمرات أو علم الجفر علم خص الله سبحانه به آدم عليه السلام وورثه آدم وصيه شيث ، وتداولته الأنبياء والأوصياء والأئمة إلى الخلفاء الراشدين والنقباء المتوحدين بالتأييد (٢) ، ويروي علماء الدعوة أن علي بن أبي طالب كان يقول : لو ثبت لي وسادة وجلست عليها لحكمت بين أهل النوراة بتوراتهم وبين أهل الانجيل بالانجيلهم وبين أهل الفرقان بفرقائهم ، ولولا أن يقال إن ابن أبي طالب ساحر لأخبرتكم بما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة مما علمني رسول الله صلعم (٣) ، فهذا كله يؤيد ما قيل عن الفاطميين أنهم كانوا يدعون علم الغيب وأنهم كانوا يستغلون معرفتهم بحركات الأفلاك لادعاء الغيب . ولكن بجانب هذه النصوص التي تثبت ذلك نجد نصوصاً أخرى تثبت عكسها ، فالقاضي النعمان يحدثننا في كتابه المجالس والمسائرات : ذكر الإمام المعز لدين الله يوماً وأنا بين يديه النجامة والمنجمين . فقال : من نظر في النجامة ليعلم عدة السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما في ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له ، فقد أحسن وأصاب ، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله وانقضاه بما يكون فقد أساء وأخطأ . ولقد كان المنصور بالله من أعلم الناس بها ، ولقد قال لي غير مرة : والله ما نظرت فيها إلا طلباً لعلم توحيد الله وتأثير قدرته وبجائز خلقه ، ولقد عانيت ما عانيت من الحروب وغيرها فما عملت في شيء من ذلك باختبار مني دلائل النجوم ولا التفت إليه ، ثم قال المعز : أتاني بعض المنجمين بكتاب ألفه يذكر فيه خلق آدم وكيف كانت الكواكب يوم خلقه الله عز وجل ، وما دلت عليه بما آل أمره وأمر ذريته إليه ، ورأى أنه أتى

(١) أخبار مصر لابن ميسر حوادث سنة ٥٤٣ هـ والمقريري ج ١ ص ٩٧ .

(٢) كتاب الفترات والقمرات ورقة ٢ نسخة خطية بمكتبتي الخاصة .

(٣) المجالس المؤيدية والفترات والقمرات ص ٥٧ والسيرة المؤيدية في القصيدة المسطرة .

في ذلك إلى بفائدة وعلم سبق إليه ، فلما وقفت على كتابه سألته : هل كان قبل آدم
شيء ؟ قال : نعم قد كان قبله ، قلت : فما كان قبله ؟ ومن كان ؟ وكيف كانت هذه
الكواكب قبل ذلك وما دلت عليه قبل خلق آدم ؟ فلم يجز جوابا ، وقال : هذا
شيء ما ظننت أني أسأل عنه ، قلت : وهذا الذي تكلفته وجمت به ما سألت عنه
أيضا فكيف تكلفته ، فعجبت من قوم يذتهون فيما لا يعلمون ويتعاطون ما لا يدرون (١)
فهذا يدل على أن المنصور بالله والمعز لدين الله لم يدعي الغيب ، ولا يدرس الكواكب
وحركاتها لعلم ما كان وما سيكون ، ويقول جعفر بن منصور اليميني في كتابه الكشف :
« قال الله تعالى : قل لا أقول لكم عتدي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم
إني ملك ، وهذا قول نوح عليه السلام الذي ذكر الله في كتابه عنه ، وكل هذا دليل على
أن الأئمة والرسل لا يعلمون إلا ما أعلمهم الله بوحيه وتأيدته ونوره وتثبته عن الله
جل ذكره (٢) » فهذا دليل آخر تقدمه في دفع تهمة ادعاء الفاطميين للغيب .
وقال القاضي النعمان في كتابه الهمة : « فإننا لا نقول ما قاله الغلاة الضالون
المبطلون الصادون عن أولياء الله الدافعون إمامتهم الزاعمون أنهم يعلمون غيب الله
وما تخفى صدور عباده ، تعالى الله الذي تفرد بعلم ذلك دون خلقه ، ولم يطلع ما شاء
منه إلا من ارتضى من رسله ، وإنما أراد هؤلاء الفسقة . بما نسبوه إلى الأئمة صلوات
الله عليهم من ذلك دفع إمامتهم لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعلمون الغيب والناس
يرونهم لا يعلمون من أمور الناس إلا ما ظهر منها لهم لم يكونوا أئمة عند أولئك
الفسقة ولا عتد من قبل منهم ، إذ لم تكن تلك الصفة التي وصفهم بها منهم (٣) . ولعل
سبب هذا الادعاء هو تطرف بعض الدعاة في إسباغ جميع الفضائل على الأئمة حتى
جعلوا أئمتهم يعلمون الغيب ، وكان اختلاف الناس في هذا الأمر مصدر جدل بين
المصريين ، وصور لنا الأمير تميم في إحدى قصائده ذلك كله بقوله يخاطب أخاه
الإمام العزيز بالله :

ولما اختلفنا في النجوم وعلمها وفي أنها بالنتع والضر قد تجرى
فن مؤمن منا بها ومكذب ومن مكثر فيها الجدال ولا يدري

(١) المجالس والمساربات ورقة ٩٢ ب .

(٢) كتاب الكشف لجعفر بن منصور اليميني (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٣) كتاب الهمة في آداب أتباع الأئمة (طبع دار الفكر العربي) ص ٥٤

ومن قائل تجرى بسعد وأنحس
فعلمتنا تأويل ذلك كله
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا
فأخبرتنا أن المنجم كاهن
وأن جميع الكافرين مصيرهم
جُمعتنا بعد اختلاف ومرية
وأوضحت فيها قول حق مبرهن
فعدنا إلى أن الكواكب زينة
مسخرة مضطرة في بروجها
وأن جميع الغيب لله وحده
وما علمت منه الآئمة إنما
وتعلم ما يأتي من الخير والشر
بما فيه من سر وما فيه من جهر
وكان بها دون البرية ذا خبر
بما قال، والسكان من شيعته الكفر
إلى النار في يوم القيامة والحشر
وألقمتنا بعد التنافر والزجر
يجلي ظلام الشك عن كل ذى فكر
وفها رجوم للشياطين إذ تسرى
تسير بتدبير الإله على قدر
تبارك من رب ومن صمد وتر
رووه عن المختار جدهم الطهر (١)

وإذن نستطيع أن نخالف المؤرخين الذين رموا الفاطميين بادعاء الغيب ، فإن هؤلاء المؤرخين استقوا أخبارهم من إشاعات العامة وأقوال بعض الغلاة ولم يحققوا الأمر تحقيقا علميا ، فقصيدة الأمير تميم وأقوال علماء الدعوة تنفي ما جاء به المؤرخون وتبريء الفاطميين من ادعاء الغيب .

حقيقة اهتم الفاطميون بالنجوم ورصدها ، واستدعى الفاطميون إلى مصر عددا كبيرا من المنجمين ، فعندما دخل المعز لدين الله مصر قدم معه منجمه محمد بن عبد الله بن محمد العتقي (٢) ، ورفع العزيز بالله منزلة المنجم أبي عبد الله بن القلانسي إلى أن توفي سنة ٣٨٦ (٣) ، وأنشأ الحاكم بالمقطم منزلا يرصد فيه النجوم وعمل

(١) ديوان الأمير تميم بن المعز ورقة ٩٣ ب نسخة خطية بمكتبي الخاصة .

(٢) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله بن محمد العتقي المنجم كان متفنتا في عدة علوم والغالب عليه علم النجوم ، ولما وفد بمصر قر به الفاطميون ولم يزل مقربا إلى أيام العزيز بالله ولكن حدث أن صنف كتابا في التاريخ ذكر فيه بنى أمية وبنى العباس وأشاد ببعض محاسنهم وجميل أفعالهم ، وأطلع عليه الوزير يعقوب بن كاس فأنهاه إلى العزيز فوبخ العتقي على ذلك وجمع الوزير العلماء إلى داره وذم العتقي أمامهم ، فاضطر العتقي إلى أن يلزم داره كما صودرت أملاكه وتوفي سنة ٣٨٥ هـ وله عدة تصانيف منها كتب في النجوم وأحكامها وكتاب التاريخ الجامع صنفه إلى بعض أيام العزيز ، وكتاب في النحو سماه السبب لعلم العرب [راجع أخبار الحكماء للفقطي ص ١٨٧]

(٢) الفقطي ص ٢٦٧ .

له منجمه أبو الحسن علي بن يونس الزيج الحاكي في أربعة مجلدات، ويقول ابن خلكان عنه إنه لم ير في الأزياج علي كثرتها أطول منه (١)، ويقول القفطي إن ابن يونس كان يقصد تحرير زيج جامع كبير يدل على أن صاحبه كان أعلم الناس بالحساب (٢) وهذا الزيج هو الذي سار عليه منجمو مصر بعده. ويذهب المقرئزي إلى أنه عمل للأفضل بن بدر الجمالي مائة تقويم لاستقبال سنة خمسمائة من الهجرة، وكان منجمو الحضرة يومئذ ابن الحلبي وابن الهيثمي وسهلون وغيرهم يطلق لهم الجارى في كل شهر والرسوم والكسوة على عمل التقويم في كل سنة، فإذا كان في غرة السنة حمل كل منهم تقويمه فيقابل بينها وبين التقويمات المحضرة من الشام فيوجد بينها اختلاف كثير، فأنكر ذلك، فلما كان غرة ثلاث عشرة وخمسمائة عند إحضار التقاويم على العادة جمع المنجمين والحساب وأهل العلم وسألهم عن السبب في الاختلاف بين التقاويم فقالوا: الشامي يحسب ويعمل على رأى الزيج الممجور المأموني، ونحن نعمل على رأى الزيج الحاكي لقرب عهده، وبين المتقدم والمتأخر تفاوت وخلف، ثم أشاروا عليه بعمل رصد مستجد، وأشار عليه أبو الحسن بن أبي أسامة أن يتولى ذلك القاضي ابن أبي العيش الطرابلسي المهندس العالم، ولكن الأفضل غضب على ابن أبي العيش وولى بدله أبا سعيد بن فرقة الطيب، فنشط في إقامة المرصد وساعده جميع المهندسين وعلماء الحساب والتنجيم إلى أن قتل الأفضل سنة ٥١٥ هـ وولى الوزارة المأمون البطائحي فأحب أن يتم هذا الرصد على أن يعرف بالرصد المأموني المصحح، واستمر العمل إلى أن قتل الوزير البطائحي سنة ٥١٨ هـ فوقف العمل به، وكان من المهندسين الذين اشتركوا في إقامة هذا الرصد أبو جعفر بن حسنداى والقاضي ابن أبي العيش، وأبو الحسن علي بن سليمان بن أيوب، وأبو النجاشي بن سنان الساعاتى الاسكندراني المهندس، وأبو محمد عبد الكريم الصقلي وغيرهم، ومن الحساب والمنجمين ابن الحلبي وابن الهيثمي وأبو النصر تليذ سهلون وابن دياب والقلعي وغيرهم (٣). وكان الخليفة الحافظ مغرما بعلم النجوم وله عدة من المنجمين (٤)، وما يدل على

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٥ . (٢) القفطي ص ١٥٥

(٣) المقرئزي ج ١ ص ٢٠٦ (٤) المقرئزي ج ٢ ص ٢٤٩

شدة عناية الفاطميين بحركات الكواكب ما يرويه ابن السنيدي وكان من أهل الخبرة بعمل الاضطراب والحركات أن الوزير الجرجاني تقدم سنة ٤٣٥ فأمر بعمل فهرست لخزانة الكتب وبرم. ما أخلق من جلودها وأنفذ القاضي القضاعي وابن خلف الوراق ليتوليا ذلك ، وحضر ابن السنيدي ليشاهد ما يتعلق بصناعته قل : فرأيت من كتب النجوم والهندسة والفلسفة خاصة ستة آلاف وخمسمائة جزء وكرة نحاس من عمل بطليموس وكرة أخرى من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم قد اشترت بثلاثة آلاف دينار، (١) من هذا كله نستطيع أن ندرك مدى عناية الفاطميين بهذا اللون من العلم ، ولما كان الفاطميين لم يكونوا بدعا في ذلك كله، فهم ليسوا بأول من رصدوا النجوم ، وجعلوا رابطة بين الكواكب العلوية والعالم السفلي وتأثير حركات الكواكب في الأرض ، فهذا كله قديم معروف قبل ظهور الإسلام وبعد الإسلام ، ففي أوائل قيام الدولة العباسية عنى أبو جعفر المنصور بالتنجيم والنجوم ، وترجم له السندهند ، وجاء خلفاء العباسيين واقتدوا به حتى أصبح للتنجيم شأن كبير عندهم وجعلوا للتنجيمين رواتب واستشارهم الخلفاء في أحوالهم الإدارية والسياسية ، وليس ببعيد عن أذهاننا قصة فتح عمورية وقصيدة أبي تمام التي مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

ويقول أستاذنا المرحوم كارلو نالينو إن التنجيم كان له شأن في قصور الخلفاء والسلاطين وبين العامة ، وظل كذلك الى القرن الماضي فكان في دخول الحضارة الغربية عامة ومذهب كوبرنيقوس خاصة القضاء المبرم على التنجيم، بيد أنه لا يزال موجوداً في البلاد التي لم تصب من الحضارة الغربية الا قليلاً (٢) . فالفاطميون شاركوا غيرهم من المسلمين في التنجيم والفلك . وقد يكون من أهم الأسباب التي أدت الى اهتمامهم بالفلك مسألة ابتداء شهر رمضان ، فقد ذكرنا أن الفاطميين جعلوا شهر رمضان ثلاثين يوماً دائماً ، ولم يبدأوا صومهم برؤية الهلال رؤية بصر بل رؤية استبصار ، فرصدوا حركات الأجرام السماوية ليعرفوا مبدأ الشهر على حساب أن

(١) الفقطى ص ٢٨٦ .

(٢) مادة تنجيم في دائرة المعارف الاسلامية .

السنة القمرية ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوما وخمس يوم وسدس يوم ، وأن ستة أشهر من السنة تامة وستة أشهر ناقصة وأن كل ناقص منها يتلوه تام ، ولشدة الدقة في هذا التقويم اضطروا الى استخدام عدد كبير من علماء الفلك والتنجيم والحساب والمهندسين وغيرهم من الفلاسفة الذين أقاموا المراصد والزيجات .

ابن الهيثم

وله أشهر عالم رياضى شهدته مصر الفاطمية هو الفيلسوف أبو على محمد بن الحسن بن الهيثم وقيل : إنه أبو على الحسن بن الحسن بن الهيثم ، اتفق المؤرخون على أنه بصرى المولد والنشأة ، وإن كانوا لم يذكروا شيئا عن حياته في شبابه ، فإن هذه الفترة من عمره غامضة أشد الغموض ، والذي ذكره المؤرخون أنه رحل إلى الشام وعاش في كنف أمير من أمراءها ، وأن الأمير أعاد عليه نعمه وعطاياه ، ولكن ابن الهيثم كان يقول للأمير : • يكفيني قوت يومى ، وتسكفني جارية وخادم ، فما زاد على قوت يومى إن أمسكته كنت خازنك . وإن أنفقته كنت قهرمانك ووكيلك ، وإذا اشتغلت بهذين الأمرين فمن الذى يشتغل بأمرى وعلمى ؟ فما قبل بعد ذلك إلا نفقة احتاج إليها ولباسا متوسطا (١) فإن صحت هذه الرواية فهى تدلنا على ما كان عليه ابن الهيثم من انصراف الى العلم ورغبة عن المال خوفا من أن يشغله المال عن العلم ، وكان حريصا أن يتمسك بما يجب أن يكون عليه العالم الفاضل من خلق وترفع عن طلب الماديات ، وأين هم العلماء الآن الذين لا يسهون وراء المال وإن كان ذلك بطرح العلم ؟ وأين العلماء الآن الذين يرفضون من متاع الدنيا ما يفيض عن حاجتهم الضرورية ، فإن علماء عصرنا مع شديد الأسف يتسكالبون على جمع المال بشتى الطرق والوسائل ، والحقد يملأ قلب أحدهم إذا أثرى له زميل ، أو ارتفع قدره . ولعلنا نشاهد الآن ما عليه بعض من نطاق عليه لقب عالم يترك العلم والبحث للجرى وراء اقتناء الدور والأراضى ويكتمل الأموال وهو فى غنى عن ذلك كله إن كان عالما حقا قانعا فناعة ابن الهيثم وما تحلى به من خلق .

(١) تاريخ حكماء الاسلام للبيهقى ص ٥١ مخطوط بدار الكتب المصرية .

ويروى البيهقي قصة نذكرها الآن لعلها تجد عند ساداتنا علماء عصرنا رادعا لهم
عما هم عليه ، فهمي تدل على أن ابن الهيثم لم يأبه للبادة ولم يطلب سوى العلم للعلم ،
تقول القصة إن أمير آجاء يطلب العلم عليه ، فقال له ابن الهيثم : أطلب منك للتعليم أجرة
وهي مائة دينار في كل شهر ؛ فبذل ذلك الأمير ما طلبه ابن الهيثم ، وما قصر فيه ، وأقام
عند ابن الهيثم ثلاث سنوات يأخذ عن أستاذه العلم ، فلما عزم الأمير على الانصراف
إلى دياره قال له ابن الهيثم : خذ أموالك بأسرها فلا حاجة لي اليها وأنت أحوج
اليها متى عند عودتك إلى مقر ملكك ، ومسقط رأسك . وإني قد جرت بك بهذه
الأجرة ، فلما علمت أنه لا خطر ولا موقع للمال عندك في طلب العلم بذلت مجمودي
في تعاليمك وإرشادك . واعلم أن لأجرة ولا رشوة ولا هدية في إقامة الخير ، ثم
ودعه وانصرف (١) . وهكذا كان ابن الهيثم يتصف بصفات العالم بما في هذه الكلمة
من معان وأوصاف . وظل ابن الهيثم بالشام حتى سمع به الإمام الحاكم بأمر الله
الفاطمي ، وقيل إنه نقل إلى الحاكم أن ابن الهيثم قال : لو كنت بمصر لعملت في
نيلها عملا يحصل به النفع في كل حالة من حالاته من زيادة ونقص ، فقد بلغني أنه
ينحدر من موضع عال وهو في طرف الإقليم المصري (٢) ، فازداد الحاكم شوقا
إلى ابن الهيثم للاستفادة من علمه ، وأرسل إليه برغبته في الوفود إليه ، فاستجاب
ابن الهيثم إلى رغبته وخرج الحاكم نفسه للقاءه والترحيب به وقربه إليه وأكرمه ،
ثم طلب إليه الحاكم أن ينظر في أصول النيل عساه ينفذ ما خطر له وهو بالشام ،
فرحل ابن الهيثم في النيل حتى بلغ موضع الشلال الأول قبلي أسوان ، ورأى في
طريقه أنار قدماء المصريين فعلم أنه لا يستطيع أن يأتي من الأعمال الهندسية ما لم
يبلغ القدماء معرفته ، فآظن ابن الهيثم بحجزه وعاد إلى القاهرة معتذرا إلى الحاكم (٣)
وهذه خصلة أخرى نسجلها لهذا العالم العظيم الخلق الذي خطر له رأى فلما
كلف بتنفيذه أبي عليه تواضعه العلمي إلا أن يعترف بهجزه أمام ما وجده من فن
القدماء ، ولولم يكن ابن الهيثم على هذا الخطر من الخلق العظيم لتمادي في مشروعه
ولسلك الدولة آلاف الدنانير ولا استفاد هو أيضا إن كان على نمط علماء عصرنا ،

(١) البيهقي : تاريخ حكماء الاسلام ص ٥١ وما بعدها نسخة خطية بدار الكتب المصرية

(٢) القفطي ص ١١٤

(٣) القفطي ص ١١٥

فأحرانا وقد مضى نحو ألف عام على وفاة ابن الهيثم أن تتمثل به في قناعته وتواضعه وعلمه . وكان من المتوقع أن يفضب الحاكم بأمر الله على ابن الهيثم ، ولكن الإمام الحاكم حفظ له مكانته وعرف قدر خلقه وعلمه ، فولاه بعض الدواوين ، وقبل ابن الهيثم العمل رهبة لارغبة . ثم خاف بطش الحاكم بعالمه وتقلباته مع من حوله ، فزوات الحاكم وتسرعه في إرافة الدماء أو التعذيب أمر عرف به هذا الإمام ، فاضطر ابن الهيثم إلى أن يتصنع الجنون والخبال ، فتركه الحاكم في منزله وجعل له من يخدمه ويقوم بمصالحه (١) فاعتكف ابن الهيثم حتى بلغه وفاة الحاكم سنة ٤١١ هـ وأطمأن من نزواته على نفسه ، فأظهر العقل وعاد إلى ما كان عليه ، واستوطن قبة على باب الجامع الأزهر ، وأقام بها متنسكا ، واشتغل بالتصنيف والتعليم ونسخ الكتب القديمة ، فكان يبعثها بمائة وخمسين ديناراً هي مؤنته لسنة (٢) ، وإقليدس والمتوسطات والمجسطي ، ويبيعها بمائة وخمسين ديناراً هي مؤنته لسنة (٢) ، ولم يزل على ذلك إلى أن توفي في حدود سنة ثلاثين وأربعمائة .

اتفق المؤرخون الذين ترجموا لابن الهيثم على أنه كان عالماً متقناً لعلوم كثيرة فيقول الففطى عنه : « ابن الهيثم صاحب التصانيف والتأليف المذكورة في علم الهندسة ، كان عالماً بهذا الشأن متقناً له متقناً فيه فيما بغوامضه ومعانيه مشاركاً في علوم الأوائل ، أخذ عنه الناس واستفادوا منه ، (٣) . ويقول البيهقي : « الحكيم بطليموس الثاني أبو علي بن الهيثم ، كان تلو بطليموس في العلوم الرياضية والمعقولات ، وتصانيفه أكثر من أن تحصى (٤) ، ويذهب ابن أبي أصيبعة إلى أن ابن الهيثم كان متقناً في العلوم لم يماثله أحد من أهل زمانه في العلم الرياضى ولا يقرب منه (٥) . ويقول المستشرق دى بور : نجد في القاهرة في أوائل القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس من الهجرة) رجلاً من أعظم الرياضيين والطبيين في العصور الوسطى هو أبو علي محمد بن الحسن بن الهيثم (٦) . وسرد الففطى أسماء سبعة وستين كتاباً من تأليف ابن الهيثم ، أما ابن أبي أصيبعة فذكر

(١) الففطى ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠ ص ٩٠

(٢) الففطى ص ١١٥ وابن أبي أصيبعة ص ٢٠ ص ٩٠ (٣) الففطى ص ١١٤ (٤) تاريخ

حكمة الاسلام ص ٥١ (٥) ابن أبي أصيبعة ص ٢٠ ص ٩٠ (٦) تاريخ الفلسفة في الاسلام

ص ١٩٠ ترجمة الدكتور أبو ريدة .

له ما يقرب من مائتي كتاب ، خلا رسائل كثيرة ، فقد ألف ابن الهيثم في الهندسة والطبيعيات والفلك والحساب والجبر وفي الطب والمنطق والأخلاق ، فلا غرو إذا رأينا الجمعية المصرية للعلوم الرياضية والطبيعية تحتفل بذكرى مرور تسعمائة سنة على وفاة ابن الهيثم ، وقد أظهر أعضاء هذه الجمعية الثروة العلمية التي خلفها ابن الهيثم ، ونوهوا بمكانته في هذه الفنون التي نبغ فيها وعرض لها في مصنفاته ، فالأستاذ مصطفى نظيف بك قال : « إن ابن الهيثم قلب الأوضاع القديمة ، وأنشأ علما جديدا ، هو قد أبطل علم المناظر الذي وضعه اليونان ، وأنشأ علم الضوء الحديث بالمعنى وبالحدود وبالاصول التي تراها الآن ، وإن عد نيوتن بحق رائد علم الميكانيكا في القرن السابع عشر ، فإن الهيثم خليق بأن يعد بحق رائد علم الضوء في مستهل القرن الحادي عشر للميلاد ، (١) .

وقال الأستاذ محمد رضا مدور بك : « إذا أردنا أن نقارن ابن الهيثم بعلماء عصرنا الحاضر فلا أكون مغاليا إذا اعتبرت ابن الهيثم في مرتبة تضاهي مرتبة العلامة أنيشتين في عصرنا هذا (٢) ،

ويقول الأستاذ الدكتور مشرفة باشا : « المطلع على كتاب ابن الهيثم في حل شكوك إقليدس يلبس فيه دقة المؤلف في التفكير وتعمقه في البحث واستقلاله في الحكم ، كما يتضح له صحة إدراك ابن الهيثم لمكان الهندسة الإقليدية من العلوم الرياضية على أنها دراسة منظمة للعلاقات والمقادير المسكانية من ناحية كونها علاقات أو مقادير ، وبغير نظر إلى ما يمكن أن تدل عليه من موجودات . فإن الهيثم في هذا الكتاب رياضي بحث بأدق ما يدل عليه هذا الوصف من معنى وأبلغ ما يصل إليه من حدود (٣) ، فهذا كله قول مختصين يستطيعون الحكم على مكانة ابن الهيثم في العلوم الرياضية والطبيعية ، ولكن ابن الهيثم كان في مصر الفاطمية فوجدت تعاليمه وآراؤه ما وجدت مصر الفاطمية كلها بسبب تعصب من أتى بعد الفاطميين ، وقد لاحظ الأستاذ ديهور إهمال العلماء له فقال : لأنه لم يكن لدعوة ابن الهيثم ثمرة كبيرة في الشرق ، ولا يعرف من تلاميذه غير واحد يعد من العلاسفة هو أبو الوفاء

(١) الاجتماع التخليدي لذكرى ابن الهيثم > ٢٧

(٢) المصدر السابق ص ٣١

(٣) المصدر السابق ص ٤

مبشر بن فاتك القائد (١) ولكنني أرى خلاف ما رآه ديور فقد كان لابن الهيثم تلاميذ كثيرون ، وأنهم حافظوا على تعاليمه ودعوته ، ولكن كما قلت كان التعصب الذي عند الأيوبيين والعباسيين قويا حتى لأنهم لم يفرقوا بين عقيدة الفاطميين أعدائهم وبين العلوم الرياضية ، فكل من اتصل بالفاطميين فهو من زميرهم وكل عالم من علماء مصر الفاطمية منهم بالخروج عن الدين ويجب أن تحرق كتبه ولا تتبع تعاليمه . وهذا ما حدث لابن الهيثم وغير ابن الهيثم من العلماء .

أما مبشر بن فاتك الذي ذكر أنه تلميذ ابن الهيثم فهو الأمير محمود الدولة أبو الوفاء المبشر بن فاتك وكان من أعيان أمراء مصر وأفاضل علمائها ، دائم الاشتغال حياً للفرائد والاجتماع بأهلها ومباحثاتهم والانتفاع بما يقتبسه من جهتهم ، وكان ممن اجتمع به منهم ، وأخذ عنه كثيرا من علوم الهيئة والعلوم الرياضية أبو علي محمد ابن الهيثم (٢) . ويقول أمية بن أبي الصلت إنه أدرك أبا الوفاء وأخذ عنه شيئا من المنطق وتخصص به وتميز عن أضرابه ، وأن أبا الوفاء أدرك أبا كثير بن الزقان تلميذ أبي الحسن علي بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ، ثم نصب نفسه لتدريس جميع كتب المنطق وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية وشرح بزعمه وفسر ولخص (٣) ، وكان أبو الوفاء أحد أدباء مصر العارفين بالأخبار والتواريخ ، وكان في أيام الظاهر والمستنصر وله كتاب سيرة المستنصر في ثلاثة مجلدات ، وله توالي في علوم الأوائل كما كان حريصا على اقتناء الكتب فجمع منها ما لا يحصى عدده كثرة (٤) . ويقول القفطي إنه قرأ على المبشر فضلا زمانه فسادوا (٥) ، ويذكر من تلاميذه الطبيب سلامة بن رحمون اليهودي الذي ناظر أمية بن أبي الصلت (٦) .

ومن الرياضيين الذين كانوا في هذا العصر رزق الله المنجم النحاس الذي وصفه أمية بقوله : « وله في فروع النجامة بعض دربة وبتجرباتها بعض خبرة ، وهو شيخ أكثر المنجمين بمصر وكبيرهم الذي علمهم السحر ، فجميعهم إليه منسوب

(٢) ابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٩٨

(١) تاريخ الفلسفة ص ١٩٤

(٣) الرسالة المصرية ص ٧٧ نسخة خطية بدار الكتب المصرية .

(٤) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٧٧ (طبع رفاعي) (٥) القفطي ص ١٧٦ .

(٦) القفطي ص ١٤٢ وابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ١٠٦ .

وفي جريدته مكتوب وبفضله معترف ، (١) . وأبو علي المهندس المصرى
الذى كان قيما بعلم الهندسة ، وكان يعيش فى أوائل القرن السادس الهجرى ، وكان مع
ذلك أديبا شاعرا ، ويظهر من شعره أنه متأثر بدراسته الهندسية فهو يقول مثلا :

تقسم قلبي فى حجة معشر بكل فتى منهم هواى منوط
كأن فؤادى مركز وهم له محيط وأهوائى لديه خطوط (٢)
وقوله أيضا :

إقليدس العلم الذى يحوى به ما فى السماء معا وفى الآفاق
تزكو فوائده على إنفاقه يا حبيذا زاك على الإنفاق
هو سلم وكأنا أشكاله درج إلى العلياء للطراق
ترقى به النفس الشريفة مرتقى أكرم بذاك المرتقى والرائى (٣)

وظهر فى مصر فى هذا العصر عدد كبير من الأطباء ، والطب كما نعلم كان فى
ذلك العصر من علوم الفلسفة ، وكثرت فى مصر الفاطمية مناظرات الأطباء
ومجادلاتهم ، فكان ذلك من أسباب ازدهار هذا النوع من العلم واتساع أفاقه
وكثرة التأليف حوله ، وقرب الفاطميون الأطباء وأغدقوا عليهم من نعمهم
وعطايهم خلاف ما أوقفوه لهم من مرتبات شهرية ، فمن ذلك ما يروى أن منصور
ابن مقشّر النصرانى طبيب العزيز بالله اعتل سنة ٣٨٥ هـ وتأخر عن الركوب مع
الإمام ، فلما تماثل من علته كتب إليه العزيز رقعة بخطه نستختها :

بسم الله الرحمن الرحيم .
طبيبنا سلمه الله .

سلم الله الطبيب وأتمّ النعمة عليه ، وصلت لينا البشارة بما وهبنا الله من عافية
الطبيب وبرئه ، والله العظيم لقد عدل عندنا ما رزقنا نحن من الصحة فى جسمنا ،
فتمم الله عليك النعمة ، وكل لنا صحتك وعجل بها ، ولا أشمت بنا فيك عدوا ولا
حاسدا ، ورد كيد من يريد الكيد فى بحره ، وابتلاه بما لا طاقة له ، بعد الكفاية فيك ،
وإفالتك العثرة ، ورجوعك إلى أفضل ما عودك ، وصلى الله على خيرته من خلقه
محمد النبى وآله وسلم تسليما (٤) ،

(١) الفقهى ص ١٢٧ . (٢) الفقهى ص ٢٦٧ (٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ص ٢١٩

فمثل هذه الرسالة لا تصدر إلا من صديق حميم يخلص لصاحبه ويحب له الخير ،
فما بالك اذا صدرت من إمام مسلم إلى طبيبه المسيحي ، فالإمام عرف لطيبه قدرته
في فنه وعلو كعبه في صناعته ، فقربه واتخذة صديقا ، وكذلك يقال : إن المعز
لدين الله اصطنع لنفسه الطبيب موسى بن العيزار ، وكان طبيبا عالما بتركيب الادوية
وطبائع المفردات ، وهو الذي ألف شراب الاصول (١) .

ووفد على مصر في عهد المعز والعزير الطبيب محمد بن أحمد بن سعيد التميمي وهو
من بيت المقدس ، واشتهر بخواص العقاقير وتركيب الادوية ، ولقى الأطباء بمصر
وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاصة القادمين من المغرب في صحبة المعز
والمقيمين بمصر من أهلها . ويقول القفطي : إنه كان متصفا في مذكراته ، غير راد على
أحد إلا بطريق الحقيقة ، وصنف للوزير يعقوب بن كلس كتابا كبيرا في عدة
مجلدات سماه : « مادة البقاء ، بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء ، »
وتوفي التميمي بمصر في حدود سنة ٣٧٠ هـ (٢)

ومن أشهر الأطباء في هذا العصر سلامة بن رحمون أبو الخير اليهودي المصري
الذي قال عنه أمية بن أبي الصلت : « وأنبه من رأيت من أطباء مصر وأدخلهم في
عداد الأطباء رجل من اليهود يدعى أبا الخير سلامة بن رحمون فإنه لقي أبا الوفاء
المبشر بن فانك وأخذ عنه شيئا من صناعة المنطق تخصص به وتميز عن أضرابه
وأدرك الكثير الزقاني تلميذاً أبي الحسن بن رضوان وقرأ عليه بعض كتب جالينوس ،
ثم نصب نفسه لتدريس كتب المنطق جميعا وجميع كتب الفلسفة الطبيعية والإلهية ،
وشرح بزعمه وفسر وخلص ، ولم يكن هنالك في تحصيله وتحقيقه ، بل كان يكشر
كلامه فيفضل ، ويسرع جوابه فيزل (٣) ، وناظره أمية ، ولكن إجابات سلامة لم
تجد منه قبولا ، فرماه بسوء التصور والفهم (٤)

ولعل من أشهر أطباء هذا العصر هو أبو الحسن علي بن رضوان ، ولد بالجيزة
وكان أبوه فرانا ، ولما بلغ السادسة من عمره أسلم نفسه للعلمين وانتقل إلى مدينة
مصر وهو في العاشرة لطلب العلم . وبدأ في دراسة الطب وغيره من علوم الفلسفة
وهو في الرابعة عشرة من عمره ، ولفقره وحاجته إلى ما يستعين به في الحياة اضطر
إلى أن يتكسب بالطب مرة وبالتهجيم مرة أخرى وبالتعليم كذلك ، وفي الوقت نفسه

(٢) القفطي ص ٧٤ و ٧٥ .

(٤) المصدر السابق .

(١) القفطي ص ٢١٠ .

(٣) القفطي ص ١٤٢ .

كان يواظب على طلب العلم ويجد في التحصيل حتى بلغ الثانية والثلاثين من سني حياته، إذ بدأ يشتهر بالطب، وكفاه ما كان يكسبه عن طريقه، بل تفوق على غيره من الأطباء المعاصرين، وصار له ذكر حسن في البلاد. وسمع به الحاكم بأمره فاستخدمه وجعله رئيساً على سائر المتطببين، فأتسعت حاله، واقتنى الأملاك في المدينة، كما ذاع صيته في البلاد الإسلامية، حتى إن الأطباء فيها كانوا يناظرونه مراسلة، ويطلبون ما عنده من علم الطب، فمن راسله الطبيب أبو الفرج جرجس بن يوحنا المعروف بالبيرودي الدمشقي الذي راسل ابن رضوان وغيره من الأطباء المصريين. ويقول ابن أبي أصيبعة عنه: وله مسائل عدة إليهم طيبة ومباحثات دقيقة، وكتب بخطه شيئاً كثيراً جداً من كتب الطب، ولا سيما من كتب جالينوس وشروحها وجوامعها^(١). ويفهم من إحدى رسائل ابن رضوان أن البيرودي زار مصر، وكان كثير الاختلاط به للمناظرة والمناقشة في المسائل الطيبة^(٢). كذلك ناظره الطبيب أبو الحسن الختار بن الحسن المعروف بابن بطلان النصراني البغدادي، فكان بين الطبيب المصري والطبيب البغدادي مراسلات عجيبة، ولم يكن أحد منهما يولف كتاباً ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه ويسفه رأيه فيه. ثم رأى ابن بطلان البغدادي أن يفد على القاهرة لمشاهدة زميله ومناظره ابن رضوان، فدخل مصر سنة إحدى وأربعين وأربعمائة، وأقام بها ثلاث سنين، وكان وجوده بالقاهرة المعزية من أسباب شدة المناقشات والمناظرات العلمية بين الطيبين، وخرج ابن بطلان من مصر ووضع كتاباً تضمن الوقائع التي كانت بينه وبين منافسه ابن رضوان ورد ابن رضوان عليه^(٣). ويقول ابن أبي أصيبعة في الموازنة بين الطيبين ابن رضوان المصري وابن بطلان البغدادي: كان ابن بطلان أعذب لفظاً وأكثر ظرفاً وأميز في الأدب وما يتعلق به، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكيمة وما يتعلق بها^(٤). وحفظ لنا خمس رسائل لطبذين الطيبين في المناظرة بينهما وطبعت هذه الرسائل بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول.

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٤١.

(٢) خمس رسائل لابن بطلان البغدادي وابن رضوان المصري ص ٤٣ (مطبوعات كلية الآداب بجامعة فؤاد الأول).

(٣) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٤) عيون الأنباء ج ١ ص ٢٤٢.

وكان ابن رضوان معترزا بعلمه ومهارته في فنه فكان يرد على جميع أطباء عصره وغيرهم ، فكان كثير الرد على آراء من سبقه من الأطباء ، وكانت عنده سفاهة في بحته وتشنيع على من يريد مناقشته ، وأكثر ذلك عند ما كان يرد على حنين بن إسحاق وعلى أبي الفرج بن الطيب أستاذ ابن بطلان ، وعلى أبي بكر محمد بن زكريا الرازي (١) وكان ابن رضوان دميم الحلقة مشوه الصورة أسود اللون . ومن تأليفه مقالة في من غيره بقمح الحلقة ، وبين في هذه الرسالة أن الطبيب الفاضل لا يجب أن يكون جميل الوجه ، وكثيرا ما كان ابن بطلان البغدادي يتحدث عن قبح شكل ابن رضوان المصرى حتى إنه قال في الرسالة التي رسمها بوقعة الأطباء ، يصف ابن رضوان :

فلما تبسدى للقوا بل وجهه نكصن على أعقابهن من الندم
وقلن وأخفين الكلام تسترا ألا ليتنا كنا تركناه في الرحم

وكان يلقيه بتمساح الجن لشدة قبح منظره وسفاهة لسانه (٢) .

وتغير عقل ابن رضوان في أواخر أيام حياته ، وقيل إن السبب في ذلك أنه في إبان المحنة العظمى التي حلت بمصر أيام حكم المستنصر الفاطمي والتي اشتدت وعظمت من سنة سبع وأربعين وأربعمائة كان ابن رضوان قد أخذ بتيمة رباها وكبرت عنده ، فلما كان في بعض الأيام خلاها المنزل ، وكان قد ادخر أشياء نفيسة ومن الذهب نحو عشرين ألف دينار ، فأخذت الجميع وهربت ولم يظفر منها على خبر ، فتغيرت أحواله منذ ذلك الوقت ، وتوفى سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة ، وترك من مؤلفاته وتصانيفه أكثر من مائة كتاب .

كان لابن رضوان أثر كبير في الحياة العقلية بمصر ، فهذه المناظرات السكثيرة التي كانت بينه وبين غيره من الأطباء ، وهذه الردود المختلفة التي كتبها في الرد على الأطباء السابقين كان لها أثرها في تنبيه الأطباء والفلاسفة إلى آراء ابن رضوان وآراء خصومه ، وكان لابن رضوان تلاميذ أخذوا عنه علمه وطبه ، فمن هؤلاء التلاميذ الطبيب الإمبراطوري أفرانيم بن الزفان وأبو كثير بن الحسن بن إسحاق ، وكان من الأطباء المشهورين بمصر ، واستخدمه الأئمة ، وكان كثير الاهتمام بجمع الكتب ونسخها حتى كانت عنده خزائن كثيرة من الكتب الطبية وغيرها ، وكان عنده النساخ يكتبون ولهم ما يقوم بكفايتهم منه ، ومن جملة هؤلاء النساخ

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠١ (٢) عيون الأنباء ج ٢ ص ٢٤٢ .

محمد بن سعيد بن هشام الحجري المعروف بابن ملساقه ، وقيل إن أحد وراقى العراق أراد شراء كتب من افرائيم ، فسمع الأفضل بن بدر الجمالي بذلك ، فأمر بفسح هذه الصفقة وأن تبقى الكتب في مصر ولا تنتقل إلى بلاد أخرى ، وأمر بشرائها وإضافتها إلى خزانه الأفضل ، وكتب عليها ألقابه ، ويقال إن افرائيم خلف ما يزيد على عشرين ألف مجلد (١) .

وصنف الطيب أبو جعفر يوسف بن حسداى شرحا لكتاب الإيمان من كتب أبقراط ، سماه الشرح المأمونى ، نسبة إلى الوزير المأمون بن البطائحي . من هذه الأمثلة التي ذكرناها عن حركة العلوم الطيبة في مصر ندرك مقدار نشاط هذه العلوم وازدهارها إبان حكم الفاطميين ، وأن مصر استطاعت في هذا العصر أن تنافس غيرها من الأقطار الإسلامية في مضمار هذا العلم ، فوفد عليها عدد من الفلاسفة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أمية بن أبي الصلت الأندلسي جاء مصر سنة ٤٨٩ هـ وظل بها إلى أن نفاه الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥٠٩ هـ ، وكان أمية عالما في فنون مختلفة شاعرا فحلا ، وأديبا يمتازا بجانب علومه الفلسفية ، سجنه الوزير الأفضل فصنف وهو بالسجن رسالة العمل بالاصطراب وكتاب الوجيز في علم الهيئة وكتاب الأدوية المفردة ، وكتابتا في المنطق ، وآخر سماه الانتصار في الرد على ابن رضوان في رده على حنين بن إسحق ، وكان له تلاميذ بمصر نذكر منهم أبا عبد الله الشامى وسليمان بن الفياض الاسكندراني ، وروى عنه ظافر الحداد وغيرهم ، وستحدث عن أمية في باب الشعر من هذا الكتاب .

ومن أشهر الفلاسفة الذين تحدثوا في الإلهيات في هذا العصر أحمد حميد الدين ابن عبد الله بن محمد الكرمانى ، ويعرف في الدعوة الاسماعيلية بحجة العراقيين ، وفد على مصر في عهد الحاكم بأمر الله . فهو يقول في رسالته : « مباسم البشارات بالإمام الحاكم » : « فإني لما وردت الحضرة النبوية مهاجرا ، وللسدة العلوية زائرا ، ورأيت السماء قد أظلت بسحاب عميم ، والناس تحت ابتلاء عظيم . . . » (٢) ويخيل إلى أنه وفد على مصر عقب ثورة الدرزي ، وظل بمصر نحو من عشر سنوات ، وصنف بها عدة رسائل منها « الرسالة الكافية » في الرد على الشريف الماروني الحسنى ، والرسالة الواعظة في الرد على الفرغاني ابن الأخرم أحد دعاة الدرزية ، ورسالة

(١) عيون الأنباء ج ٢ ص ١٠٥ (طبعة مصر ١٨٨٢) .

(٢) رسائل الكرمانى (نسخة خطية بمكتبتى)

مباسب البشارات بالإمام الحسّام ، ورسالة الصوم ، وغيرها . وإذا قرأنا رسائل
الكرماني وكتبه نجدته يتحدث في الفلسفة الطبيعية والإلهية كما في راحة العقل ، وفي
الفلسفة الإلهية كما في الرسالة الدرية ، ورسالة النظم في مقابلة العوالم ، ورسالة الرضية في
جواب من يقول بتقديم الجوهر وحدث الصورة ، والرسالة الحاوية وهي في البحث
عن أيهما أسبق الليل أم النهار . وهكذا ، نجد الكرماني تحدث في جميع أقسام الفلسفة
ولا سيما في كتابه راحة العقل الذي يعد من أقوم كتب الفلسفة في العصر الفاطمي ،
فهو في هذا الكتاب تلميذ من تلاميذ الفلسفة اليونانية المصطبغة بالصبغة الإسلامية
على المذهب الفاطمي ، وحديثه عن إبداع العقل السكلي وصفاته وخصائصه وانبعثات
النفس السكلية وصفاتها وعن العالم الروحاني وعالم السكون والفساد يدل على أن
الكرماني كان من أكبر الباحثين في هذه الموضوعات الفلسفية ، ولا غرو أن كان لهذا
الداعي أثره في تاريخ المذهب الإسماعيلي إلى اليوم ، فكل من جاء بعده أخذ عنه
واقتبس من رسائله وكتبه .

عما سبق نستطيع أن نكرر ما قلناه من أن العلوم الفلسفية ازدهرت في العصر
الفاطمي ازدهارا لا نجد له مثيلا في الأقطار الإسلامية الأخرى ، بل نجد غير
الفاطميين كانوا يمتحنون إلى اعتبار الدراسات الفلسفية دراسة إلحادية ، وأن القائمين
بها من العلماء زنادقة ، ولكن الفاطميين كانوا أوسع أفقا في تفكيرهم ، وكان
مذهبهم يقوم على الفلسفة فجمعوا إليهم علماءها ، وعقدوا مجالس المناظرات
بينهم ، فازدهرت بذلك الحركة العلمية ، وقوى البحث للوصول إلى معرفة الحقيقة ،
مستعينين بالمنطق وآراء الفلاسفة الأقدمين .

الفصل الثاني

علوم اللغة العربية والفقهاء

١ - علوم اللغة والنحو :

بجانب هذه الدراسات الفلسفية التي ازدهرت بمصر الفاطمية ، كان هناك دراسات عربية في علوم اللغة والنحو ، ورواية الأدب القديم وشرحه ونقده ، وكانت هذه العلوم تسير جنباً إلى جنب مع غيرها من الدراسات التي أقبل عليها العلماء والمتعلمون في مصر ، وكان هؤلاء العلماء كعبة يفتد عليها طلاب العلم من البلدان الإسلامية الأخرى للاستفادة من علماء مصر والرواية عنهم .

لم تكن هذه الدراسات العربية جديدة على مصر ، فقد ذكرت في كتاب « أدب مصر الإسلامية » أن هذه العلوم وجدت في مصر منذ بدأ المسلمون في مصر يقرءون القرآن الكريم عن الصحابة والتابعين ، ويهتمون بإعجامة على نحو ما فعله أبو الأسود الدؤلي وعبد الله بن أبي سحق ، حتى إذا دون علم النحو وظهر كتاب سيديويه ونحاة الكوفة والبصرة ، أقبل المصريون على الأخذ عنهم ، واطرد نمو هذا اللون من الدراسة حتى غمرت مصر وقاضت على غيرها من بلدان المغرب والأندلس . وقد استمر تيار هذه الدراسات بمصر في العصر الفاطمي والعصور التي تلتها ، وكثر العلماء الذين انقطعوا إلى هذا العلم وعرفوا به . وقد ذكرنا كيف كان الخلفاء الفاطميون يشجعون هذه الدراسات ويحبسون المرتبات للعلماء ، وكيف حرصوا على اقتناء السكتب اللغوية والنحوية وجعلوها مع غيرها من السكتب بين يدي العلماء والمتعلمين ، فلا غرو أن رأينا عدداً كبيراً ينبغون في هذه العلوم ، ويصنفون كتباً كثيرة في هذه الفنون ، ويكفي أن نلقى نظرة على كتيب التراجم لنندرك كيف أقبل الناس على هذه الدراسات ، وكيف تضاعف عدد السكتب التي ألفت فيها .

وكا كان الفلاسفة يجتمعون للباحثة والمذاكرة في فنونهم ، كذلك فعل علماء النحو واللغة ، فقد قيل إن جنادة الهروي والحافظ عبد الغنى بن سعيد ، وأبا إسحاق على بن سليمان المعري النحوي ، كانوا يجتمعون في دار العلم بالقاهرة ، وتقوم بينهم مباحثات ومذاكرات (١) . وبلغ من اهتمام الفاطميين بعلم اللغة والنحو أنهم جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين يراجعون ما كان يصدر عن الكتاب من رسائل ، حتى لا يظهر في كتابات الكتاب لحن في اللغة أو خطأ في النحو . وسنتحدث عن ذلك في باب الكتابة الفنية .

ومن أشهر العلماء الذين ظهروا في هذا العصر ، أبو عبد الله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز النحوي ، كان في خدمة العزيز بالله الفاطمي ، ويقال إن العزيز تقدم إليه أن يؤلف كتابا يجمع فيه سائر الحروف التي أشار إليها النحويون في قولهم إن الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى ، وأن يقصد في تأليفه إلى ذكر الحرف الذي جاء لمعنى ، وأن يجرى ما ألفه من ذلك على حروف المعجم ، وهو لون جديد لم يسبق إليه أحد من النحاة ، فقام القزاز بجمع مواد هذا الكتاب ، فبلغ جملة ما جمعه ألف ورقة . ويروى ابن خلكان عن أبي علي الحسن بن رشيق في كتاب النموذج أن القزاز فضح المتقدمين ، وقطع السنة المتأخرين ، وكان مهيبا عند الملوك والعلماء وخاصة الناس ، محبوبا عند العامة ، قليل الخوض إلا في علم دين أو دنيا ، يملك لسانه ملكا شديدا (٢) . ولأبي عبد الله القزاز كتاب الجامع في اللغة ، وهو من الكتب المختارة المشهورة ، وتوفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة بالقاهرة .

ومن العلماء الذين شاهدتهم مصر في العصر الفاطمي : علي بن أحمد المهلبى ، فقد كان إماما في النحو واللغة ، ورواية الأخبار وتفسير الأشعار ، وكان من جلساء المعز والعزيز المقرئين إليهما ، وكان المهلبى قبل ذلك مقربا إلى كافور الأخشيدى ومن عاصر المتنبى في مصر ، وكانت بيته وبين المتنبى بعض محاورات علمية . يروى بأقوت أن المهلبى قال : وقع بيني وبين المتنبى في قول العدواني :

يا عمرو إلاتدع شتمى ومنقصتى أضربك حتى تقول الهامة اسقونى

(١) بغية الوعاة للسيوطى ص ٢١٣ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٥١٤ .

وذلك أن المتنبى قال : إن الناس يغلطون في هذا البيت ، والصواب اشقوني من شقات الرأس بالمشقة وهو المشط . فقلت له : أخطأت في وجوه : أحدها أنه لم يرو كذلك ، والآخر أنه يقال شقات بالهمزة ، وأيضا فإنى أظنك لا تعرف الخبر فيه ، وما كانت العرب تقول في الهامة ، إنها إذا لم يثأر بصاحبها لا تزال تقول : اشقوني ، فإذا ثأروا به سكن كأنه شرب ذلك الدم (١) .

وللمهلبى كتاب في الرد على كتاب المقصور والممدود لابن ولاد المصرى (٢) ، وقيل : إن المهلبى أخذ مادة هذا الكتاب عن المتنبى ونسبها إلى نفسه . وروى كثير من المصريين عن المهلبى ، ومن أشهر تلاميذه أبو يعقوب يوسف بن يعقوب النجيري وابنه بهزاد وعبد الرحمن بن إسماعيل العروضى نزيل مصر وغيرهم . وتوفى المهلبى سنة ٣٨٥ هـ (٣) .

ومن أشهر علماء مصر في ذلك العصر أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ الذى عد لإمام عصره فى النحو ، وهو أحد الذين عهد إليهم تصحيح رسائل الكتاب فى ديوان الإنشاء ، يروى ابن خلكان أن الخطيب التبريزى دخل مصر فى عنقوان شبا به وقرأ عليه بها الشيخ أبو الحسن بن بابشاذ النحوى وغيره علوم اللغة ، ثم عاد إلى بغداد (٤) . ألف من الكتب كتاب المقدمة المحسنة فى فن العربية ويوجد من هذا الكتاب ثلاث نسخ خطية بدار الكتب المصرية ، وله شرح على هذه المقدمة ، وشرح الجمل للزجاجى ، وشرح كتاب الأصول لابن السراج ، وله فى النحو كتاب بلغ خمس عشرة مجلدة سماها النجاة بعده وتعايق العرفة ، ذلك أن تلاميذه من بعده احتفظوا بهذا الكتاب عند من تصدر موضع ابن بابشاذ فى حلقة بجامع عمرو ، فقد انتقلت إلى تلميذه عبد الله محمد بن بركات السعدى النحوى اللغوى ، ثم انتقلت بعده إلى صاحبه أبى محمد عبد الله بن برى النحوى ، ثم بعده إلى أبى الحسين النحوى المنبوز بثلث القليل ، فكان كل واحد من هؤلاء العلماء يهبها إلى أخص تلاميذه ويعهد إليه بحفظها . ولقد اجتهد جماعة من الطلاب فى نسخها فلم يتمكنوا من ذلك . وهكذا انتفع

(١) معجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ (طبعة رفاعى) .

(٢) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية ص ٦٩ وما بعدها .

(٣) راجع بقية الوعاة ص ٣٢٨ ومعجم الأدباء ج ١٢ ص ٢٢٤ ، وأبناء الرواة ج ٤

(٤) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٣٣ . ٤٦٤ .

الناس بعلم ابن بابشاذ وتصانيفه ، وقد تزهد في أواخر أيامه ، واستقال من عمله بديوان الانشاء ، وانقطع في غرفة بجامع عمرو ، فخرج ذات ليلة من الغرفة إلى سطح الجامع فزلت قدمه فسقط وأصبح ميتا في اليوم الثالث من رجب سنة تسع وستين وأربعمائة (١).

ومن ثم أثر يذكر من علماء النحو واللغة ، على بن جعفر بن علي السعدي المعروف بابن القطاع الصقلي ، لم يكن مصريا ، ولكنه من صقلية ، فيها شب وقرأ على علمائها كابن البر أبي بكر الصقلي اللغوي وأمثاله ، ثم رحل عن صقلية لما أشرف الفريج على تملكها في حدود سنة خمسماية ، فوفد على مصر متخذها وطن له ، ولقيه المصريون بالحفاوة وبالغوا في إكرامه وخصه الوزير الأفضل بن بدر الجمالي بالرعاية وجعله مؤدبا لولده في علوم العربية وفنون الأدب ، وقد روى ابن القطاع عن أبي بكر الصقلي كتاب الصحاح للجوهري ، وعن طريق ابن القطاع اشترت رواية هذا الكتاب في الآفاق ، وله حواش على كتاب الصحاح اعتمد عليها محمد بن برى النحوي المصري فيما تكلم عليه من حواشي الصحاح ، ولابن القطاع عدة تصانيف أخرى منها كتاب الدرّة الخطيرة في شعراء الجزيرة - أي جزيرة صقلية - اشتمل على مائة وسبعين شاعرا وعشر بن ألف بيت شعر ، وكتاب الاسماء في اللغة ، جمع فيه أبنية الاسماء كلها ، وكتاب الأفعال هذب فيه أفعال ابن القوطية وأفعال ابن طريف وغيرهما في ثلاث مجلدات . وله تاريخ صقلية ، وتوفي في صفر سنة خمس عشرة وخمسماية ودفن بقرب ضريح الشافعي (٢).

ولا يتسع المجال هنا للحديث عن جميع النحاة واللغويين الذين نبغوا في مصر في العصر الفاطمي أمثال محمد بن أحمد البازودي ، ومحمد بن أحمد العميدى ، ومحمد بن أحمد الجرجاني ، ومحمد بن الحسين بن عمير اليني صاحب أخبار النحويين ومضاهاة أمثال كلية ودمنة ، وهو أستاذ القاضي القضاعي ، وأمثال محمد بن حميد بن حيدرة ومحمد بن علي بن محمد أبوسهل الهروي الذي إليه كانت رئاسة المؤذنين بجامع عمرو

(١) راجع النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٠٥ وابن خلكان ج ١ ص ٢٣٥ وبقيّة الوعاة ص ٢٧٢

(٢) راجع بقيّة الوعاة ص ٢٣١ وابن خلكان ج ١ ص ٣٣٩ ، ومعجم الأدباء ج ١٢

ص ٢٧٩ (طبعة رفاعي) .

وأحمد بن مطرف المتوفى سنة ١٣٤٤ الذي ولى قضاء دمياط . وله تصانيف أدبية ولغوية . كما كان شاعرا له ديوان شعر ، وهو الذى أجاز لأبى عبد الله الصورى الحافظ .

وبجانب هؤلاء العلماء المصريين أو الذين استوطنوا مصر من البلاد الأخرى ، نرى عددا كبيرا من العلماء الذين كانوا يرحلون إلى الأقطار العربية فى طلب العلم أو الكسب به ، وفدوا على مصر وأقاموا بها ردحا من الزمان ثم تركوها إلى بلادهم أو إلى غيرها من البلدان ، ولكنهم تركوا فى مصر تلاميذ أخذوا عنهم علومهم ، كما استفادوا هم من علماء مصر ، نذكر من هؤلاء العلماء محمد بن عبد الله بن محمد بن ظفر المسكى ، ولد بمكة وقدم مصر فى صباه ورحل عنها إلى إفريقية وأقام بالمهدية مدة طويلة ، انتقل بعدها إلى صقلية ومنها إلى مصر ، ثم وفد على حلب وشاهد هناك الفتنة الكبرى بين الشيعة والسنة ، وفى هذه الفتنة نهبت كتبه فقصد حماة وأقام بها إلى أن مات سنة ٥٦٥ ، وكان لغويا أكثر منه نحويا ، وله من الكتب ينبوع الحياة فى التفسير ، التفسير الكبير ، الاشتراك اللغوى ، الاستنباط المعنوى ، القواعد والبيان فى النحو ، الرد على الحريرى فى درة الغواص ، المطول فى شرح المقامات ، وغيرها من الكتب (١) .

ومحمد بن أبى الفرج السكتانى الصقلى المعروف بالذكى النحوى ، كان من صقلية وطاف العالم الإسلامى حتى وصل إلى الهند ، وكان من أئمة النحو ، وتوفى بأصبهان سنة ٥١٦ هـ (٢) .

ومحمد بن يحيى مزاحم أبو بكر الخزرجى تلميذ القاضى القضاعى وراويته ، وكان نهاية فى علوم العربية ، وألف كتاب الناهج للقراءات بأشهر الروايات . وأصله من لشبونة ، ورحل إلى مصر حيث أنام بها ردحا من الزمن ، ثم عاد إلى مدينة بطليوس يحدث فيها بما رواه عن المصريين ، وتوفى بها سنة ٥٠١ هـ (٣) .
وإبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمى ، وهو كوفى رحل إلى الشام ومصر ثم عاد إلى موطنه وبه توفى فى شوال سنة ٤٦٦ ، وكان له حظ من الشعر وتفوق فى النحو

(٢) البقية ص ٩٥ .

(١) راجع بنية الوعاة ص ٥٩

(٣) البقية ص ١١٥ .

واللغة ، وهو صاحب القصيدة التي أنشدها وهو في مصر ، ومنها .
فإن تسأليني كيف أنت فإنني تشكرت دهرى والمعاهد والقربى
وأصبحت في مصر كما لا يسرنى بعيدا عن الأوطان منتزعا غربا
وإني فيها كأمري القيس مرة وصاحبه لما بكى ورأى الدربا
فإن أنج من بابي زوبله فتوبة إلى الله الأمس خفي لها تربا
ومن الطريف أن هذا العالم الشاعر حدثنا بأنه قال هذه الآيات وكان حصل
له من المستنصر بالله خمسة آلاف دينار مصرية^(١) ومع ذلك فإنه كان يشعر بشدة
الغربة عن بلاده

ونذكر من هؤلاء العلماء الرحالة عبد الله بن أبي سعيد الأندلسي النحوي الذي
كانت له حلقة في جامع عمرو الإفرأ وتوفي سنة ٥٢٠ هـ^(٢) . وعبد الجبار بن
محمد بن علي المعافري اللغوي الذي قدم مصر وأقرأ بها العربية ، ورحل إلى بغداد
حيث ألقى بها علومه وهو شيخ ابن بزي المصري^(٣) . ومنهم الحسن بن الوليد
القرطبي المعروف بابن العريف النحوي . فقد خرج إلى مصر ورأس فيها ومات
سنة سبع وستين وثلثمائة^(٤) ، كذلك نذكر نصر بن صدقة القابسي النحوي ، قدم
مصر وأخذ عن علمائها ثم توجه إلى معرة النعمان ، ولازم أبا العلا المعري وأخذ
عنه ديوان سقط الزند وكتب منه نسخة جيدة لنفسه ، وعاد إلى مصر فقدمها
للحاكم بأمر الله الفاطمي ، وقرأه عليه فأعجبه نظم المعري حتى قيل إن الحاكم
أرسل إلى عزيز الدولة الوالي بحلب أن يحمل المعري إلى مصر فاعتذر المعري^(٥) .
إذن نستطيع أن نلمس هذا النشاط في درس علوم اللغة بمصر في هذا العصر ،
وكيف كثر عدد العلماء ، وكثر إلتااجهم ، كما تعددت أما كن هذا الدرس ، ففي
الجامع الأزهر كانت تقام حلقات الدرس ، وفي دار العلم كان يجتمع العلماء والطلاب
وفي جامع عمرو بالفسطاط استمرت حلقات التدريس التي تحدثنا عن نشاطها في
كتابتنا ، أدب مصر الإسلامية ، ولم تسكن القاهرة والفسطاط مراكز الدرس
في مصر فحسب ، بل كانت الإسكندرية أيضا تزخر بالعلماء والطلاب ، وقد نقلت

(٣) البغية ص ٢٩٥ .

(٢) البغية ص ٢٨٢

(١) البغية ص ١٨٨

(٥) البغية ص ٤٠٣

(٤) البغية ص ٢٣٠

كتب التراجم عن الحافظ السلفي تراجم عدد كبير من العلماء والمتعلمين الذين شهدتهم الإسكندرية في هذا العصر ، والعلماء الذين وفدوا على الإسكندرية . كما يحدثنا السيوطي أن محمد بن حميد بن الأرقط الحسيني النحوي قرأ على القاضي الأديب بأسوان الأدب ، وظل بأسوان تؤخذ عنه علوم القرآن الكريم والأدب ، وانتقل الى قوص وتوفي سنة ٥٤١ هـ (١) . وكانت قوص من مراكز العلم في مصر ، وسنحدث عن ذلك كله فيما بعد . ومعنى هذا كله أنه كان بمصر مراكز كثيرة للعلم والثقافة بجانب القسطنطينية والقاهرة .

القراءات وعلوم القرآن :

من المعروف أن العلوم العربية والإسلامية إنما نشأت بسبب القرآن الكريم وما يدور حول دراسة القرآن من ضبط حروفه وتفسير غريبه ومعرفة أسرار إعجازه ، وتفهم معانيه ، فعلم النحو وعلوم اللغة لم تنشأ إلا بسبب القرآن ، فلا غرو أن رأينا هذه العلوم التي كانت تدور حول دراسة القرآن موضع اهتمام المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية ومنها مصر ، فقد عرفت مصر هذه العلوم منذ دخلها المسلمون على نحو ما ذكرناه من قبل في كتاب « أدب مصر الإسلامية » ، واستمرت هذه الدراسات تنمو وتزدهر حتى جاء الفاطميون فأولوا هذه الدراسات عنايتهم ورعايتهم ، ففي كل الحفلات التي كان يقيمها الفاطميون كان القراء في مقدمة الحاضرين يقرأون بين يدي الإمام ، وكان كل مقرئ يحاول أن ينال القربى من الإمام ليفوز بأكثر قسط من العطاء ، وكذلك كانت تختتم الحفلات بقراءة ما تيسر من القرآن الكريم ، فكان هناك قراء الحضرة الإمامية وهم أشبه شيء بموظفين رسميين في الدولة ، ولهم جاريهم الشهري سوى الهبات والخلع ، وكان عدد العلماء الذين اهتموا بهذه الدراسات كبيرا جدا ، كما كثرت كتبهم التي وضعوها في علوم القرآن الكريم ، نذكر من هؤلاء العلماء أبا الحسن علي بن إبراهيم بن سعيد الحرفي ، فقد كان عالما بالعربية وتفسير القرآن ، أخذ عن أبي جعفر النحاس وأبي بكر الأدفوي ، ولقي جماعة من علماء المغرب وأخذ عنهم ، وتصدر للإفادة في العربية وإعراب القرآن وتفسيره ، وأخذ عنه خلق كثير ، وله تفسير اسمه البرهان

في تفسير القرآن في ثلاثين مجلدا ، وله في إعراب القرآن كتاب علوم القرآن في عشر مجلدات ، وصنف في النحو كتاب الموضح في النحو ، وهو أستاذ إسماعيل بن خلف الصقلي المقرئ صاحب كتاب إعراب القراءات في تسع مجلدات ، توفي الحوفي سنة ٤٣٠ هـ (١) .

ونذكر كذلك عبد العزيز بن علي بن محمد بن إسحق أبا عدى المصرى المعروف بابن الإمام مسند القراء في زمانه ، قرأ على أبي بكر بن عبد الله بن مالك وقرأ عليه عدد من العلماء المعروفين أمثال طاهر بن غلبون ومسكى بن أبي طالب وابن نفيس وغيرهم ، وتوفي سنة ٣٨١ هـ (٢) .

ويقول صاحب الشذرات . إن ابن الإمام كان محققا ضابطا لقراءة ورش وأنه حدث عن محمد بن زبان وابن قديد وقرأ على أبي بكر بن سيف صاحب أبي يعقوب الأزرق (٣) . وكان أبو بكر الأدفوى محمد بن علي بن أحمد المصرى المقرئ النحوى المفسر شيخ مصر وعالمها في عصره ، كان أصله خشابا ثم أخذ العلم عن أبي جعفر النحاس النحوى ، وقرأ برواية ورش على أبي غانم المظفر ابن أحمد ، وبرع في علوم القرآن حتى ساد أهل عصره في مصر ، وانفرد بالإمامة في وقته في قراءة نافع ، وكانت حلقاته من أكبر الحلقات العلمية ، وله كتاب في التفسير في مائة وعشرين مجلدا سماه كتاب الاستفتاء في علوم القرآن . وتوفي في ربيع الأول سنة ٣٨٧ هـ (٤) ويقول السيوطى بل في سنة ٣٨٨ هـ (٥) .

ومن العلماء أيضا عبد الجبار بن أحمد الطرسوسى ، وكان شيخ القراء بمصر في زمانه ، ومن أساتذة أبي الظاهر إسماعيل بن خلف الصقلي ، وله كتاب المجتبى في القراءات . وتوفي سنة ٤٢٠ هـ (٦) . وكذلك نذكر فارس بن أحمد بن موسى بن عمران الضرير مؤلف كتاب المنشأ في القراءات الثمان ، وهو المذكور في باب التكبير في الشاطبية وتوفي سنة ٤٠١ هـ (٧) . ويروى بإقوت عن الحافظ السلفى : أن عثمان

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٣٣٢ ، والبقية ص ٣٢٥ وإقوت ج ٦ ص ١٦٥ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

(٣) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (طبع مصر سنة ١٣٥٠ هـ) .

(٤) شذرات الذهب ج ٣ ص ١٠١ (٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٠ .

(٦) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨١ (٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٨٢ .

ابن علي بن عمر السرقوسي الصقلي كان من العلم بمكان نحواً ولغة وقرأ القرآن على ابن الفحاح وغيره ، وله تواليف في القراءات والنحو والعروض ، وصارت له في جامع مصر حلقة للإقراء ، وقرأ على كثيرها وعلي من كنت أقرأ عليه كأبي صادق وابن بركات الفراء الموصلي وآخرين (١) .

وهكذا كان لعلوم القرآن في مصر مكانة خاصة ، وكثرت فيها المؤلفات بجانب غيرها من العلوم والفنون مما كان له أثره في الحياة العقلية المصرية . ونستطيع من هذه اللوحة التي أسلفناها أن نتبين أن الفاطميين الذين كانوا لا يتفقون في تفسير القرآن مع باقي المسلمين ، مدعين أن للقرآن الكريم تأويلاً باطنياً يخالف ما يقول به المفسرون ، قد أفسحوا صدورهم لتفسير هؤلاء العلماء الذين كانوا بمصر ، وسمحوا لهم بالتعلق في المساجد وإلقاء دروس التفسير على طلاب العلم ، فهذا يدل على أن الفاطميين كانوا متسامحين مع غيرهم من أصحاب الفرق والنحل الأخرى . وسنوضح ذلك فيما بعد .

رواية الحديث :

نشطت رواية الحديث في مصر كما كان عليه الأمر في البلاد الإسلامية الأخرى ، وكثرت الرحلة في طلبه ، وكانت مصر من أهم مراكز الرواية منذ دخول الإسلام ، ومن أشهر المحدثين الذين كانوا في مصر الفاطمية : أبو بكر محمد بن علي ابن حسن المصري نزيل تديس ، ولد سنة اثنتين وثمانين ومائتين وسمع النسائي وأبا علي وروى عنه الدارقطني وغيره وتوفي سنة تسع وستين وثلاثمائة (٢) . ومعاصره الحسن بن رشيق ، أبو بكر محمد العسكري المصري ، روى عن النسائي أيضاً ، وعنه أخذ الدارقطني وعبد الغني بن سعيد ، وفيه يقول ابن الطحان في تاريخه الذي جعله ذليلاً لتاريخ ابن يونس المصري : « ما رأيت عالماً أكثر حديثاً منه ، ولد في صفر سنة ثلاث وثمانين ومائتين ، وتوفي في جمادى الآخرة سنة سبعين وثلاثمائة (٣) » .

والمحدث الجوال أبو الفتح عبد الواحد بن محمد المعروف بابن مسرور البلخي روى عن ابن سعيد بن يونس ، وروى عنه عبد الغني بن سعيد ، وأقام بمصر وتوفي سنة ثمان وسبعين وثلاثمائة (٤) .

(١) ياقوت معجم الأدباء ج ١٢ ص ١٣٠ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٩٩ (٣) المصدر السابق (٤) المصدر السابق .

ومن أشهر الحفاظ في هذا العصر أبو محمد عبد الغني بن سعيد الأزدي ، ولد سنة ثلاث وثلاثين وثلثمائة ، وتوفي والده بعد خمس سنوات من ولادته ، ونشأ عبد الغني محبا للحديث ، فروى عن حمزة بن محمد المعروف بأبي القاسم السكسني المصري^(١) وأبي بكر محمد بن علي وابن مسرور البلخي ، ثم اتصل بالدارقطني ولازمه وروى عنه ، وقيل إن الدارقطني سئل : هل رأيت في الحديث أحدا يرجي علمه ؟ فقال : نعم ، رأيت شابا بنصر كأنه شعلة نار يقال له عبد الغني . ولما خرج الدارقطني من مصر جاءه المودعون ، وتحزنوا على مفارقتهم وبكوا ، فقال لهم : لقد تركت عندكم خلفا ، يعني عبد الغني ، وقيل أيضا : إن عبد الغني لما صنف كتابه المؤلف والمختلف عرضه على الدارقطني ، فقال له : اقرأه ، فقال : كيف أقرؤه لك ومعظمه أخذته عنك ؟ فقال : نعم أخذته عن متفرقا والآن قد جمعتها^(٢) وروى عن الدارقطني أيضا أنه كان يقول عنه : ما رأيت في طريقي مثله ، ما اجتمعت به وانفصلت عنه إلا بفائدة^(٣)

وكان بين عبد الغني بن سعيد وبين أبي أسامة جنادة اللغوي وأبي علي المقرئ الانطاكي مودة أكيدة واجتماع في دار العلم ومذاكرات ومحادثات ، فلما أمر الحاكم بأمر الله بقتل جنادة وأبي علي الانطاكي استتر عبد الغني خوفا من أن يلحق بهما لصدافته لهما ، وأقام مستخفيا مدة حتى حصل له على الأمر فظهر وتوفي في صفر سنة ٤٠٩ هـ ، وقيل سنة ٤١٠ هـ ، ولما أراد الحاكم بأمر الله بناء جامع جعل الحفاظ عبد الغني بن سعيد على بنائه ونظره^(٤) . وقد طبع كتابه المؤلف والمختلف بالهند سنة ١٣٢٦ هـ

ولعل أشهر المحدثين الذي شهدتهم مصر في أواخر الدولة الفاطمية هو الحفاظ السلفي وكان متقنا ناقدا ثبتا دينا خيرا ، انتهى إليه علو الاستناد ، وكان أوجد زمانه في علم الحديث وأعلمهم بقوانين الرواية^(٥) ، ويقول صاحب النجوم : وكان طاف الدنيا ولقى المشايخ ، وكان يمشي حافيا لطلب العلم والحديث^(٦) . ورد بغداد فأخذ عن أبي الحسن المراس علوم الفقه وعن الخطيب التبريزي علوم اللغة ، كما روى عن

(١) النجوم الزاهرة (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٠٥

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٤٤ (٤) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٩

(٥) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٠ (٦) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٨٧

أبي محمد جعفر بن السراج وغيره ، سم دخل دمشق وأخذ عن علماءها ودخل
الاسكندرية سنة ٥٢١ هـ واستوطنها فقصده الناس وسمعوا عليه ، وبني له العادل
ابن الحسن علي بن السلار وزير الظافر الفاطمي مدرسة بالاسكندرية سنة ٥٤٦ هـ
وفوض أمرها إليه (١) ، وصار إليه الهجرة في الحديث حتى لم يكن في آخر أيامه
مثله ، ومن أشهر تلاميذه جمال الدين عبد الرحمن بن حفص الصقراوى الاسكندرى
والحافظ أبو الحسن علي بن فاضل الصورى والحافظ شرف الدين السكندرى
 وغيرهم من حفاظ الحديث الذين ظهروا في العصر الذى يلي هذا العصر الذى نورخه
ولما وفد أبو حامد الغزالي على الاسكندرية لقي الحافظ السلفى وتباحثا في بعض
المسائل ، أما كتبه وأماليه فهى كثيرة ، وكذلك كان له بعض مقطعات من
الشعر ، فمن قوله في كبر سنه :

أنا إن بان شباني ومضى فلربى الحمد ، ذهني حاضر
ولئن خفت وجفت أعظمي كبراً ، غصن علومى ناضر (٢)

ذلك أن السن تقدمت به حتى قيل إنه جاوز المائة بخمس سنين ، إذ توفى سنة
ست وسبعين وخمسة مائة . ومن الرحالين الذين وفدوا على مصر في هذا العصر
في طلب الحديث ، الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي الأندلسى ،
ولقى بمصر والاسكندرية جماعة من المحدثين روى عنهم ، كما استفاد بعض المصريين
منه ، وعاد إلى الأندلس سنة ٤٩٣ هـ (٣) . وأبو الفضل محمد بن طاهر المقدسى
المعروف بابن القيسرانى ، وكان أحد الرحالين في طلب العلم والحديث بوجه خاص ،
روى بالحجاز والشام ومصر والثغور والجزيرة والعراق وفارس ، وتوفى ببغداد
سنة ٥٠٧ هـ (٤) .

دراسة مذاهب أهل السنة :

وهنا نعرض لموضوع كثر فيه اختلاف الكتاب منذ العصر الفاطمى إلى
الآن ، فقد ذهب أكثر المؤرخين إلى أن الفاطميين كانوا شديدي التعصب

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣١ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٦ ص ١٧ . (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨٩ .

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٨١ .

لمذهبهم الديني ، وتطرفوا في عصبيتهم حتى إنهم أكرهوا الناس على اعتناق عقيدتهم رهبة لارغبة ، وإنهم في سبيل ذلك اضطهدوا علماء مذاهب أهل السنة بل أفنؤهم تقيلاً ، ويقول السيوطي : إن الفاطميين أفنؤوا من كان بمصر من أئمة المذاهب الثلاثة — أي الشافعية والمالكية والحنفية — قتلاً ونفياً وتشريداً وأقاموا مذهب الرافض والشيعه (١) ، وذهب قليل من المؤرخين المحدثين إلى أن الفاطميين كانوا أهل تسامح ورفق بالرعية ، وأن جوهر الصقلي أعطى الأمان للمصريين بأن يختاروا المذهب الديني الذي يرتضونه ولا إكراه في الدين ، وبلغ تسامح الفاطميين إلى أن استخدموا في أكبر وظائف الدولة من لم يكن مسلماً ، فكان من الوزراء والنواب في الأقاليم وكتاب دار الإنشاء من كان مسيحياً أو يهودياً ، أما الاضطهاد الذي حاق بأهل السنة فقد كان في أيام الحاكم بأمر الله الذي عرف بالتقلب في سياسته وأحكامه .

فقهاء الشافعية :

وإذا نظرنا في كتب الطبقات والتاريخ رأينا عدداً كبيراً من علماء مذاهب أهل السنة كانوا يعيدشون في مصر الفاطمية ، ويلقون تعاليمهم على جمهور المستمعين تحت بصر رجال الدولة الفاطمية ودعاة دعوتهم دون أن يسهم سوء . فمن علماء مذهب الشافعي القاضي أبو الفضل محمد بن أحمد بن عيسى البغدادي نزيل مصر فقد أملى بها وأفاد حتى توفي سنة ٤٤١ هـ (٢) ، وأبو القاسم نصر بن بشر بن علي فقد كان فقيهاً محققاً ومناظراً مبرزاً وتوفي سنة ٤٧٧ هـ (٣) . والقاضي أبو الحسن علي بن الحسين الموصل الخلي المولود بمصر سنة ٤٠٥ هـ وكان فقيهاً مشهوراً له تصانيف وروايات متسعة وكان أعلى أهل مصر إسناداً ، وجمع له أبو نصر أحمد ابن الحسن الشيرازي عشرين جزءاً وخرجها عنه وسماها « الخليجات » وبالرغم من أنه كان شافعي المذهب فقد ولاه الفاطميون القضاء سنة ٤٥٠ هـ ولكنه استقال بعد يوم واحد ومات بمصر سنة ٤٩٢ هـ وينسب إليه مسجد الخلي بالقرافة ، وكان والده أيضاً من فقهاء الشافعية ، توفي بمصر سنة ٤٤٨ هـ (٤) .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧ وتاريخ بغداد .

(٣) المصدران السابقان .

(٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ وابن ميسر ص ٣٩ .

ومن فقهاء الشافعية أيضاً في ذلك العصر أبو الفتح سلطان بن إبراهيم بن مسلم المقدسي ، الذي قال عنه الحافظ السلفي : كان من أفضه الفقهاء بمصر ، وعليه قرأ أكثرهم ، ولد بالقدس سنة ٤٤٢ هـ وتفقه على الشيخ نصر المقدسي ثم دخل مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٥١٨ هـ (١) .

وكذلك نقول عن أبي الحجاج يوسف بن عبد العزيز بن علي الميورقي الذي اتخذ الإسكندرية موطن له وصنف تعليقه في الخلاف بين الفقهاء ، وهو أحد الذين روى عنهم الحافظ السلفي ، وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٢٣ هـ (٢) ومجلى ابن جميع بن نجا المخزومي المصري صاحب كتاب الذخائر ، تفقه على سلطان المقدسي وبرع في فقه الشافعي حتى صار من كبار الأئمة ، وتفقه عليه جماعة منهم العراقي شارح المذهب ، وبالرغم من تدمجه بمذهب يخالف مذهب أولى الأمر في البلاد فقد ولي القضاء سنة ٥٤٧ هـ ومكث في القضاء عامين ، ومات سنة ٥٥٠ هـ ومن تصانيفه كتاب أدب القضاء وكتاب الجهر بالبسملة (٣) .

وأبو محمد عبد الله بن رفاعة بن غدير السعدي المصري الذي ولي قضاء الجيزة فقد كان فقيها ماهرا في الفرائض ، أخذ عن الخلعي ولازمه مدة طويلة ، وهو آخر من حدث عنه ، ثم ترك القضاء واعتزل في القرافة متعبداً إلى أن توفي سنة ٥٦١ هـ (٤) وسنتحدث في فصل التاريخ عن القاضي القضاعي الشافعي وكيف ولي القضاء ، وولي ديوان الإنشاء بالرغم من شافعيته ، وأنه صنف كتابا في مناقب الإمام الشافعي وأخباره ، وكتاب الشهاب في فقه الشافعية (٥) .

وهكذا نرى عددا كبيرا من فقهاء الشافعية كانوا يعيشون في العصر الفاطمي ، ومنهم من ولي القضاء أو غيره من مراتب الدولة الفاطمية ، دون أن يكون لظاهر مخالفتهم لمذهب الدولة أثر في حياتهم العلمية أو العملية .

فقهاء المالكية :

وكذلك نقول عن فقهاء المالكية ، فقد وجد في مصر الفاطمية عدد كبير منهم ، أمثال محمد بن سليمان المعروف بأبي بكر النعمال الذي كانت إليه إمامة

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق وابن ميسر ص ٩٥ .

(٣) المصدر السابق

(٤) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٢ .

(٥) المصدران السابقان .

المالكية في وقته وإليه كانت الرحلة بمصر ، وكانت حلقة في الجامع تدور على سبعة عشر عموداً ، لكثرة الطلاب الذين كانوا يقصدونه للأخذ عنه ، وتوفي سنة ٣٨٠ هـ (١) .

وأبو القاسم الجوهري عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي المصري صاحب مسند الموطأ المتوفى في شهر رمضان سنة ٣٨٠ هـ (٢) .

ونحن جميعاً نعلم قصة الفقيه المالكي عبد الوهاب بن علي ، أحد الأئمة المجتهدين في المذهب حتى وصفه الخطيب في تاريخ بغداد بأنه لم ير في المالكية أفقه منه ، ونعلم كيف وفد إلى مصر لضيق حاله في بغداد ، وكيف أكرمه المصريون حتى تمول وحسنت حاله ، ولما أدركه المرض كان يقول : لا إله إلا الله ، عندما عشنا متناً ، وتوفي بمصر ٤٢٢ هـ .

ونسلم في هذا العصر عن عبد الجليل بن مخلوف الصقلي الذي قال ابن ميسر عنه : إنه أفتى بمصر أربعين سنة ومات بها سنة ٤٥٩ هـ . وعن علي بن الحسن بن محمد ابن العباس الفهري صاحب كتاب فضائل مالك وشارح الموطأ . وعن أبي بكر الطرطوشي محمد بن الوليد الأندلسي نزيل الإسكندرية ، وكان كسّير الرحلة في طلب العلم فسافر إلى العراق وسمع ببغداد ثم استوطن الإسكندرية واتصل بالوزير المأمون البطائحي الذي أكرمه فصنّف له الطرطوشي كتاب « سراج الملوك » . وكان له عدة من التلاميذ أمثال سند بن عفان بن إبراهيم الأزدي الذي خلفه في حلقة ، والذي شرح المدونة . وتوفي الطرطوشي سنة ٥٢٥ هـ وتوفي تلميذه سنة ٥٤١ هـ . إذن تستطيع أن تطمئن إلى أن دراسة مذهب مالك استمرت في مصر في العصر الفاطمي بجانب مذهب الشافعي بالرغم من أن الفاطميين كانوا يوجهون النقد اللاذع إلى هذين المذهبين ، وأن دعاة المذهب الفاطمي كثيراً ما كانوا يتناولون بالتجريح هذه المذاهب السنية في مجالس حكمتهم وفي أشعارهم ، وها هو ذا الداعي المؤيد في الدين يقول :

فما أبو حنيفة والشافعي حيشهم قد نفعوا بنافع (٣)

ويقول مرة أخرى :

وتزِيل لبس الشافعي ومالك بيان زين العابدين وجعفر

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥٦ . (٢) المصدر السابق .

(٣) القصيدة الأولى من ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة (من مطبوعات دار الكتاب المصري)

وقياس قيَّاس غدا متبرجا بالإعتزال وترهات المجر (١) بيد أن الفاطميين تركوا لفقهاء هذه المذاهب حريتهم العقلية، وسمحوا لهم بالتعلق في المسجد وإلقاء تعاليم المذاهب السنية على من يشاء من الطلاب، وقد ذكرنا أن الحاكم بأمر الله لما أمر بعمارة دار العلم ونقل إليها الكتب من القصر، أسكنها من شيوخ السنة شيخين أحدهما أبو بكر الأنطاكي وخلع عليهما وقربهما وسمح لهما بحضور مجالسه وملازمته. وأنه جمع الفقهاء والمحدثين إلى دار العلم ويحدثنا عمارة اليميني أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يلقى في ولايته فقهاء السنة ويسمع كلامهم (٢)، مع ما كان عليه الملك الصالح من إفراط في التعصب لمذهبه (٣).

تعصب الفاطميين لمذهبهم ١١

أما هذه المسألة التي أثارها المؤرخون حول تعصب الفاطميين أو تسامحهم، فيخيل إلى أن الفاطميين كانوا يميلون إلى صبغ البلاد كلها بصبغة مذهبهم، أحيانا بالترغيب وأحيانا بالترهيب، فكان الدعاة يؤدون واجبه في تشكيك المسلمين في مذاهبهم السنية ويحبسون إليهم المذهب الفاطمي، فمن المصريين من استجاب لهذه الدعوة عن رغبة بعد أن اقتنع بأقوال الدعاة، ومنهم من استجاب لغرض التقرب إلى الحاكمين عساه يجد حظوة لديهم وينال مآربه، وهذا اللون من الناس كثير في كل البيئات والأقاليم، ومن المصريين من امتنع عن التحول عن مذهبه الديني، واستمر يحافظ على عقيدته التي دان بها والتي نشأ عليها أبواه ولو أدى ذلك إلى تعسف الحاكمين معه، وإذا كان الفاطميون استعملوا السيف في سبيل نشر عقيدتهم وإخضاع الخارجين على مذهبهم، فهذا أمر طبيعي نجد مثيلا له في ظل كل الحكومات التي لها نزعة خاصة حتى في عصرنا الحاضر، فقد رأينا اليوم ألوانا مختلفة من الحكومات الفاشية والشيوعية والنازية ركبها تحاول فرض سلطانها ومبادئها في بلادها وأن تصبغ هذه البلاد بصبغتها الخاصة، وأن تحكم بالقوانين التي سنتها نظمتها، ولو أدى ذلك إلى القتل والنفي والتشريد لكل من حاول مخالفة تلك النظم والقوانين، رأينا ذلك كله ولمسناه في هذا العصر الحديث، فلانستطيع أن ننكر أن الفاطميين الذين حكموا مصر منذ ألف عام تقريبا كانوا يستعملون وسائل الارهاب لمخالفة عقيدتهم، ولا سيما أن الشيعة عامة ذاقوا من العذاب والتنكيل على أيدي خصومهم ما يتحدث به كتب التاريخ.

(١) من القصيدة السابعة من ديوان المؤيد في الدين .

(٢) الفتك العصرية ص ٤٥ . (٣) النكت ص ٤٨ .

كان الفاطميون منذ أوائل حكمهم بمصر الى آخر عهد الظاهر يحكمون بأنفسهم ولم يكن الوزراء قد بلغوا من القوة والاستبداد بالأمر هذا المبلغ الذي نراه في عهد المستنصر ومن بعده من خلفاء الفاطميين، ففي هذا العصر الأول كان اضطهاد أهل السنة أمراطيعيا لتثبيت أركان الدولة وحماتها من أعدائها أموي الأندلس في الغرب، ومن العباسيين في الشرق، فكانت السياسة تقضى على الفاطميين أن يكونوا على حذر من كل مخالف لعقيدتهم، وأن يشحذوا السيف لكل من تحدته نفسه بالخروج على سلطتهم، ولا سيما أن العباسيين وأموي الأندلس أخذوا يسيئون إلى الفاطميين في نسبهم وفي عقائدهم، وحاربوا الفاطميين بالسيف طورا وبالديعة طورا آخر، فكتبوا المحاضر في نسب الفاطميين، وطلبوا من العلماء والكتاب الطعن في عقائد الفاطميين مثل ما نراه في كتب الغزالي وغيره فاضطر الفاطميون إلى أن يكونوا على يقظة من أمرهم إذا جدد الجدد، وأن يعتبروا كل من لم يعتقد عقيدتهم عدو لهم، وبهذا نستطيع أن نفسر تطورات الحاكم بأمر الله في سياسته، فكان حينما يقرب أهل السنة ويغدق عليهم أمواله وطورا يشتمت شملهم ويعمن فيهم بالقتل والسجن، وهو في كلا الأمرين مضطر إلى اتخاذ هذه السياسة أو تلك على حسب مقتضى الحال مع خصومه وأعدائه، فالحاكم بأمر الله لم يكن مجنونا كما يصور في كتب التاريخ، وإنما كان سياسيا حازما في سياسته، يعفو في وقت العفو ويقتل حين يشتد به الأمر، وهكذا كان الحال في سياسة الفاطميين نحو أهل السنة.

فحينما ترى الفاطميين لا يفرقون بين أصحاب الفرق الاسلامية أو الذمية فهم يستخدمونهم في وظائف الدولة، ولا يتعرضون لهم بمقت ولا أذى، وقد قال القاضي النعمان في كتابه المجالس والمسائرات (١): « لما قلدني القضاء بالمنصورية رأيت قوما لم يصلوا إلى الدعوة ورأيت فيهم مقاربة ورجوت أن يهديهم الله إن فتح في ذلك لعباده، فلما جاء الله من ذلك بما هياه لخلقه من فتح باب رحمته لعباده تخلفوا، ورجوت أن يحاسبوا أنفسهم، ورمزت لهم وطارحتهم فلم أرهم يقبلون على شيء، فواجهتهم وكلمتهم واحتججت عليهم وناظرتهم حتى قطعتم فلم يزدهم ذلك إلا تماديا في الغي وإصرارا على الجهل، فنقل على أمرهم وكرهت جانهم وأبغضت رؤيتهم وسممت صحبتهم، فأردت الاستبدال بهم، فرفعت ذلك إلى

(١) المجالس والمسائرات ورقة ٧٣ ب (نسخة خطية بمكتبتي).

المعز ، فوقع إلى فيهم: « أبقهم على خدمتك فان يفيء الله بهم فسعادة ساقها الله إليهم وثواب يصير اليك بما بذلته من النصيحة لهم ، وإلا فلا يمنعك جهل الحمر المستنفرة من الانتفاع بها في بعض مصالحك، ويكوفون بعد كما قال الله عز وجل: « عاملة ناصبة تصلي نارا حامية »

وحينا آخر كان الفاطميون يضطرون اضطرارا إلى أخذ أهل هذه المذاهب بالشدة والعنف . حتى ولي المستنصر بالله سنة ٢٧٤ هـ فأخذ الوزراء ورجال الدولة كل سلطة من الخلفاء، واستطاع الوزراء أن يكونوا هم أصحاب السلطة الفعلية في البلاد، وأصبح الخليفة الفاطمي العوبة في أيدي وزراءه وليس له من الأمر إلا الخطبة . وظهر بين الوزراء من كان على مذهب يتخالف المذهب الفاطمي (١)، هنا نرى حدة العصبية الأولى تخف، وتعود إلى الناس حرية العقيدة أكثر مما كانت من قبل ؛ بل ذهب الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل بن بدر الجمالي إلى أن يعين للبلاد أربعة قضاة ، اثنين من الشيعة واثنين من أهل السنة، فالشيعيان أحدهما فاطمي المذهب والآخر إمامي المذهب ؛ والسنين أحدهما شافعي والآخر مالكي ، وأعطى لكل واحد السلطة المطلقة في إصدار أحكامه على وفق مذهبه (٢) . وقد ذكرنا أن الوزير أبا الحسن علي بن السلار وزير الظافر كان ظاهر التنسني شافعي المذهب وهو الذي أنشأ مدرسة للشافعية بالإسكندرية وفوض أمرها إلى الحافظ السلفي (٣) ، وهكذا بدأ الضعف يدب في الدولة الفاطمية والمذهب الفاطمي نفسه ، حتى هم بعض الوزراء في مصر إلى تسيير الدعوة لابني صاحب عدن ، ويقول عمارة اليمني في ذلك : إن الداعي ابن عبد القوي والأجل الفاضل ، وشاور ، والكامل ، عزموا على أن يتبرعوا ابتداء بتسيير الدعوة لولدي صاحب عدن بعد موته ، ثم قال شاور: أحضروا فلانا (يعني عمارة) وخذوا ما عنده، ولم يبق في النوبة إلا صرهما، فلما حضرت وأعلموني منعتمهم وقلت: إن أهل اليمن إنما يبعثون لكم الهدايا والتحف والنجاوى ويتولونكم لأجل الدعوة، فإذا تبرعتم بها فقد هوتم حرمتها ، فرجع الجميع عما كانوا عليه (٤)

(١) راجع ما كتبناه عن ذلك في مقدمة كتاب المجالس المستنصرية .

(٢) أخبار مصر لابن ميسر ص ٧٥ (٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٧٠ .

(٤) النكت ص ٩٢ .

وقصة أخرى رواها عمارة أيضا تدلنا على ما بلغ اليه التهاون في عقيدة الفاطميين ، ذلك أن سيف الدين الحسين بن أبي الهيثم صهر الصالح بن رزيك توفى ومسح رجليه ولم يغسلها - على حسب عقيدة الفاطميين - فتناول عمارة الأبريق وسكب الماء على رجليه ، فغذبهما وهو يضحك ، فقال عمارة : إن كان الحق معكم في مسح الرجلين يوم القيامة فما نعطي ولا نعاقب على غسلها . وإن كان الحق معنا في غسل الرجلين خرجتم من الدنيا بلا صلاة لأنكم تتركون غسل الرجلين وهو فرض . فكان سيف الدين يقول له بعد ذلك : والله لقد أدخلت على قلبي الشك والسواس بكلامك في مسألة الوضوء (١)

ولعل قصة محاولة إدخال عمارة النيني في الدعوة من القصص التي تريتنا أن القائم بأمر الدولة الفاطمية في أواخر عهدها لم يأبهوا بأمر المذهب وأنهم كانوا يتسامحون مع مخالفيهم إلى حد بعيد ، فبالرغم من أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان شديد التعصب لمذهبه الفاطمي ، وأنه أدخل عددا من المسلمين في مذهبه فإنه لم يستطع أن ينجح في محاولته مع عمارة ، يقول عمارة : وكانت تجرى بحضرتة مسائل ومذاكرات ويأمرني بالخوض مع الجماعة فيها وأنا بمعزل عن ذلك لأنطق بحرف واحد ، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين في مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل : « فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره » ونهضت فخرجت فأدركني الغلمان ، فقلت : حصة يعتادني وجعها . فتركوني وانقطعت في منزلي أياما ثلاثة ورسوله يأتي في كل يوم والطبيب معه ، ثم ركبته بالنهار فوجدته في البستان المعروف بالختصر في خلوة من الجلساء ، فاستوحش من غيبتى ، فقلت : إنى لم يكن بي وجع وإنما كرهت ما جرى في حق السلف وأنا حاضر ، فإن أمر السلطان بقطع ذلك حضرت ، وإلا فلا ، وكان لي في الأرض سعة وفي الملوك كثرة . فعجب من هذا وقال : سألتك بالله ما الذي تعتقده في أبي بكر وعمر ؟ قلت : أعتقد أنه لولا لهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم ، وأنه مامن مسلم إلا ومحبتها واجبة عليه ، فضحك . وبعد أيام جاءت عمارة رقعة فيها أبيات بخط الملك الصالح ، ومعها ثلاثة أكياس ذهب ، وفي الرقعة :

قل للفقيه عمارة يا خير من
أضحى يؤلف خطبة وخطابا
أقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى
قل (حطة) وادخل إلينا البابا
تلق الأئمة شافعين ، ولا تجد
إلا لدينا سنة وكتابا
وعلى أن يعلو محلك في أورى
وإذا شفعت إلى كنت مجابا
وقبضت آلافا وهن ثلاثة
صلة وحقك لا تعد ثوابا

فأجابه عمارة مع الرسول بهذه الآيات :

حاشاك من هذا الخطاب خطابا
يا خير أملاك الزمان نصابا
لكن إذا ما أفسدت علمساؤكم
معمور معتقدى وصار خرابا
ودعوتم فكبرى إلى أقوالكم
من بعد ذاك أطاعكم وأجابا
فاشدد يدك على صفاء محبتي
وأمنن على وسد هذا البابا (١)

ولا أدري كيف سكت الملك الصالح بعد أن طعن عمارة مذهب الفاطميين
بالبيت الثاني من هذه المقطوعة ، ولكن الأمر لم يكن أمر تعصب من الملك
الصالح بن رزيق ، بل هو أمر تهاون بالمذهب شمل الأمراء وغير الأمراء ، ولعل
هذا الضعف الذى حل بالعقيدة الفاطمية هو الذى سهل الأمر لصلاح الدين
الأيوبى فى أن يقوض أركان الدولة المتداعية وأن يعيد إلى الناس عقيدة أهل السنة
والجماعة ، وقيل الناس منه ذلك ، فتحولت مصر بعد عشية وضحاها من شيعية
إلى سنية ، لأن الدعوة الشيعية لم تكن متغلغلة فى نفوس المصريين ، وأن الذين
اعتنقوا هذه الدعوة تهاونوا بها ، فسهل على الأيوبيين أن ينتزعوها منهم .

(١) النكت ص ٤٣ وما بعدها .

الفصل الثالث

التاريخ والسير

رأينا في عصر الولاية بمصر (١) كيف أسهم المصريون في تدوين التاريخ منذ القرن الثاني للهجرة ، وعرفنا بعض المؤرخين الذين نبغوا في العصر الذي سبق العصر الفاطمي ، أمثال عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم ، وعمار بن وسيمة المصري ، وابن يونس والكندي وابن الداية وغيرهم ، وقد استمر تيار هذا اللون من العلم طوال العصر الفاطمي ، فظهر عدد كبير من المؤرخين ، وحفظت لنا أسماء مؤلفاتهم ، وبعض مقتطفات من كتبهم متفرقة في كتب التواريخ ، ففي كتب المقرئ بن أبي المحاسن بن تغري بردي والسيوطي وابن فضل الله العمري والنويري والقلقشندي مقتبسات كثيرة من الكتب التي وضعها مؤرخو مصر الفاطمية ، وهذه المقتطفات تدلنا على أن مؤرخي مصر في العصر الفاطمي كانوا يهتمون اهتماما خاصا بمصر ، فأكثر كتبهم كانت تدور حول مصر ، وإن كان منها ما كتب في التاريخ العام .

فمن المؤرخين الذين شاهدوا هذا العصر ، أحمد بن عبد الله بن أحمد الفرغاني ، ولد بمصر في ذي الحجة سنة ٣٢٧ هـ ، وكان أبوه مؤرخا صاحب ابن جرير الطبري وروى عنه تصانيفه ، وأخذ أحمد بن عبد الله عن أبيه كتبه وكتب الطبري وصنف عدة كتب منها كتاب التاريخ وصل به تاريخ أبيه ، وكتاب سيرة كافور الأخشيدى ، وسيرة العزيز بالله الفاطمي ، وكان مقامه بمصر إلى أن توفي في ربيع الأول سنة ٣٩٨ هـ (٢) .

ابن زولاق :

وشهد هذا العصر المؤرخ المصري الكبير الذي أخذ عنه كل من جاء بعده من المؤرخين الذين تحدثوا عن مصر ، ذلك المؤرخ هو الحسن بن إبراهيم الليثي المصري المعروف بابن زولاق ، فقد كان من أعيان علماء مصر ولد سنة ست

(١) راجع كتاب أدب مصر الإسلامية (من مطبوعات دار الفكر العربي) .

(٢) معجم الأدباء لياقوت ج ٣ ص ١٠٥

وثلاثمائة ، وروى الحديث ، وأخذ عنه بعض المحدثين أمثال عبد الله بن دهبان وغيره ، وأولع بالتاريخ فروى عن الكندي وابن قديد وابن الداية ، يقول ابن زولاق : كان أبو جعفر أحمد بن يوسف بن إبراهيم الكاتب (أى ابن الداية) قد عمل سيرة أحمد بن طولون أمير مصر ، وسيرة ابنه أبي الجيش ، وانتشرا في الناس ، وقرأتهما عليه ، وحدثت بهما عنه مع غيرهما من مصنفاته ، ثم عملت أنا ما فاتهما من سيرتهما (١) ،

وكان ابن زولاق من فرط حبه لرواية التاريخ كثيراً ما ينفد :

مازلت تكتب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوباً (٢)

وصنف ابن زولاق عدة كتب منها سيرة محمد بن طعج الأخشيد ، وكتاب أخبار سيديو المصري ، وكتاب سيرة المادرائين — وقد طبعت هذه الكتب كلها . وكتاب فضائل مصر (منه نسخة خطية بمكتبة الأزهر وأخرى بدار الكتب المصرية وثالثة بالمكتبة الأهلية بباريس) وكتاب سيرة كافور ، وكتاب سيرة جوهر ، وكتاب سيرة المعز ، وكتاب سيرة العزيز ، وكتاب التاريخ الكبير على السنين ، وله تذييل على كتاب الولاة للكندي وآخر على كتاب القضاة للكندي أيضاً ، وكتاب خطط مصر ، وأكثر هذه الكتب فقدت ولم يبق منها إلا شذرات متفرقة في الكتب . وإذا نظرنا إلى الكتب التي حفظت إلى الآن ترى ابن زولاق يدون ما سمعه من الثقات العدول من معاصريه أو ما شاهده بنفسه من أحداث ، فهي سجلات حوادث يتلو بعضها بعضها دون أن يكون هناك رابطة بين الحادثة والأخرى ، فالكتب ليست بكتب تاريخ على النحو الذي نفهمه الآن من كتب التاريخ ، بل هي أشبه شيء بجرائد الأخبار في عصرنا الحديث ، وإن كان الكتاب الواحد يجمع الحوادث التي حدثت في عصر ملك من الملوك ، ولم تقسم الكتب إلى أبواب وفصول ، بل هي كما قلت مجرد سرد للحوادث ، كما أن أكثرها ليس مرتباً على السنين أو على حسب وقوع الأحداث التي ذكرها ، فقد تجد حادثة في أول الكتاب وتاريخ حدوثها بعد الحوادث التي جاءت بعدها ، ومهما يكن من شيء فقد كان تأليف كتب السير في ذلك العصر على هذا النحو الذي نراه في كتب ابن زولاق ، وبالرغم من ذلك فقد كانت كتب ابن زولاق مصدراً هاماً من المصادر

(١) المغرب في حلى المغرب ص ٤ .

(٢) هذا البيت من قصيدة أنشدها أحد شعراء مصر في رثاء أبي سعيد عبد الرحمن بن

أحمد بن يونس بن عبد الأعلى المؤرخ المصري المتوفى سنة ٣٤٧ هـ .

التي اعتمدها المؤرخون الذين تحدثوا عن مصر بعده . فابن خلكان ، والنويري ،
وابن حجر العسقلاني ، والسيوطي ، وابن دقماق ، وأبو المحاسن ، وياقوت ،
والقلقشندي ، والعمري وغيرهم نقلوا كثيرا من مادة كتبهم عن كتب ابن زولاق ،
وكانوا يطلقون عليه « مؤرخ مصر » مما يدل على قيمة كتبه وأخباره ، ولا غرو
في ذلك فقد كان محدثا ، والمفروض في المحدث أن يكون صدوقا فيما يرويّه ، وقد
تكون ميزه ابن زولاق الكبرى هي صدق أخباره ، حتى عرف بذلك بين معاصريه
أنفسهم ، فاستطاع أن يكتسب مكانة رفيعة في نفوسهم ، وقد ذكرنا قصته مع
الوزير يعقوب بن كلس . وتوفي ابن زولاق في عهد الحاكم سنة سبع وثمانين
وثلاثمائة من الهجرة (١) .

المسيحي :

ومن مؤرخي هذا العصر الذين كثر نقل المتأخرين عنهم ، المؤرخ الأمير
المختار عز الملك محمد بن أبي القاسم عميد الله بن أحمد المعروف بالمسيحي ، الحراني
الأصل ، المصري المولد والنشأة ، ولد في رجب سنة ست وستين وثلاثمائة ، واتصل
في صباه بخدمة الحاكم بأمر الله في زمرة جنده ، وما زال يرقى في مراتب الجندية
حتى صار أميراً على إقليم البهنسا والقيس من أعمال صعيد مصر ، ثم ولي ديوان
الترتيب ، وينقل عنه أنه كان له مع الحاكم بأمر الله مجالس ومذاكرات أودعها
كتابه « التاريخ الكبير » الذي وصفه بقوله : التاريخ الجليل قدره ، الذي يستغنى
بمضمونه عن غيره من الكتب الواردة في معانيه ، وهو أخبار مصر ، ومن حلها
من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف
أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها ، وأشعار الشعراء ،
وأخبار المغنين ، ومجالس القضاء والحكام والمعدلين والأدباء والمتفرجين
وغيرهم . وهو في ثلاثة عشر ألف ورقة . ويدلنا هذا النص على أن المسيحي لم
يهتم بالتاريخ السياسي فحسب ، بل أراد أن يجعل من كتابه موسوعة عامة عن مصر
من ناحيتها السياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، ومن المؤلم حتماً أن يضيع
مثل هذا الكتاب القيم ، ولم يبق منه إلا هذه الفقرات القليلة المتفرقة في كتب
التاريخ ، وهذا الجزء الصغير المخطوط بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا .
لم يكن الأمير المسيحي مؤرخاً فحسب ، بل كان أديباً له ذوق فني واطلاع

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤ ومعجم الأدباء ج ٧ ص ٢٢٥ .

واسع في ميدان الأدب ، وألف في ذلك الميدان كتباً كثيرة منها « كتاب التلويح والتصريح » في معاني الشعر ، وكتاب « الشجن والسكن » في أخبار أهل الهوى وما يلقاه أربابه ، وكتاب « جونة الماشطة » يتضمن غرائب الأخبار والأشعار والنوادر التي لم يتكرر مرورها على الأسماع ، وكتاب « الراح والارتياح » في وصف الشراب وآلاته والندام عليه ، واختيار أوقاته ، وذكر الزهور والرياض والثمار والأشجار . وكتاب الغرق والشرق » وكتاب مختار الأغاني ومعانيها وكتاب المفاتيح والمناكحة في أصناف الجماع ، وكتاب الطعام والإدام في صفة ألوان الطعام وما يقدم على الخوان ، وكتاب درك البغية في وصف الأديان والعبادات وذكر الملك والأنبياء والمتنبئين وذكر الفرائض والآداب ، وكتاب الجوعان والعريان ، وكتاب القران والتمام . وكتاب الأمثلة للدول المقبلة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان شاعراً رقيق العاطفة دقيق الحس ، فمن شعره في رثاء أم ولده :

الأ في سبيل الله قلب تقطعا وفادحة لم تبق للعين مدمعا
أصبراً وقد حل الثرى من أوده فله هم ما أشد وأوجعا
فيا ليتني للبوت قد مت قبلها وإلا فليت الموت أذهبنا معا

وانظر إليه وهو يرثي والده سنة . . ٤٥ هـ :

خطب ألم من الزمان عظيم فالدمع سح للصاب سجوم
خطب يقل له البكاء وينطوى عنه العزاء ويظهر المكتوم
خطب يميت من الصدور قلوبها أسفا ، ويقعد ثأره ويقيم
يادهر : قد أنشبت في مخالبا بالأسودين لوقعهن كلوم
يادهر : قد ألبستني حلال الأسي مذ حل شخص في التراب كريم
لو كنت تقبل فدية لفديت من رضت عظامي فيه وهو رميم
يا من يلوم إذا رآني جازعا من طارق الحدثان . فيم تلوم
بأبي فجعت فأى ثكل مثله ثكل الأبوة في الشباب أليم
قد كنت أجزع أن يلم به الأذى أو يعتريه من الزمان هموم

وبجانب هذه النفحة الأدبية كان المسيحي يلم بالنجامة . وله في ذلك كتاب القضايا الصائبة في معاني أحكام النجوم . من هذا كله نستطيع أن ندرك أن المسيحي كان من أركان الحركة العلمية والأدبية في مصر الفاطمية . وقد استفاد

منه المؤرخون الذين جاءوا بعده . فاقتبسوا من مؤلفاته ولقبوه بمؤرخ الفاطميين .
وتوفي المسيحي سنة عشرين وأربعمائة ، ورثاه جماعة من شعراء عصره ؛ ذكرهم
ولده في تاريخه وذكر مراتبهم (١)

القضاعي :

ومن المؤرخين الناهين في هذا العصر ؛ أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر
القضاعي ، تفقه على مذهب الشافعي ، ومع ذلك فقد ولاه الفاطميون القضاء
ثم اتصل بالوزير الجرجاني فجعله الوزير كاتب علامته ؛ ثم عمل في ديوان
الإنشاء ، وأوفده أولو الأمر بمصر إلى القسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ رسولا من قبلهم
إلى الامبراطورة ثيودورا لإصلاح ما فسد من العلاقات بين المصريين والبيزنطيين
ولكن البيزنطيين لم يرحبوا بصدقة المصريين إذ ذاك وفضلوا أن يتحالفوا
مع طغرلبيك التركي (٢) ؛ ولما عاد القاضي القضاعي من هذه السفارة اتخذه الوزير
اليازوري كاتباً لإنشائه وعلامته . وهكذا كان مقدما عند الفاطميين بالرغم من
تمذهبه بمذهب يخالف عقيدتهم . ألف القضاعي كتبا كثيرة نذكر منها كتابه
في مناقب الإمام الشافعي وأخباره ، وكتاب الشهاب ، وكتاب الأنباء عن الأنبياء
وتواريخ الخلفاء ؛ وكتاب خطط مصر ؛ وقدهم المقرئ حين قال (٣) : إن أول
من رتب خطط مصر وآثارها ، وذكر أسبابها في ديوان جمعه ، هو أبو عمر محمد
ابن يوسف الكندي ، ثم كتب بعده القاضي أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي
كتابه المنعوت بالمختار في ذكر الخطط والآثار . ومات في سنة سبع وخمسين
وأربعمائة قبل سني الشدة ، فدثر أكثر ما ذكر « فإن أول من تحدث من مؤرخي
مصر عن الخطط هو عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكيم في كتابه فتوح مصر (٤)
وتبعه المؤرخون بعده .

والقاضي القضاعي كان أستاذاً مدرسة في رواية التاريخ أخذ عنه عدد كبير
من المؤرخين أمثال محمد بن بركات بن هلال السعدي النحوي المولود سنة ٤٢٠ هـ

(١) راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥١٥ — النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٧١ — المغرب
ص ٩٦ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ .
(٢) راجع ذلك بالتفصيل في الديرية المؤيدية ونجد شيئا من ذلك في أخبار مصر لابن بيسر
(٣) الخطط ج ١ ص ٦ (٤) راجع كتاب « في أدب مصر الإسلامية » .

صاحب كتاب خطط مصر^(١) . وكان ابن بركات نحوياً لغويًا وله في هذه العلوم كتاب الإيجاز في معرفة ما في القرآن من ناسخ ومنسوخ ألفه للأفضل بن بدر الجمالي ، وله تصانيف في النحو حتى قيل إنه بحر العلوم . وعنه روى الحافظ السلفي والبوصيري صاحب البردة وأبو الميمون عبد الوهاب المالكي وهبة الله ابن صدقة المعروف بأبي الرداد وغيرهم ، وتوفي ابن بركات سنة ٥٢٠ هـ .
ومن روى عن القضاعي أبو عبد الله الحميدي والخطيب أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت صاحب تاريخ بغداد ، فقد قابل القضاعي في الحج سنة ٤٤٥ هـ . وروى عنه . وهكذا كان أثر القضاعي في معاصريه ، كما أن الذين جاءوا بعده نقلوا كثيراً من رواياته ، واقتبسوا من أقواله ، وتوفي القضاعي سنة ٤٥٧ هـ^(٢) .
ومن المؤرخين في أواخر العصر الفاطمي ابن المأمون البطاحي ، وكان والده وزيراً الأمر بأحكام الله ، ونحن لا نعرف شيئاً عن هذا المؤرخ ولا عن كتبه ، ولكن المقرئ يفتن كثيراً من كتاباته في مواضع متفرقة .

فن السير :

أما فن السير وهو ذلك الفن الذي يعد من فنون التاريخ ، فقد كان له شأن كبير في الحياة الفكرية في مصر الإسلامية ، ذلك أن كتاب مصر وعلماءها وجهوا عنايتهم إلى كتابة سير عظمائهم وأبطالهم ومجتهديهم ، وقد وصل إلينا بعض هذه الكتب مثل سيرة عمر بن عبد العزيز لعبد الله بن عبد الحكم رئيس المدرسة المالكية في مصر في القرن الثاني للهجرة^(٣) وقد ذكرنا أن ابن الداية كتب سيرة أحمد بن طولون وسيرة ابنه أبي الجيش ، وكتب ابن زولاق سيرة الإخشيد وسيرة ابنه وسيرة كافر وسيرة المعز لدين الله وسيرة العزيز وسيرة سيديويه المصري ، وكتب القاضي النعمان سيرة المعز لدين الله ، وكتب محمد بن محمد اليماني سيرة جعفر الحاجب ، ويطول بنا الأمر لو أحصينا كل ما وصل إلينا في فن السير مما كتبه المصريون مما يدل على كلفهم بهذا الفن . ويحيل إلى أن مصر منذ أقدم عصورها اهتمت بهذا الفن اهتماماً خاصاً ، نراه مثلاً فيما تركته مصر

(١) بغية الوعاة ص ٢٤ .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٤١٢ وابن ميسر ص ١٤ وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٢٧

وطبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ .

(٣) راجع كتاب « في أدب مصر الإسلامية » .

الفرعونية من سيرملوكها وأمرائها منقوشا على جدران المعابد والمقابر أو مسطراً على ورق البردي ، ونراه في مصر القبطية فيما تركه الآباء البطارقة من سير من سبقوهم من الآباء والقديسين . وفي مصر الإسلامية ظهرت هذه الحلقات المتتابعة في فن السير ، ولعل أولها ما قيل من أن ابن إسحق صاحب السيرة النبوية وفد على مصر وروى بها السيرة ، ووفد ابن هشام على مصر وروى بعض أجزاء السيرة عن المصريين .

وبلغت عناية المصريين بالسير وكثفهم بهذا الفن أنهم وضعوا للشعب سيراً عن أبطال أحبهم المصريون وردد الشعب هذه السيرة في اجتماعاته ومغانيه ، مثل سيرة عنتر بن شداد وسيرة الهلالية . وسنتحدث عن ذلك فيما بعد . وقد حصلنا أخيراً على مخطوطين في فن السير ، الأول «سيرة الأستاذ جوذر» والثاني «سيرة المؤيد في الدين» .

سيرة الأستاذ جوذر^(١)

يتحدث هذا الكتاب عن حياة رجل من رجال الدولة الفاطمية الذين أغفل المؤرخون ذكرهم ، وهو الأستاذ جوذر الصقلي ، مع ما كان له من مكانة رفيعة في الدولة الفاطمية بالمغرب قبل انتقال المعز لدين الله إلى مصر ، ومع ما كان للأستاذ من منزلة قريبة عند الأئمة الفاطميين ، يحدثنا هذا الكتاب عن دخول جوذر في خدمة المهدي بالله الفاطمي ، وأن المهدي أهدى هذا الغلام إلى ولي العهد القائم بأمر الله ، وكيف اشتدت الصلة بين العبد وسيده ، حتى إن القائم — وكان لا يزال ولي العهد — عند ما خرج لغزو بلاد المغرب سنة ٣٠٠ هـ استخلف جوذر على قصره وجميع من فيه من حرمه وأهله ، ولما توفي المهدي بالله سنة ٣٢٢ هـ خصر القائم عبده جوذر دون سائر أهله ورجال الدعوة بمرتبة الاستيداع لولي عهده المنصور بن القائم ، فظل هذا السر سبع سنوات حتى أعلن القائم ولاية العهد على الملأ ، وفي خلافة القائم أصبح جوذر صاحب بيت المال ووكيل بخزائن الكساء كما كان سفيرا بين الخليفة وسائر الناس .

وهكذا ارتفعت منزلة جوذر وأصبح له نفوذ قوى في هذه الدولة الناشئة فباه الناس ، وحببه للخير وعطفه على الشعب أحبه الناس . وتوفي القائم بعد ذلك

(١) هو الذي تنسب إليه عطفه وحارة وشارع الجوزرية بسم الدرب الأحمر بالقاهرة .

ولكن المنصور بالله لم يعلن وفاة أبيه فلم يعلم أحد الخبر إلا جوذر ، وخرج
لحرب الخارجين عليه مستخلفاً جوذر على دار الملك وسائر البلاد وسلبه مفااتيح
خزائن الأموال ، ولما عاد من حروبه أعلن موت القائم وكافأ جوذر على خدماته
فأعتقه ولقبه « مولى أمير المؤمنين » وأمره ألا يكنى في رسائله أحداً ولا يتقدم
على اسمه اسماً إلا الخليفة وولي العهد ، وأن يرقم اسمه بالذهب على ملابس
الخليفة وولي عهده ، وأن يثبت اسمه على الحصر والبسط ، كل ذلك إمعاناً في
تشريفه ، وفي خلافة المعز كان جوذر موضع سر مولاه ، إلى أن فتحت مصر
وأراد المعز أن يسير إليها ، فأرجف الناس بأن أمر المغرب سيؤول إلى جوذر
ولكن جوذر أبى أن يفارق إمامه فسار معه إلى مصر ولكنه توفى بالقرب من
مدينة برقة في مكان يعرف بمياسر سنة ٦٣٢ هـ .

لم تقف أهمية سيرة جوذر على هذه الناحية التاريخية من ترجمة أحد رجال الدولة
الفاطمية الذين كان لهم أثر قوى في هذه الدولة منذ نشأتها ، وإنما يوضح هذا
الكتاب بعض نواح تاريخية هامة أغفلها المؤرخون القدماء أو مروا بها مرا
سريعا ، ففي الكتاب حديث عن تلك الثورات العنيفة التي نشبت بالمغرب عقب
قيام الدولة الفاطمية وكادت تقوض أركان تلك الدولة ، كما يطلعنا على العلاقة
بين الفاطميين وصقلية ، وعلى ما كان يعانيه الفاطميون من رجال هذه الجزيرة
ومن قرصان البحر ، ويظهر سبب الجفاء الذي كان بين المنصور وبين بنى عمومته
من أولاد المهدي ، وكيف طلب إلى جوذر أن يشتد في تأديبهم ورسد حركاتهم .
أضف إلى ذلك كله أننا نستطيع أن نعتبر كتاب سيرة جوذر من الوثائق الأدبية
فقد جمع مصنفه جميع التوقيعات التي خرجت من المنصور والمعز إلى جوذر
ورسائله إليهما ، وقد بلغ عددهما في هذا الكتاب نحو المائة ، فالكتاب أشبه
بديوان توقيعات للفاطميين ، ولأأكد أعرف كتابا جمع توقيعات الفاطميين سوى
هذا الكتاب وكتاب المجالس والمسائرات للقاضي النعمان الذي جمع فيه مصنفه
بعض توقيعات المعز إليه ، وكتاب السجلات المستنصرية الذي جمع فيه رسائل
المستنصر إلى الصليحيين باليمن ، وأجد في سيرة جوذر بعض قطع من شعر المنصور
بالله ، وخطبة المنصور في نعي القائم ، وخطبة المعز في نعي المنصور ، وهكذا
نستطيع أن نستفيد من هذا الكتاب الصغير من الناحية الأدبية والتاريخية
والاجتماعية في العصر الفاطمي بالمغرب .

أما مصنف هذه السيرة فهو رجل مغمور لا نكاد نعرف عنه إلا أنه منصور الجوذري العزيزي ، وأنه دخل في خدمة الأستاذ جوذر كاتباً له سنة ٣٥٠ هـ وأصبح موضع سره ، وظل في عمله إلى أن توفي جوذر فاتصل بالمعز فالعزيز ، ويتضح من كلامه أن العزيز جعله في مرتبة رفيعة هي نفس المرتبة التي كان فيها جوذر ، ويضيف المقريزي أن أبا علي منصوراً الجوذري زادت مكاتبه في عهد الحاكم بأمر الله ، فأضيفت إليه مع الأحباس الحسبة وسوق الرقيق والسواحل وغير ذلك (١) .

هذا كل ما نعرفه عن واضع هذه السيرة ، ونستدل من هذه السيرة أنها صُنفت في عهد العزيز بالله الذي ولى سنة ٣٦٥ هـ وتوفي سنة ٣٦٨ هـ ، ولكننا لانستطيع أن نحدد السنة التي أُلُفت فيها (٢) ونرجو أن نوفق إلى نشر هذا الكتاب قريباً .

السيرة المؤيدة :

لا أكاد أعرف كاتباً من كتاب المسلمين ، سبق المؤيد في الدين هبة الله الثميرازي داعي الدعوة — الذي تحدثنا عنه من قبل — في تصنيف كتاب خاص لسيرته ، فقد ترجم لنفسه في هذا الكتاب ، بفصل من تاريخ حياته ، أي من سنة ٤٢٩ هـ إلى سنة ٤٥٠ هـ ، وأودع هذا الكتاب بعض رسائله ومناظراته العلمية المذهبية ، ولما كان المؤيد ممن أسهم في الحياة السياسية في هذه الفترة فهو يوضح جهوده وحرركاته وسكناته منذ كان في بلاط أبي كاليجار البويهى بفارس ، فوصف المؤيد حياته في هذه البلاد ، كما وصف هذه الحياة التي كان يحياها السلطان مع الندماء وصلة السلطان بالعباسيين ، وكان المؤيد متصلًا برجال المستنصر الفاطمي من وزراء وكتاب ودعاة ، فاضطر إلى أن يتحدث عن شيء من أسرار هذا العصر الغامض المضطرب ، وأسرار وزراء مصر في ذلك العصر ، وذهب المؤيد لمؤازرة البساسيري في العراق واجتمع بعدد كبير من أمراء العرب والأترك والأكراد فتحدث عن هذه الحركة السياسية التي كادت تقوض أركان العباسيين ، فالكتاب على هذا النحو ليس ترجمة للمؤيد بحسب ، بل هو مصدر هام للحياة السياسي والاجتماعية في القرن

(١) خطط المقريزي ج ٣ ص ٦ .

(٢) راجع ما كتبه عن هذا الكتاب في مجلة الكتاب المصري المجلد الثامن عدد ٣١

(أبريل سنة ١٩٤٨) .

الخامس الهجرى، لأن المؤيد ترجم لنفسه من حيث علاقته بالمجتمع الذى عاش فيه. والكتاب قيم جدا فى دراسة هذه السنوات الإحدى والعشرين التى كان بها أحداث وخطوب، وكان لها أثر قوى فى مجرى الحياة الإسلامية عامة، ولقيمة هذا الكتاب نشرناه (١) فهو فى متناول القراء الآن.

وهكذا كانت حركة التاريخ والسير قوية فى عصر الفاطمية كما كانت قوية قبل عصر الفاطميين، وكما كانت قوية بعد عصر الفاطميين، ففن التاريخ وروايته من الفنون التى ازدهرت فى مصر فى عصورها المختلفة، شغف به المصريون فأكثروا من روايته وتدوينه.

خاتمة القول فى الحياة العقلية

قلنا إن العقائد الفاطمية كانت ميداناً فسيحاً للعقل، وإن الفاطميين أفسحوا صدورهم للدراسات الفلسفية فى وقت كانت فيه هذه الدراسات موضع هجمات عنيفة فى الأقطار الإسلامية الأخرى، بل رأينا الفاطميين يأخذون من النظريات والآراء الفلسفية والدينية القديمة ويصبغون هذه الآراء والديانات بالصبغة الإسلامية بما يتفق مع العقائد التى بشروا بها، فأعطوا لأنفسهم من حرية التفكير وفى الأخذ عن القديم، والاجتهاد فى المذهب، ما لا نراه عند غيرهم من الفرق الإسلامية الأخرى، ولكن هذا الاجتهاد وهذه الحرية الواسعة فى الفكر كانت مقيدة بموضوع الإمامة، فكل مؤلفات الدعوة الفاطمية، ومجالس حكمتهم، كانت تدور قبل كل شيء حول صاحب النص المعصوم وتثبيت إقامته وإظهار الإمام ظهر الجلال والقدسية، فكان الفاطميين فى مصر قد أعادوا إليها شيئاً من الحياة الفكرية التى كانت بالاسكندرية منذ عهد بطليموس، إذ كان أهم الدراسات بالاسكندرية استرضاء الحكام وإشباع غرورهم بإسناد الفضائل كلها إليهم وإلى أجدادهم، بيد أن دعاة الفاطميين اتخذوا التعاليم الدينية ذريعة للوصول إلى غرضهم فأدخلوا فى الدين ما وصلت إليه الفلسفة الهلينية والأفلاطونية الحديثة، وبعض الإسرائيليات والمسيحيات وآراء هرمس الحرانى وغيرها من الآراء القديمة، وذلك كله لإسباغ الفضائل كلها على الأمة من أهل البيت، فكانهم قالوا بحرية

(١) سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة (من مطبوعات دار الكاتب المصرى).

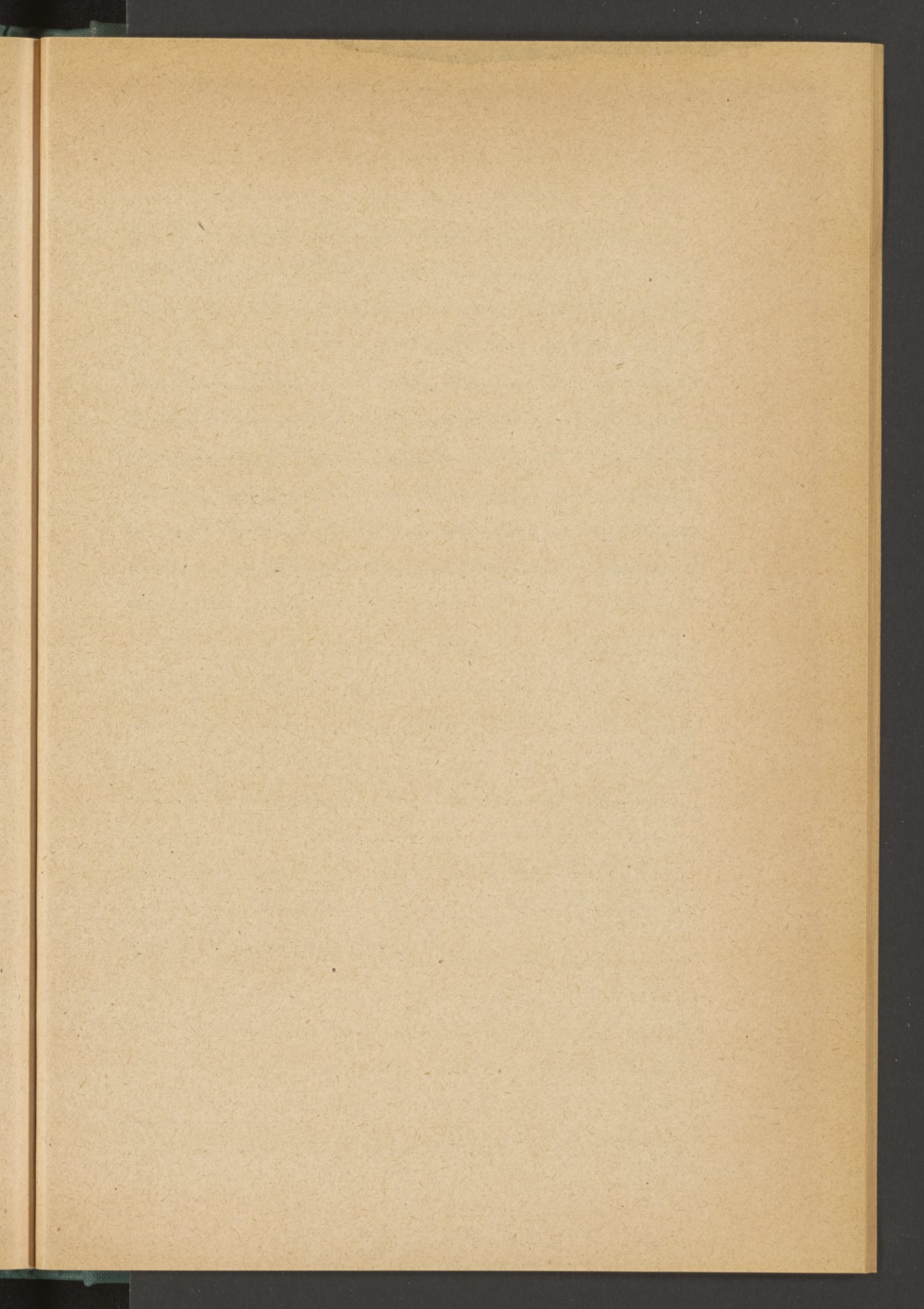
الفكر الى أبعد مدى هذه الحرية ، ولكنهم مع ذلك قيدوا هذه الحرية بالإمامة .
وكانت هذه الحرية الفكرية سببا في ازدهار الحركة الفلسفية في مصر وظهور
عدد كبير من الفلاسفة على نحو ما ذكرنا من قبل ، ولكن هذه الدراسات الفلسفية
كانت في أغلبها تتبع عقائد الفاطميين ، فدراسة الأفلاك والنجوم وإنشاء الرصد
مثلا كانت كلها بسبب معرفة ابتداء شهر رمضان ، ويغلب على ظني أن الفاطميين
لو لم يدينوا برؤية الهلال رؤية استبصار وعلم لما ازدهرت هذه الألوان من
الدراسات .

وربما أن مصر الفاطمية شاهدت دراسات أدبية عربية ، ولكننا نلاحظ
أن هذه الدراسات كانت مقصورة على دراسة النصوص القديمة وشرحها والتعليق
عليها دون أن تنتج مصر شيئا جديدا ، وهذا ما كان أيضا في مصر إبان ازدهار
مدرسة الاسكندرية حين كانت الدراسات الأدبية تقوم على دراسة شعر هو ميروس
ووضع المعجمات لمفردات هذه الأشعار وغيرها من الشعر القديم ، دون أن
يكون للدراسات الوجدانية أثر قوى في هذه الدراسات التي قوى فيها عمل العقل
والآراء العلمية أكثر مما يظهر تأثير العاطفة التي تستوحى من نفسية الشعب ،
ولذلك تتفق الدراسات الأدبية في العصر الاسكندري مع العصر الفاطمي في أن
هذه الدراسات لا تظهر فيها شخصية مصر ، وكذلك في المزاوجة بين الدراسات
الأدبية الخالصة والآراء الفلسفية بمصطلحاتها وتعبيراتها ، ومن هنا ترى سبب
هذا التعقيد في أسلوب الدعاة والعلماء ، حتى يخيل إلينا أن هؤلاء العلماء بعدوا عن
التعبيرات الأدبية التي تتمثل فيها البساطة والذوق الموسيقي والعاطفي في اللفظ والمعنى ،
ولكن الدعاة والعلماء في العصر الفاطمي حشوا كتاباتهم بالتعبيرات الفلسفية ،
واستعملوا مصطلحات اضطروا أن ينحتوها من ألفاظ عربية ، وأن يتلاعبوا
بقواعد الصرف المعروفة فجاءت كتاباتهم غريبة عن الأسلوب العربي . حقيقة
حاول بعض الدعاة والعلماء أن يستعيدوا الأسلوب الأدبي وأن يتبعوا عن
تعقيدات الفلاسفة ، ولكنهم وجدوا مشقة في تعبيرهم ، وصعوبة في صناعتهم ،
فاضطروا إلى استخدام المحسنات البديعية والإغراق فيها ليقتنوا الجمال
بالزينة اللفظية ، فكانت نتيجة ذلك أنهم تجنبوا تعقيداً ليقعوا في تعقيد آخر ،
وهذه الشروح والحاشيات التي وضعت حول النصوص القديمة احتاجت هي
نفسها فيما بعد إلى شروح وحواش أخرى لتوضيحها وتقرئها إلى المتعلمين ، وهكذا

كانت جناية الدراسات الفلسفية والمصطلحات العلية على الأساليب العربية .
على أن هذه الظاهرة لم تكن في مصر فحسب ، بل كانت في جميع الأقطار
الإسلامية منذ عرفت هذه الأقطار هذه العلوم التي عرفت بالعلوم الدخيلة ، ومنذ
أخذ أصحاب الفرق المختلفة الصياغات المنطقية والفلسفية للتعبير عن آرائهم ودحض
رأى خصومهم ، ومن يدري لعل هؤلاء العلماء تعمدوا تعقيد أسلوبهم حتى يقال
عنهم إنهم علماء ، وهاهو ذا الجاحظ يحدثنا عن هؤلاء الذين تعمدوا التعقيد فيقول :
« قلت لأبي الحسن الأخفش : أنت أعلم الناس بالنحو ، فلم لا تجعل كتبك مفهومة
كلها ، وما بالناس نفهم بعضها ولا نفهم أكثرها ، وما بالك تقدم بعض العويص
وتؤخر بعض المفهوم ؟ فأجاب : أنا رجل لم أصنع كتبى هذه لله ، وليست هى من
كتب الدين ، ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجات الناس إلى
فيها ، وإنما كانت غايتى المنالة ، فأنا أضع بعضها هذا الوضع المفهوم لتدعوهم
حلاوة ما فهموا إلى التماس فهم ما لم يفهموا ، وإنما قد كسبت فى هذا التدبير ، إذ
كنت إلى التمسك ذهبت » (١) .

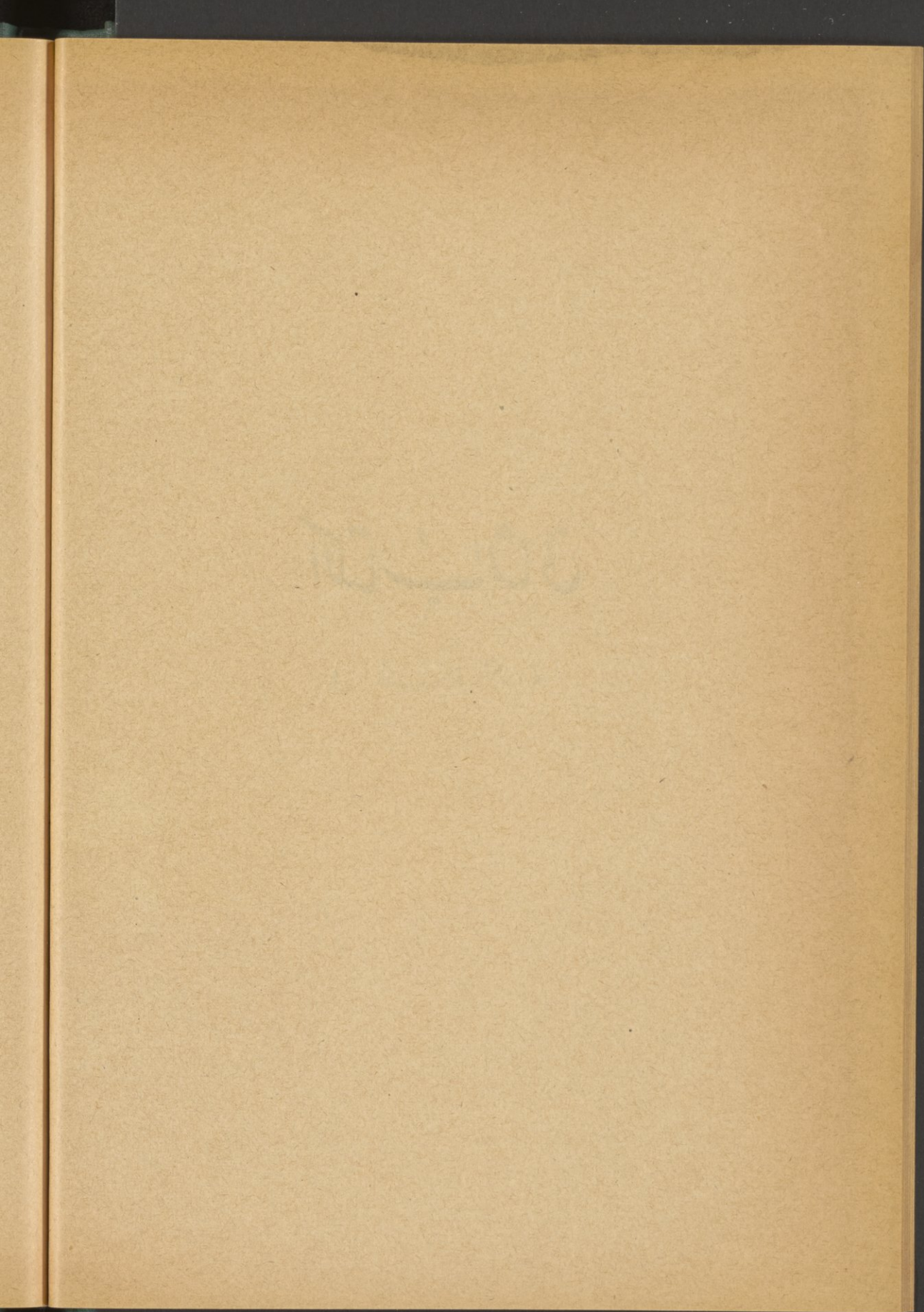
ومهما يكن من شىء فقد كانت هذه الحركة العقلية فى مصر الفاطمية فى نمو
مطردي فى كل نواحيها وألوانها وفنونها ، وتعددت مراكزها فى مصر ، وكانت
حلقات الدرس فى المساجد أو الدور فى القاهرة والفسطاط وفى الإسكندرية
وتنيس فى الشمال وفى أسوان وقوص وقفت فى الجنوب ، كما كان أمراء الأقاليم
يجمعون حولهم العلماء والشعراء ، وهاهو ذا عمارة اليمنى يحدثنا فى « النكت » عن
بعض هؤلاء الأمراء وعن مجالسهم وشعرائهم ، فالحياة العلية كانت مزدهرة ،
فى مصر الفاطمية ، وعن مصر أخذ كثير من العلماء فى الغرب والشرق ، فلا غرو
إن قلنا إن مصر الفاطمية كانت بدءاً للزعامة المصرية للأقطار الإسلامية ، تلك
الزعامة التى لاتزال مصر تحمل لواءها إلى الآن .

(١) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ٥٥ : (طبعة لاسي) .



الكتابُ الثاني

في الحياة الأدبية



الباب الأول

في الشعر

الفصل الأول

ازدهار الشعر

عرف الفاطميون ببراء دولتهم ، وبذخهم الذي لا مثيل له بين ملوك الدول الأخرى ، وأكثروا من استحداث الأعياد والمواسم ، وافتنوا في إقامة حفلاتهم ومواسمهم ، حتى يخيل إلى من يقرأ تاريخهم أن حياة مصر في ذلك العصر الزاهر كانت كلها أعيادا ومواسم ، وكلها لهوا ومرحا . بالرغم مما كان في هذا العصر من سنى شدة وقحط ضرب بها المثل ، ولكن هذه الأيام العجاف لم تمنع الفاطميين من الاحتفال بأيامهم التي اتخذوها لأنفسهم أعيادا بجانب تلك الأعياد التي يتخذها باقي المسلمين ، والأعياد التي يحييها مسيحيو مصر ويشترك معهم فيها إخوانهم المسلمون . فكان الشعب في عصرهم يتظاهر بما يجلب السرور إلى نفسه ، حتى لو كان ذلك عن طريق المجون وارتكاب المعاصي ، وكانت الدولة تحتفل بهذه الأيام احتفالا يتناسب مع عظم ملكهم واتساع سلطانهم ووفرة خيراتهم وأموالهم ، وقد تكون هذه المبالغة منهم في حياتهم لونا من ألوان التنافس السياسي بينهم وبين أعدائهم ، فيقف أعداؤهم على هذه الحياة البهيجة الفرحة ، والنفقات الطائلة ، فيعلمون أنهم أمام دولة قوية غنية ، فتضعف هممتهم عن مهاجمتها ، أما هذه الأعياد التي استحدثوها في مصر فقد روى المقرئ عن ابن الطوير المؤرخ أن الفاطميين كانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ومولد علي بن أبي طالب ، ومولد فاطمة بنت الرسول ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر (١)

وفي فصل آخر من خطط المقرئ يتحدث المؤلف عن الأيام التي كان الفاطميون يتخذونها أعيادا ومواسم ، فقال : وكان للخلفاء الفاطميين في طول السنة أعياد ومواسم ، وهي : موسم رأس السنة ، وموسم أول العام ، ويوم عاشوراء ومولد

التي (ص) ومولد علي بن أبي طالب ومولد الحسن ومولد الحسين ومولد فاطمة الزهراء ومولد الخليفة الحاضر، وليلة أول رجب وليلة نصفه وليلة أول شعبان وليلة نصفه وموسم ليلة رمضان وغرة رمضان وسماط رمضان وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج ويوم النوروز ويوم النطاص ويوم الميلاد وخميس العدس^(١) وأضاف إلى ذلك أيام حفلات صلاة الجمعة فقد كان الخلفاء يركبون في كل سنة ثلاث ركبات لصلاة الجمعة بالناس في جامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر مرة وفي جامع الحاكم مرة وفي جامع عمرو بن العاص مرة، وينال الناس من الخليفة في هذه الجمع الثلاث رسوما وهبات وصدقات^(٢). وأضاف أيضا أيام الركوبات التي كان فيها الخليفة يركب في كل يوم سبت وثلاثاء إلى متزهاته بالبساتين والمناظر التي بنوها لنزهاتهم^(٣) ويوم سفر الحاج^(٤) وركوب الخليفة في أول شهر رمضان^(٥) وتحديث المقرين كذلك في مكان آخر عن ليالي الجمع من شهرى رجب وشعبان وليلى النصف منهنما^(٦) فكل هذه الأيام التي كان يحتفل بها الفاطميون، سواء أكانت أيام حزن مثل عاشوراء أو أيام فرح تمد فيها السمط الفاخرة، وينفق فيها عن بذخ وإسراف ويصيب رجال الدولة وكل من يتصل بالقصر من النعم والخلع، كل بما يتناسب مع مكانته، وينال الشعب الذي يشارك أمرؤه في أفراحهم وأحزانهم حظا مما كان يندقه الخلفاء والأمراء عليه، فاذا مصر كلها تحتفل بهذه الأيام التي استتها الفاطميون، وقد يطول في الحديث لو توخيت وصف هذه الحفلات السكثيرة، وأكتفي هنا بأن أعطى صورة ليوم واحد من أيام أعيادهم نقلا عن المقرين عن المؤرخ المعاصر ابن المأمون في وصف موسم أول العام :

وأسفرت غرة سنة سبع عشرة وخمسةائة، وبادر المستخدمون في الخزائن وصناديق الإنفاق بحمل ما يحضر بين يدي الخليفة من عين وورق من ضرب السنة المستجدة، ورسم جميع من يختص به من إخوته وجهاته وقرابته وأرباب الصنائع والمستخدمات، وجميع الأستاذين العوالى والأدوان، وثنوا بحمل ما يختص بالأجل المأمون وأولاده وإخوته، واستاذنوا على تفرقة ما يختص

(١) الخطط ج ٢ ص ٣٨٤ وما بعدها .
 (٢) الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ .
 (٣) المصدر السابق
 (٤) المصدر السابق ج ٢ ص ٣٨٨ .
 (٥) ج ٢ ص ٣٨٦ .
 (٦) ج ٢ ص ٣٤٥ .

بالأجل المأمون وأولاده وأخوته وأستاذنوا على تفرقة ما يختص بالأجل المأمون وأولاده والأعجاب والحواشي والأمراء والضيوف والأجناد ، فأمروا بتفرقة ، والذي اشتمل عليه المبلغ في هذه السنة نظير ما كان قبلها ، وجلس المأمون باكرأ على السباط بداره ، وفرقت الرسوم على أرباب الخدم والمميزين من جميع أصنافه على ما تضمنته الأوراق ، وحضرت التعاشير والتشريفات وزى الموكب إلى الدار المأمونية ، وتسلم كل من المستخدمين المدارج بأسماء من شرف بالحجة ومصفات العساكر ، وترتيب الأسمطة ، وأصمد كل منهم إلى شغله ، وتوجه لخدمته ، ثم ركب الخليفة واستدعى الوزير المأمون ، ثم خرج من باب الذهب ، وقد نشرت مظلمته وخدمت الرهجة ورتب الموكب والجنائب ومصفات العساكر عن يمينه وشماله وجميع تجار البلدين من الجوهرين والسيارف والصاغة والبرازين وغيرهم قد زينوا الطريق بما تقتضيه تجارة كل منهم ومعاشه لطلب البركة بنظر الخليفة ، وخرج من باب الفتوح ، والعساكر فارسها وراجلها بتجملها وزياها ، وأبواب حارات العميد معلقة بالستور ، ودخل من باب النصر ، والصدقات تعم المساكين ، والرسوم تفرق على المستقرين ، إلى أن دخل من باب الذهب ، فلقية المقرئون بالقرآن الكريم في طول الدهاليز إلى أن دخل خزنة الكسوة الخاص ، وغير ثياب الموكب بغيرها . وتوجه إلى تربة آبائه للترحم على عادته ، وبعد ذلك إلى ما رآه من قصوره على سبيل الراحة ، وعبيت الأسمطة وجرى الحال فيها وفي جلوس الخليفة ومن جرت عادته وتهيئة قصور الخلافة وتفرقة الرسوم على ما هو مستقر . وتوجه الأجل المأمون إلى داره فوجد الحال في الأسمطة على ما جرت به العادة والتوسعة فيها أكثر مما تقدمها ، وكذلك الهناء في صبيحة الموسم بالدار المأمونية والقصور ، وحضر من جرت العادة بحضوره للهناء ، وبعدهم الشعراء على طبقاتهم ، وعادت الأمور في أيام السلام والركوبات وترتيبها على المعهود ، وأحضر كل من المستخدمين في الدواوين ما يتعلق بديوانه من التذاكر والمطالعات مما تحتاج إليه الدولة في طول السنة وينجم به ويتصدق ، ويحمل إلى الحرمين الشريفين من كل صنف على ما فصل في التذاكر على يد المندوبين ، ويحمل إلى الثغور ، ويخزن من سائر الأصناف ما يستعمل ويبيع في الثغور والبلاد .. الخ (١)

هذه صورة ما نقله المقرئ عن المؤرخين المعاصرين عما كان يجري تحت
بصرهم وسمعهم في يوم من أيام هذه الأعياد الكثيرة التي استحدثها الفاطميون ،
ومن هذه الصورة نتبين أن هذه الأعياد لم تبين أعياد الخلفاء والأمراء ورجال
القصر فحسب ، بل كانت أعياد الشعب أيضا بما كان يقدم فيها من الصدقات
والسمط ، فإذا الشعب يشارك الحاكمين ، ويناله شيء من بدخ الفاطميين ، فإذا
هو في فرح وبشر ، ولا يكاد يمضي عيد حتى يلحقه آخر .

في هذه الحفلات كان الشعراء يتبارون في إنشاد قصائدهم ، ويتنافسون في
الإجادة والإتقان ، وينعمون بأخذ جاريهم وصلاتهم بما لم ينعم به الشعراء في
الدول الأخرى ، فلا غرابة إن قلنا إن هذه الأعياد والمواسم كانت من دوافع
ازدهار الشعر في العصر الفاطمي ، وموضوعا من موضوعاته ، حتى إن عمارة اليميني
في قصيدته التي رثا بها دولة الفاطميين لم يستطع إلا أن يذكر هذه الأعياد
والمواسم فقال :

أبكي على ما تراءت من مكارمكم	حال الزمان عليها وهي لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وأفدكم	واليوم أوحش من رسم ومن طلال
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم	تشكو من الدهر حيفا غير محتمل
وكسوة الناس في الفصلين قد درست	ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان في يوم الخليج لكم	يأتي تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كم لكم	فيهن من وبلى جو دليس بالوشل
والأرض تهتز في يوم الغدير كما	يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض في وشى وفي شية	مثل العرائس في حلى وفي حلال (١)

ولعل هذه الصورة التي صورها الشاعر عمارة اليميني لحفلات وأعياد الفاطميين
تدل على ما كانت عليه مصر في ذلك العصر المترف الغنى .

وليست الأعياد والمواسم التي استحدثها الفاطميون هي فقط أظهر ما كان في
الحياة الاجتماعية في مصر الفاطمية ، ولما كنا نرى الفاطميين يكثرون من المباني
والمنشآت التي أقاموها في البلاد ، ولعل عنايتهم بالمتنزهات والمناظر والإكثار

(١) خصل المقرئ ج ٢ س ٣٩٣ .

منها من الأدلة التي نستطيع أن نقدمها على حب الفاطميين للفنون المختلفة ، فبهذه البساتين التي جملوا بها مدينتهم القاهرة وضواحيها ، لم تتخذ متنزها لهم فقط دون غيرهم من الرعية ، بل أباحوا للناس دخولها والتمتع بمناظرها وجوها ، فأوجد ذلك عند المصريين لونا من ألوان الحياة الناضرة البهيجة ، وسمت النفوس إلى حب الطبيعة وحب الجمال معا . ولقد كان خروج المصريين في ذلك العصر إلى المتنزهات جزءا هاما من مقومات حياتهم ، وهناك كانوا يقصفون ويطربون ، وينعمون بجمال الرياض وأريج الزهور ، وكان الشعراء يقصدون هذه الرياض جماعات يتطرحون الشعر ويتبارون في الإنشاد ، يستوحون من جمال الزهر والطبيعة وحي شعرهم ، فإذا صح مارواه التقدماء أن شعراء الجاهلية كانوا يخرجون إلى الصحراء لاستهام الشعر ، فكذلك خرج شعراء مصر إلى البساتين يتغنون ببدايح الطبيعة ، فكانت هذه المتنزهات والبساتين التي أكثر منها الفاطميون مصدرا خصبا لكثير من الشعر المصري في العصر الفاطمي .

كانت الحياة المصرية إذن حياة ترف ، وكان سكان مصر على حظ من الثراء والغنى يحسداهم عليه العباسيون في أوج مجدهم وسعة سلطانهم ، وكان الخلفاء الفاطميون يسرفون في الإغداق على الشعب مما يملكون من مال ومتاع ورقيق ، مما كان يحمله إليهم الدعاة من مال الخنس^(١) وأموال النجوى ، ومن هدايا الأمراء في المشرق ، وكان الوزراء يتشبهون بالأئمة في الظهور بمظهر الملك فأنفقوا عن سعة وافتن الشعب في التشبه بأمرائهم وحكامهم ، فظهروا بمظهر صاحب الثروة واتخذوا من الحياة أهبجها ومن الزينة واللباس أزهاها ، وأكثروا من اقتناء الرقيق والقبان ، وإقامة المآدب واستدعاء الخلان لمجالس اللهو والشراب ، حتى خيل إلينا أن حياة المصريين كانت حياة لهو وقصف وسماع غناء وألحان ، فكان ذلك كله وحيا للشعراء بالقرى .

ومن عوامل ازدهار الشعر في هذا العصر الفاطمي أن القائميين على شؤون البلاد اتخذوا من الشعر وسيلة من وسائل دعوتهم السياسية على نحو ما تتخذ الأحزاب السياسية اليوم بعض الصحف لتعبر عن اتجاه هذه الأحزاب وآرائها ، وقد ذكرنا أن الفاطميين عرفوا قدر الدعاية فاهتموا بها أيما اهتمام ، واصطنعوا

(١) راجع كتاب المهمة في آداب اتباع الأئمة (من مطبوعات دار الفكر العربي) .

كل ما يفيدهم في دعوتهم من علماء وأدباء وشعراء ، وكان الفاطميون على قدرة
وكياسة في فن السياسة ، فعرفوا أن الشعر العربي منذ العصر الجاهلي كان من أهم
وسائل الدعاية للقبيلة في العصر الجاهلي وللأحزاب السياسية والفرق الإسلامية
بعد ظهور الإسلام ، وأن بعض الشعراء في العصر العباسي أمثال مروان بن أبي
حفصة وأبان بن عبد الحميد اللاحي وغيرهما أدخلوا في شعرهم بعض الآراء
الفقهية في الدفاع عن الخلافة العباسية ضد الطامعين من العلويين فلم يشأ الفاطميون
أن يتركوا سلاح الشعر دون أن يشهروه على خصومهم ، أو أن يستخدموه في
الدفاع عنهم والمباهاة بفضائلهم والإشادة بدولتهم ، فلاغرو أن وجدنا الفاطميين
يبدلون العطاء الضخم الجسم لشعراء دولتهم ، ويجعلون لبعض الشعراء مراتب
شهرية ، وينقل المقرئ عن ابن الطوير أنه كان للشعراء رواتب جارية من عشرين
ديناراً إلى عشرة دنانير^(١) ويروى أيضاً أنه في يوم عاشوراء كان يخرج الرسم
المطلق للتصدرين والقراء والوعاظ والشعراء وغيرهم على ما جرت به عادتهم^(٢)
ومعنى هذا أن الفاطميين كانوا يعطون الشعراء في أيام المواسم والأعياد رواتب
خاصة غير ما كان يعطى لهم شهرياً . ومحدثنا المقرئ مرة أخرى في كلامه عن
بركة الحبش أنه كان بها طاقات ، وعليها صور الشعراء ، كل شاعر واسمه وبلده
وعلى جانب كل من هذه الطاقات قطعة من القماش كتب عليها قطعة من شعر
الشاعر في المدح ، وعلى الجانب الآخر لف لطيف مذهب ، وأن الخليفة الأمر
بأحكام الله لما دخل هناك وقرأ الأشعار أمر أن توضع على كل رف صرة محتومة
فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده^(٣) .

فلا أكاد أعرف دولة من الدول الإسلامية أقامت للشعراء هذا التمجيد بأن
يضعوا صورة كل شاعر مع اسمه وبلده في طاقات في متزهات عامة ، مما يدل دلالة قاطعة
على تمجيد لفن الشعر والشعراء ، فأين نحن الآن من مصر في العصر الفاطمي ؟ !
ويذكر العماد في الخريدة أن الفاطميين جعلوا من وظائف الدولة وظيفة
« مقدم الشعراء » ويذكر أن مقدم الشعراء في عهد الأفضل بن بدر الجمالي هو

(٢) المخطوط ج ٢ ص ٢٩٠ .

(١) مخطوط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٣

(٣) المخطوط ج ١ ص ٤٨٦

الملقب بمسعود الدولة المعروف بابن حريز^(١). وكانت سيدات قصر الإمامة الفاطمية يغدقن الأموال على الشعراء كلما سمعن منهم شعرا جيدا في مدح الأئمة ، ويحدثنا عمارة النيني أنه بعد أن أنشد قصيدته الأولى في مصر أخرجت له السيدة الشريفة بنت الإمام الحافظ خمسمائة دينار^(٢) ، وهكذا نرى الفاطميين يولون الشعر والشعراء عنايتهم لأن الشعراء لسان من ألسن تمجيدهم والذود عنهم أمام أعداء كثيرين أقوياء ، فأغداق النعم الفاطمية على الشعراء كان من أشد الأسباب التي جعلت الشعراء يحرصون على إتقان الشعر مع الاكثار من الإنشاد ، فكثرت الشعراء وكثرت نتاجهم ، واستغل الفاطميون هؤلاء الشعراء في رفع شأن دولتهم وخلفائهم حتى في القسم الأخير من العصر الفاطمي الذي ضعف فيه الأئمة واستبد الوزراء بالملك فقد طلب إلى الشاعر أبي عبدالله مسلم أن ينظم « السيرة المصرية » وجعلوا له خمسة دنانير كل شهر على ذلك ، فسأل أن يجري له شيء على الشعر مثل غيره من الشعراء ، فزيد نصف دينار ، فهجاه الشاعر مجير بن محمد الصقلي المتوفى حوالى سنة ٥٤٠ هـ بقوله :

جـرى الحديث فقالوا كل ذى أدب أضحت له خمسة تجرى بمقدار
بأى فضل حواه ابن المسلم من دون الجماعة حتى زيد فى الجارى
أجروا له خمسة عن حق سيرته فقال : لا تنقصونى حق أشعارى
نادوا عليه وسوق الشعر نافقة فلم يزد قدرها عن نصف دينار^(٣)
وهكذا كان الفاطميون يستغلون شعر الشعراء فى تثبيت أركان دولتهم حتى فى وقت ضعف سلطانهم .

شعر الأئمة :

بجانب ذلك كله كان الفاطميون يقدرّون الشعر ويتذوقونه من حيث هو فن من الفنون التي تجب العناية بها ويقدرها كل من نال حظا من الثقافة ورقة الشعور ودقة الإحساس ، بل يذكر المؤرخون أن من بين الأئمة الفاطميين من

(٢) النكت ص ٣٤

(١) الحريدة ورقة ١٠٢ أ

(٣) الحريدة ورقة ١٠٢ أ

كان يمشد الشعر ، وقد رأينا كيف خاطب القائم بأمر الله المصريين بالشعر إبان
غزواته ، ويذكر صاحب سيرة جوذر عدة أبيات للمنصور بالله ، منها :

تبدلت بعد الزعفران وطيبه صدا الدرع من مستحكات السوامر
ألم ترني بعث المقامة بالسرى ولين الحشايا بالخيول الضوامر
وفتيان صدق لا ضغائن بينهم يشورون ثورات الأسود الخوادر
أروني قتي يغني غنائى ومشهدى إذا رهج الوادى لوقع الحوافر
أنا الطاهر المنصور من نسل أحمد بسيفي أقد الهام تحت المغافر (١)

ومن شعر المنصور بالله أيضاً يخاطب ابنه وولى عهده المعز لدين الله :

كتابي إليك من أقصى الغروب وشوقي شديد عريض طويل
أجوب القفار وأطوى الرمال وأحمل نفسي على كل هول
أريد بذاك رضاء الإله وإعزاز دولة آل الرسول
إلى أن برى السير أجسامنا وكلّ الركاب وتاه الدليل
فواغربتاه وواوحشتاه وفى الله هذا قليل قليل
وما ضقت ذرعاً ولكنى نهضت بقلب صبور حمول
وقد منّ ذو العرش من فضله بفتح مبین وعز جليل
وفى كل يوم من الله لى عطاء جديد وصنع جميل
فله حمد على ما قضى وحسى ربي ونعم الوكيل (٢)

ولعلك تلاحظ معي أن المقطوعة الأولى أقوى وأجزل شعراً من المقطوعة
الثانية التي هي أقرب إلى الكلام العادى منها إلى فن الشعر ، فالمقطوعة الأولى
من شعر المنصور تدل على أن صاحبها شاعر حماسى ملك ناصية الفن فى اللفظ
والمعنى ، فهو يختار اللفظ الذى يتلاءم فى موسيقاه مع المعنى الذى يقصده الشاعر
فيلد الأذن والعقل معاً ، ولكن القطعة الثانية فلا أستطيع أن أقول إلا أن ناظمها
يعبث حين يدعى أنه يقول شعراً .

ويذكر ابن خلكان أن المعز لدين الله كان أديباً شاعراً ، وينسب إليه هذه الأبيات :

(١) سيرة الأستاذ جوذر (نسخة خطية بمكتبتى) .

(٢) المصدر السابق .

لله ماصنعت بنا تلك المهاجر في المعاجر
أمضى وأقضى في النفوس من الخناجر في الخناجر
ولقد تعبت بينكم تعب المهاجر في الهواجر (١)

فهذه الأبيات إن دلت على شيء فهي تدل قبل كل شيء على أن الشاعر كان من شعراء الزينة البديعية، فقد فتن بهذه الملاءمة اللفظية بين «المهاجر» و«المعاجر» وبين «أمضى» و«أقضى» وبين «الشناجر» و«الشناجر» وبين «المهاجر» و«الهواجر» ومع ظهور هذه الصنعة البديعية في هذه الأبيات فإن خيال الشاعر كان قويا في تعبيره عما تفعله العيون التي تختفي تحت المهاجر ولكنها تصيب هدفها، وتعمل في النفوس أكثر مما تفعله الخناجر في الخناجر.

وكذلك ينسب القدماء إلى المعز لدين الله هذه الأبيات :

أطلع الحسن من جبينك شمسا فوق ورد في وجنتيك أطلا
وكان الجمال خاف على الور د جفافا فد بالشعر ظلا (٢)

هنا صورة جميلة من شاعر بلغ درجة لا بأس بها من الفن، فهو يصف جمال المحبوب بصورة من صور الطبيعة المحببة إلى النفس فهي كالورد المتفتح قد غمرته الشمس، ولكن الشاعر كان دقيق الحس رقيق الشعور، نحشى أن يذبل الورد من حرارة الشمس فظله بخصلة من شعر الحبيب، فالصورة هنا لا شك جميلة، ولا غرو أن رأينا القدماء قد فتنوا بها حتى قال ابن خلكان: «إن هذا معنى غريب بديع» (٣). ولكن هل أستطيع أن أنسب هذه الأبيات إلى المعز لدين الله كما روى ابن خلكان، أم أنسبها إلى ظافر الحداد الشاعر الفاطمي الفحل إذ ورد في الحريرة أن ظافرا قال :

أطلع الشمس من جبينك بدر فوق ورد من وجنتيك أطلا
فكان العذار خاف على الور د جفافا فد بالشعر ظلا (٤)

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٠٣ (٣) نفس المصدر السابق

(٤) الحريرة ورقة (٨٧ ب)

لست أدري لمن أنسب البيتين ، فربما حاكى ظافر الإمام المعز فأخذهما عنه بعد أن غير بعض الألفاظ ، أو ربما نسب أتباع المذهب البيتين إلى المعز عندما أرادوا إثبات شاعريته . ومهما يكن من شيء فإن المؤرخ ابن إياس تحدث أيضا عن شعر المعز فقال : « كان المعز عاقلا حازما لبيبا فصيحاً شاعرا ، وله شعر جيد من ذلك قوله :

ما بان عذرى فيه حتى عذرا وبدا البنفسج فوق ورد أحمر
همت بقبلته عقارب صدغه فاستل ناظره عليها خنجرا (١)

وهكذا كان المعز لدين الله ينشد الشعر ، وعرف به ، وكذلك كان ابنه العزيز بالله نزار ، وابن المعروف بالأمير تميم ، يقول أبو المحاسن عن العزيز : « كانت لديه فضيلة ، وله شعر جيد (٢) » . وروى الثعالبي في تيممته قول العزيز ، وقد وافق بعض الأعياد وفاة ابنه وعقد المآتم عليه :

نحن بنو المصطفى ذوو محن يجرعها في الحياة كاطمنا
عجيبة في الأنام محنتنا أولنا مبتلى وخاتمنا
يفرح هذا الورى بعيدهم طرا ، وأعيادنا مآتمنا (٣)

فالشاعر في هذه الأبيات صادق العاطفة يعبر عن ألم دفين وحزن كمين ، فهو لم يحزن لفقد ولده فحسب بل هو يألم لما أصاب أهل البيت من محن وكوارث حتى أصبحت أعيادهم مآتم ، ويخيل إلى أن هذه العاطفة الصادقة هي التي دفعت العزيز لأن يقول :

ولما رأيت الدين رثت حباله وأصبح ممحو الضيا والمعالم
وأصبحت الأغنام من كل أمة تسوم عباد الله خوزم المخاطم
وتحكم في أموالها ودماؤها بغير كتاب الله عند التحاكم
غضبت لدين الله غضبة نائر غيور عليها مانع للمحارم
وسيرت نحو الشرق بحر كتائب توج بأبطال رجال قمام

(١) تاريخ ابن إياس ج ١ ص ٤٨ (٢) النجوم ج ٤ ص ١٢١ .

(٣) اليتيمة ج ١ ص ٢٢٣ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٣ .

يقودون جرد الخيل تخطر بالقنا
أنا ابن رسول الله غير مدافع
لى الشرف العالى الذى خضعت له
بنا فتحت أبواب كل هداية
فقل لبني العباس مع ضعف ملكهم
غصبتم بنى مروان ما غصبوه من
ولم تحفظوا فينا وصايا محمد
سنسقيكم كأسا كما قد سقيتم
وبالمشرفيات الرقاق الصوارم
تنقلت فى الأنوار من قبل آدم
رقاب بنى حواء من كل عالم
ومنا بحمد الله (خير الخواتم)
بأنهم أسرى بأيدى الأعاجم
موارثتنا ، سحقا لظالم ظالم
ولا ما ادعيتم من مناسب هاشم
أوائلنا والله أعدل حاكم (١)

ففى هذه الآيات نحن أمام رجل غيور على عقيدته ودينه ، شديد العداة لمن خالفه من العباسيين ، يتوعدهم بالانتقام لما أصاب آباءه وأجداده من محن على أيديهم ، شديد الفخر بنسبته الى الرسول الكريم ، وهو فى ذلك كله لا ينسى عقائده المذهبية التى كان إمامها ، فأشار إلى أنه تنقل فى الأنوار من قبل آدم . فهذا المعنى لا يقوله إلا من اعتقد مذهب الفاطميين ، وذلك أن الفاطميين ذهبوا إلى أن الله سبحانه خلق نور محمد (ص) قبل أن يخلق السموات والأرض ، وأن هذا النور تنقل فى الأصلاب الطاهرة والأرحام الزكية حتى بلغ عبد المطلب ، فقسم الله هذا النور قسمين قال لأحدهما : كن يا هذا محمدا ويا هذا كنى عليا ، وأن هذا النور يجمع مرة أخرى بزواج على من فاطمة بنت الرسول وتنقل فى الأئمة من ذريتهما حتى كان العزيز بالله ، فكان العزيز وجد قبل آدم لأن النور الذى حل به وجد قبل آدم (٢) .

وكن الخاكم بأمر الله شاعرا أيضا وينسب إليه صاحب النجوم الزاهرة :
دع اللوم عنى لست منى بموثق فلا بد لى من صدمة المتحنق
وأسقى جياذى من فرات ودجلة وأجمع شمل الدين بعد التفرق (٣)

(١) ورقة ١٦٣ من مجموعة أشعار اسماعيلية ، نسخة خطية بمكتبتى .
(٢) راجع المجالس المؤيدية فى مواضع شتى وما كتبناه عن ذلك فى مقدمة ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاء .

(٣) النجوم ج ٤ ص ١٩٦

ولكن هذين البيتين يعود صاحب النجوم مرة أخرى فينسبهما إلى الأمر وكذلك المقرئزي (١). وعندى فى المجموعة الخطية عدة أبيات للحاكم ، ولكن هذه الأبيات ضعيفة فى صياغتها وفى معناها ، ويظهر فيها الانتحال ، ويحيل إلى أن قائلها هو أحد أتباع المذهب الذين لا يحسنون صناعة الشعر ، والأبيات هى :

إذا ما انقضى لبس السواد أتيتكم بأبيض من فوق الدماء يفور
على أشقر يغلى إذا ماركبته ولا صحبت رجلى بعد حمير
وأجلس عادائق كما كنت قبل ذا ويختال بى من بعد ذاك وزير (٢)

ويحدثنا ابن بسام فى الذخيرة أن الشاعر الواسانى هجا يوسف بن على المشرف على دمشق أيام الحاكم ، وسمع الحاكم بأمر هذا الهجاء فقال يوما : أريد سماع هذه القصيدة من رجل حسن التشيد (٣). فهذا يدل على أن الحاكم كان يلذ له سماع الشعر ممن يحسنون التشيد .

وتؤكد تجمع المصادر على أن المستنصر بالله كان شاعرا مبدعا ، وأنه كان متمكنا من إنشاد الشعر يرتجله فى مناسبات ، ويحجب عن بعض الرسائل التى كانت ترد عليه بالشعر . يروى صاحب النجوم أن ناظر الدولة جاء بالأتراك سنة ٤٦٠ هـ إلى الوزير ابن كدينة ، وطالبوا الوزير بالمال ، فقال لهم الوزير : وأى مال بقى عندى بعد أخذكم الأموال واقتسامكم الإقطاعات ، فطلبوا من الوزير أن يرفع الأمر إلى المستنصر ، فكتب الوزير رقعة بما جرى وأرسلها إلى الإمام ، فأجاب المستنصر على الرقعة نفسها بخطه :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى إلا إلهى وله الفضل
جدى نبى وإمامى أبى وقولى التوحيد والعدل (٤)

ففى هذين البيتين يظهر الألم الشديد الذى كمن فى نفس الإمام لما حل به وحق بالبلاد إبان الشدة العظمى المعروفة فى التاريخ ، والبيت الثانى يذكرنا بما نسمعه

(١) خطط المقرئزي ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٢) ورقة ١٦٦ من المجموعة الخطية لأشعار الاسماعيلية .

(٣) الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ص ٦٩ من القسم الرابع (المجلد الأول) .

(٤) النجوم ج ٤ ص ٨١ . وبنفسها ابن منجب الصيرفى فى كتابه الاشارة ص ٢٩ إلى

الحاكم بأمر الله . أما ابن خلدون فينسبهما فى تاريخه ج ٤ ص ٧١ إلى الأمر بأحكام الله .

عند دفن الموتى بما يعرف بتلقين الأموات ، فلعل المستنصر أراد أن يتهمك بمن جاء يطالبه بالأموال فأجاب بما يلحق به الموتى . فهو يستخر بهؤلاء الناس وهو في أشد حالات الألم والحزن فالعقدة النفسية التي كانت عند المستنصر هي التي جعلته يستخر ويتهمك على هذا النحو .

وبما يروى عن المستنصر أيضا أن المؤيد في الدين هبة الله الشيرازى بعد أن عاد سنة ٤٥٠ هـ إلى القاهرة منعه الوزير ابن المغربي من لقاء المستنصر ، فأخذ المؤيد يرسل إليه السكتب والرسائل وينشد فيه الشعر حتى بلغ المستنصر قول المؤيد :

أقسم لو أنك توجتني بتاج كسرى ملك المشرق
ونلتني كل أمور الورى من قد مضى منهم ومن قد بقى
وقلت أن لا نلتقى ساعة أجبت يامولاي أن نلتقى
لأن إبعادك لى ساعة شيب فودى مع المفرق .

فلما بلغت الرقعة التي فيها هذا الشعر إلى المستنصر أجاب عليها بخطه :

ياحجة مشهورة فى الورى وطود علم أعجز المرتقى
ما غلقت دونك أبوابنا إلا الأمر مؤلم مقلق
خفنا على قلبك من سمعه فصدنا صد أب مشفق
شيعتنا قد عدموا رشدهم فى الغرب ياصاح وفى المشرق
فانشروهم ماشئت من علينا وكن لهم كالوالد المشفق
إن كنت فى دعوتنا آخرا فقد تجاوزت مدى السبق
ملك لا يوجد فيمن مضى من سائر الناس ولا من بقى (١)

وتنسب إليه قصيدة وردت فى مجموعة أشعار الاسماعيلية مطلعها :

كفى ملامك يا ابنة الغمر ما بال وقر أيبك من وفر (٢)

ولكنى أرى هذه القصيدة موضوعة ونسبت إلى المستنصر ، فأكتفى الآن بالإشارة إليها .

وينسب طائفة البهرة إلى المستنصر مجموعة رسائل قيل إنه كتبها إلى علي بن محمد

(١) انظر ديوان المؤيد فى الدين داعى الدعاة .

(٢) ورقة ٦٣ ب .

الصليحي باليمن ، ولكن من يطلع على هذه الرسائل يدرك أن مثل هذه الرسائل لا تصدر عن الإمام ، إنما تصدر عن كتابه ، وقل أن نجد خليفة من خلفاء المسلمين أرسل مثل هذه الرسائل لأحد عماله ، إنما كان ذلك عمل كتاب ديوان الإنشاء ، ونحن نشك في نسبة هذه الرسائل إلى المستنصر ، ونرجح أنها كتبت بعد انتقال مركز الدعوة المستعلية إلى اليمن ، وأن كاتبها أحد الدعاة في اليمن ، وسنعود إلى هذه الرسائل في بحث آخر (١) .

ويقول صاحب النجوم عن الأمر بأحكام الله « كان للأمر نظم ونظر في الأدب (٢) » ، وروى له عدة أبيات منها الأبيات التي نسبها حيناً إلى الحاكم وحيناً آخر إلى الأمر ، كما ذكرنا من قبل . وينسب ابن ميسر إلى الأمر قوله :

أما والذي حجت إلى ركن بيته جراثيم ركبنا مفلحسة شهباً
لأقتحمن الحرب حتى يقال لي ملسكت زمام الحرب فاعتزل الحربا
وينزل روح الله عيسى بن مريم فيرضى بنا سحبا ونرضى به سحبا (٣)
وينسب طائفة البهرة إلى الأمر بأحكام الله رسالة تعرف « بالهداية الآمرية في إبطال الدعوة النزارية » ، وقد نشر هذه الرسالة صديقنا الأستاذ آصف فيظلي وذكر في مقدمته لهذه الرسالة أنها ليست للأمر في الحقيقة وربما كانت لأحد كتابه ، فإن هذه الرسالة من السجلات التي يكتبها رجال ديوان الإنشاء ، وربما كان الأمر هو الذي أوصى بها (٤) .

وهكذا كان بعض الأئمة الفاطميين ينشد الشعر ، فلاغرو أن رأيناهم يقرّبون الشعراء ويجزلون لهم العطاء ويلتف الشعراء حولهم ويتنافسون بين أيدي أمرائهم في الإنشاد ، مما دعا إلى كثرة الشعر وازدهاره .

وكما كان الأئمة في عهد سلطانهم وقوتهم — أي في القسم الأول من العصر الفاطمي — ينشدون الشعر ويقرّبون الشعراء ، كان بعض الوزراء في عهد غلبة الوزراء في مصر — ينشد الشعر ويثيب عليه ، ولا سيما أن الوزراء أصبحوا

(١) السجلات المستنصرية نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٢) ج ٤ ص ١٨٣ .

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٧٣ .

(٤) الهداية الآمرية تحقيق الأستاذ آصف على أصغر فيظلي من مطبوعات (جمعية الدراسات

الإسلامية بالهند)

كل شيء في الدولة . فأصبحوا مقصد الشعراء ووجهتهم ، حتى إن الشعراء عندما كانوا يريدون مدح الخليفة الفاطمي كانوا يذكرون بجانبه الوزير ، ويطنبون في مدح الوزير أكثر مما يقولون في مدح الإمام ، ويروى المقرئ أن جميع الشعراء لم يكن لهم في الأيام الأفضلية ولا فيما قبلها على الشعر جار ، وإنما كان لهم إذا اتفق طرب السلطان واستحسانه لشعر من أشد منهم ما يسهله الله على حكم الجائزة ، فرأى القائد أن يكون ذلك من بين يديه من الظروف (١) ، إذ كان الأفضل يجلس بدار الملك التي أنشأها في مجلس العطايا وقد أمر بتفصيل ثمانية ظروف ديباج أطلس ، من كل لون اثنين ، وجعل في سبعة منها خمسة وثلاثين ألف دينار في كل ظرف خمسة آلاف ، فمن هذه الظروف كان يغدق عطايها على الشعراء الذين كانوا يقصدونه . ولعل أكثر الوزراء في العصر الفاطمي إنشادا للشعر وتحبباً إلى الشعراء هو الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيق ، فقد جمع شعره في مجلدين كبيرين ، وجمع شعر الشعراء فيه فكان شيئاً كثيراً ، ولكن هذه الأشعار كلها فقدت ، ولم يبق منها إلا شذرات . وكذلك كان الوزير الناصر العادل رزيق بن الصالح الذي وصفه عمارة اليني بقوله : وأما فهمه فكان يعرف جيد الشعر ويستحسنه ويشيب عليه (٢) . فسوق الشعر قد ازدهر في عهد الوزراء كما كان مزدهراً في عهد الأئمة على ما سنوضحه فيما بعد .

ضمياع الشعر الفاطمي :

كانت الحياة في مصر الفاطمية كما رأينا جانباً منها — تدعو إلى ازدهار الشعر وإلى كثرة ما أنتجه الشعراء في كل فن من فنون الشعر وكل موضوع من موضوعاته ، ولكن هذه الموجة الفنية التي طغت على مصر سرعان ما أبادها الأيوبيون فيما أبادوه من تراث هذا العصر الذهبي في تاريخ مصر الإسلامية ، فضاء الشعر ولم يبق منه إلا النزر اليسير ، أو قل لم يبق إلا اسم الشاعر أحياناً إن قدر لاسمه البقاء ، ونحن لا نتردد في اتهام الأيوبيين بجنايتهم على تاريخ الأدب المصري بتعمدهم أن يحوا كل أثر أدبي للفاطميين بصلاة ، فقد حرقوا كتبهم بما فيها من دواوين الشعر خوفاً من أن يكون أبالشعر مديح للأئمة ، وهو كفر

(١) المخطوط ج ٢ ص ٣٧٥ .

(٢) النكت ص ٥٥ .

بزعمهم . وهاهو ذا كاتب الأيوبيين العماد الأصفهاني عندما أراد أن يجمع في خريدته شعر شعراء المائة الخامسة قال عن ابن الضيف داعي الأمر وشاعره : وكنت عازما لفرط غلوه على حظه ، لأنه أساء شرعا وإن أحسن شعراً ، بل أظهر فيه كفرآ ، ولسكنتي لم أر أن أترك كتابي منه صفراً لأن البحر الزاخر يركبه المؤمن والكافر ، ويقصده البر والفاجر ، ويحمل الغناء كما يحمل الدر (١) ، وقال عن ظافر الحداد : أقول ظافر يحظ من الفضل ظاهر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصري والله له غافر (٢) . ومع ذلك لم يرو العماد لهما شيئاً في مدح الأئمة ، فقد تعمد العماد الأصفهاني أن يستبعد أكثر شعر مديح الأئمة من خريدته ، وتبعه في ذلك غيره من الأدباء والمؤرخين ، فضع أكثر شعر مصر الفاطمية بسبب هذا التعصب المذهبي . أضف إلى ذلك أن الأحداث التي كانت في مصر ، ولا سيما في عهد المستنصر بالله ، إبان المحنة الكبرى ، وفي الصراع الذي كان بين شاور وضرغام في أواخر العصر الفاطمي ، كانت من أهم أسباب ضياع شعر الشعراء وكتب العلماء ، حتى إن الشاعر عمارة اليمنى عندما أراد أن يذكر لنا شيئاً من شعره في مدح طي بن شاور قال : فإن جميع ما قلته فيه نهب من دار الخليج (٣) ولم يتذكر منه شيئاً يرويه ، فكانت هذه الأحداث والاضطرابات مأساة للعصر الفاطمي نفسه إذ سببت زوال دولة الفاطميين ، ومأساة للحياة الأدبية والفكرية أيضاً ، وإلا لحدثني عن شعر الشعراء المائة الذين رثوا ابن كلثوم . وأين ديوان ابن حيدرة العقيلي (٤) وأين ديوان أبي الحسن علي بن المؤمل بن غسان الكاتب المصري وكان ديوانه في مجلدين (٥) ، وأين ديوان أبي الحسن بن مطير (٦) ، وديوان ابن الشخباء أستاذ القاضي الفاضل (٧) وديوان الملك الصالح بن رزيق (٨) ، وديوان القاضي الرشيد ابن الزبير (٩) وديوان أخيه المهذب بن الزبير (١٠) ، وديوان ابن الضيف ، وديوان ظافر الحداد الذي وصفه أحد معاصريه وهو الفقيه نصر بن عبد الرحمن

- | | |
|-------------------------|------------------------|
| (١) الخريدة ورقة ٥٣ ب . | (٢) الخريدة ورقة ٥٠ . |
| (٣) النكت ص ١٢٧ | (٤) المغرب ص ٥٢ . |
| (٥) الخريدة ورقة ١٩ | (٦) الخريدة ورقة ١١٤ |
| (٧) الخريدة ورقة ١١٤ | (٨) الخريدة ورقة ٣٢ ب |
| (٩) الخريدة ورقة ٣٦ | (١٠) الخريدة ورقة ٣٦ ب |

الفزاري بقوله : وله ديوان شعر مشهور وبالجودة له مشهور^(١) وأين ديوان
الفقيه الصوفي ابن الكيزاني ، وأين شعر بني عرام شعراء الصعيد ، وأين مقطوعات
ابن الصياد في أنف ابن الحباب ، فقد قيل إن ابن الحباب كان كبير الأنف وكان
ابن الصياد مولعا بأنفه وهجاه بأكثر من ألف مقطوعة^(٢) ، وأين شعر أولاد
الكنز بأسوان^(٣) ، وأين المجموعة التي جمعها عثمان بن عبد الرحيم المعروف
بابن بشرون التي صنفها سنة ٥٦١ وسماها « المختار في النظم والنثر لأفاضل أهل
العصر » وأين مجموع شعراء ابن رزيك^(٤) . وأين كتاب جنان الجنان للمهذب
ابن الزبير الذي صنفه سنة ٥٥٨ وجمع فيه أشعار شعراء مصر وذيل به اليتيمة ،
وأين ديوان القاضي المفضل كافي الكفاة أبي الفتح محمود بن القاضي الموفق
اسماعيل بن احمد الدمياطي المعروف بابن قادوس وكان من أمثال المصريين
وكتابتهم مقدما عند ملوكهم^(٥) ؟

ويطول بنا الأمر لو طالبنا بكل شعر الشعراء الذين كانت تزخر بهم مصر
الفاطمية ، إنما ذكرنا هذه الأسماء على سبيل المثال لا الحصر ، لنعرف مدى هذه
الخسارة التي لحقت بتاريخ الأدب المصري لضياح هذه الثروة الأدبية المصرية
ولندل على أن مصر الفاطمية كانت غنية بشعرائها ، خصبة في شعرها .

هناك جناية أخرى ارتكبتها الثعالبي والباخرزي والعماد وابن سعيد المغربي
وغيرهم من المؤلفين الذين أرادوا أن يحفظوا في كتبهم شيئا من الشعر ، فعمدوا
إلى عدة أبيات من قصيدة ، ولم يدونوا كل القصيدة ، فقد اكتفوا بمقطوعة من
بيتين أو أكثر لكل شاعر ، وقل أن نجد قصيدة كاملة في هذه الكتب ، مما
جعلنا لا نستطيع أن نكون حكا صحيحا على فن الشعراء من هذه المقطوعات التي
رويت له ، لأن الناقد المدقق مهما بلغت مقدرته الفنية ، واتسعت ثقافته الأدبية
وارتقى ذوقه الأدبي لا يستطيع أن يحكم على شاعر بمقطوعة من قصيدة ، أو
بقصيدة واحدة من ديوان ، وإلا كنا كالقدماء الذين كانوا يفضلون شاعرا على

(٢) الحريدة ورقة ٦٨ ا

(٤) الحريدة (٦٨ ب)

(١) الحريدة ورقة ٥٩ ب

(٣) المخطوط ج ١ ص ٣٢٠

(٥) ابن ميسر ص ٩٧ .

شاعر بيت شعر قاله . فهؤلاء الكتاب الرواة كانوا من عوامل ضياع الشعر القديم ، كما هم في الوقت نفسه من عوامل حفظ بعضه .

ومهما يكن من شيء فإن بين أيدينا الآن بعض آثار حياة الشعر في العصر الفاطمي ، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على أن العصر الفاطمي كان خصبا في إنتاج الشعر بحيث استطاع شعراء مصر الفاطمية أن يقف بجوار غيره من الشعر في الأقطار الإسلامية في أرقى عصوره وصوره ، فالعوامل التي تحدثت عنها ، والآثار التي وصلتنا ، وما قاله الرواة عن شعر مصر ، كل ذلك يجعلنا نقول إن شعر مصر الفاطمية كان يحتل هذه المكانة الممتازة في الحياة الأدبية ويتطور هذا التطور الذي نلسه في العصر الفاطمي .

الفصل الثاني

الشعر والأئمة

ذكرنا أن الفاطميين جاءوا بمصر يحملون مذهباً دينياً خاصاً يختلف عن العقائد التي كان يدين بها المصريون ، وأن للمذهب الفاطمي مصطلحات خاصة لا يعرفها غير المنتسبين لفرقتهم ، ولا يفهمها غيرهم ، فكان لهذه العقائد الفاطمية تأثير قوى في شعر مصر الفاطمية ، ذلك أن الشعراء الذين اتصلوا بالأئمة كانوا يمدحون هؤلاء الأئمة بالصفات التي صبغها المذهب على الأئمة ، ويعتمد الشعراء أن يستعمل في شعره المصطلحات التي اصطلح عليها علماء المذهب ودعاته ، وكلما أمعن الشعراء في استخدام هذه المصطلحات ، وإدخال هذه الصفات في شعره ، ازدادت قيمة الشعراء عند الأئمة وكبار رجال الدعوة ، وكثر عطاؤه وزاد جاريه ، فكان الشعراء على هذا النحو دعاة للأئمة والعقائد دون أن يكون لهم في مراتب الدعوة شأن . وفي الوقت نفسه كان الشعراء سبب اتهام المذهب الفاطمي بالغلو والميل إلى الخروج عن تعاليم الإسلام ، ذلك أن الشعر أسرع في الانتقال على أفواه الناس من كتب العلماء ، فإذا كانت كتب الدعوة لا يقربها إلا أتباع مذهبهم ، وأن مجالس حكمتهم لا يحضرها إلا من استجاب لهم ، فالشعر يختلف عن ذلك كله ، فإنه يسير بين الناس ويرويه الرواة ، فإذا سمع مستمع إلى تلك الأبيات التي زخرت بعقائد الفاطميين دون أن يكون له إلمام بعقائد المذهب وما فيها من تأويلات باطنية فهو لا يستطيع أن يدرك معنى ما جاء في هذا الشعر ، وما قصد إليه الشاعر في مدائحه ، ومن هنا يتهم الشاعر ويتهم المذهب نفسه ، وقد رأينا كيف وصف العباد الأصفهاني شعر بعض شعراء الدولة الفاطمية ، وقرأ الآن أقوال النقاد والمؤرخين عن ابن هاني الأندلسي ، وما وصف به من شدة الغلو في مدح الأئمة حتى رماه بعضهم بالخروج عن الدين جملة ، فلو كان

هؤلاء النقاد يعرفون التأويل الباطني لأقوال ابن هانيء ، أو أنهم حاولوا معرفة ما أراد الشاعر وقصد إليه ، لرأيانهم يرجعون عن كثير مما اتهم به الشاعر ، وذكرنا أن هذا من الأسباب التي أدت إلى ضياع شعر مصر الفاطمية ، ولا سيما هذا اللون من الشعر الذي ملئ بالعقائد والذي قيل في مدح الأئمة . ولكن من حسن الحظ أننا عثرنا على ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة ، وديوان الأمير تميم بن المعز وقصيدة في مدح العزيز ، وكانت هذه النصوص في مكتبات رجال البهرة بالهند .

في مجموعة أشعار الإسماعيلية قصيدة تكاد تكون فريدة في نوعها في الشعر العربي كله ، وهي لشاعر مجهول من شعراء العزيز بالله ، وتنسب هذه القصيدة أحيانا إلى المؤيد في الدين^(١) . وتنسب مرة أخرى إلى شاعر يلقب بالاسكندراني^(٢) ، ولكنني أرفض نسبة هذه القصيدة إلى المؤيد لأن العزيز بالله أقدم عهدا من المؤيد في الدين ، وأن المؤيد لم يمدح العزيز مطلقا إنما مدح الظاهر والمستنصر وهما الإمامان اللذان عاصرهما المؤيد ، ولم يمدح غيرهما من الأئمة ، أضف إلى ذلك كله أن هذه القصيدة تختلف عن شعر المؤيد من ناحية فن الشعر عند المؤيد .

أما الاسكندراني الذي تنسب إليه هذه القصيدة فلا نعرف عنه شيئا ، ولم تذكره المصادر التي بين أيدينا ، وكل ما ورد عنه في المجموعة الخطية هو : هذه قصيدة الاسكندراني رحمه الله في مدح الإمام العزيز بالله قدس الله روحه ، وهي الموسومة بذات الدوحة^(٣) .

قلت : إن هذه القصيدة فريدة في بابها في الشعر العربي ، ذلك أن الشاعر روى الحديث المنسوب إلى النبي صلى الله عليه وسلم « أهل بيتي شجرة أصلها ثابت ، وفرعها في السماء » وقول النبي أيضا « أنا شجرة وفاطمة حملها وعلى لقاحها والحسن والحسين ثمرتها ومحبونا أهل البيت ورقها حقا حقا أن يكونوا معنا

A Guide to Ismaili Literature. P. 49. (١)

(٢) نسخة ديوان المؤيد الخطية المرموز إليها (ق) راجع ديوان المؤيد

(٣) ورقة ٦٦ ب .

في الجنة (١) « وأمثال هذين الحديثين . فشاء له خياله أن يمدح إمامه العزيز بالله بقصيدة جعل لها جذعا وفروعا على مثال الشجرة ، وسمى قصيدته ذات الدوحة ، وأودعها كثيرا من المصطلحات والعقائد الفاطمية ، والقصيدة هي :

سئمت من البين الذي ليس يصدق
أأمدح رهطا غير رهط محمد
ولا فضل لي في ذا ، بل الفضل فضل من
أمة دين الله مذ قام دينه
محبتهم فرض على الناس واجب
هم العروة الوثقى ، هم منهج الهدى
ولولا هم لم يخلق الله خلقه
هم دوحة الدين التي تثمر الهدى
تجير من الأيام من يستظلها
سقاها غمام الوحي علما فأينعت
جرت في تخوم المحكمات عروقا
هم الأصل منها والأئمة فرعها
إلى أن تسامت بالعزيز ولم تكن
فباهت على الأيام أيامه التي
سحائب جود لا يغيب غمامها
لئن فقدت الناس المعز لدينه
تجددت الدنيا علينا بيمينه
ولا الجود ممنوع ولا المجد حامل
تضوع نشر العدل في كل بلدة
ملأت قلوب العارفين محبة
فلا صامت إلا بحبك ناطق
فضائل مولانا العزيز جليلة

فلمست بغير الحق والصدق أنطق
وفي الجيد عهد للإمام موثق
بهم يحرم الله الأنام ويرزق
وأنوار هذا الخلق من قبل يخلق
وعصيانهم كفر إلى النار موبق
هم الغاية القصوى التي ليس تلحق
ولم يك في الدنيا ضياء وروثق
وباليمين والتقوى تظل وتسبق
وتحجي من الموت الجهول وتطلق
بمكسبون علم الله فالدين موثق
وفوق الثريا فرعها متعلق
ففي كل عصر نورها يتألق
بغير أن المنصور لو كان يلحق
تسكاد لها صم الجنادل تورق
وبجر سماح بالنسدى يتدفق
لقد قام بالدين العزيز الموفق
فلا العيش مذموم ولا الدهر أخرق
ولا العرف مقطوع ولا النكر مطلق
ونشر الثناء الطيب للطيب يعقب
فكل على مقصداره يتشوق
ولا مضممر إلا بشكرك ينطق
إذا عد فضل فهو بالفضل يسبق

(١) يروى الشيعة هذه الأحاديث ونجدها في المجلس الخامس والستين من المائة الثانية من المجالس المؤيدية وفي كتاب بحار الأنوار وغيرها .

غرست على بيت من الشعر دوحة
فألفت من بيت بيوتا كثيرة
فسميع وسبع عن يمين ويسرة
بمدح أمير المؤمنين لأنها
عليه صلاة الله ما لاح كوكب
لها أغصن في وزنه حين تبسق
ولكنها مع ذلك لا تتفرق
على كل حرف منه بيت مفلق
لعمرى به من سائر الخلق أليق
وما ناح في الأيك الحمام المطوق

كسى الدين والدين دنيا ودار جلايا
الشرق والغرب الإمام عرابيا
من لادين لالا حبه
العشيرة جلايا
هداية
من الجود والاقبال فالدهر مشرق
علوا فسيب الحق بالحق مطلق
بأيامه الالهي بها الضخر ينفق
يتلقى
تزي بيت نور من أغصانها
تزي اللطاة وتونى
تزي من الجن والإعجاب
تزي لا
توزق
من الجود والاقبال فالدهر مشرق
علوا فسيب الحق بالحق مطلق
بأيامه الالهي بها الضخر ينفق
يتلقى
تزي بيت نور من أغصانها
تزي اللطاة وتونى
تزي من الجن والإعجاب
تزي لا
توزق

فالشاعر هنا قد ألزم نفسه بأن يبني بيتين من الشعر على كل كلمة من كلمات البيت الأخير ، وأن يفرع عن يمين هذا البيت الأخير أربعة عشر بيتا سبعة أبيات عن يمين ، وسبعة عن شمال حتى تتخذ القصيدة شكل الدوحة ، وما رأينا أحداً من شعراء العربية يتلاعب بمثل هذا التلاعب قبل هذا الشاعر الفاطمي ، ومن يدرى لعل التشجير الذي ظهر في الشعر الفارسي في القرن السادس الهجري وما بعده هو تطور هذا التلاعب الذي نراه في هذه القصيدة ، فقد أراد الشاعر أن

يهدى إلى إمامه مثالا من الشعر للشجرة التي ذكر في القرآن أن أصلها ثابت وفرعها في السماء ، و شاء الشاعر إلا أن يهدي لإمامه هذه الدوحة وجعل أبيات الفروع والأغصان سبعة عن يمين وسبعة عن شمال تمثيلا لرأى الفاطميين في الأدوار السبعة إذا انتهى دور سبعة من أئمة الدين تلاه دور آخر لسبعة آخرين ، وقد يكون ذلك أيضا لأن المعز كان سابع الأسبوع الثاني من دعوة النبي محمد ، وأن العزيز هو أول الأئمة في دور الأسبوع الثالث ، وهكذا كان هذا الشاعر في تلاعبه في شكل القصيدة باطنيا ، وهو باطنيا أيضا في المعاني التي قصد إليها ، ففي مدحه لإمامه أملت عليه عقيدته الفاطمية هذه المعاني ، ففي البيت الثاني يتحدث الشاعر عن العهد أو الميثاق الذي يأخذه الإمام على شيعته والمستجيبين لدعوته . وفي البيت الثالث يشير إلى أن الأئمة مثل للعقل الأول ، وبما أن الله سبحانه وتعالى قال للعقل (وهو القلم أيضا) « بك أثيب وبك أعاقب »^(١) فهذه الصفات تنطبق أيضا على مثل العقل وهم الأئمة^(٢) فيثيب الله من أطاع الأئمة ويعاقب من خالفهم . وفي البيت الرابع يتحدث الشاعر عن تنقل نور الله منذ بدأ خلقه إلى أن حل هذا النور في إمام العصر^(٣) ، وفي البيت الخامس ذكر طاعة الأئمة وأن طاعتهم فرض فرضه الله تعالى في القرآن الكريم بقوله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » وفي البيت الثامن وما بعده يتحدث الشاعر عن العلم الباطن الذي خص به الأئمة دون غيرهم ، وأن هذا العلم هو الذي يحيي موتى النفوس ويجلو غياهب الشك ، ثم يتحدث الشاعر بهد ذلك عن عقيدة الفاطميين التي شاركهم فيها غيرهم من المسلمين وهي العقيدة التي تقول : إن الله لم يخلق هذا الخلق سدى ، بل لعبادته وتوحيده . ولكن الفاطميين خالفوا المسلمين في الوسيلة التي تؤدي بهم إلى العبادة والتوحيد ذلك أن العبادة عندهم لا تقبل إلا بموالاتة الأئمة من أهل البيت ، فكأن العالم لم يخلق إلا من أجل الأئمة الذين بهم يصل الإنسان إلى عبادة الله وتوحيد الله . فالشاعر في هذه القصيدة شاعر عقائد قبل كل شيء .

(١) ذكرنا أنه ورد في صحيح البخارى قول النبي (ص) « أول ما خلق الله القلم فقال له أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر ، فقال : بعزتي وجلالي ما خلقت خلقا هو أعز علي منك ، بك أثيب وبك أعاقب ... »

(٢) راجع « نظرية المثل والمثول » (٣) راجع قصيدة الإمام العزيز في الفصل السابق .

عرف عقائده فاتخذ هذه العقائد وسيلة لمدح الإمام ، فالشاعر متأثر بهذه العقائد فظهرت في شعره .

وها هو ذا الأمير تميم بن المعز لدين الله ، الذى نعرف عنه أنه ابن إمام من الأئمة ، وأخ لإمام من أئمتهم ، كان شاعراً من أكبر شعراء عصره ، مدح أباه وأخاه الإمام بعدة قصائد حفظت في ديوانه ، وقد استطعنا الحصول على نسخة خطية من هذا الديوان ، فرأينا الشاعر يصف الإمام بالمصطلحات الفاطمية ، ويلم في شعره بعقائد أسرته ، فهو يقول مرة للعزير بالله :

جئت الخلافة لما أن دعتك كما	وإني لميقاته موسى على قدر
كالأرض جاد عليها الغيث منهملا	فزانها بضروب الروض والزهر
ما أنت دون ملوك العالمين سوى	روح من القدس في جسم من البشر
نور لطيف تناهى منك جوهره	تناهيا جاز حد الشمس والقمر
معنى من العلة الأولى التى سبقت	خلق الهيولى وبسط الأرض والمدر
فأنت بالله دون الخلق متصل	وأنت لله فيهم خير مؤتمر
وأنت آيته من نسل مرسله	وأنت خيرته الغراء من مضر
لوشئت لم ترض بالدنيا وساكنها	مشوى ، وكنت مليك الأنجم الزهر
ولو تفاظنت الأبواب فيك درت	بأنها عنك في عجز وفي حصر (١)

ففي هذه الأبيات نرى الشاعر يمدح إمامه بأنه ليس كغيره من الملوك ، لأن نفس الإمام الشريفة اللطيفة هي روح قدسية حلت في جسم كشيء ترابي ، وأن هذه النفس اللطيفة تناسب العقل — الذى سماه هنا بالعلة الأولى على حسب الاصطلاحات الفلسفية والفاطمية أيضا — وبما أن العقل هو أول ما خلق الله فهو سابق لخلق الهيولى ، ولما كان العقل الأول هو أقرب مبدعات الله إليه سبحانه ، فكذلك الإمام الذى هو مثل العقل أقرب المخلوقات إلى الله على هذه النسبة ، وهو متصل بالله تعالى لأن ممثوله العقل الأول متصل بالله تعالى ، وأن الإمام آية الله تعالى من نسل النبي محمد ، لأن ممثوله العقل هو آية الله الكبرى ، وهكذا يستمر الأمير تميم في استغلال هذه الآراء والعقائد الفاطمية في مدح شقيقه الإمام العزير بالله

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٥٨ (نسخة خطية بمكتبتى) .

بحيث لا نستطيع أن نصل إلى فهم أشعاره في هذا المدح دون التوسل إلى ذلك بتطبيق نظرية المثل والمثول . انظر إليه وهو يمدح الإمام :

فيابن الوصي ويابن البتول ويابن نبي الهدى المصطفى
ويابن المشاعر والمروتين ويابن الحطيم ويابن الصفا (١)

فهو يصف الإمام بمعان باطنية ، فمناسك الحج في التأويل الباطن هي محمد (ص) وما أن الوصي والأئمة يقومون مقام النبي بعد موته فهم يوصفون بصفاته ، ويكرر هذا المعنى في أكثر قصائده كقوله :

وابن الصفا والحجر وابن الهدى وابن نبي الهدى وابن الكتاب (٢)
فيجانب هذه الصفات التي وصف بها الإمام بأنه ابن الصفا وابن الحجر نراه يصف إمامه بأنه ابن الكتاب ، والكتاب هو القرآن ، وفي التأويل الباطن أن القرآن والزبور والتوراة والانجيل هي مثل ، والمثول هو الوصي . يقول في ذلك صاحب المجالس المستنصرية : « فالقرآن العظيم هو هذا الكتاب الكريم ، وقرينه في التأويل الحكيم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه أفضل الصلاة والتسليم لأنه في زمانه قرين القرآن ، والقرآن قرينه ، وإنما يسمى الكتاب قرآنا لاقترانه بالعترة ، يبين ذلك قول رسول الله (ص) (إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعتري أهل بيتي فإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض) فالقرآن قرين كل واحد من الأئمة الطاهرين » (٣).

ومرة أخرى يمدح الأمير تميم إمامه بصفات باطنية فيقول :
يا حجة الرحمن عند عباده وشهابه في كل أمر مشكل
من لم يكن في صومه متقربا بك ، فصومه لم يقبل (٤)
فهو هنا يصف إمامه بأنه حجة الله في الأرض وهو معنى من المعاني الباطنية وصفة من صفات الأئمة (٥) ، ويقول أيضا: إن الإمام هو النور الذي يبين للناس ما غمض عليهم ويوضح ما أشكل ، وفي البيت الثاني يشير إلى عقيدة الفاطميين التي تقول إن فرائض الدين الإسلامي لا تقبل إلا باتباع المنصوص عليه من أهل

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٥ (٢) ديوان تميم ورقة ١٨ ب

(٣) كتاب المجالس المستنصرية ص ٢٩ (٤) ديوان تميم ورقة ١٣١ ب

(٥) راجع ما كتبهنا عن ذلك في كتاب ديوان المؤيد داعي الدعاة .

البيت ، فلا صيام لصائم ما لم يعتقد ولاية الأئمة لأن الولاية كما قلنا هي محور عقيدة الفاطميين ، ويكرر هذا المعنى الأخير في قوله :

وأنت المصطفى الملك الذي بطاعته من ربنا نتقرب
ولولاك كان الملك في غير أهله وكان على أفق الشريعة غيب
عليك صلاة الله ما طلع الضحى وما حن للأوطان من يتغرب (١)

وهكذا نستطيع أن نستخرج من ديوان الأمير تميم أثر العقائد الفاطمية في شعره ، ونستطيع أن نفهم ما قصد إليه الشاعر من معان إذا طبقنا (نظرية المثل والممثل) .

ولعل الشاعر المؤيد في الدين هبة الله بن موسى الشيرازي هو أول شاعر في هذا العصر وصل إلينا ديوان شعره ، فإذا بشعره كله متأثر بالعقيدة الفاطمية ، فالشاعر جعل كل قصائده التي في هذا الديوان في مدح الأئمة ، ولم يتناول موضوعاً آخر من موضوعات الشعر ، وملاً قصائده كلها بالمصطلحات الفاطمية حتى إنى لا أكاد أعرف لهذا الديوان مثيلاً في الأدب الفاطمي بل في الأدب العربي كله ، فنحن نستطيع أن نتخذ هذا الديوان الشعري من كتب العقائد الفاطمية ، ولاغرو في ذلك فالمؤيد لم يكن شاعراً متكسباً بشعره مثل غيره من الشعراء ، ولم يكن شاعراً من الشعراء الذين تستهويهم حياة المجون والقصف واللهو ، إنما كان عالماً من علماء الدعوة ، بل كانت إليه مرتبة داعي الدعوة ، ولقبه إمامه المستنصر بالحجة نزوعاً إلى رفع شأنه ، فليس غريباً أن ينقطع مثل هذا العالم الكبير إلى العلم وأن يتفرغ إلى كل ما يتصل بنشر الدعوة بين الناس ، فإذا أنشد شعراً فیتغلب على هذا الشعر عقل العالم لا عاطفته .

ولذلك ترى هذه الأشعار الكثيرة التي ضمنها ديوانه ملئت علماً وتأويلاً ، أنظر إليه يقول في إحدى منظوماته التي وضعها « لمكاسرة » محالني مذهبه :

ما النون يا صاح ترى والكاف فالخلق در وهما أصداف
إن الذي ظنهما حرفي هجا مستوجب من ذى الحجى كل هجا
هل كافل بالأرض والسماء يا عمى حرفان من الهجاء

تفهموا يا قوم ما الحرفان إن نجاة المرء بالعرفان
ما فاعل العالم كالمفعول كلا ، ولا الحامل كالمحمول
والكاف والنون اللذان انتظما صنع الإله منهما والتحما
وعنهما يأتلف الوجود لمن هو المشاهد الموجود
أنى يكونان من الموات وعنهما منابع الحياة (١)

فقارىء مثل هذه الآيات من نظم المؤيد يدرك لأول وهلة مقدر تأثيرها بالمصطلحات الفاطمية التي لا يعرفها إلا من تعمق في دراسة المذهب الفاطمي ، فإن قضية الإبداع ، أو الحدود الروحانية والجسمانية عند الفاطميين تكاد أن تكون أدق موضوع عاجله جميع الدعاة والكتّاب ، فأفردوا لهذا الموضوع كتباً خاصة ، وفصولاً من كل كتاب من كتب الدعوة ، والمؤيد في الدين في هذه الآيات يشير إلى « الكاف » و « النون » وهما الحرفان اللذان تأتلف منهما لفظ « كن » من قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » غير أن الفاطميين قالوا إن « كن » هي الكلمة التي قامت بها السموات والأرض وما فيهما من خلق ، وإن « الكاف » و « النون » ليسا بحرفي هجاء كما يتوهم العامة بل هما ملكان روحانيان جليلا القدر عظيم الشأن ، وقد أقسم الله سبحانه وتعالى بهما في قوله « نون والقلم » والله تعالى لا يقسم إلا بأعز مخلوقاته ، « الكاف » رمز من الله « بالقلم » ، و « النون » رمز إلى « اللوح المحفوظ » ، ويسمى « القلم » عندهم بالسابق وهو العقل الكلّي عند الفلاسفة ، وله كل صفات وخصائص ذلك العقل كما تحدث عنه الفلاسفة ، وهو أول ما أبدعه الله سبحانه وتعالى من الحدود الروحانية ، ومن علماء المذهب من قال : بأن وجود عالم الإبداع ظهر دفعة واحدة عن المبدع الحق تعالى لا من شيء ، أى لا من مادة تقدمت عليه ، ولا بشيء ، أى لا بألة استعان بها عليه ، ولا في شيء ، أى لا مع غيره يشا كله ويساويه ، ولا مثل شيء أى لا مثل معلوم كان له نظير فيه ، ولا لشيء أى لا حاجة في زيادة ولا نقصان في ملكه تعالى ومشيتته ، فكان وجود الكل كما رمز به الحسباء ولوح به

(١) القصيدة الثانية من ديوان المؤيد داعي الدعاة .

العلماء عنه تعالى بحرف « الكاف » و « النون » فكان ما كان (١) ، ولكن أغلب العلماء على أن « القلم » كان أسبق في الوجود من اللوح ولذلك سمي « القلم » بالسابق و « اللوح » بالتالي ، و « اللوح » هو ما يسمى عند الفلاسفة بالنفس ، وجعل الفاطميون لهذا الحد جميع الصفات التي وصف بها الفلاسفة النفس الكلية ومن « القلم » و « اللوح » وبواسطتهما أوجد الله تعالى جميع المخلوقات في السموات والأرض ، فهما كافلا العالم (٢) ، فحدثهم في الإبداع هو صورة لمراتب الفيوضات في الافلاطونية الحديثة ، وإن كان الفاطميون صبغوها بالصبغة الإسلامية ، وبتطبيق نظرية المثل والمثول ، يكون النبي مثلا « للقلم » والوصي مثلا « للوح » وبعد وفاة النبي يصبح الإمام مثلا للقلم والحجة مثلا للوح ، وللشئ جميع صفات وخصائص المثول ، فكأن الفاطميين لم يبحثوا مسألة الإبداع إلا لإثبات مكانة الأئمة بين الحدود الجسمانية ومماثلتهم للحدود الروحانية في العالم العلوي وإسباغ ألوان التقديس على الأئمة بهذه المماثلة ، وعن هذه العقيدة اشتق الفاطميون عقائدهم في صفات الإمام ، وظهر أثرها في الشعر الفاطمي ، من ذلك ما أنشده المؤيد في الدين في مدح إمامه المستنصر :

قد خلقتم من طينة وخلقنا نحن منها لكن بدا ترتيب
إن أجسامكم لناشئة الطين الذي منه شق منا القلوب (٣)

فهو يمدح إمامه بأن جسم الإمام عقل كله ، ذلك أن جسم الإمام خلق من الطينة التي خلقت منها قلوب البشر ، أي أن الطينة التي خلق منها جسم الإمام هي نفس الطينة التي خلق منها عقل البشر ، فما هو كشاف عند الإمام هو لطيف عند غيره من عامة الناس . وتأويل ذلك أن عقل الإمام شريف ويجب أن يكون ما يحل فيه هذا العقل شريفا أيضا ، ولكن بما أن الإمام من البشر وجسمه ترابي كغيره من الآدميين ، فجسمه خلق من تراب ولكنه التراب الذي خلق منه قلب البشر الذي يحله عقول البشر . وفي هذا المعنى يقول المؤيد أيضا :

(١) كتاب كنز الولد (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٢) راجع كتاب راحة العقل والمجالس المؤيدية في مواضع متعددة .

(٣) القصيدة الثالثة

نعم قد أفاضها في البرايا فتخلت عن شكرها أنعام
هم نهايات كل من برأ الله وغايات خلقه والسلام
فإليهم تنمى النفوس إذ را حت إلى الأرض تنمى الأجسام (١)
وقوله أيضا :

مولى مواليه الأعز ز كما معاديه الأذل
ذو نسبة بالمصطفى والمرضى يسمو ويعلو
بكشيفه ولطيفه فأساسه نفس وعقل (٢)
وهذا المعنى كثير جدا في شعر المؤيد نراه في أكثر قصائده التي في الديوان.
هناك عقيدة أخرى ردها المؤيد في شعره ، فهو يقول مثلا :

سلام على العترة الطاهرة وأهلا بأنوارها الزاهرة
سلام بديا على آدم أنى الخلق باديه والحاضره
سلام على من بطوفانه أديرت على من بغى الدائره
سلام على من أتاه السلام غداة أحفت به النائره
سلام على قاهر بالعصا عصاة فراعنة جائره
سلام على الروح عيسى الذى بمبعثه شرفت ناصره
سلام على المصطفى أحمد ولى الشفاعة فى الآخره
سلام على المرتضى حيدر وأبنائه الأنجم الزاهره
سلام عليك ، فحصولهم لديك أيا صاحب القاهره
بنفسى مستنصرا بالإله جنود السماء له ناصره
شهدت بأنك وجه الإله وجوه الموالى به ناصره
وأنتك صاحب عين الحياة وعين خصومهم غائره
بجار الندى كفه والعلوم مدى الدهر فى قرن زاخره
لأحياء أرواحنا الباقيات وإنشاء أجسامنا البائره (٣)
فالشاعر هنا يسلّم على جميع الأنبياء ، وعلى الوصى على بن أبى طالب والأئمة
من ذريته ، ولكنه ذهب إلى أبعد من التسليم فقال : « فحصولهم لديك

(١) القصيدة الثانية عشرة .

(٢) القصيدة السادسة عشرة .

(٣) القصيدة الحادية والأربعون .

أيما صاحب القاهرة ، وصاحب القاهرة في عصره هو الإمام المستنصر بالله ، فهل معنى ذلك أنه جعل الأئمة في منزلة الأنبياء ؟ تقول عقيدة الفاطميين إن النبي محمدا جمع أدوار كل الأنبياء والمرسلين الذين جاءوا قبله ، أى أنه في دوره مثل آدم في دوره فهو آدم على هذا النحو ، وهو إبراهيم في دوره وهكذا ، فكأنه بذلك جمع أدوار جميع الأنبياء ، بل قال الفاطميون إن دور النبي محمد يشبه أدوار الأنبياء السابقين ، وما حدث للأنبياء وأوصيائهم وأئمة دورهم يحدث أيضا لمحمد ووصيه وأئمة دوره ، فالأدوار واحدة ولكنها تتخذ أشكالا مختلفة . ولما كان الإمام يقوم مقام النبي فهو يجمع الأدوار أيضا على هذه الصورة ، فالمستنصر هو آدم وهو إبراهيم وهو نوح إلى آخر الأنبياء ، فالنور الذي تنقل بين الأنبياء حل في إمام الزمان ، ليس معنى ذلك أن الأئمة كانوا بمنزلة الأنبياء . فقد ذكرنا أن لهم نفس صفات الأنبياء إلا صفة النبوة والرسالة ، وهكذا نستطيع أن نفسر قصيدة المؤيد السابقة . ومن الطريف أن المؤيد نفسه في قصيدة أخرى قارن بين الإمام وبين بعض الأنبياء فقال في مقارنة المستنصر بنبي الله عيسى بر مريم :

و صديق مثل العدو مداج	لا أراه إلا عدوا مضلا
جاءني حائرا ، فقال بجهل	ما أرى المسيح في الناس شكلا
إن عيسى قد كلم الله في المهد	صيبا وكلم الناس كهلا
قلت : هذا مولى الأنام معد	قد حوى الملك والإمامة طفلا
قال : عيسى أحيى الموات جهارا	قلت : مهلا يا ناقص الفهم مهلا
إن هذا مولى الأنام معد	هو يحيى بالعلم من مات جهلا
قال : عيسى أبرا العمى قلت : مولا	ى معد يجلو العمى إن تجلى
قال : حسبي أجبتني بجواب	باطني بينت لي فيه عقلا
ثم ولي عني مقسراً بفضل	لإمام الهدى ورحمت مدلا (١)

وقس على ذلك مقارناته لباقي الأنبياء ، فهو يتحايل على المعاني حتى يأتي منها بما يلائم مقابلة أدوار الأئمة بأدوار الأنبياء ، وتكاد قصص الأنبياء التي وردت في القرآن الكريم أن تؤول على هذا النحو الذي رأيناه في هذه القصيدة . ويستمر

(١) القصيدة التاسعة والخمسون .

المؤيد في كل قصائده يمدح الإمام بمعان باطنية هي من تأثير العقيدة في نفسه وفي شعره .

ويخيل إلى أن العقائد أثرت أيضا في جميع الشعراء الذين ظهر وافي بلاط الأئمة في عهد ضعف الأئمة وسطوة الوزراء ، وفي عهد انتقال مركز الدعوة إلى اليمن ودخول الأئمة في دور الستر الثاني ، وقد ذكرنا أن الحافظ والظافر والفائز والعاقد آخر ملوك الفاطميين كانوا يحكمون نيابة عن الإمام المستر ولم يكونوا أئمة ، ولكن شعراء مصر أبوا إلا أن يقدقوا صفات الأئمة على هؤلاء النواب ، بل من الشعراء من لقب هؤلاء الملوك بالأئمة ، فالشاعر الشريف أبو الحسن علي بن محمد الأخفش شاعر الأمر والحافظ مدح الحافظ بقوله :

صرف جريال يرى تحويلها من يرى الحافظ فردا صمدا
بشر في العين إلا أنه من طريق العقل نور وهدى
جل أن تدركه أعيننا وتعالى أن نراه جسدا
فهو في التسبيح زلفى راعع مسمع الله به من حمدا
تدرك الأفكار فيه بانبا كاد من إجلاله أن يعبد^(١)

فالشاعر هنا مدح الحافظ بهذه الصفات الباطنية التي هي من صفات الأئمة . ولكن الحافظ كان ينوب عن الإمام المستر فطبق الشاعر صفات الإمام على نائبه ، فالإمام عن طريق العقل ، أي عن طريق علم الباطن ، هو نور أي أنه عقل كله ، والعقل الأول لا يدرك بالأبصار ، فهو يتعالى أن يحد بحدود ذلك الجسد ، أما قوله « فهو في التسبيح زلفى راعع » فتأويل الركوع — كما يحدثنا القاضي النعمان في كتابه تأويل دعائم الإسلام — هو طاعة الإمام ، والإقرار بحدود الدين المروحانيين والجسمانيين ، والتسبيح في الركوع تأويله البراءة والتنزيه لله تعالى أن يقاس أو يشبه به أحد من حدوده أو من خلقه^(٢) ، وتأويل « مسمع الله به من حمدا » أن كل من صار إلى الدعوة وجب عليه حمد الله على ما أصاره من فضله إليه وأطلعته من أمر أوليائه عليه فيأمر الداعي بذلك من دعاه ويخبرهم أن

(١) الحريدة ورقة ١٤٢ ب .

(٢) المجلس الرابع من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام — نسخة خطية بمكتبتي .

الله تعالى يسمع حمدهم، ويطلع على اعتقادهم في ذلك ، فإن كانوا قبلوه حتى القبول واعتبطوا به كما يجب وحمدوا الله على ما هداهم إليه منه فيحمد الله كما أمرهم (١) .
أما البيت الأخير فالشاعر يشير إلى أن الإنسان إذا فكر في أمر الإمام ، وأن الإمام مثل للعقل الأول وما يوصف به هذا العقل ، فيكاد المفكر من إجلاله للعقل أن يعبده وأن يعبد مثله . وهذا البيت الأخير يشبه قول المؤيد في مدح المستنصر :

لست دون المسيح سماه ربا أهل شرك ولا نسيمك ربا
وهو مثل قول الشريف ابن أنس الدولة في مدح الحافظ ، وقد صعد المنبر يوم العيد :

خشوعا فإن الله هذا مقامه وهمسا فهذا وجهه وكلامه
وهذا الذي في كل وقت بروزه تحياته من ربنا وسلامه (٢)
فهذا المعنى الذي ورد في جميع هذه الآيات هو من المعاني الباطنية ، وكلها تخضع في التفسير لنظرية المثل والمثول أيضا . فالإمام مثل العقل الأول فهو أشرف من جميع المخلوقات ، وأنه هو المقصود بوجه الله ويد الله وجنب الله التي وردت في القرآن الكريم . ثم انظر إلى قول الشاعر :

هذا أمير المؤمنين بمجلس أبصرت فيه الوحي والتنزيلا
وإذا تمثل راكبا في موكب عاينت تحت ركابه جبريلا (٣)

« فجلس الوحي والتنزيل » هو مجلس النبي صلى الله عليه وسلم الذي يقوم الإمام مقامه ، أما قوله : « عاينت تحت ركابه جبريل » فتأويل الملائكة في عقيدة الفاطميين هم الدعاة ، فكأن الشاعر يقول : إن الإمام إذا سار في موكبه سار تحت ركابه الدعاة الذين يدعون له ولمذهبه .

وكان الوزير الملك الصالح طلائع بن رزيق من الشعراء الذين اتخذوا الشعر وسيلة لنشر عقائد مذهبه ولتهجين مذاهب أضراده ، فمن ذلك قوله :

يا أمة سلكت ضلالا بينا حتى استوى إقرارها وجودها

(١) المجلس الخامس من الجزء الخامس من تأويل دعائم الإسلام نسخة خطية عكبتني .

(٢) خطط القريري ج ٢ ص ٣٣٠ (٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧

ملتم إلى أن المعاصى لم يكن إلا بتقدير الإله وجودها
لو صح ذا كان الإله بزعمكم منع الشريعة أن تقام حدودها
حاشا وكلا أن يكون إلهنا ينهى عن الفحشاء ثم يريدها (١)

فهو هنا يشير إلى تلك المسألة التي شغلت أذهان المسلمين وأثارها المعتزلة
ردحا طويلا من الزمان ، وأثارت مجادلات بين علماء المسلمين ، وهي مسألة
الجبر والاختيار . فجمهور أهل السنة على أن الإنسان مجبر ، والمعتزلة تذهب
إلى أن الإنسان مخير ، ولكن الفاطميين كانوا يذهبون مذهبا وسطا ، فالإنسان
مجبر في أمور ، ومخير في أمور ، فهو ولد من غير اختيار بل هو مجبر ، وتصيبه
بعض الأحداث في حياته قضاء وقدرًا ويموت بغير اختيار ، أما أفعاله فهو
مخير فيها .

ولم يكن شعراء مصر الذين مدحوا الأئمة والوزراء هم الذين ألما في أشعارهم
بعقائد الفاطميين وتأثروا بها هذا التأثير الذي رأينا بعض نماذجه ، إذ المفروض
أن جميع الشعراء الذين اتصلوا ببلاط الفاطميين كانوا يمتدحون بمذهب الأئمة ،
ولكننا نرى الشعراء الوافدين على مصر في ذلك العصر كانوا يحاولون أن
يتخذوا العقائد الفاطمية وسيلة للوصول إلى مدح الأئمة ، وأن يزينوا شعرهم
بهذه العقائد للتقرب إلى الأمراء والوزراء والأئمة ، وأكثر الشعراء الذين
وفدوا على مصر لم يكونوا فاطمى المذهب ولكنهم اضطروا إلى أن يمدحوا الأئمة
بالمعاني الباطنية على نحو ما كان يفعل شعراء مصر ، ويحدثنا ياقوت أن الحسين
ابن عبد الله الشاعر المعروف بأبي حصينة المعرى المتوفى سنة ٤٥٧ هـ أوفد إلى
المستنصر بالله ، وأنه مدح المستنصر بقصيدة منها :

ظهر الهدى وتجمل الإسلام وابن الرسول خليفة وإمام
مستنصر بالله ليس يفوته طلب ولا يعتاص عنه مرام
حاط العباد وبات يسهر عينه وعيون سكان البلاد تنام
قصر الإمام أبي تميم كعجة ويمينه ركن لها ومقام
لولا بنو الزهراء ما عرف التقى فينا ولا تبع الهدى الأقسام

يا آل أحمد ثبتت أقدامكم وتزلزلت بعداكم الأقدام
لستم وغيركم سواء ، أتمم للدين أرواح وهم أجسام
يا آل طه حبكم وولائكم فرض وإن عدل للحاة ولا موار (١)

فالشاعر بالرغم من أنه من معرة النعمان يمدح إمام مصر الفاطمي بهذه
الصفات الباطنية التي تجد حظا من القبول إذا مدح بها الإمام ، فقصر الإمام كعبة
والركن والمقام في التأويل الباطن مثل على الإمام ، ولولا الأئمة ما عرفت
حقيقة الدين ، والأئمة عقول والناس أجسام والولاء للأئمة فرض من الله ،
فهذه كلها من عقائد الفاطميين ، واضطر الشاعر أن يزوج بها في مدحه للإمام الفاطمي ،
ولهذا الشاعر قصيدة أخرى في مدح المستنصر أيضا منها قوله :

أما الإمام فقد وفي بمقالة صلى الإله على الإمام وآله
لذنا بجانبه فعم بفضله ويبدله وبصفوه وجماله
لا خلق أكرم من معد شيمة محجودة في قوله وفعاله
فاقصد أمير المؤمنين فما ترى بؤسا وأنت مظل بظلاله
زاد الإمام على البحور بفضله وعلى البذور بحسنه وجماله
وعلى سرير الملك من آل الهدى من لا تمر الفاحشات بباله
النصر والتأييد في أعلامه ومكارم الأخلاق في سرباله
مستنصر بالله ضاق زمانه عن شبهه ونظيره ومثاله (٢)

فالشاعر في هذه القصيدة مدح الإمام بالمعاني التي اعتاد الشعراء أن يمدحوا
بها الملوك ، ولكنه ألم فيها أيضا بالمعاني الباطنية التي تميز مصر الفاطمية عن
غيرها من الدول ، وتميز شعر مصر الفاطمية عن باقي الشعر العربي ، فالصلاة
على الإمام وآله وأن الإمام من نسل الرسول ، وأن لا شبيه للإمام ولا مثيل .
كل هذه من العقائد التي كان يبثها الدعاة بين الناس .

ولعل الشاعر عمارة اليمنى أصدق مثال لهؤلاء الشعراء السنين الوافدين
على مصر ، والذين ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ففي أول قصيدة أنشدها

(١) ياقوت — معجم الادباء ج ١٠ ص ٩٠ (طبعة رفاعي) .

(٢) ياقوت ج ١٠ ص ٩٢

في مصر . قال في مدح الخليفة الفائز ، ووزيره الملك الصالح بن رزيك تلك القصيدة التي مطلعها :

الحمد للعيس بعد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم
وفيها يقول :

لا أجد الحق عندي للركاب يد تمت للجم فيها رتبة الخطم
قرن بعد مزار العز من نظري حتى رأيت إمام العصر من أمم
ورحن من كعبة البطحاء والحرم وفدا إلى كعبة المعروف والكرم
فهل درى البيت أنى بعد فرقته ما سرت من حرم إلا إلى حرم
حيث الخلافة مضروب سراقها بين النقيضين من عفو ومن نقم
والإمامة أنوار مقدسة تجلو البغيضين من ظلم ومن ظلم
وللبوة آيات تنص لنا على الخفيين من حكم ومن حكم (١)

ويستمر عمارة في مدح الفائز ثم ينتقل إلى مدح وزيره الملك الصالح بن رزيك ، ولكن الشاعر كان بعيداً عن مركز الخلافة فلم يستطع أن يعرف شيئاً كثيراً من عقائد الفاطميين ، ولذلك لم يتحدث عن المعاني الباطنية إلا بقدر يسير ، ولا سيما في البيت الأخير من هذه المقطوعة ، على أن الشاعر بعد أن استقر بمصر واتصل بالبيئة المصرية حوله وسمع جدل العلماء ومناقشاتهم في مجالس الملك الصالح ، وعرف شطرا من العقائد الفاطمية ، تأثر بهذه العقائد في شعره ، وإن كان لم يعتنق دعوتهم ، بل ظل على عقيدة الشافعية ، فهو يقول في مدح العاضد :

وعليك من شيم النبي وحيدر للناظرين أدلة وشهود
والوحي ينطق عن لسانك بالذي من دونه يصدع الجلمود
شخصت إليك نواظر الأمم التي ملكتهم لك بيعة وعهود
يوم جلت فيه الإمامة عزها ولها الملائكة الكرام جنود (٢)

في هذه الأبيات يظهر تأثير البيئة الفاطمية في شعر عمارة ، فالشاعر هنا متأثر بالعقائد ، حتى يخيل إلينا أنه أصبح على دينهم وعقيدتهم ، فالوحي — وهو في التأويل داعي الدعاة — ينطق عن لسان الإمام بالحجج الدامغة والبراهين

القوية التي لا تقف أمامها حجج أو براهين ، والبيعة في عنق جميع الذين عاهدوا الإمام ، والملائكة وهم الدعاء جنود الإمامة . ومرة أخرى يمدح العاضد بقوله :

لا يبلغ البلغاء وصف مناقب أنني على إحسانها التنزيل
شيم لكم غر أقي بمدحها الفرقان والتوراة والإنجيل
سير نُسَخناها من السور التي ما شأنها نسخ ولا تبديل
قامت خواطرننا بخدمة نظمها فيكم ، وقام بنثرها جبريل
شرف تبيت به قريش كلها عولا لكم وعليكم التعويل
إن الرسول أبوكم من دونها فمن الذي منها أبوه رسول
ولقد ورثت مقام قوم يستوى منهم شباب في العلي وكهول
وجمعت شمل خلافة لم يختلف في فضلها المعقول والمنقول
لما برزت إلى المصلى معلنا وشعارك التكبير والتهيل
وخطبت فيه المؤمنين خطابة ذابت عيون عندها وعقول
وسللت غرب فصاحة نبوية شهدت بأذك للنبي سليل (١)

فهو هنا يمدح الماضد بأن في سور القرآن والتوراة والإنجيل آيات في شأن الأئمة ، وهذا من أقوال الفاطميين في أمتهم حتى قال شاعرهم المؤيد في الدين :

لهم معاني الزبر وفضل آي الزمر (٢)

وقال عمارة أيضا في هذا المعنى نفسه :

يا خير من نظم المديح لمجده وتنزلت سور الكتاب بحمده (٣)

وانظر إليه وهو يقول في مدح العاضد أيضا :

ولاؤك دين في الرقاب ودين وودك حصن في المعاد حصين

وحبك مفروض على كل مسلم يقول بحب المصطفى ويدين (٤)

ولعل الآيات التي أنشدتها في رثاء الملك الصالح بن رزيك تدل دلالة واضحة

على مدى تأثير عمارة بالعقائد وبتأويل الفاطميين ، فهو يقول مثلا :

لا تعجبين لقدار ناقة صالح فلـكل عصرٍ صالح وقدار

أحلت دار كرامة لا تنقضي أبداً وحل بقاتليك بوار (٥)

(٢) القصيدة الخامسة والعشرون من ديوان المؤيد.

(٥) ص ٦٩

(٤) ص ٣٦٢

(١) النكت ص ٣٠٦

(٣) النكت ص ٢٠١

فناقة صالح التي ذكرت في القرآن تؤول على حجة صالح ، وكذلك كان الوزير ابن رزيك حجة الخليفة الفائز ، ويتحدث عمارة عن الأدوار ، فلكل عصر «صالح» من نبي أو إمام ، واكل عصر « ناقة صالح » أي حجة للإمام ، فهذا المعنى لا يأتي به إلا من عرف دقائق الدعوة وأسرارها ، وكان عمارة كان يجالس الدعاة والعلماء فعرف الكثير من أسرارهم جفري لسانه به ، وفي البيت الثاني يتحدث الشاعر أيضا عن عميدة الفاطميين في خلود النفس بعد الموت وعودتها إلى العالم الروحاني ، فإن كانت نفساً شريفة بأن كانت نفس حد من حدود الدين الجسمانية عادت إلى عالم الحدود الروحانية وتأخذ مرتبتها بين الحدود الروحانية كما كانت مرتبتها بين الحدود الجسمانية .

وفي مديحه للصالح قال :

كف هو الباب الذي من لم يصل منه فليس له إليك وصول
إشارة إلى أن داعي الدعاة هو باب الأبواب وهو الذي يشير فيه إلى الحديث النبوي : « أنا مدينة العلم وعلى بابها » فالإمام في عصره يمثّل النبي في عصره وداعي الدعاة هو الباب أيضا . وقد ذكرنا أن الملك الصالح بن رزيك أنشد يدعو عمارة إلى دخول المذهب واستعمل الصالح هذا المصطلح أيضا :

قل للفقير عمارة يا خير من أضحي يؤلف خطبة وخطابا
اقبل نصيحة من دعاك إلى الهدى قل «حطة» وادخل إلينا «الباب»
تلق الأئمة شافعين ولا تجد إلا لدينا سنة وكتابا (١)

وفي قضية أول رمضان ، حدث أن غم الهلال ولم يظهر بين الضباب فلم يره الناس رؤية بصر ، ولكن المصريين صاموا على حسب رؤية الاستبصار والعلم بدورة الفلك ، وظهر العاضد ووزيره شاور بين الناس ، فقال عمارة في ذلك :

ولما تراءت للهلال بصائر يغطي الهوى أبصارها بضباب
وقفنا فهنا الصيام بعاضد سناه مدى الأيام ليس بخاب (٢)
فروية رمضان التي نحتفل بها اليوم هي من فكرة ظهور الإمام الفاطمي معلنا صوم رمضان .

وبعد القضاء على الدولة الفاطمية وموت العاضد اتفق أن اجتمع الشاعر
يحيى أبو سالم بن الأحذب بن أبي حصينة والشاعر عمارة النيني في قصر اللؤلؤة
فأنشد أبو سالم في نجم الدين أيوب :

يامالك الأرض لا أرضى له طرفا
قد عجل الله هذى الدار تسكنها
تشرفت بك عن كان يسكنها
كانوا بها صدفا والدار لؤلؤة
فأجابه عمارة :

أثمت يامن هجا السادات والخلفا
جعلتهم صدفا حلوا بلؤلؤة
وإنما هي دار حل جوهرهم
فقال لؤلؤة عجبا بهجتها
فهم بسكنهاهم الآيات إذ سكنوا
والجوهر الفرد نور ليس يعرفه
لولا تجسمهم فيه لكان على
فالكلب ياكلب أسنى منك مكرمة
وقلت ما قلت في ثلبهم سخفا
والعرف مازال سكنى اللؤلؤة الصدفا
فيها ، وشف فأسناها الذى وصفا
وكونها حوت الأشراف والشرفا
فيها ، ومن قبلها قد أسكنوا الصحفا
من البرية إلا كل من عرفا
ضعف البصائر للأبصار محتظفا
لأن فيه حفاظا دائما ووفاء^(١)

فانظر إلى قول عمارة إن جوهرهم هو الذى حل بهذه الدار ، وأن الآيات
سكنتها وكانت تسكن الصحف ، وحديثه عن الجوهر الفرد الذى هو نور تجسم
في الأئمة .

أليس ذلك كله من الأدلة التى نسوقها على تأثر عمارة بالعقائد الفاطمية بالرغم
من تمسكه بمذهبه السنى الشافعى ؟

من ذلك كله نستطيع أن ندرك كيف استطاع الفاطميون أن يتخذوا من
الشعراء ألسنة لهم فى نشر عقائدهم التى أذاعوها بين هؤلاء الشعراء ، وكيف
استغل الشعراء علم الباطن وخاصة ما خلعه عليهم المذهب على الأئمة من صفات
باطنية ، وكيف كان الشعراء يمدحون الأئمة والدعاة بهذه الصفات حتى يتقربوا
إليهم وينالوا من هباتهم وعطاياهم ، ويقول القلقشندى : « كان الشعراء جماعة

كثيرة من أهل ديوان الانشاء وغيره ، وكان منهم أهل سنة لا يغفلون في المديح ،
وشيعية يغفلون فيه . (١) فكان القلقشندي كان يرى أن جميع الشعراء الذين مدحوا
الأئمة قد ألموا في شعرهم بالعقائد الفاطمية ، ولكن بعضهم كان يسرف في ذلك ،
وبعضهم كان يمتد .

وها هو ذا الكاتب ولي الدولة أحمد بن علي بن خيران صاحب ديوان الإنشاء
في عهد الظاهر والمستنصر يشهد شعراً يدل على أنه كان يتشيع ، ولكن كان يعارض
الفاطميين في أمور ، فهو يقول :

أنا شيعي لآل المصطفى غير أني لا أرى سب السلف
أفصد الإجماع في الدين ومن أقصد الإجماع لم يخش التلف
لي بنفسى شغل عن كل من للهوى قرظ قوما أو قذف (٢)

ومهما يكن من شيء فقد كان تأثير العقائد في الشعر الفاطمي ولا سيما شعر
المدح الذي قيل في الأئمة واضحا جليا نراه في هذه النماذج من الشعر التي قدمناها ،
كما كان الشعراء من ألسنة الدعوة الدينية ، فقد سار شعرهم في البلاد ورواه الناس
واستغله الدعاة في نشر المذهب ، وفي عصرنا الحديث لا تزال بعض قصائد المؤيد
في الدين تردد في المساجد ، فطائفة البهرة في الهند تردد إلى الآن قصيدة المؤيد
التي مطلعها :

سلام على العترة الطاهرة وأهلا بأنوارها الزاهرة (٣)

عقب صلاة الفجر كل يوم . ويرتلون قول المؤيد :

أبا حسن يا نظير النذير ولولا وجودك فات النذير (٤)

عقب صلاة التهجد كل يوم ، وينشدون قصيدته التي مطلعها :

إلهي دعوتك سرأ وجهرأ أيا مالك الملك خلقا وأمرأ (٥)

عقب صلاة النوافل في رمضان ، ولا سيما في ذكرى مقتل علي . ويرددون

قول المؤيد أيضا :

هلال بدا من خلال الدجنه إمام زمان من النار جنه (٦)

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٧ (٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ١٠ (طبعة رفاعي)

(٣) القصيدة الحادية والأربعون من ديوان المؤيد .

(٤) القصيدة الخامسة والأربعون .

(٥) القصيدة السادسة والعشرون (٦) القصيدة الثامنة والعشرون .

في أول كل شهر عربي . وهكذا يترنم طائفة البهرة بأشعار المؤيد شاعر
المستنصر الفاطمي وداعى دعائه على نحو ما يفعله الصوفية في ترتيل الأوراد .
على أن الشعر الذى يلم بالعقائد هو في أكثره شعر صنعة ، والشاعر كان
يجهد نفسه في أن يأتي في شعره ببعض العقائد ، وأن يلازم بين هذه العقائد
والألفاظ التى يختارها لشعره . ثم يوفق بين هذا كله وبين ضرورات الشعر .
ذلك كله يدلنا على أن الشاعر كان يصنع شعره وكان ينفق جهدا كبيرا في إنشاد
الشعر ، ولذلك نرى شعر العقائد أقرب إلى النظم منه إلى الشعر الجيد الجزل .
ولا غرابة إذ أرى في القصيدة الواحدة للشاعر الواحد لو نين من الشعر . فالمقدمة التى
كان يجعلها الشاعر لقصيدته لون ، والأبيات التى بها العقائد لون آخر . يظهر في
المقدمة فن الشاعر وطبيعته ، وتظهر في الأبيات التى بها العقائد صناعة الشاعر
وتلاعبه . وقل أن نجد شاعرا استطاع أن يوفق بين طبيعته وعقله . أو بين فنه
وعلمه . ومع ذلك كله فإن هذا اللون من الشعر الذى كثر في العصر الفاطمي ظهر
مرة أخرى في شئ من القوة في شعر الصوفية . وهو الشعر الذى كاد يكون
الشعر الرمزي في الأدب العربي — وسنرى ذلك في حديثنا عن شعر الصوفية في
العصور التى تلت عصر الفاطميين — ويكفى أن أقول الآن : إن شعر الصوفية
هو تطور شعر العقائد الفاطمية ، وكذلك تأويلات الصوفية هى تطور لتأويل
الباطن عند الإسماعيلية .

وأكثر الشعر الذى يتأثر بالعقائد كان في مدح الأئمة الفاطميين . على أن
هناك شعراء مدحوا الأئمة ولم يقربوا العقائد من قريب أو من بعيد . بل كان
شعرهم في المدح صورة أخرى للمدح عند غيرهم من الشعراء ولغير الفاطميين من
الأمراء ، فوصف بالجمال والكرم والشجاعة والسؤدد إلى غير ذلك من الصفات
التى جعلها الشعراء للمدوحين . فمن ذلك قول الشاعر أبى الرقعمتى في العزيز :

حى الخيام فإنى	مغرى بأهل الخيام
بالراميات فؤادى	بصائبات السهام
لا عذب الله قلبى	إلا بطول الغرام
سقىا لدهر تولى	بشرقى وعرامى
كأنما ذلك العيد	ش كان فى الأحلام

لم يبق من ترتجى سبه لحادث الأيام
إلا ابن أحمد ذو الطول ل والأيدى الجسام
كفاه أغدق جودا من واكففات الغمام
يلقى العفاة بوجه سه مستبشر بسام
معظما ترتجيه للنائبات العظام
يرمى الخطوب برأى أمضى من الصمصام
قرم له عزمات تفل حد الحسام (١)

ففي هذه الأبيات لا تجرد معنى باطنيا في حاجة إلى تأويل ، ولا تجرد مدحا في الإمام الفاطمي يختلف عن المدائح التي تقال لغير الفاطميين ، فكل الممدوحين عند الشعراء يوصفون بالجود والشجاعة وأصالة الرأي إلى غير ذلك من الصفات التي اعتاد الشعراء أن يذكروها ، وأن يصفوا بها الرجل اليوم وغدا يصفون عدوه بالصفات نفسها .

وفي قصيدة أخرى مدح أبو الرقعمق الإمام العزيز ، ولم يذكر شيئا في حاجة إلى تأويل باطنى ، فقد قال :

سيد شادت علاه له فى العلا آباؤه النجب
وله بيت يمد له فوق مجرى الأنجم الطنب
حسبه بالمصطفى شرفا وعلى حين يتنسب
رتبة فى العز شاخته قصرت عن مثلها الرتب (٢)

فكل هذه المعاني ليست باطنية ، والشاعر قد ثبت نسب الإمام إلى النبي صلى الله عليه وسلم وعلى بن أبى طالب ، وهذه المعاني تصلح أن يمدح بها كل شريف علوى . ومن الغريب أن نرى أكثر مدائح الأمير تميم فى أخيه الإمام العزيز بالله هى هذه المدائح المسكرة المألوفة ، فهو يقول مثلا يهنئه بالعيد :

للعيد فى كل عام يوم يعيد سنه
وأنت فى كل يوم عيسد يلوح علاه
ونعمة وسعود للمعتقين وجاه
يا من تصلى المعالى إليه حين تراه

(١) يتيمة الدهر ج ١ ص ٢٤٠

(٢) نهاية الأرب ج ٣ ص ١٩٤ .

ومن يبر اليشامى من كل خلق سواه
لو كان للفضل يوما منى لكنت مناه
لأن منك استعار الز مان حسن حلاه
فأنت شمس ضحاه وأنت بدر دجاه
كفأك فى كل سلم سحاب صوب نداه
وحسن رأيك فى الحر ب سيفه وقتناه
فأنت يمينى يديه وأنت أمضى ظباه
فاسلم لسعدك يا من يديم نحس عداه (١)

فالأمير تميم يهنيء أخاه بيوم من أيام الأعياد الدينية ، ولكنه مع ذلك كله لم يأت بمعنى واحد من المعانى الدينية التى كان الشعراء يقصدون إليها فى مدح الفاطميين ، ولو شاء الأمير تميم أن يأتى بالمعانى الباطنية فى شعره لآتى بما يعجز عنه غيره من الشعراء لأنه أقدر على معرفة أسرار العقائد الفاطمية فهو ابن إمام وأخو إمام ، بل كانت الإمامة ستؤول إليه بعد أبيه ، ومع ذلك كله فالشاعر هنا كان شاعراً فحسب ، أراد أن يمدح الإمام فمدحه بهذه المعانى المألوفة وفى قصيدة أخرى يقول تميم فى مدح العزيز :

رايت معداً كالحسين وإنما تطول على المولود إن أنجب الجدد
تعرب فهما مثلها ذاب رقة وظرفا فها فى وصف كنه له حد
به يشقى السمع الأصم بلفظه وتشفى برؤيا وجه الأعين الرمد
كأن ضياء الشمس رداه نوره وأهدى إليه قلبه الأسد الورد
وليس يبالى أن يروح ويغتدى من المال صفرا حين يصبوله المجد
كأنك لا ترضى لنفسك نخلة إذالم يكن فى كل كف لها زفد
ولست تبالى أن تروح بعيشة تضيق إذا كانت علاك هى الرغد
ولولا احتمال النفس كل مشقة إذن لتساوى فى العلا الحر والعبد
حجبت سنى شعرى زمانا ولم يزل لدى مصونا لا يمين ولا يبدو
ونزهته دهرا فلها هزرتى هزرت حساما ليس ينبو له حد

كذا السيف لا تستخبر العين عنقه إذا لم تفارقه الجمائل والغمد
فسار بمدحى فيك كل مهجر وغنى به في السهل والوعر من يحدو
وصاغت له عليك حسنا وزينة وصيغ لها من حلى ألفاظه برد
وليس لكل الناس يستحسن الثنا كما ليس في كل الطلي يحسن العقد
وكم لك عندي من يد وصنيعة أقر بها منى لك اللحم والجلد
فلا يعجب الحساد لي أن وددتني فحق لمثلي من مثالك ذا الود
رأيتك يفنى العذر حقدك كله فترضى ولا يفنى مواهبك القصد
ولا تواعد الجاني إذا زل بل له إذا اعتذر المعروف عندك والوعد
وتجحد ما تولى يداك من الندى وإن كان عند المجتدى للندى جحد
ولو كفر العافون نعامك لم يكن لطبعك منك الآن عن كرم رد
وتهتز للمدح اهتزاز مهند تناوله يوم الوغى بطل نجد
عليك صلاة الله ما لاح بارق وما حن مشتاق تداوله الفقد (١)

وهكذا يمضى الأمير تميم في مديحه للإمام ، فقل أن نجد الشاعر يصف أخاه
بمصطلحات الفاطميين حتى يخيل إلى أن الشاعر المؤيد في الدين الذي جاء بعد تميم
بنهاء قرن من الزمان لم يعجبه أن تكون مدائح تميم مثل مدائح غيره من الشعراء ،
فوضع المؤيد قصيدته التي مطلعها :

هلال بدا من خلال الدجنه إمام زمان من النار جنه
وجعل هذه القصيدة جوابا لقصيدة تميم بن المعز التي مطلعها :

أسرب مها عن أم سرب جنه حكيتهن ولستن هنه

وفي قصيدة المؤيد يعرض بتميم بقوله :

سينعت فضلك منى اللسان إذا نعت الغير توريد وجنه

وغير مديحك هو الحديث ومدحك دين وفضل وفضنه

فخذها جوابا لنجل المعز «أسرب مها عن أم سرب جنه»

فكأن المؤيد ذهب إلى أن مديح تميم لا يليق بالإمام ، لأن الأمير تميم مدح
إمامه بالطريقة التي كان يمدح بها القدماء في الابتداء بالغزل ، ونعت الممدوح

بالجمال وورد وجنتيه إلى غير ذلك من الصفات ، على حين أن المديح عند المؤيد هو من صميم الدين .

وأنشد على بن منصور المعروف بابن القارح قصيدة على وزن منهوكة
أبي نواس يمدح فيها الخاكم بأمر الله ، منها قوله :

إن الزمان قد نضر	بالحاكم الملك الأعسر
في كفه غضب ذكر	فقد عدا على القصر
من غره على الغرر	يمضي كما يمضي القدر
في سرعة الطرف نظر	أو السحاب المنهمر
بادر إنفاق البدر	بدر إذا لاح بهر ^(١)

وقال محمد بن القاسم عاصم المعروف بصناجة الدوح في مدح الخاكم ، وقد حدثت زلزلة في مصر :

بالحاكم العدل أضحى الدين معتليا نجل العلي وسليل السادة الصليحا
مازلت مصر من كيد يراد بها وإنما رقصت من عدله فرحا^(٢)
فأنت تقرأ هذه القصائد فلا تجد معنى من المعاني الباطنية ، ولا تجد أثرا
لصفات العقل الأول التي اعتاد شعراء الفاطميين أن يمدحوا بها أئمتهم .
إذن نحن أمام لونين من المديح الذي قيل في الأئمة ، اللون الأول هو ذلك
الشعر الذي مدح فيه الشعراء الأئمة بصفات هي من خصائص الفاطميين ، وفي هذا
الشعر يظهر أثر الفاطميين . أما اللون الثاني من المديح فهو ذلك المديح الذي اعتاد
الشعراء أن ينشدوه في الملوك والأمراء ، وهذا اللون لا يظهر فيه إلا فن الشاعر
فقط ، وقل أن نجد فيه أثرا للبيئة التي تحيط بالشاعر إلا من ناحية واحدة ، وهي
الظروف التي أنشد فيها هذا الشعر ، ولذلك نرى الشعراء الذين وفدوا على مصر
 ومدحوا الأئمة الفاطميين ينشدون شعرهم في مصر كما كانوا ينشدونه في أي بلد
آخر من البلاد الإسلامية .

وكان الشعراء ينشدون الأئمة مدائحهم في المواسم والأعياد التي كثرت
في العصر الفاطمي ، وكثيرا ما كانت هذه الأيام ، وكثيرا ما كانت المناسبات

(١) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٨٥ (طبعة رفاعي) .

(٢) المغرب ص ٨٥ ويقال إن الشاعر أنشدتها في كافور .

التي ينشد فيها الشعراء مدائحهم . ففي يوم فتح الخليج مثلا كان صاحب الباب يستأذن على حضور الشعراء للخدمة ، فيؤمر بتقديمهم واحدا بعد واحد ، وكان لهم منازل على مقدار أقدارهم ، فالواحد يتقدم الواحد بخطوة في الإنشاد (١) ، ومما أنشد في هذه المناسبة قول ابن جبر :

فتح الخليج فسال منه الماء وعلت عليه الراية البيضاء
فصفت موارده لنا فكأنه كف الإمام ففرعها الإيعاء (٢)

ومن الطريف أن المؤرخين يذكرون أن المصريين بلغوا في ذلك الوقت درجة كبيرة من دقة الحس وتدوق الشعر ونقده ، فإنهم لما سمعوا هذه الآيات انتقدوه في قوله : « فسال منه الماء » وقالوا : أى شيء يخرج من البحر غير الماء ؟ وأن الشاعر أضاع ما قاله بعد ذلك المطلع .

وفي هذه المناسبة أيضا أنشد مسعود الدولة وكان مقدم الشعراء في عصره :

ما زال هذا السد ينظر فتحه إذن الخليفة بالنوال المرسل
حتى إذا برز الإمام بوجهه وسطا عليه كل حامل معول
جفرى كأن قد ديف فيه عنبر يعلوه كافور بطيب المنديل

ولكن هذه القصيدة أيضا لم تعجب السامعين إذ انتقدوا عليه أيضا قوله . في البيت الثاني وقالوا : « أهلك وجه الإمام بسطوات المعاول عليه !! » (٣) . وأنشد الشاعر أبو العباس أحمد بن مناسبة فتح الخليج قوله :

لمن اجتمع الخلق في ذا المشهد للنيل أم لك يا بن بنت محمد
أم لاجتماعك معا في موطن وافيتما فيه لأصدق موعد
ليس اجتمع الخلق إلا للذى حاز الفضيلة منك في المولد
شكروا لكل منك لوفائه بالسعى لكن ميلهم للأجود
ولمن إذا اعتمد الوفاء ففعله بالقصد ليس له كمن لم يقصد
هذا يفى ويعود ينقص تارة وتسد أنت النقص ان لم يزد

(١) المقرئى ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) المصدر السابق

(٣) المصدر السابق

وقواه إن بلغ النهاية قصرت
فألآن قد ضاقت مسالك سعيه
فإذا أردت صلاحه فافتح له
وأمر بفصد العرق منه فاشكا
واسلم إلى أمثال يومك هكذا
وإذا بلغت إلى النهاية تبتدى
بالسد فهو به بحال مقيـد
ليرى جنابا مخصبا وثرى ندى
جسم فصح الجسم إن لم يفصد
فى عيش مغبوط وعز مخلد (١)

فشعر المناسبات كثير جدا فى العصر الفاطمى ، حتى إن الخليفة الحافظ مل
طول الشعر وكثرته فأمر أن يختصر الشعراء مدائحهم ، فلم يعجب ذلك الشعراء
فقال أبو العباس أحمد بن مفرج الشاعر يخاطب الخليفة ويمدحه :

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا لم لا أمرت ندى كفيك يختصر
والله لا بد أن تجرى سوابقنا حتى يبين لها فى مدحك الأثر (٢)
فكان الشعر ينشد فى مواسمهم وأعيادهم وحفلاتهم التى كانت تقام لأى حادثة
صغرت أم كبرت ، فإذا تم عمل شمسية للمبيت الحرام مثلا أنشد الشعراء ، من
ذلك قول الأمير تميم وقد تم عمل هذه الشمسية فى عهد المعز لدين الله :

إليك مدت رقابها العرب والمملك ماء عليك منسكب
وأنت فى دوحة النبوة لا تألف إلا عداتك الريب
ألست من يرهب الإله ولا يصدده عن حدوده سبب
وكلما قال بدء عزمته بمذهب لم يخالف العقب
فهيكذا يصدع الملوك إذا صالت، وتمنى الضلالة الشهب
ويزدهى الدين بالمعز لدين الله والمرهفات واليلب
وكل رحاحة عزائم دلا صها ، والرماح والقضب
وهذه الدولة التى ذخرت فلم يسعها الزمان والحقب
يا حينذا دهرك الزلال إذا أمر دهر ، وعصرك الشنب
وحبذا الشمسسة التى نصبت يقصر عنها المديح والخطب
قايسست العيسد وهى حلتته وأخفت اليوم وهو منتصب
ينهب ياقوتها العيون فما يكمل الأمر حيث ينتهب

(١) المصدر السابق .

(٢) الحريرة ورقة ١٠٩ ب وابن ميسر ص ٨٥ .

دوائر احدثت بغرتها أهلة لا تحفها السحب
كأنما درها وجوهرها نجوم ليل سماؤها ذهب
نظمتها للهدى ولبته وإن سخطن الكواعب العرب
في كبد المسجد الحرام بها شوق، وللبيت نحوها طرب
فلا تسمى بأهله زمن إلا بما تشتهى وترتقب
عليك صلى الإله ما طلعت شمس، وما انهل عارض لجب (١)

فبالرغم من أن المناسبة التي قيلت فيها هذه القصيدة هي مناسبة دينية ، وأن الممدوح إمام المذهب لم يشأ الأمير تميم أن يلم بشيء من العقائد الفاطمية في هذه القصيدة ولكنّه أنشد الشعر للمناسبة فقط ، فإذا تصفحنا ديوان الأمير تميم نجد هذا الشاعر أنشد أكثر قصائده في مدح أبيه المعز أو أخيه العزيز لمناسبات مختلفة فإذا فسد الإمام مدحه الشاعر ، وإذا شكى من مرض مدحه ، وإذا سافر ، مدحه ، وإذا أهداه شيئاً مدحه ، وذلك كله بجانب القصائد التي قيلت بمناسبة الأعياد .

على أن من المصريين من كان ينظر إلى الأئمة الفاطميين بعين الريبة ، فلم يستجيب لدعوتهم وانتسابهم إلى الرسول الكريم ، وظل محافظاً على مذهبه معترفاً بخلافة العباسيين ، وظهر هذا في الشعر المصري ، فقد قيل إن العزيز بالله وجد بطاقة على المنبر فيها :

إننا سمعنا نسبا منكرا يتلى على المنبر في الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقا فاذكر أبا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع
أودع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع
فإن أنساب بني هاشم يقصر عنها طمع الطامع (٢)

وقول الآخر في الحاكم ، وقيل بل في العزيز :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقة

(١) ديوان الأمير تميم ورقة ١٢٢ (نسخة خطية بمكتبتي) .

(٢) ابن خلكان ج ٣ ص ٥٤ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٦ .

إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقة
وقد رأينا الشاعر الحسن بن بشر الدمشقي ، وقد هجا رجال القصر وعرض
بالعز بن بالله ، وسرى كيف كان المصريون يهجون النصارى واليهود ممن كان إليهم
بعض الدواوين في العصر الفاطمي ، فالفاطميون بالرغم من اتخاذهم الدين وسيلة
لتوطيد سلطانهم ونفوذهم وادعائهم العصمة للأمة . فإن بعض الشعراء لم يأبه
بذلك ، وعرض بهذه العقائد وسخر بهؤلاء الأئمة .

الأمير تميم بن المعز :

والآن نتحدث عن الأمير تميم الشاعر الذي ذكرناه مرارا وسنذكره مرارا
فهو الأمير تميم بن المعز لدين الله الفاطمي وهو الشاعر الذي يقرن دائماً
بالشاعر ابن المعتز العباسي ، لما بينهما من تشابه ، فكلا الشعارين من بيت خلافة .
وكلا الشعارين من شعراء البديع ، وكلاهما ممن أكثر من الوصف والمجون
وكلاهما دافع عن عقيدته وحق ذويه في الخلافة ، فهما متشابهان في أمور كثيرة
جعلت مؤرخي الأدب العربي يقرنون بينهما دائماً .

ولد الأمير تميم بالمغرب وفيها نشأ مع إخوته عبد الله ونزار وعقيل ، وكان
تميم أكبرهم سناً ، فلم يشك الناس في أن ولاية العهد ستكون له ، ولكن المعز
لدين الله صرفها عنه إلى أخيه عبد الله ، ولعل السبب الذي من أجله صرف تميم
عن إمارة الفاطميين هو ما عرف عن تميم من مجون وجور ، فكان يشاع عنه
وعن سيرته السيئة ما حدا بأمر صقلية أحمد بن الحسن الكلابي أن يستأذن
المعز في أن يقتل أحد أبنائه لأنه كان يسائر الأمير تيميا ويشاركة في هوه وفسقه
ويحدثنا صاحب سيرة الأستاذ جوذر أن المعز أرسل إلى أمير صقلية رد خطابه
وفي هذا الخطاب ألم المعز وغضبه لما عرف عن تميم من فسق وجور (١) . ولما

(١) نص ما ورد في سيرة جوذر ص ١٧٥ وما بعدها (نسخة خطية بمكتبتي) .
ولما وصل أحمد بن الحسن من صقلية ، وكان واجدا على ولده طاهر لصحبته مع الأمير تميم
وما شنع من القول عنهما فأراد قتل ولده طاهرا هذا الا أنه استأمر الأستاذ (أي جوذر)
على ذلك وشاوره فيه ، فلم يجد الأستاذ بدا من أن يرفع ذلك إلى أمير المؤمنين (أي المعز)
فصرف إليه الجواب وهو :

« يا جوذر كثر الله من أوليائنا مثل أحمد فوالله ما كان يشينه عندنا ويصوره بغير صورته ،
إلا بعض أتباعه الذين زبنوا لهذا الصبي الشقي ولده صحبة من كان سبب شقوته . ووالله إن توجعنا =

فُتحت مصر انتقل الأمير تميم إليها مع أبيه وباقي أسرته ، وفي مصر توفي عبد الله
(ولى العهد) لجعل المعز ولاية عمده إلى ابنه الثالث نزار الذى لقب بالعزيز ،
ولعل هذا هو السر فيما نراه من حزن دفين ظهر في شعر الأمير تميم إذ كان يمدح
أخاه الصغير العزيز بالله ، ولمكسبه لم يستطع أن يخفى ما فى نفسه من آلام وشعور
بمُحتمق وغيظ ، كان يحاول إظهار تجلده وصبره ، ولكن عاطفته فى الشعر هى عاطفة
القائظ الحاقد ، فهو يقول مثلا من قصيدة فى مدح العزيز :

تهون على صغار الأمور	ويصغر عنى جميع الورى
أنا ابن المعز سليل العلى	وصنو العزيز إمام الهدى
وما احتجت قط إلى ناصر	ولأرحت يوما ضعيف القوى
ولم أستشر فى ملم يشوب	مشيرا أرى منه ما لأرى
ولست بوان إذا ما أمر	زمان ، ولا فرح إن حلا (١)

فهذه الأبيات تظهر فيها قوة الفخر بنفسه وبنسبته للأئمة الفاطميين وعدم
مبالاة بصروف الدهر ، ولكن يستشف منها دخيلة نفس الشاعر تلك النفس
الناقمة الحاقدة ، ويقول يفتخر أيضا :

ليس من ساد عن وراثة جد أو لحظ من الحظوظ مباح
يستحق الثنا ويستوجب الشكر ويحوى مدائح المسدح
إنما السيد المعلى المفسدى من علا للعلى صدور الرماح
ورى ليل كل خطب بهم بدكاء أضوا من المصباح

تنبه كتوجعنا بمن لنا ، لكن ابن أحمد برجى فيما يستقبل من الزمان ، ومدبرنا نحن لا يرجى
إذ كان الحطة التى يرفع الله عز وجل بها أولادنا هى خطة الطهارة . ومن عدمها كان كلا على مولاه .
والحمد لله على ماساء وسر ، فأما ما أراد أن يفعله أحمد بولده فامنعته وتشفع له عنده ، وعرفه
أن الصواب إصلاح كل فاسد من غير ظاهر شناعة يلحقه عارها ويبقى ذكرها مع الأيام فما يخفى عليه
أن ذلك يبقى فى الأعقاب فليمسك ويعمل ما يصاح فيما يستقبله فكونه بين أيدينا يصلح فساد كل فاسد
كان يسعى به بينهما ونحن نداوى عليهم ، فن أطاعنا لم يشق ، والله لقد تكس الله رءوس كل
من كان انتصب للشمانة بهم ، لما رأوه من فضلنا عليهم وانفاقه ، وكذا نحب أن يكونوا ما
بقوا فى نمو وزيادة ، لافى النقص ورجوع القهقرى فعرفه ذلك ليعمل به ، ولا يحدث فى
الصبي شيئا من المسكروه إن شاء الله .

(١) ديوان الأمير تميم نسخة خطية بمكتبتي .

واقفتى العز بالظبا والعوالى واشترى الحمد بالشنا والسماح
فكذا تنتمى المكارم والمجد ويستبعد العدو الملاحي
لا كمن قد جرى برجل سواه وسما طائرا بغير جناح
لا ألفت العلى ولا ألفتى إن توسمت دونها بوشاح
أو ترففت أو تشاغللت عنها بأباطيل قينة أو براح
لا ولا ايض لى سنى المجد إن لم أستجد غسله بنزف الجراح
والألقى العداة عنه بعزم علوى يفل حد الصفاح
وببطش يفرى الجماجم والأعناق فرى المدى لحوم الأضاحى
أنا فرد النهى ورب المعالى وحسام الكفاح يوم الكفاح
أنا مفتاح قفل كل نوال يوم يغدو الندى بلا مفتاح
أنا كالجد فى الأمور إذا ما كان عيشى فيهن مثل المزاح
لا كراض من العلا بادعاء وبعرض مجرح مستباح
فسل المجد عن صباحى ولىلى ومقبلى وغدوتى ورواحى
هل يسرّ العلا مقالى وفعلى وارتياحى لسكسها واقتراحى
ها كها كالصهيل فى حلبة الفخر إذا كان غيرها كالنباح (١)

ويخيل إلى أن بعض الوشاة سعوا بينه وبين أخيه العزيز مما جعل العزيز
يغضب على الشاعر ، وجعل الشاعر يتنصل من وشاية الواشين ، فأخذ الشاعر
يتلمس الأعذار ، ويقدم الاعتذار ، ويذكر الإمام بأنهما شقيقان . وأن على
الإمام ألا يستمع إلى أمثال هؤلاء الوشاة . فأكثر قصائد المدح التى فى الديوان
تتحدث عن هؤلاء الذين يسعون بالفساد بين الملك الصغير وأخيه الأمير الكبير .
ومن شعر الديوان نستطيع أن نعرف أن الأمير نفي مرة إلى عين شمس ، ونفي
مرة أخرى إلى الرملة بفلسطين ، فكان يرسل إلى إخوانه وأصدقائه مقطوعات
من الشعر يبثهم فيها شوقه إليهم ، ويشكو غربته التى اضطر إليها اضطرارا . فقد
أنشد فى عين شمس :

أما كنى الحب شوق موجه وأسى مبرح يقطع الأحشاء والكبدا

حتى رمى البين بالتفريق ألفتنا
فآه من لوعة مشبوبة وجوى
قالت وعبرتها مخلوطة بدم
لا تطلب النطق منى بالسلام فما
فظلت ملتما من سخن وجنتها
وطاويا في الحشى منها رسيس هوى

وأنشد وهو في الرملة وأرسل بها إلى بعض أهله في القاهرة :

أنتم في المنام حلبي وأنتم
كل عضو منى إليكم مشوق
لم أفارقكم ولكن جسمي
فهنيئنا لكم وفأى عليكم
كلما حثني اشتياقي إليكم
قلت لبيك أنت نعم المنادى

وكان الأمير تميم في مصر يشارك المصريين لهوهم ويخرج إلى متنزهاتها ،
ويعبث في أديرتها ، وأنشد في ذلك كله شعرا — سنتحدث عنه في فصل آخر من
هذا الكتاب — وشعره إن دل على شيء فأنما يدل على رقة شعوره ، ورقة
العاطفة وصدقها . وتوفي هذا الشاعر سنة ٣٧٤ هـ .

الفصل الثالث

الشعر والوزراء

كان العزيز بالله أول خليفة فاطمي اتخذ له وزيراً ، وكان الوزير يعقوب ابن كلثوم أول وزير في الدولة الفاطمية ففي رمضان سنة ثمان وستين وثلثمائة لقبه العزيز بالوزير الأجل ، وأمر ألا يخاطبه أحد ولا يكتبه إلا بهذا اللقب ، فعظمت مكانته حتى كتب اسمه على الطرز وفي الكتب (١) ، فكان هذا المركز الخطير الذي شغله ابن كلثوم في هذه الدولة الفاتمية إذ ذلك من الأسباب التي جعلت الشعراء يسعون إليه وينشدون الشعر في مدحه ، وقد رأينا من قبل كيف كان ابن كلثوم أحد العلماء المبرزين ، وكيف كان يلقى علوم الدعوة وغيرها على الناس ، وكيف كان يؤم مجلسه عدد من القضاة والفقهاء والشعراء ورجال الدولة يستمعون إلى دروسه ، ويتناقشون بين يديه ، أضف إلى ذلك كله أنه كان كريم اليد ، يعطي ويجزل العطاء ، فلا غرو أن كان الشعراء يلتفون حوله ويكثر من مدحه . مدحه أبو الرقعق وعبد الله بن محمد بن أبي الجوع ، والأمير تميم بن المعز وكثير غيرهم من شعراء عصره الذين فقد شعرهم وضاعت أسماؤهم مع ما ضاع من الأدب الفاطمي ، وقد ذكرنا أن الشعراء الذين رثوه بلغوا مائة شاعر ، فمن هم هؤلاء الشعراء ؟ وأين شعرهم ؟ الجواب عن ذلك أولاً : عند رجال الدولة الأيوبية الذين عملوا على محو كل أثر علمي أو أدبي للفاطميين لخلاف مذهب الدولتين ، وثانياً : عند المؤرخين والكتّاب من أهل المشرق الذين كانوا يدينون بالطاعة للعباسيين فأبوا أن يرووا شيئاً من شعراء مصر الفاطمية ، وثالثاً : عند الأتراك الذين دان لهم العالم الإسلامي مدة طويلة فأطاحوا بحضارتين من أرقى الحضارات التي شاهدها العالم وشاهدها تاريخ الفكر البشري وهما الحضارة البيزنطية والحضارة الإسلامية ولم يستطع الأتراك أن يقيموا حضارة أخرى تقوم مقام

(١) خطط المقرئ ج ٣ ص ٨ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٣ .

هاتين الحضارتين ، وكان الأتراك شديدي التعصب المذهب السني فأنزلوا نقيمتهم على كل ما هو شيعي ، أضف إلى ذلك كاه المجاعات الكثرية والاضطرابات العديدة التي سببت محنا عديدة لمصر ووصفها المقريزي في كتابه «إغاثة الأمة بكشف الغمة» فقد كانت من أشد العوامل في ضياع كتب كثيرة من كتب علماء الفاطميين ودواوين شعر شعرائهم ، وهكذا تضافرت قوى عديدة لإبادة العلوم والآداب في العصر الفاطمي ، حتى إن الذي بقي من هذا كله أصبح ضئيلا تافها بالنسبة لما كان في عهدهم الزاهر . فقد بق لنا جزء من قصيدة لأبي الرقعمق في مدح ابن كلس وهي :

لم يدع للعزير في سائر الأار	ض عدوا إلا وأخذ ناره
فلهدا اجتباه دون سواه	واصطفاه لنفسه واختاره
لم تشيد له الوزارة مجدا	لا ولا قيل رفعت مقداره
بل كساها وقد تخرمها الدهر	جلالا وبهجة ونضاره
كل يوم له على نوب الدهر	وكر الخطوب بالبذل غارة
ذو يد شأنها الفرار من البخ	ل وفي حومة الوغى كزاره
هي فلت عن العزير عداه	بالعطايا وكثرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تسمى	وتضحى نفاعه ضراره
فاستجره فليس يأمن إلا	من تقيا بظله واستجاره
فاذا ما رأته مطرقا يع	مل فيما يريد أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئا	في ضمير الغيوب إلا ناره
لا ولا موضعا من الأرض إلا	كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه	خوفه من زمانه وحذاره (١)

فالشاعر في هذه الأبيات يمدح الوزير ، ولكننه كان يذكر الإمام الفاطمي كلما وسعه فنه ومواهبه في الشعر فهو لم يستطيع أن يغفل الإمام من قصائده ، وذلك لقوة الإمام والخلافة الفاطمية إذ ذلك والوزير نفسه لم يكن ليصدر أمرا قبل أن يطالع الإمام به ويستأذنه فيه . وعرف الشعراء ذلك فكانوا يتقربون

(١) يذمة الدهر ج ١ ص ٢٣٩

لوزير حتى يتقربوا به للإمام ، فمدح الوزير كان وسيلة لغايتهم وهي الاتصال بالإمام ، هكذا كان أمر الشعراء مع جميع الوزراء في القسم الأول من العصر الفاطمي ، وهو القسم الذي كان الأئمة فيه يسرون مرافق البلاد ، ويختارون الوزراء لمساعدتهم في تنفيذ ما كانوا يصدرونه من أحكام وقوانين ، وكان أكثر وزراء ذلك العهد من رجال القلم أمثال الجرجاني واليازوري وابن المغربي والبايلي وغيرهم من الكتاب . ليس معنى ذلك أن الشعراء أفنوا أنفسهم في الوزراء وفي مدحهم فمن الشعراء من هجا الوزراء كالذي رأيناه من هجاء ابن كلس وهجاء أبو محمد القاسم الرسي بقوله .

توق معز الدين شؤم ابن كلس ولا تقبلن منه مقال مدلس
فإننا أردناه لكافور شربة فزاد على تقريرنا ألف مجلس (١)

وكذلك روى أن الشاعر جاسوس الفلك هجا الوزير علي بن أحمد الجرجاني وزير الظاهر لاعزاز دين الله ، وكان هذا الوزير أقطع اليدين بسبب خيانه ظهرت عليه أيام الحاكم ، فلما ولي الوزارة استعمل العفاف والأمانة ولكن ذلك لم يمنع الشاعر من أن يقول فيه :

يا أحمقا إسمع وقل ودع الرقاعة والتحامق
أأقت نفسك في الشقا ت ، وهبك فيما قلت صادق
من الأمانة والتقى قطعت يداك من المرافق (٢)

وقال الشاعر الحسن بن خاقان في هجاء الوزير الفلاحى وزير المستنصر .

حجاب وإعجاب وفرط تصلف ومد يد نحو العلا متكلف
فلو كان هذا من وراء كفاية عذرنا ولكن من وراء تخلف (٣)

ونحن نعلم أن الفلاحى كان يهوديا وأسلم ، وأن أبا سعد التستري مدبر الدوا إذ ذاك كان يهوديا ولذلك قال أحد الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا غاية آمالمهم وقد ملكوا
العز فيهم والمال عندهم ومنهم المستشسار والملك
يأهل مصر إني نصحت لكم تهودوا قد تهود الفلك (٤)

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٦٧ .

(١) البيهقي ج ١ ص ٣٣٠

(٣) حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٥٣ . (٤) المصدر نفسه

ولكن بعد أن ضعفت الخلافة الفاطمية في عهد المستنصر ، وحلت بالبلاد نكبة الشدة العظمى ، اضطر المستنصر إلى أن يستعين برجال السيف وأن يتخذ منهم وزراء له ، وأول هؤلاء الوزراء السيد الأجل أمير الجيوش سيف الإسلام ناصر الإمام كافل قضاة المسلمين وهادى دعاة المؤمنين أبو نجم بدر الجمالى ، تولى هذه المراتب سنة ٤٦٦ هـ ولكنه لم يلبس خلع الوزارة إلا سنة ٤٦٨ هـ ، وصار صاحب الكلمة النافذة في البلاد التي كانت خاضعة للفاطميين ، وأصبح الإمام الفاطمى شبه أسير في يدى الوزير ، وظل بدر الجمالى في منصبه إلى أن توفى سنة ٤٨٧ هـ قبل المستنصر الفاطمى بأشهر ، فتولى الوزارة بعده ابنه القاسم شاهنشاه الأفضل ، وفي عهده بلغت قوة الوزارة وسلطانها أعلى الذرى حتى إنه بعد وفاة المستنصر سنة ٤٨٧ هـ لم يعبأ بعقيدة من أهم عقائد الفاطميين في الإمامة ، وهى النص على من يلى الإمامة ، إذ الإمام لا بد أن ينص قبل وفاته على خليفته ، وأن يبلغ ذلك إلى حجته وحجج الجزائر ، ولكن الأفضل بن بدر الجمالى أنى أن يحصل الإمامة إلى صاحب النص وهو نزار بن المستنصر وجعلها إلى المستعلى بالله وهو ابن أخته وكان صغير السن ، وبذلك انقسمت الدعوة إلى فرعيها النزارية والمستعلية ، وكان هذا الانقسام من أهم الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة الفاطمية ، والخلافة الفاطمية ، وأضعفت هيبة الإمام بين الناس وشك في إمامته بعض الأتباع والأشباع ، ومهما يكن من شيء فقد أصبحت الوزارة هى القوة المحركة للبلاد كلها فاتجه الشعراء إلى الوزراء يمدحونهم ويأخذون هباتهم وصلاتهم ، وتشبه الوزراء فى بدخهم بالأئمة فأسرفوا فى كل ما يجب لهم الشهرة والسرور معا ، وأحاطوا أنفسهم بهالة من أبهة الملك وألقابه ، واتخذوا لأنفسهم حاشية هى أشبه شئ بحاشية الملوك والسلاطين ، وعقدوا مجالس للشعراء على نحو ما كان يفعله خلفاء بنى العباس والأئمة الفاطميون إبان قوتهم وسلطانهم ، فانتقل أكثر الشعراء من مدح الأئمة إلى مدح الوزراء ، وكان من الوزراء من ينشد الشعر ، فالأفضل بن بدر الجمالى كان شاعرا ، ومن شعره قوله فى غلامه تاج المعالى :

أفضيب يميمس أم هو قد وشقيق يلوح أم هو خد
أنا مثل الهلال سقما عليه وهو كالهدر حين وافاه سعد (١)

(١) أخبار مصر لابن ميسر ص ٦٠ .

ومن فوله أيضا في جارية له أمر بضرب عنقها لأنه رآها تتطلع إلى الطريق ،
وكان شديد الغيرة على نسائه ، فلما جرى له برأسها قال :

نظرت إليها وهي تنظر ظلها فنزعت نفسي عن شريك مقارب
أغار على أعطافها من ثيابها حذاراً ومن مسك لها في الذوائب
ولى غيرة لو كان للبدر مثلها لما كان يرضى باجتماع الكواكب (١)

فهذه الأبيات التي بقيت لنا من شعر الأفاضل تدل على رقة شعور وقدرة
على التعبير عما يخالج النفس من عاطفة شديدة .

وكان الملك الصالح طلائع بن رزيق جيد الشعر ، وكان يشيب على شعر الشعراء (٢)
وكان شاور وولده السكامل وضرغام يمن ينشدون الشعر - وسنتحدث عنهم
جميعاً بعد قليل - فهؤلاء الوزراء الشعراء استطاعوا أن يكونوا لأنفسهم حاشية
من الشعراء هي أشبه بحاشية الأئمة الفاطميين إبان سلطانهم الفعلي ، فكل الشعراء
من مصريين ووافدين اتصلوا بهم ومدحوهم .

فمن وفد على مصر الشاعر علقمة بن عبد الرزاق العليمي ، وفد على بدر
الجمالي ، ويقول علقمة : قصدت بدر الجمالي فرأيت أشرف الناس وكبراهم
وشعراءهم على بابها قد طال مقامهم ، فلم يصلوا إليه ، فبينما أنا كذلك إذ خرج بدر
يريد الصيد فخرجت في أثره وأقمت معه حتى رجع من صيده ، فلما قاربني وقفت
على تل من الرمل ، وأومأت برقعة في يدي ، وأنشدت :

نحن التجار وهذه أعلقتنا در ، وجود يمينك المبتاع
قلت فتشها بسمعك إنها هي جوهر تختاره الأسماع
كسدت علينا بالشام وكلنا قل النفاق تعطل الصناع
فأتاك يحملها إليك تجارها ومطيتها الآمال والأطماع
حتى أناخوها ببابك والرجا من دونك الثمار والبياع
فوهبت ما لم يعطه في دهره هرم ولا كعب ولا القعقاع
وسبقت هذا الناس في طلب العلا والناس بعدك كلهم أتباع
يابدر أقسم لو بك اعتصم الوري ولجو إليك جميعهم ماضعوا (٣)

الأفضل وشعراؤه

ويعد عهد الأفضل بن بدر الجمالي من أزهى العصور الأدبية التي شاهدها مصر الإسلامية ، فقد اتصل به عدد كبير من الشعراء ، نذكر منهم مسعود الدولة وأبا علي حسن بن زيد ، والقاضي ابن النضر المعروف بالأديب ، والناجى المصرى ، وسالم بن مفرج بن أبي حصينة ، ومحمود بن ناصر الإسكندراني ، ومروان بن عثمان اللمكى ، وابن البرقي ، وظافر الحداد ، وأميه بن أبي الصلت ، وغيرهم من شعراء الخريدة . ومن الشعراء الذين ذكرهم أميه في رسالته الموسومة « بالرسالة المصرية » . وقد ذكرنا كيف كان الأفضل يجزل العطاء للشعراء ، ويجلس إليهم يستمع إلى أشعارهم وروايتهم للشعر ، ولعل « الرسالة المصرية » من أقوم الكتب التي تعطينا صورة صحيحة عن تلك الحياة الأدبية التي كانت بمصر في عهد الأفضل ، ومؤلف هذه الرسالة هو أميه بن أبي الصلت .

أميه بن أبي الصلت ورسالته المصرية :

لم يكن أميه بن عبد العزيز بن أبي الصلت مصريا ، إنما هو أندلسى وفد على مصر في عهد الأمر بأحكام الله ، واستطاع أميه أن يتصل بالأفضل ، وكان سبب هذه الصلة هو الأمير مختار تاج المعالي — وكان في منزلة قريبة جداً من الوزير — فاتصل به أميه مادحا وقربه الأمير مختار وكان أميه يخدمه أيضا بصناعى الطب والنجوم ، فأنس به تاج المعالي كما آنس منه العلم والفضل ، وكان جمهور المثقفين من المصريين قد التفوا حول أميه يأخذون عنه العلم والآداب ، فقدمه تاج المعالي إلى الوزير وأثنى عليه ، وذكر للوزير ما سمعه من أعيان العلماء وإجماعهم على تقدمه وتميزه عن كتاب وقته ، واشتدت صلة أميه بالوزير ، ولكن الحساد من السكتاب المقربين للوزير أبوا أن تستمر علاقة أميه بالأفضل ، فأخذوا يتحينون الفرص للإيقاع بأميه حتى واطتهم الفرصة ، ذلك أن الوزير قلب ظهر المجن لتاج المعالي واعتقله ، فوجد السكتاب السبيل للنيل من أميه فوشوا به لدى الأفضل فبسه بالإسكندرية مدة ثلاث سنين وشهر ، إلى أن شفيع فيه بعض وجوه المصريين ، فأطلق سراحه وسار إلى المغرب واتصل بالمرتضى أبي طاهر يحيى بن تميم

صاحب القبروان وحظى عنده وحسن حاله إلى أن توفي بالمهيدية سنة ٥٣٩هـ (١). استطاع أمية أثناء إقامته بمصر أن يدرس مصر والمصريين ، وأن يعرف أحوالهم وطبقاتهم وطبائعهم ، وأن يتحدث عن ذلك كله في الرسالة التي عرفت « بالرسالة المصرية » وصف فيها مصر جغرافيا ، وعرض لبعض المدن المصرية ، وتحدث عن النيل ومنابعه وزيادته ونقصانه ، وروى شيئا مما قيل في النيل من شعر ، وما أنشد في مهرجان الخليج مما قاله القدماء ومعاصروه ، فنستطيع أن نعد هذه الرسالة القيمة من السكتب القليلة الممتعة التي وصلتنا عن هذه العصر ، كما أنها مجموعة لأشعار بعض من اتصل بهم أمية في مصر أو من حفظ لهم شيئا من الشعر من المصريين . أضف إلى ذلك كله أن أمية ذكر في هذه الرسالة بعض علماء أهل مصر في ذلك الوقت ، ولا سيما من كانوا يتعاطون صناعتي الطب والتنجيم ، يقول أمية عن المصريين : والمصريون أكثر الناس استعمالا لأحكام النجوم وتصديقا لها وتعويلا عليها وشغفا بها وسكونا إليها ، حتى إنه بلغ من زيادة أمرهم في ذلك إلى أنه لا يتحرك حركة من حركاتهم الجزئية التي لا تحصر فنونها ولا تحصل أجزاءها وأحواؤها ولا تضبط جهاتها ولا تقيد غاياتها ولا تعدد ضرورها إلا في طوابع يختارونها (٢) . ويقول عن أطباء مصر في ذلك العصر : « وأكثر أطبائها المزبرقين نصارى أو يهود » ، وفي ذلك يقول بعضهم :

أقول للمسلمين طرا تبغون في طبها اشتهارا
هيئات حاولتم محالا كونوا إذن هودا، او نصارى (٣)

وبحدثنا عن بعض الشعراء الذين كانوا يعيدون عن الحضرة فقال عن القاضي علي أبي الحسن بن النضر : المعروف بين أهالي الصعيد الأعلى بالأديب ، ذو الأدب الجم ، والعلم الواسع ، والفضل البارع ، وله في سائر أجزاء الحكمة اليد الطولى ، والرتبة الأولى ، وقد كان ورد الفسطاط يلتمس من وزيرها الأفضل تصرفا وخدمة ، تخاب فيه أملة ، وضاع رجأؤه ، فقال يعاتب الزمان :

(١) راجع ترجمته في عيون الأنباء ج ٢ ص ٥٢ ومعجم الأدياء ج ٢ ص ٣٦١ وابن خلكان ج ١ ص ٨٠ .
(٢) الرسالة المصرية نسخة فتوغرافية بدار السكتب المصرية (٣) المصدر السابق .

بين التعزز والتذلل مسلك
فاسلكه في كل المواطن واجتنب
ولقد جلبت من البضائع خيرها
ورجوت خفض العيش تحت ظلاله
ظنا شبيها باليقين ولم أقل
ولعائبي بالحرص قول بين
ما ارتدت إلا خير مرتاد ولم
وإذا أرى الرزق القضاء على امرئ
ولعمرو عادية الخطوب وإن رمت
بادى المنار لعين كل موفق
كبر الأبي وذلة المستلق
لأجل مختار وأكرم متقى
لا بد أن نفقت وإن لم تنفق
إن الزمان بما سقاني مشرق
لو كنت شمت سحابة لم تطرق
أصل الرجاء بجهل غير الأوثق
لم نغن فيه حيلة المسترزق
حظي بسهم تشتت وتفرق (١)

ويذكر شعراء آخرين من أهل الصعيد مثل أبي شرف الدر جراوي المنسوب
إلى قرية درجرا بالصعيد ، والشاعر أبي الحسن علي بن البرقي من أهل قوص
وغيرهما ، فالسيرة المصرية مرآة صادقة للحياة الأدبية في مصر في أوائل القرن
السادس للهجرة .

كان أمية أستاذاً لبعض المصريين ، وذكر ياقوت أن من تلاميذ أمية الذين
تلقوا عنه العلم ورووا شعره أبو عبد الله الشامي الذي ظل مخلصاً لأستاذه ، وكان
يتردد عليه إبان نكبته وسجنه ، وينقل ياقوت عن أبي عبد الله الشامي : وكنت
أختلف إليه إذ ذاك فدخلت إليه يوماً فصادفته مطرقاً . فلم يرفع رأسه إليّ على
العادة ، فسألته فلم يرد الجواب ، ثم قال بعد ساعة : اكتب . وأنشدني :

وكان لي سبب قد كنت أحسبني
فما مقلم أظفاري سوى قلبي
أحظي به ، فإذا دأى هو السبب
ولا كتائب أعدائي سوى كتبي

فككتبت عنه رسالته فقال : إن فلانا تلميذي قد طعن فيّ عند الأمير
الأفضل (٢) . ويروي ياقوت أيضاً أن الشيخ سليمان بن الفياض الإسكندراني كان ممن
أخذ العلم عن أمية وروى عنه (٣) ، وكان لأمية عدد من الأصدقاء في طليعتهم ظافر الحداد
الشاعر الذي صادقه بالإسكندرية وحزن لسفره وبعده عن مصر ، فأرسل إليه
قصيدة يشكو فراق الصديقين ويذكر أمية بالأيام التي قضياها معا ، والقصيدة هي :

(١) الرسالة المصرية (٢) ياقوت ج ٢ ص ٣٦١ (٣) ياقوت ج ٢ ص ٣٦٥

هو السم لسكن في لقائك تريق
على كل قطر بالمشارك إشراق
بقلبي عهد لا يضيع وميثاق
وريقاء كنتها من الأيك أوراق
وأكثر أخلاق الخليفة إخالق
ديارك عن دارى هموم وأشواق
جرت ولها ما بين جفنى إحراق
خلال التراق والترائب تشهاق
فلى منه فى صعب النوائب إنفاق
لجيش خطوب صدها منه إرهاق
غرور، وأن الكنز فقر وإملاق
وليس له من رق ودك إعناق
ومطرد طامى الغوارب خفاق
طلأخ أنصاها زميل وإعناق
يلازم أعناق الجمائم أطواق
كههدى، وثغر الثغر أشنب براق
من القرب كالصنوين ضمهما ساق
بها حسدت منا المسامع أحداق
مفيد إلى قلب المحدث سباق
له كل بحر فائض اللج رقراق
تضمنها عذب من اللفظ غيداق
لأبكارها الغر الفلاسف عشاق
غرام وقلب دائم الفسکر تواق
وأهلوه مشتاق يشم وذواق
لعائق عذر والمقادير أوهاق
فإن لم يكن رد على فإغراق
مفاتيح فى أبوابهن وأغلاق

ألا هل لدائى من فراقك إفراق
فياشمس فضل غربت، ولضوئها
سقى العهد عهدا منك عمر عهده
يجدده ذكر يطيب كما شددت
لك الخلقى الجزل الرفيع طرازه
لقضاء لتنى ياأبا الصلت مذنات
إذا عزنى إطفأؤها بمدامعى
سحائب يحدوها زفير يجره
وقد كان لى كنز من الصبر واسع
وسيف إذا جردت بعض غراره
إلى أن أبان البين أن غراره
أخى، سيدى، مولای. دعوة من صفا
لئن بعدت ما بيننا شقة الثوى
وييد إذا كلفتها العيس قصرت
فعدنى لك الود الملازم مثل ما
ألا هل لأيامى بك الغر عودة
ليالى يدنيننا جواب أعادنا
وما بيننا من حسن لمظك روضة
حديث، حديث كلباطال، موجز
يزجيه بحر من علومك زاخر
معان كأطواد الشواخ جزلة
به حكم مستنبطات غرائب
فلو عاش رسطا ليس كان له بها
فيا واحد الفضل الذى العلم قوته
لئن قصرت كتبي فلا غرو إنه
كتبت وآفات البحار تردها
بحار بأحكام الرياح فإنها

ومن لى ان أحظى إليك بنظرة فيسكن مقلق ويرقأ مهراق^(١)
فهذه القصيدة التي بعث بها ظافر الحداد إلى صديقه أمية بن أبي الصلت إن
دلت على شيء فانما تدل على مبلغ ما كان يكنه ظافر لصديقه من وفاء وإخلاص
وود ، وما كان عليه أمية من علم وفضل ، وما كان عليه الصديقان من
صفاء ووفاء .

أما علاقة أمية بالوزير الأفضل بن بدر الجمالي ، فيقول القفطى : « ودخل
مصر في أيام أفضها فلم ينل منها إفضالا ، وقصده للنيل فلم يجد لديه منوالا^(٢) ؛
ولكنني أشك في قول القفطى وأزعم أن الأفضل قرب أمية إليه . وأجزل له
العطاء . فأشعار أمية في الأفضل أكبر دليل على أن الشاعر كان يميل إلى الأفضل ،
وكان الأفضل يجزل له النوال . فمن شعر أمية في الأفضل قصيدته التي أنشدها
يذكر تجرده العساكر إلى الشام لمحاربة الصليبيين بعد انهزام عسكره في الموضع
المعروف بالبصة ، وكان قد اتفق في أثناء ذلك أن قوما من الأجناد وغيرهم
أرادوا الفتك بالأفضل ، فوقع على خبرهم ، وقبض عليهم وقتلهم ، والقصيدة هي :

هي العزائم من أنصارها القدر	وهي الكتائب من أشياءها الظفر
جردت للدين والأسياف مغمدة	سيفا تفل به الأحداث والغير
وقت إذ قعد الأملاك كلهم	تذب عنه وتحميه وتنتصر
بالبيض تسقط فوق البيض أنجمها	والسمر تحت ظلال النقع تشتجر
بيض إذا خطبت بالنصر ألسنها	فمن منابرها الأكياد والقصر
وذبل من رماح الخط مشرعة	في طولهن لأعمار العدى قصر
يغشى بها غمرات الموت أسدشرى	من الكاة إذا ما استنجدوا والتدروا
مستلثمين إذا سلوا سيوفهم	شبهتها خليجا مرت بها غدر
قوم تطول ببيض الهند أذرعهم	فما يضر ظباها أنها بتر
إذا انتضوها وذبل النقع فوقهم	كالشمس طالعة والليل معتكر
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربا	كأنما الدم راح والظبا زهر
وإن هم نكصوا يوما فلا عجب	قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر

(١) عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٤ (طبعة مصر ١٨٨٢ م) .

(٢) أخبار الحسكاه ص ٥٧ (الطبعة الأولى بمصر ١٣٢٦ هـ) .

عقبى النجاح ووعده الله ينتظر
بما يسرك ساعات لها آخر
لك الحيجول من الأيام والغرر
والخيل تردى ونار الحرب تستعر
هى الدخان وأطراف القنا شرر
كصفحة البكر أدى خدها الخفر
ولا يصدق لا جبن ولا خور
سيان عندك قل القوم أو كثروا
هى الشجاعة إلا أنها غرر
سواك كهف ولا ركن ولا وزر
أن المنى خطرات بعضها خطر
لو كان سدد منه الفكر والنظر
وسط العرين ظباء الرب العفر
كوقفه العير لاورد ولا صدر
إن السيوف لأهل البغي تدخر
عن الجرائر تعفو حين تقندر
وفى الذنوب ذنوب ليس تغتفر
وما لهن سوى هام العدى ثمر
إلا بحيث ترى الهامات تنتشر
وأنت أدري بما تأتى وما تذر
كل البلاد إلى سقياه تقتر
والواهب الألف إلا أنها بدر
فكيف تطمع فى غاياته البشر
كالدهر يوجد فيه النفع والضرر
من قبله يهب الدنيا ويعتذر
إذا تجلى سناها أغدق المطر
به الليالى وقر البدو والحضر

العود أحمد والأيام ضامنة
وربما ساءت الأقدار ثم جرت
الله زان بك الأيام من ملك
الله بأسك والألباب طائشة
وللعجاج على صم القنا ظلل
إذ يرجع السيف يبدى خده علقما
وإذ تسد مسد السيف منفردا
أما يهولك ما لا قيت من عدد
هى السباحة إلا أنها سرف
الله فى الدين والدنيا فما لهما
ورام كيدك أقوام وما علموا
هيات أين من العميق طالبه
إن الأسود لتأبى أن يروعا
أمر نوره ولو هموا به وقفوا
فاضرب بسيفك من ناواك منتقما
ما كل حين ترى الأملاك صاحفة
ومن ذوى البغي من لا يستهان به
إن الرماح غصون يستظل بها
وليس يصبح شمل الملك منتظما
والرأى رأيك فيما أنت فاعله
أضحى شهنشاها غيما للندى غدقا
الطاعن الألف إلا أنها نسق
ملك تبوأ فوق النجم مقعده
يرجى نداءه ويخشى عند سطوته
ولا سمعت ولا حدثت عن أحد
ولا بصرت بشمس قبل غرته
يا أيها الملك السامى الذى ابتهجت

جاءتك من كلم الخاكي مبحرة تطوى لبهجتها الأبراد والخبير
هي اللآلئ إلا أن ناظمها طى الضمير ومن غواصها الفكر
تبقى وتذهب أشعار ملفقة أولى بقائلها من قولها الحصر
ولم أطلبها لأني جد معترف بأن كل مطيل فيه مختصر
بقيت للدين والدنيا ولا عدمت أجياد تلك المعالي هذه الدرر (١)

ويذكر المؤرخون أن أمية أرسل وهو في سجنه بقصيدتين إلى الأفضل
يمدحه بهما . الأولى لامية مطلعها :

الشمس دونك في المحل والطيب ذكرك بل أجل
والثانية بائية مطلعها :

نسخت غرائب مدحك التشيبيا وكفى بها غزلا لنا ونسبيا (٢)

وفي هاتين القصيدتين يتحدث الشاعر عن أيامه مع الأفضل، وأبداي الأفضل
عليه ، ومدائح أمية فيه ، ويعتذر إليه من أقوال الوشاة والحاسدين الذين أغروا
الوزير به حتى سجنه من غير جرم ارتكبه ، فمثل هذه الأبيات التي أنشدها أمية
في الاعتذار عن وشاية الواشين ، تدل على أن صلة الوزير بالشاعر كانت صلة
قوية ، وأن الشاعر كان مقربا للوزير فحسده الناس ، وأن الشاعر مدح الوزير
فأعطاه الوزير صلوات ، ومع ذلك نرى القفطى يدعى أن الوزير لم يعط الشاعر
شيئا ، ويخيل إلى أن القفطى اتهم الأفضل بذلك لأنه حبس الشاعر مدة طويلة .
ومهما يكن من شيء فقد مكث أمية عدة سنوات في مصر ، اتصل فيها بالحياة
المصرية . وشارك المصريين في أعيادهم وحفلاتهم . وأنشد في ذلك شعرا
حفظ بعضه وضاع أكثره . فما حفظ من ذلك قوله في النيل من قصيدة كتبها
إلى الأفضل ليلة المهرجان :

أبدعت للناس منظرا عجبا لازلت تحي السرور والطربا
ألفت بين الضدين مقتدرا فن رأى الماء خالط للهبأ !!
كأنما النيل والشموع به أفق سماء تألفت شهبأ
قد كان من فضة فصار سما وتحسب النار فوقه ذهبأ (٣)

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) الرسالة المصرية .

(٣) طبقات الأطباء ج ٢ ص ٥٢ .

وخرج إلى المتزهات المصرية كما كان يفعل غيره من أهل مصر عامة والشعراء خاصة، ووصف بعضها بالنثر والشعر، فمن ذلك قوله في بركة الحبش :
« وافق أن خرجنا في مثل هذا الزمان إلى بركة الحبش ، فافتشنا من زهرها
أحسن بساط ، واستظلنا من دوحها بأوفى رواق ، وطلعت علينا من زجاجات
الأقداح شمس في خلع البدور ، ونجوم بالصفاء تنور ، إلى أن جرى ذهب
الأصيل على لجين الماء ، ونشبت نار الشفق بفحمة الظلماء ، فقال في ذلك بعضنا
(ويقصد نفسه) :

والأفق بين الضياء والغيش	لله يومى بركة الحبش
كصارم في يمين مرتعش	والنيل تحت الرياح مضطرب
فنهجن من نسجها على فرش	قد نسجتها يد الغمام لنا
ديج بالنور عطفها ووشى	ونحن في روضة مفوفة
من سورة الهيم غير منتعش	فعاطى الراح إن تاركها
فهن أشفى لشدة العطش	واسقى بالكبار مترعة
دعاه داعى الصبا فلم يطش (١)	فأثقل الناس كلهم رجل

وبالرغم من هذه الأبيات التي تدل على أن أمية نعم في مصر بطبيعتها وهوها، وقدره المصريون لعلمه وأدبه ، فخطى بصداقة عدد كبير منهم ، فإنه خرج من مصر غاضبا يهجو مصر والمصريين، شأنه في ذلك شأن دعبل الخزاعي ، وأبى تمام والمتنبى وغيرهم من ذوى الأطماع التي لا تقف عند حد ، فهؤلاء الشعراء وفدوا على مصر لقصد النوال والعطاء من أمراء مصر، فأغدق هؤلاء عليهم ما وسعهم ، ولكن هؤلاء الشعراء لا يعرفون إلا العطاء السخى ، وويل لمصر والمصريين إذا لم يصلوا إلى مطامعهم ، فها هو ذا أمية يهجو المصريين جميعا بقوله :

وكم تمنيت أن ألقى بها أحدا	يسلى من الهيم أو يعدى على النوب
فما وجدت سوى قوم إذا صدقوا	كانت مواعيدهم كالآل في الكذب (٢)

نعم هكذا زعم أمية ، كما زعم دعبل وأبو تمام والمتنبى من قبل ، فصر التي أكرمت هؤلاء الشعراء فدحوها هي مصر التي هجوها بعد أن رحلوا عنها .

(١) الرسالة المصرية ، وخطط المقرئى ج ٢ ص ١٥٥ ومعجم الأدباء .

(٢) الفقطى ص ٥٧

أبو علي الأنصاري :

قلنا إن عددا كبيرا من شعراء مصر اتصل بالافضل بن بدر الجمالي ، وأنشدت القصائد الكثيرة في مدحه في الأعياد والمواسم ، فن هؤلاء الشعراء أبو علي حسين ابن زيد الأنصاري الذي أثنى عليه القاضي الفاضل بقوله : « إنه في فنه لم يسمح الدهر بمثله (١) » ، ويقول عنه صاحب الخريدة : وله قصيدة في مدح أفضلهم يصف خيمة الفرع ، يدل إحسانه فيها على أن بجره طامى اللجج ، ودره نامى البهج ، واقتبس منها قوله :

مجدا فقد قصرت عن شأوك الأمم
أخيمة ما نصبت الآن أم فلك
ما كان يخطر في الأفكار قبلك أن
حتى أتيت بها شماء شاهقة
إن الدليل على تكوينها فلدا
يد من في بلاد الصين ناظره
تري الكناس وأرام الأطباء بها
والطير قد لزمت فيها مواضعها
لديك جيش ، وجيش في جوانبها
إذا الصبا حركتها ماج موكبها
أخيلها خيلك اللاتي تغير بها
علمت أبطالها أن يقدموا أبدا
آمتهم أن يخافوا سطوة لردى
كأنها جنة ، فالقائون بها
علت نخلنا لها سرا تحدثه
إن أنبت أرضها زهرا فلا عجب
ياخيمة الفرع الميمون طائرها
ومنها يقول في مدح الأفضل :
ما قال لاقط مذ شدت تماثمه
وكم له نعم في طيها نعم

لو كنت شاهد شعري حين أنظمه إذن رأيت المعالي فيك تختصم
أزرتك اليوم من فكري محبرة في ناظر الشمس من لآلئها سقم
تري النجوم للفظي فيك حاسدة تود لو أنها في المدح تنتظم
ولكن هذا الشاعر النابه ، والكاتب المتقدم في ديوان المكاتبات ، لقي حتفه بسبب حسد الشعراء له ، ذلك أن ابن قادوس الشاعر أنشد بيتين في هجاء حسن ابن الحافظ ونسبهما إلى ابن زبيد الأنصاري ودسهما في رقاعه ثم سعى به إلى ابن الحافظ ، فلما وجد حسن بن الحافظ البيتين بين رقاع الأنصاري أمر بقتله ، ولم يشفع له جودة شعره التي بلغ بها درجة رفيعة بين الشعراء ، ولا طول خدمته في ديوان المكاتبات ، فإن هذه الآيات التي رويناها له في وصف الخيمة ومدح الأفضل إن دلت على شيء فإنما تدل على أن للشاعر خيالاً مخلصاً ومقدرة مطاوعة للقرين مع حسن ديباجة .

كان الشعراء في ذلك الوقت يتجهون بمدائحهم إلى الوزراء ، والويل كل الويل للشاعر الذي لا يجعل شعر مدحه لهم ، فهو يبعد ولا يلتفت إليه ، مهما ارتفع شعره وأجاد الشاعر ، وهذا ما حدث مع الشاعر المعروف بابن مكنسة أبي طاهر إسماعيل بن محمد ، فقد انقطع هذا الشاعر إلى مدح عامل من النصارى يعرف بأبي ملبح ، وأكثر أشعاره فيه ، ولما توفي هذا العامل رثاه الشاعر بقوله :

طويت سماء المكرمات وكورت شمس المديح
ماذا أرجى في حياتي بعد موت أبي ملبح
ما كان بالنسكس الدني من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما عقدوا به دين المسيح

فلما ولي الأفضل الوزارة أراد هذا الشاعر أن يتقرب إليه ويتصل به ، ولكن الأفضل لم ينس شعر ابن مكنسة في أبي ملبح ، فلم يقبل مدائحهم ، حتى ينس الشاعر فأرسل إلى الوزير يقول :

مثلي بمصر وانت ملك يقال ذا شاعر فقير
عطاؤك الشمس ليس يخفى وإنما حظي الضير
وبالرغم من أن هذا الشاعر كان من القلائل الذين مدحهم أمية بن أبي الصلت

في رسالته المصرية وأثنى عليه بقوله: « ومن شعرائها المشهورين أبو طاهر إسماعيل ابن محمد المعروف بابن مكنسة ، شاعر كثير التصرف ، قليل التكلف ، يفتن في نوعي جد القريض وهزله ، وضارب بسهم في رقيقه وجزله ،^(١) ، فمع ذلك كله لم يوفق إلى أن ينال حظوة عند الأفضل ، فظل بعيدا عن شعراء الوزارة .

ولعل ابن مكنسة كان أحسن حظا من الشاعر علي بن عباد الإسكندري ، فقد كان هذا الشاعر منقطعا لمدح الوزير أبي علي بن الأفضل عند ما كان هذا الوزير مستبداً بالبلاد وبالخليفة ، بل حبس الخليفة الحافظ ، حتى بلغ استبداده حدا لا يطاق ، واستطاع الحافظ أن يتمكن منه وأن يقتله في الميدان ، وتتبع كل من كانوا على صلة بهذا الوزير الطاغية فقتلهم ومنهم هذا الشاعر ، ويروى العماد أن هذا الشاعر مدح ابن الأفضل بقصيدة مطلعها: « تبسم الدهر لسكن بعد تعجيس » وعرض فيها بالخلفاء الفاطميين ولا سيما في قوله :

وقد أعاد إليه الله خاتمه فاسترجع الملك من صخر بن إبليس^(٢)
فكانت هذه القصيدة سبب مقتله ، ويقول ابن ميسر إن الحافظ أمر بإحضار الشاعر ، فلما امثل بين يديه قال له : أنشدني قصيدتك . فأخذ الشاعر في إنشادها حتى قال منها في بيت :

« ولا ترضوا عن أنجس المناجيس »

يعني الحافظ وآبائه ، فأمر حينئذ أن يلكمه الغلمان حتى مات بين يديه^(٣) ، بل كانت هذه القصيدة سببا في قتل القاضي ابن ميسر سنة ٥٣١ هـ ، فقد روى أن القاضي عند مسمع الشاعر ينشد القصيدة بين يدي ابن الأفضل قام وألقى عرضيته طربا ، فلما قتل الوزير صرف القاضي عن عمله وقتل^(٤) . وعن هذا الشاعر يقول ابن فضل الله : « علي بن عباد الإسكندري ، شاعر كان يجلو غرر المدائح ، وكانت من الوزراء تستعطف أئنة قصائده فيرد عليهم مسردها^(٥) .

وكان بين شعراء الأفضل من نغم عليه فهجاه ، ومن هؤلاء الشاعر الملقب بالتاجي المصري الذي ذكره أمية في رسالته المصرية ، فقد هجا الأفضل بقوله :

(١) الرسالة المصرية . (٢) الحريرة ورقة ٩٨

(٣) ابن ميسر ص ٨١ (٤) المصدر نفسه .

(٥) مسالك الأبصار ج ١٢ ص ٢١٨٩ (مخطوط بدار السكتب المصرية) .

قل لابن بدر مقال من صدقه لا تفرحن بالوزارة الخلقه
إن كنت قد نلتها مراغمة فهي على الكلب بعدكم صدقه
فأمر الأفاضل بنفيه إلى الواحات فأقام بها عند علم الدولة المقرب بن ماضي (١).

ظافر الحداد :

على أن عصر الأفاضل لم يشاهد شاعرا مثل ظافر الحداد بالرغم من كثرة الشعراء وتفوقهم جميعا في هذا الفن ، لكن شعراء ذلك العصر كانوا على حظ من الثقافة والعلم ، وكان أكثرهم من كتاب الدواوين ، أما ظافر فكان حدادا بالإسكندرية ولم يتلق من العلوم وألوان المعرفة إلا بمقدار ، وبلغت به شاعريته إلى أن يضعه النقاد ومؤرخو الأدب في مصاف أكبر شعراء عصره ، واستطاع بشعره أن يجالس العلماء والشعراء وأن يستمع إلى حوارهم وأحاديثهم ، ويأخذ من ذلك كله ما وسعته ذاكرته فيزيد بها مداركه وثقافته ، فقد رأينا صديقا لأمية بن أبي الصلت ، ويحدثنا ابن خلسكان أن الحافظ أبو طاهر السلفي وغيره من الأعيان كانوا يروون عن ظافر الحداد (٢) . واتصل ظافر برجال الدولة فأعجبوا به وبشعره ، ولا سيما أن مثل هذا الشعر صدر عن رجل من عامة الشعب في حالة متواضعة من العيش ، ويروى ابن خلسكان قصة تدل على ذلك كله ، تلك هي أن القاضي أبا عبد الله محمد بن الحسين الآمدي دخل على والي الإسكندرية الأمير السعيد بن ظفر فوجده يقطر دهننا على خنصره ، فسأله القاضي عن سببه فذكر ضيق خاتمه عليه وأنه ورم بسببه ، فأشار عليه القاضي بقطع حلقة الخاتم قبل أن يتفاقم الأمر فيه ، فاستدعى ظافرا الحداد فقطع الحلقة ، وأنشد بين يدي الوالي :

قصر عن أوصافك العالم وكثر النائر والناظم
من يكن البحر له راحة يضيق عن خنصره الخاتم

فاستحسن الأمير الشعر ووهب لظافر الحلقة وكانت من الذهب . ويخيل إلى أن الأمير أراد أن يستوثق من شاعرية ظافر ، وأن ظافرا الحداد أدرك ما كان يجول بخاطر الأمير ، فاغتنم فرصة وجود غزال مستأنس قد ربض بين يدي

(١) الحريرة ١١٣٠ (٢) ابن خلسكان ج ١ ص ٢٤١ .

الوالى وجعل رأسه فى حجره ، فارتجل ظافر :

عجبت لجرأة هذا الغزال وأمر تخطى له واعتمد
وأعجب به إذ بدا جاثما وكيف اطمأن وأنت الأسد

فزاد الحاضرون فى الاستحسان ، وكأنى بظافر وقد طمع فى أن يعترف
الحاضرون بسرعة بديهته وقدرته على الارتجال ، فقد التفت حوله فى قاعة المجلس ،
فوجد شيئا كان على الباب ليمنع الطير من دخولها ، فأنشد :

رأيت ببابك هذا المنيف شباكا فأدركنى بعض شك
وفسرك فيما رأى خاطرى فقلبت البحار مكان الشبك (١)

فهذه القصة إن دلت على شىء فإنما تدل على أن الشاعر كان على موهبة لنظم
الشعر ، وأن شعره طبيعى لا تسكلف فيه ، وأنه كان يرتجل الشعر بديهته ، مما
جعل الناس فى عصره يحبونه ويعجبون به ، وها هو ذا العباد الأصهبانى يحدثنا عنه
بقوله : « ظافر بحظه من الفضل ظافر ، يدل نظمه على أن أدبه وافر ، وشعره
بوجه الرقة والسلاسة سافر ، وما أكمله لولا أنه من مداح المصرى والله له غافر ،
حداد لو أنصف لسمى جوهرىا ، وكان باعتزائه إلى نظم الآلىء حريا ، أهدى
بروى شعره الروى للقلوب الصادية ربا ، فيما له ناظما فصيحنا مقلقا جريا (٢) »
ويجمع المؤرخون على أن شعر ظافر الحداد جمع فى ديوان كبير ، ولكن هذا
الديوان فقد ، ولم يبق من شعره إلا أبيات من قصائد . من ذلك قوله :

لو كان بالصبر الجميل ملاذه ما زال جيش الحب يغزو قلبه
ما زال جيش الحب يغزو قلبه حتى وهى وتقطعت أفلاذه
لم يبق فيه مع الغرام بقية إلا رسيس يحتويه جذاذه
من كان يرغب فى السلامة فليكن أبدا من الحدق المراض عياده
لا تخدعنك بالفتور فإنه نظر يضر بقلبك استلناذه
يا أيها الرشأ الذى من طرفه سهم إلى حب القلوب نفاذه
در يلوح بفيك ، من نظامه خمر به قد جال من نباذه ؟
وقناة ذاك القد كيف تقومت وستان ذاك اللحظ ما فولاده

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ (٢) الحريدة ورقة (١٦٠)

رفقا بجسمك لا يذوب فيني
هاروت يعجز عن مواقع سحره
تالله ما عقلت محاسنك امراً
أغربت حبك بالقلوب فأذعنت
مالي أتيت الحظ من أبوابه
إياك من طمع المنى فعزيره
ومنها أيضا :

دالية ابن دريد استهوى بها
دانوا لزخرف قوله فتفرقت
من قدر الرزق السنن لك إنما
فمن هذه الأبيات وغيرها مما حفظ لنا من شعر ظافر نستدل على أن شعره
سهل طبعي ليس به تكلف غيره من الشعراء الذين كانوا يصنعون الشعر صناعة ،
وقد لاحظ العباد أن ظافرا الحداد كان لحنه ، واستشهد بقصيدته الزائفة الشهيرة :

حكم العيون على القلوب يحوز
كم نظرة نالت بطرف ذابل
فخذار من تلك اللواحظ غرة
يا ليت شعري والاماني ضلة
هل لي إلى زمن تصرم عهده
وأزور من ألف البعاد وحبه
ظي يناسب في الملاحه شخصه
والبدر والشمس المنيرة دونه
لولا تثنى خصره في ردفه
تجفو غلالته عليه لطافة
من لي بدهر كان لي بوصاله
والعيش مخضر الجناب أنيقه
والمساء يبدو في الخليج كأنه
ودواؤها من دأمن عزيز
ما لا ينال الذابل المهزوز
فالسحر بين جفونها مكسوز
والدهر يدرك صرفه ويجيز
سبب فيرجع ما مضى فأفوز
بين الجوانح والحشا مركز
فالوصف حين يطول فيه وجيز
فالحسن منه يروق والتميز
ما خلت إلا أنه مغرور
فبجسمه من جسمها تطير
سمجا ووعدى عنده منجوز
ولأوجه اللذات فيه بروز
أيم لسرعة سيره محفوز

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٤٢ ومعجم الأدباء لياقوت ج ١٢ ص ٣١ (طبعة رفاعي)

والروض في حلل النبات كأنما
والزهر يومه ناظره كأنما
فأقاحه ورق ، وساقط طله
وكأنما القمري ينشد مصرعا
وكأنما الدولاب يزمر كلما
يارب غانية أضر بقولها
فأجبتها : ما عازني نيل الغنى
ما خاب من هضم التفضل ماله

فأخذ عليه العماد قوله «عازني» والصحيح «أعوزني» وأخذ عليه قوله «تعوز»
والصحيح «تعوز» وأخذ عليه قوله «محروز» والصواب «محزن»^(١). ولكن نسي العماد
أن الشاعر مصري ، وقد ذكرنا في كتاب أدب مصر الإسلامية صورا من اللحن الذي
وقع فيه كتاب مصر وشعراؤها ، وقلنا: إن المصريين لا يراعون قواعد الصرف
والنحو مراعاة إخوانهم في البلاد الإسلامية الأخرى لهذه القواعد ؛ ونحن
لا نستطيع أن نؤاخذ ظافراً الحداد بهذه الألفاظ التي لم يرع فيها قواعد الصرف ،
فقد كان أبو عبيدة معمر بن المثنى اللغوي مع معرفته إذا أنشد بيتا من الشعر لم
يقم بإعرابه^(٢) . ومن يتتبع شعراء مصر الإسلامية حتى عصرنا الحديث فسيجد
عدم عناية المصريين بهذه الناحية الهامة التي هي من مقومات الشعر .
ومهما يكن من شيء فإن حياة ظافر الحداد غامضة ، لعدم وجود ما يكشف
عنها ، وقد أجمع المؤرخون على أنه توفي سنة ٥٤٦ هـ .

شعراء بني رزيك حتى آخر الدولة الفاطمية

قتل الخليفة الظافر في المحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، فكتب خدام
القصر إلى طلّاح بن رزيك وإلى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه بقتل الخليفة
ويستنجدونه على القاتل ، وأرسل نساء القصر بشعورهن إليه ، ولعب الشعر دورا

(١) الخريدة ورقة ١٨٧ وكتاب روضة الأدب في طبقات شعراء العرب للشهاب الحجازي

ص ٧٥ (طبع بمبای بالهند) .

(٢) القهرست لابن النديم ٧٩

هاما في دعوة طلائع للأخذ بشأر الخليفة ، فقد كانت قصيدة القاضي أبي المعالي عبد العزيز بن الحباب المعروف بالجليس التي أرسلها إلى طلائع بن رزيك من أشد الرسائل التي وصلت إليه أثرا في نفسه ، فطلّاع كان شاعرا مجيدا ، ويصفه ابن خلكان بقوله: وكان فاضلا سمحا في العطاء ، سهلا في اللقاء ، محبا لأهل الفضائل ، جيد الشعر ، وقفت على ديوان شعره وهو في جزأين (١) ، ولذلك كان وقع القصيدة في نفسه أشد من وقع غيرها من الرسائل .

فن هذه القصيدة قول الجليس :

دهنتي عن نظم القريض عوادي	وشف فؤادي شجوه المتماذي
وأرق عيني والعيون هواجع	هموم أقضت مضجعي ووسادي
بمصرع أبناء الوصي وعثرة الذئ	بي وآل «الذاريات» و«صاد»
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم	وما لهم من منعة وزياد
أولئك أنصار الهدى وبنو الردي	وسم العدا من حاضرين وباد
لقد هد ركن الدين ليلة قتله	بمخير دليل للنجاة وهاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره	حشاشة نفس أذنت بنفاد
وقد كاد أن يطغى تألق نوره	على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم	ومصرعهم لم تكستحل برقاد (٢)

جاء طلائع بن رزيك مع رجاله إلى القاهرة واستولى على الوزارة . وإذا قلنا الوزارة فينما نقصد أنه تولى الحكم الفعلي في البلاد ، ولذلك لقب بالملك الصالح . وقد أجمع المؤرخون الذين تحدثوا عنه على أنه كان يحب العلم والعلماء والشعر والشعراء ، وقد رأينا قول ابن خلكان فيه ، ونقل العباد عن خطبة ديوان الصالح : « فقد نشرت أيامه مطوى الهمم ، وأنشرت رفات الجود والكرم ، ونفقت بدولته سوق الآداب بعد ما كسدت ، وهبت ريح الفضل بعد ما ركدت ، إذا لها الملوك بالقيان والمعازف ، كان لهوه بالعلوم والمعارف ، وإن عمروا أوقاتهم بالخر والقمر ، كانت أوقاته معمورة بالنهي والأمر (٣) ، ووصفه عمارة البني بقوله : « فكان مرتاضا قد شم أطراف المعارف ، وتميز عن أجلاف الملوك الذين

(٢) النجوم ج ٥ ص ٢٩٢

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٢٣٨ .

(٣) الحريرة ورقة ٣٢ ب

ليس عندهم إلا خشونة مجردة ، وكان شاعرا يحب الأدب وأهله ويكرم جلسيه ،
ويبسط أنيسه (١) ، . ويروي عمارة قصة وفوده على مصر أول مرة ، وكيف
دخل متسكرا في زى رسول من قبله على الأجل ابى الهيجاء صهر الملك الصالح ،
وطلب إليه ان يحمل عنه متونة السجود عند السلام على الخليفة والوزير ، فسأله
أبو الهيجاء عن عمارة فقال له : هو فقيه وعنده طرف من الأدب ، فقال : تعنى
شاعرا ! قال : نعم . قال : هذه نقيصة في حقه . فلما كان في اليوم التالى استدعى
أبو الهيجاء للغداء عند الصالح ، فقال أبو الهيجاء : هندی رسول صاحب مكة ،
وكنت أظنه عاقلا وإذا هو ناقص ؛ فقال له الصالح : وبأى شيء عرفت نقصه؟
قال : لـكـونـه يحسن شيئا من هذا السحت الذى تعلمه أنت والجليلس وابن الزبير .
قال الصالح : لعله شاعر؛ قال : نعم . قال الصالح : هاته ، هات الرجل ، ثم أنشد :
إن الذى تكرهون منه ذاك الذى يشتهيه قلبى (٢)

فهذه القصة إن دلت على شيء فإنما تدل على أن الملك الصالح طلائع بن زريك
كان مولعا بالشعر مقربا للشعراء ؛ ومن عجب أن يجتمع في بلاطه أكبر أعيان
أهل الأدب مثل الجليلس والموفق بن الخلال وابن قادوس والمهذب بن الزبير
والرشيد بن الزبير وغيرهم الذين وصفهم عمارة بقوله : « وما من هذه الخلبة أحد
إلا ويضرب في الفضائل النفسانية والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، وما زلت
أحذو على طرائقهم ، وأعرض جزعى في سوابقهم ، حتى أثبتونى في جرائدكم (٣) ،
فهؤلاء الأعلام كانوا يجتمعون في مجلس الملك الصالح يتناشدون الشعر ، ويتناظرون
في بعض المسائل العلية والأدبية ، ويستمعون إلى شعر الملك الصالح ، وفي ذلك
يقول صاحب النجوم الزاهرة : « وجعل له مجلسا في أكثر الليالى يحضره أهل
الأدب ، ونظم هو شعرا ودونه ، وصار الناس يهرعون إلى نقل شعره ، وربما
أصلحه له شاعر كان يصحبه يقال له ابن الزبير (٤) ، ويظهر أن الملك الصالح
كان ينشد القصيدة أو المقطوعة ، ولكننه كان يعرض ما ينشده على المهذب بن
الزبير ، وعلى غير المهذب ممن كان يتوسم فيهم مقدرة وكفاية على تفهيم الشعر ،
إذ يحدثنا عمارة البغوى : « ودخلت إليه ليلة السادس عشر من رمضان سنة ست

(٢) النكت ص ١٢٢ .

(٤) النجوم ج ٥ ص ٣١٣ .

(١) النكت ص ٤٨

(٣) النكت ص ٣٥

وخمسين وخمسمائة قبل أن يموت بثلاث ليال بعد قيامه من السباط ، ولم أكن رأيت من أول الشهر بليلة ، فأمر لي بذهب وقال : لا تبرح . ودخل ثم خرج إلى وفي يده قرطاس قد كتب فيه بيتين من شعره عملهما في تلك الساعة ، وهما :

نحن في غفلة ونوم وللهو ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنينا لبت شعري متى يكون الحمام

ثم قال لي : تأملهما وأصلحهما إن كان فيهما شيء . قلت هما صالحان (١) . فالملك الصالح كان يستعين بفحول الشعر في عصره لإصلاح شعره ، وليس في ذلك ما ينقص من قدرته في الشعر ، والمؤرخون يحدثونا أن بعض فحول شعراء العرب كانوا يعرضون شعرهم على غيرهم من الشعراء ، فروان بن أبي حفصة شاعر هرون الرشيد الرسمى كان يعرض شعره على بشار بن برد ، وكان البحترى يعرض شعره على أبي تمام ، وكان أكثر الشعراء يعرضون شعرهم على الأصمعي أو غيره من اللغويين ، فإذا كان الملك الصالح طلائع بن رزيك قد استعان بالمهذب أو بجماعة أو بغيرهما من شعراء ذلك العصر لإصلاح شعره ، فإن ذلك يدلنا على أن هذا الوزير كان يعرف قيمة الشعر ، فلم يستبح لنفسه أن يعرض شعره على الناس قبل أن يتأكد من قوة هذا الشعر وصلاحه ، ولكن ياقوت ذكر في معجم الأدباء في حديثه عن ابن الزبير : «وقيل إن أكثر الشعر الذي في ديوان الصالح إنما هو عمل المهذب بن الزبير (٢)» ، ولا أدري من أين استقى ياقوت هذا الخبر ، وربما أشبهه عليه الأمر ، فظن أن ابن الزبير هو صاحب الشعر الذي في ديوان ابن رزيك بدلا من أنه كان يثقف هذا الشعر ، وقد انتهت إلينا قطعة من قصيدة لابن الزبير يتحدث فيها عن شعر الملك الصالح ، منها :

ولنار فطنته تريك لشعره عذبا يروى غلة الظمان
وعقود در لو تجسم لفظها ما رصعت إلا على التيجان
وتزهت عن أن يرى أفوادها لمواضع الأقراط والآذان
من كل رائقة الجمال زهت بها بين القصائد غرة السلطان
سيارة في الأرض لا يعتاقها في سيرها قيد من الأوزان (٣)

(٢) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٧ .

(١) النكت ص ٤٩

(٣) الخريدة ص ١٤١ .

فابن الزبير هنا يصف شعر الصالح بهذه الصفات ، وإن كان ابن الزبير قد
غالى فى وصفه له ، ولكنه كان بمدح صاحب الملك . ومهما يكن من شىء فإن
المؤرخين أجمعوا على أن الملك الصالح كان مكشرا من قول الشعر ، حتى جمع شعره
فى ديوان من جزأين ، ولكن الذى بقى لنا من هذه المجموعة مقطوعات صغيرة ،
من ذلك قوله يتغزل :

ومهفف مثل القوام سرت إلى أعطافه النشوات من عينيه
ماضى اللجاظ كأنما سلت يدي سيفى غداة الروح من جفنيه
قد قلت إذ خط العذار بمسكة فى خده ألفيه لا لاميه
ما الشعر دب بعارضيه وإنما أهدابه نفضت على خديه
الناس طوع يدي وأمرى نافذ فيهم وقلبي الآن طوع يديه
فأعجب لسسلطان يعم بعدله ويجور سلطان الغرام عليه
والله لولا اسم الفرار وأنه مستقبح لفررت منه إليه (١)
ويحدثنا العماد فى الخريدة أن أبا الحسن على بن قيسر أنشد فى الملك الصالح
قصيدته التى أولها :

لا فرق بين خياله ووصاله فى سرد ماطله وفى تحقيقه
والتي منها :

والله ما للشمس فى إشراقها وضياء بهجته كبعض شروقه
لا تجعل الهجران بعض عقوبتي فكلف السلوان غير مطيقه
بلغ إلى الملك الهام أمانة تبليغها للحر من توفيقه
حتام حظى فى الحضيض وإنه فى الفضل عند الناس فى عيوقه
مثلى بمصر وأنت مالك رقه مثل العقاب مفردا فى نيقه
ولقد أشاع الناس أنك فى الورى من ليس ينفق باطل فى سوقه
أبطل بنور العقل سلطان الهوى واعمل بكل الجهد فى تطليقه
فأجابه الصالح بقصيدة مها :

نفق التأدب عندنا فى سوقه وبدا اليقين لنا بلبع بروقه

أهدى لي القاضي الفقيه عرائسا فيها بديع الوشى من تميمه
فأجلت طرفي في بديع رياضه من ورده وبهاره وشقيقه
فكأنما اجتمع الأحبة فانبرت يد عاشق تهوى إلى معشوقه
أدب سعى منه إلى غاياته وأتى فسد عليه مر طريقه
ولقد علمت بأن فضلك سابق يعتد من جراه من مسبوقة
فلذا اقتصرت ولم أر الإمعان في شأو امرى، أصبحت غير مطيقه
وأرى الزمان جرى على عاداته في جمعه طوراً وفي تفريقه
والشوق في قلبي تضرم وهجه فمتى أراه يكف عن تحريقه
والدمع من عيني سح، فهل يرى من بجره يوماً نجاة غريقه
نزهدت في بستان نظمك ناظري فخطيت من زهر الربا بأنيقه
أنت امرؤ من قال فيك مقالة الـ خالى فكل الخلق في تصديقه
وأنا أرى تقديم حاجة صاحبي من دون حاجاتي أقل حقوقه
وكذا الكريم فمهمل لأموره لا مهمل أبداً أمور صديقه
هذا النجاح فكل ما قد رمته قد عم فانظر منه في تحقيقه (١)

وهكذا نستطيع من هذه المقطوعات التي بقيت لنا من شعر الصالح أن ندرك
ان الصالح كان من شعراء مصر الذين يهتمون بالمعاني أكثر من عنايتهم باللفظ،
وأنة لم يكن من الشعراء الذين يكثرون من التشبيهات والاستعارات، ولكن
التشبيهات تأتي في شعره بسيطة عادية من غير تكلف ولا تصنع، ولم يكن الصالح
شاعراً فحسب، بل كان من علماء المذهب، ويقول المقريني: إن له قصيدة سماها
الجوهرة في الرد على القدرية، وإنه صنف كتاباً سماه الاعتدال في الرد على أهل
العناد، جمع له الفقهاء وناظرهم عليه، وهو كتاب يبحث في إمامة علي بن أبي
طالب والأحاديث النبوية التي وردت فيه (٢). وتوفي الملك الصالح سنة ٥٥٦ هـ
وتولى الوزارة بعده ابنه الملك الناصر رزيق بن الصالح وكان شاعراً مثل أبيه،
ناقداً للشعر عارفاً بجيده من رديئه، ويقول عمارة عنه: وأما فهمه فكان يعرف
جيد الشعر ويستحسنه ويشيب عليه (٣).

(١) الخريدة ورقة ٦٩ ب.

(٢) خطط ج ٤ ص ٨٢.

(٣) النكت ص ٥٥.

وفي رثاء عمارة للصالح ومدح الناصر قال:

لا يقولن جاهل بالقوافي ذهب الناقد السميع البصير
فالمرجى أبو شجاع عليم بمقادير أهلن خير (١)

ولكن عمارة أثنى عليه الثناء كله ، لأن الناصر استخدم القاضي الفاضل ، يقول عمارة: « ومن محاسن أيامه وما يؤرخ عنها ، بل هي الحسنه التي لا توازي ، واليد البيضاء التي لا تجازي ، خروج أمره إلى وإلى الإسكندرية بتسيير القاضي الأجل الفاضل أبي علي عبد الرحيم بن علي البيساني إلى الباب واستخدامه . (٢) فكان دقة إحساس الملك الناصر ، وتدوقه للشعر والكتابة الفنية . ومعرفته للجيد من الشعر والنثر جعلت الناصر يكتشف مواهب القاضي الفاضل الأدبية فيرفعه إلى مرتبة الخدمة في ديوان الجيش بالحضرة ، ولولا ذلك لظل القاضي الفاضل مغمورا مثل كثير من الأدباء والشعراء الذين لم تتح لهم تلك الخطوة فجهلهم الناس وغمطت مواهبهم . فلا غرو أن رأينا عمارة اليمنى يرفع من شأن هذا الكاشف ويعدّه « الحسنه التي لا توازي واليد البيضاء التي لا تجازي » ولو كان يعلم عمارة ما ستأتي به الأيام له ، وموقف القاضي الفاضل منه ، لجعل هذه اليد البيضاء سوداء ، وتلك الحسنه سيئة .

لم تمهل الأيام الملك الناصر إذ قتل سنة ٥٥٨ هـ . وبموته بدأت المنازعات على الوزارة بين شاور وضرغام . وأدى الأمر إلى تدخل جيوش نور الدين زنكي في أمر هذه المنازعات وإلى تدخل جيوش الصليبيين لاحتلال مصر ، ثم إلى تولية أسد الدين شيركوه ثم صلاح الدين الأيوبي الوزارة ، إلى أن استطاع صلاح الدين أن يقضى على الدولة الفاطمية في المحرم سنة ٥٦٧ هـ .

ومع هذه الاضطرابات والفتن التي كانت في مصر . لم ينس الوزراء الشعر والشعراء . فكان شاور يجلس ليستمع إلى مدائح الشعراء ، وكان ضرغام ينقد شعر الشعراء . ويذكر عمارة أنه أنشد الوزير ضرغاما قصيدة منها :

أوجبت في ذمة الأشعار والخطب دينا أبا حسن يبقى على الحقب
أيامك البيض لا تحصى ، وأفضلها يوم خصصت به في قاعة الذهب

(٢) المصدر نفسه ص ٥٣

(١) النكت ص ٥٢ .

وفيت للصالح الهادى وقد غدرت به الصنائع من ناء ومقرب
فقال ضرغام : لو قلت (بعدت) كان أصلح من (غدرت) . قلت : إنما أردت
مقابلة الوفاء بالغدر . قال : وعلى مقابلتك تنسبنا إلى الغدر (١) ولعل هذه
القصة ترينا مقدار فهم ضرغام للشعر ، ونفاذ بصيرته في نقده . وفي هذه الأيام
العجاف التي أودت بالدولة الفاطمية توفى كبار شعراء العصر . فالجليلس توفى سنة
٥٦١ هـ وفي هذه السنة عينا توفى المهذب بن الزبير وتوفى الرشيد بن الزبير سنة
٥٦٢ هـ . ولم يعد الشعراء يتكسبون كما كانوا يتكسبون من قبل . فقد ذكر عمارة
أنه أنشد شاور قصيدة مدحه بها بعد طرد الصليبيين من بلبيس إبان وزارته
الثانية ، ومن هذه القصيدة :

أسمع هذا الفتح المبين وأبصر واقصر عليه خطأ الهناء وأقصر
فتح أضاء به الزمان كأنه وجه البشير وغرة المستبشر
فتح يذكرنا وإن لم ننسه ما كان من فتح الوصى الخبير
فتح تولد يسره من عسرة طالت ، وأى ولادة لم تعسر
حملت به الأيام إلا أنها وضعتة تما عن ثلاثة أشهر

ويقول فيها :

تلقاه أول فارس إن أقدمت خيل ، وأول راجل في العسكر
هانت عليه النفس حتى إنه باع الحياة فلم يجد من يشتري
ضجر الحديد من الحديد وشاور في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر
يا فاتحاً شرق البلاد وغربها يهنك أنك وارث الإسكندر

يقول عمارة : وكانت هذه الأبيات أحد الأسباب التي قوت عزمي على
الاستعفاء من عمل الشعر ، لأن الناس فيما تقدم كانوا يغنون الشعراء بما ليس يفوقها
جودة . (٢) وبالفعل عندما قابل شاور بعد ذلك استعفاه عمارة من قول الشعر .
وأمر أن ينقل الجارى على الخدمة راتباً على حكم الضيافة ، لأن التكسب بالشعر
والتظاهر به أصبح نقيصة في حقه . فسأله شاور : فما منعك أن تستعفى في أيام الصالح

(٢) المصدر نفسه ص ٨٢ وما بعدها .

(١) النكت ص ١٤٦ .

وابنه؟ قال عمارة: كانت لى أسوة وسلوة بالشيخ الجليل بن الحباب وبابن الزبير الرشيد والمهذب، وقد انقض الجليل والنظراء، قال: تعفى، ثم أمر بإنشاء سجل باعفائه (١) ومع ذلك لم يستطع عمارة ألا ينشد شعرا فى الحوادث التى كانت فى هذه الأيام، ولا سيما عندما تولى صلاح الدين الأيوبي الوزارة، فقد أنشد عدة قصائد يهنئه فيها بانتصاره على الصليبيين وبنصره لآل بيت الرسول، ويشبهه جيوش صلاح الدين بأنصار النبي (ص) فهو يقول مثلا:

لك الحسب الباقي على عقب الدهر	بل الشرف الراقى إلى قمة النسر
كذا فليسكن سعى الملوك إذا سعت	بها الهمم العليا إلى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة	أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتهم عن الإقليم غمته كما	كشفتهم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتهم من الإفرنج سرب خلافة	جر يتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبي بنصركم	ودائرة الأنصار أضيق من شبر
جلبتم إليه النصر أوساً وخزرجا	وما اشتقت الأنصار إلا من النصر
كتائب فى جيرون منها أواخر	وأولها بالنيل من شاطئ مصر
طلعتهم فأطلعتم كواكب نصرة	أضاءت مكان الدين ليلا بلا فجر
وآبت إليكم يابن أيوب دولة	تراسلكم فى كل يوم مع السفر
حمى الله فيكم عزيمة أسدية	فككتهم بها الإسلام من ربة الأسر
أخذتم على الإفرنج كل ثنية	وقلتم لأيدى الخيل مرى على (مرى)
لئن نصبوا فى البر جسرا فإنكم	عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدى	ففرتم بها والصخر تفرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه	كما لز مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها	بسيبك لم تترك لغيرك من عذر
وأيدىكم بالبأس كاسرة العدى	ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذى أضخى ذخيرة مجدكم	وأنت له خير النفاس والذخر
ومن كنت معروفا له فاستفزه	بمثلك تيه فهو فى أوسع العذر

توقره وسط الندى كرامة
وتخلفه حربا وسلبا خلافة
وكم قتت في بأس وجود ورتبة
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم
يد لا يقوم المسلمون بشكرها
بكم آمن الرحمن أعظم يثرب
ولورجعت مصر إلى الكفر لانطوى
ولكن شدتتم أزره بوزارة
فهنيتم فتحا تقدم جله
وما بقيت في الشرك الابقية
وعند تمام الملك آتى مهنتا
ولولا اعتقادي أن مدحك قرية
لما قلت شعرا بعد إعفاء خاطري
فأوص بي الأيام خيرا فانها
وجائزتي : تسهيل إذني عليكم

وتحمل عنه ما يؤود من الوقر
تؤلف أصدادا من الماء والجمر
بما سره في الخطب والندست والشعر
لنعمتكم بالمستحق من الشكر
لكم آل أيوب إلى آخر الدهر
وآمن أركان الثنية والحجير
بساط الهدى من ساحة البر والبحر
غدا لفظها يشفق من شدة الأزر
وبشر أن الكل يتلو على الإثر
تمتها في ذمة البيض والسمر
وملتمسا أجر الكهانة والزجر
أرجى بها نيل المثوبة والأجر
ولى سنوات منذ تبت عن الشعر
مصرفة بالنهى منك وبالأمير
وملما كمل بالطلاقة والبشر (١)

ولما قتل شاور وتولى شيركوه ثم صلاح الدين الوزارة وجدنا بعض الشعراء يعرضون في أشعارهم بالوزير المقتول ، بل يهجوونه أقبح هجاء ، فالشاعر حسان عرقلة — ولم يكن مصر يائسا وقد مع صلاح الدين إلى مصر وأنشد شعرا في الحوادث التي جرت في هذه الأوقات — قال لما قتل شاور وتولى شيركوه قال :

لقد فاز بالملك العظيم خليفة
كان ابن شاذى والصلاح وسيفه
هو الأسد البضارى الذى جل خطبه
بغى وطنى حتى لقد قال قائل
فلا رحم الرحمن تربة قبره

له شيركوه العاضدى وزير
على لديه شيبير وشبير
وشاور كلب للرجال عقور
على مثلها كان اللعين يدور
ولا زال فيها منكر ونكير

وقال في قصيدة أخرى :

إن أمير المؤمنين الذي مصر حماه وعلى أبوه

نص على شاور فرعونها ونص موساهها على شيركوه (١)

وما كادت تدول هذه الدولة الفاطمية حتى انبرى شعراء الأيوبيين يمدحون ملوكهم ويقدمون في الدولة الفاطمية ويرمونها بالكفر، وستحدث عن ذلك في كتابنا عن الأيوبيين، ويكفي أن نأتي الآن بمثال لهذه الأشعار، فقد قال أحد الشعراء يمدح الأيوبيين :

ألستم مزبلي دولة الكفر من بني عبيد بمصر، إن هذا هو الفضل

زنادقة سبعية باطنية مجوس وما في الصالحين لهم أصل

يسرون كفرا يظهرون تشيعا ليستتروا شيئا وعمهم الجهل (٢)

وهكذا كان الأمر في الشعر لدى الوزراء. فالشعراء كانوا يلتمسون الأحداث لمدحوا الوزراء ويتقربوا إليهم حتى دالت الدولة الفاطمية.

المهذب بن الزبير:

هو الحسن بن علي بن إبراهيم بن الزبير المعروف بالقاضي المهذب، كان من أهل أسوان من أصل عربي ينتمي إلى قبيلة غسان. وكان المهذب وأخوه الرشيد من أكبر شعراء ذلك العصر، رحلا من أسوان إلى القاهرة، وما زالوا يرتقيان في مناصب الدولة حتى بلغا مرتبة القضاء وجالسا الوزراء والأمراء. أما المهذب فقد قدمه القاضي المجلس إلى الملك الصالح طلائع بن رزيق فخطى عنده وحصل له من الملك مال جهم لم ينل غير المهذب منه أحد مثله، وأوفد المهذب في سفارة من مصر إلى بلاد اليمن، وهناك أتيجت له فرصة جمع كتب الأنساب اتخذها مصدرا لكتاب كبير صنفه في عشرين مجلدا هو «كتاب الأنساب» اطلع ياقوت الحموي على بعض أجزاء منه فوصفه بقوله وفوجدته مع تحقيقي هذا العلم، وبحثي عن كتبه، غاية في معناه لا مزيد عليه، يدل على جودة قريحته مؤلفه وكثرة اطلاعه، إلا أنه حذا فيه حذو أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري وأوجز في بعض أخباره عن البلاذري، إلا أنه إذا ذكر رجلا ممن يقتضى الكتاب ذكره لا يتركه حتى

(١) الروضتين ج ١ ص ١٥٧ . (٢) المصدر نفسه ج ١ ص ٢٠٢ .

يعرفه بجهد من إيراد شيء من شعره وخبره^(١) فجمع ابن الزبير بين العم والشعر .
وقد ذكرنا في حديثنا عن الملك الصالح أنه كان يعرض شعره على ابن الزبير
لتقويمه وإصلاحه قبل عرضه على الناس، ووصف العماد شعره بقوله « محكم الشعر
كالبناء المشيد وهو أشعر من أخيه وأعرف بصناعته وإحكام معانيه . . ولم
يكن في زمانه أشعر منه ، وله شعر كثير ، ومحل في الفضائل أكثر »^(٢) .

ووصف المهذب شعره مرة وهو يعرض بابن الصياد الملقب بالمفيد الشاعر :
فيا شاعرا قد قال ألف قصيدة ولكنها عن بيته ليس تبرح
ليهنك ، لا هנית ، أن قصائدى مع النجم تسرى أو مع الريح تسرح
وقال مرة أخرى يمدح الوزير الصالح بن رزيك، وكان الوزير يعزى الشعراء
بعضهم ببعض ويسر للاستماع إلى نقائض الشعراء وأهاجيهم :

يا أيها الملك الذى أوصافه غرر تجلت للزمان الأسفع
لا تطمع الشعراء فى فإنى لوشئت لم أجبن ولم أتخشع
إن لم أكن ملء العيون فىنى بالقول يابن الصيد ملء المسمع
فليمسكوا عنى فلولا أننى أبقى على عرضى إذن لم أجزع
وأهم من هجوى لهم مدح الذى رفع القريض إلى المحل الأرفع
ولو أنه ناجى ضميرى فى السكرى طيف الخيال بريبة لم أهجع
وإذا بدا لى الهجر لم أر شخصه وإذا يقال لى الخنالم أسمع
والناس قد علموا بأنى ليس لى مذكنت فى أعراضهم من مطمع^(٣)

فنحن أمام شاعر عف اللسان ، محترم لنفسه بابتعاده عما يعرضه إلى هجاء
زملائه ، وإذا عرض لأحد الشعراء فإنما يعرض له من ناحية واحدة هى ناحية
فن الشعر ، فقد كان المهذب شاعرا من نخول شعراء العربية . ولا أغالى إذا قلت
إن مصر الإسلامية منذ دخلها العرب ، ومنذ عرفت الشعر العربى ، لم تنجب من
أبنائها شاعرا له شاعرية المهذب وقوة شعره وحسن ديباجته ، وقد وصلت
إلينا عدة قصائد له تدلنا على ذلك كله ، فمن ذلك قصيدته التى أرسلها إلى داعى

(٢) الخريدة ورقة ٣٨ ٠١

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٤٩

(٣) المصدر نفسه ورقة ٤٣ ب

اليمين عند ما قبض على أخيه الرشيد ، يمدحه ويستعطفه ، حتى أطلق سراح أخيه ،
ففيها يقول :

يا رباع أين ترى الأحبة يمموا هل أنجدوا من بعدنا أم أنهموا
رحلوا وقد لاح الصباح وإنما يسرى إذا جن الظلام الأنجم
وتعوضت بالأنس وروحي وحشة لا أوحش الله المنازل منهم
لولاهم ما قمت بين ديارهم حيران أستاف الديار وأثم
أمنازل الأحباب أين هم وأي — ن الصبر من بعد التفرق عنهم
يا ساكني البلد الحرام وإنما في الصدر مع شحط المنازل سكنتم
يا ليتني في الناقلين عشية بمنى ، وقد جمع الرفاق الموسم
فأفوز إن غفل الرقيب بنظرة منكم إذا لبى الحجاج وأحرموا
إني لأذكركم إذا ما أشرقت شمس الضحى من نحوكم فأسلم
لا تبعثوا لي في النسيم تحية إني أغار من النسيم عليكم
إني امرؤ قد بعث حظي راضيا من هذه الدنيا بحظي منكم
فسلوت إلا عنكم وقنعت إلا منكم وزهدت إلا فيكم
ورأيت كل العالمين بمقالة لو ينظر الحساد ما نظرت عموا
ما كان بعد أخي الذي فارقت لسيوح إلا بالشكايه لي فم
هو ذاك لم يملك علاه «مالك» كلا ولا وجدى عليه «متسم»
أقوت مغانيه وعطل ربعه ولربما هجر العرين الضيغم
ورمت به الأهوال همة ماجد كالسيف يمضى عزمه ويصمغ
يا راحلا بالمجد عنا والعللا أتري يكون لكم إلينا مقدم
يفديك قوم كنت واسط عقدهم ما إن لهم مذ غبت شمل ينظم
لك في رقابهم وإن هم أنكروا من كأطواق الحمام وأنعم
جهلوا فظنوا أن بعدك مغتم لما رحلت وإنما هو مغرم
فلقد أقر العين أن عداك قد هلكوا ببغيهم وأنت مسلم
لم يعصم الله ابن معصوم من الآ فات ، واخترم اللعين الأخرم (١)

(١) الأخرم هو صاحب الدعوة الدرزية التي ظهرت أيام الحاكم ونادت بالوحيته .

واعترضت بعدهم بأكرم معشر
فلعمر مجدك إن كرمت عليهم
أفيال بأس خير من حملوا القنا
متواضعون ولو ترى ناديتهم
وكفاهم شرفا ومجدا أنهم
هو بدر تم في سماء علامهم
ملك حماه جنة لعفاته
أنتى عليك بما مننت وأنت من
فاغفر لى التقصير فيه وعده
مع أنتى سيرت فيك شواردا
تعدو وهوج الذاريات رواكد
وإذا المآثر عددت في مشهد
وإذا تلا الراوون محكم آيها
وكفى برأى إمام عصرك ناقضا

بدءوا لك الفعل الجميل وتمموا
إن الكريم على الكرام مكرم
وملوك قحطان الذين هم هم
ما استطعت من إجلالهم تسلكم
قد أصبح الداعي المتوج منهم
وبنو أبيه بنو رويح أنجم
لكنه للحاسدين جهنم
أوصاف مجدك يا مليكا أعظم
مع ما تجود به على وتنعم
كالدر بل أبهى لدى من يفهم
وتبيت تسرى والكواكب نوم
فبذكرها يبدأ المقال ويختم
صلى عليك السامعون وسلموا
ما أحكم الأعداء فيك وأبرموا (١)

فهذه القصيدة تدلنا على أن الشاعر المهذب بن الزبير كان من الشعراء الذين أعادوا إلينا ذكرى الشعر العربي الرصين وإشراق ديباخته ، وأنه كان من الشعراء الذين لم يخذعوا بهرج اللفظ ، ولم تهرهم زينته ، حقيقة قد لم ببعض مقابلات بديعية ولسكنه لم يسرف فيها إسراف غيره من الشعراء الذين أعجبوا بالصنعة البديعية ، فأفراطوا فيها إفراطا جعلهم يخرجون الشعر عن طبيعته وسلامته ، وأخلوا بالمعنى في سبيل اللفظ ، ولناخذ مثلا آخر من قصيدة لهذا الشاعر في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك ، لنستدل بها على أن فن الشاعر قريب من فن شعراء قول الأمويين والعباسيين :

أقصر فديتك عن لومى وعن عدلى
من كل طرف مريض الجفن تشدنا
إن كان فيه لنا ، وهو السقيم ، شفا
أولا ، فخذلى أمانا من يد القتل
ألحاظه « رب رام من بنى نعل ،
« فربما صحت الأجسام بالعلل ،

إن الذي في جفون البيض إذ نظرت
كذلك لم يشتهه في القول لفظهما
وقد وقفت على الأطلال أحسبها
أبكى على الرسم في رسم الديار فهل
وكل ييضاء لومست أناملها
تغنى من الدر والياقوت لبستها
بالخند مني آثار الدموع كما
كأن في سيف سيف الدين عن خجل
هو الحسام الذي يسمو بحامله
إذا بدا عاريا من غمده خلعت
وإن تقلد بحرا من أنامله
من السيوف التي لاحت بوارقها
ومنها :

أفارس المسلمين اسمع فلا سمعت
مقال ناء غريب الدار قد عدم الأ
يشكو مصائب أيام قد اتسعت
يرجوك في دفعها بعد الإله وقد
فما تخاف الردى نفس، وكم رضيت
إني امرؤ قد قتلت الدهر معرفة
إن يرو ماء الصبا عودى فقد عجمت
تجاوزت في مدى الأشياخ تجربتي
وأول العسر خير من أواخره
دونى الذى ظن أنى دونه فله
والبدر يعظم فى الأبصار صورته
ما ضر شعرى أنى ما سبقت إلا
فإن مدحى لسيف الدين تاه به

أعداك غير صليل البيض فى القل
نصار لولاك لم ينطق ولم يقل
فضاق منها عليه أوسع السبل
يرجى الجليل لدفع الحادث الجلل
بالعجز خوف الردى نفس فلم تبيل
فما أبيت عل بأس ولا أمل
منى طروق الليالى عود مكتهل
قدما وما جاوزت بي سن مقبيل
وأين ضوء الضحى من ظلمة الأصل
تعاظم لينال المجد بالجبل
ظنا ويصغر فى الأفهام عن زحل
أجاب دمعى وما الداعى سوى طلل
زهوا على مدح سيف الدولة البطل (١)

ولعلك تلاحظ في هذه القصيدة كيف ضمن الشاعر في البيت الثاني إشارة
أمرى القيس إلى بني نعل وقول امرى القيس:

رب رام من بني نعل مخرج كفيه من ستره

وكيف ضمن ابن الزبير في البيت الثالث عجز بيت الممتني من قوله:

لعل عتبك محمود عواقبه فرما سحت الأجسام بالعلل

والشاعر في هذه القصيدة ، بل في كل قصائده التي وصلت إلينا من ديوانه الذي
فقد ، يظهر شاعرية خول الشعراء ، تلك الشاعرية الطبيعية التي يصدر عنها
هذا الشعر الجزل الرصين الذي لا نجد له مثيلاً بين شعر مصر الفاطمية ، ولعل
ذلك يرجع الى أن المهذب بن الزبير لم ينشأ في القاهرة أو الفسطاط ، ولسكنه
نشأ في أسوان ، وتطبع هناك بالبيئة التي أحاطت به ، فهي محافظة أكثر من بيئة
القاهرة ، وهي إلى البداوة أقرب ، لبعدها أولاً عن بقية بلاد القطر ، وليبيتها
الجغرافية التي جعلت منها بلداً يتميز بجو خاص ، وتربة هي مزيج من أقسام
صحراوية وأخرى صخرية وثلاثة خصبة ، فالذين يعيشون في هذا البلد أو ينشأون
فيه يمتازون بأنهم أقرب إلى البداوة منهم إلى الحضرة ، فلعل هذا هو السبب
في أن نرى شعر المهذب وشعر أخيه الرشيد رصينا جزلاً لا نجد فيه طراوة
شعر أهل القاهرة والفسطاط ، ولانعومة شعر الأمير تميم أو إبراهيم الرسي
أو حيدرة العقيل ، ولا شعبية شعر ظافر الحداد .

أصيب هذا الشاعر في أواخر أيامه إبان وزارة شاور بمحنة كان بريثاً منها
فقد حبسه شاور ظلماً بسبب اتصال أخيه الرشيد بصلاح الدين يوسف بن أيوب إبان
حصار الاسكندرية ، فأخذ المهذب يستعطف شاور ، ويرسل إليه الأشعار في مدح
ابنه الكامل بن شاور ، فن ذلك قوله :

إذا أحرقت في القلب موضع سكنها	فن ذا الذي من بعد يكرم مشواها
وإن نرفت ماء العيون بهجرها	فن أي عين تأمل العيس سقيها
وما الدمع يوم البين إلا آلىء	على الرسم في رسم الديار نثرناها
وما أطلع الزهر الربيع وإنما	رأى الدمع أجياد الغصون فإلاها
ولما أبان البين سر صدورنا	وأمكن فيها الأعين النجل مرماها

عددتنا دموع العين لما تحدرت
ولما وقفنا للوداع وترجمت
بدت صورة في هيكل فلواننا
وما طربا صغنا القريض وإنما
ليالى كانت في ظلام شبىبى
تأرج أرواح الصبا كلما سرى
ومهما أدرنا الكأس باتت جفونها
ومنها :

ولولم يجد يوم الندى في يمينه
فيا ملك الدنيا وسائس أهلها
ومن كلف الأيام ضد طباعها
عسى نظرة تجلو بقلبي وناظرى
فأطلقته هذه الأشعار من سجنه ، واصطنعه الكامل بن شاور لنفسه .

وكان المهذب مثل أخيه الرشيد يذم الزمان ، ويتألم لأخلاق الناس حوله ،
فهم سواسية في اللؤم . وكان يتطلع إلى المجد ، فهو يفخر بنفسه ، ويفخر بشعره ،
فهو يقول في إحدى قصائده :

تشابه الناس في خلق وخلق
فلم أبت قط من خلق على ثقة
لا تخدعنى بمرئى ومستمع
وكيف آمن غيرى عند نائبة
تأبى المكارم والمجد المؤثر لى
إنى لأشهر فى أهل الفصاحة من
وسوف أرمى بنفسى كل مهاكة
إما العلا وإليها منهى أملى
تشابه الناس والأصنام فى الصور
إلا وأصبحت من عقلى على غرور
فما أصدق لا سمعى ولا بصرى
يوما إذا كنت من نفسى على حذر
من أن أقيم وآمالى على سفر
شمس وأسير فى الآفاق من قر
تسرى بها الشهب إن سارت على خطر
أو الردى فإليه منتهى البشر (٢)

(١) معجم الأدباء ج ٩ ص ٦١ .

(٢) الخريدة ٤٩ ب .

ويقول مرة أخرى :

ومن نكس الأيام أنى كما ترى
أمنت عداق ثم خفت أحبتي
أكابد عيشا مثل دهري أنكدا
لقد صدقوا إن الثقات هم العدا (١)

وقد توفي هذا الشاعر سنة ٥٦١ هـ .

القاضي الرشيد بن الزبير :

أما ثاني المهذبين الأخوين الشعارين فهو أحمد بن علي بن إبراهيم بن الزبير
الغساني ، وكان الرشيد أعلم من أخيه ، وأخوه أشعر منه ، فقد ضرب الرشيد
بسهم وافر في الفقه واللغة والنحو والتاريخ والمنطق والهندسة والطب والموسيقى
والنجوم ، كما كان جيد النثر ، وله تصانيف منها : كتاب « منية الأملعي » ، وبلغه
المدعى ، وكتاب المقامات . ولعل أشهر تصانيفه هو كتاب « جنان الجنان » ،
وروضة الأذهان ، الذي تحدث فيه عن شعراء مصر ومن طرأ عليها ، وجعله
ذيلا على يتيمة الدهر للثعالبي ، وهو الكتاب الذي أخذ عنه العباد الأصفهاني
أكثر مادة القسم الخاص بمصر من كتابه الخريدة . وللرشيد عدة كتب أخرى
منها كتاب « الهدايا والطرف » وكتاب « شفاء الغلة في سمت القبلة » وبجموعة
رسائله ، وديوان شعره ، فهو على هذا النحو عالم شاعر أفاد المصريين وغيرهم ،
ويحدثنا العباد أن محمد بن عيسى اليميني أخذ عن الرشيد باليمن علم الهندسة (٢) ،
ولكن الرشيد عرف بالشعر . أكثر مما عرف بهذه العلوم ، حتى قيل إن سبب
تقدمه في الدولة أنه جاء القاهرة بعد مقتل الخليفة الظافر ، وحضر المسأتم مع
الشعراء ، فقام آخرهم وأنشد قصيدته التي مطلعها :

ما للرياض تميل سكرا هل أسقيت بالمرن خمرا

إلى أن وصل إلى قوله :

أفكر بلاء بالعراق وكر بلاء بمصر أخرى

فضج القصر بالبكاء ، وانثالت عليه العطايا ، ومن ثم بدأت صلته بالقصر
والوزراء ، ثم أوفد مبعوثا إلى اليمن ، ولا ندرى الأمر الذي من أجله أوفد
إليها ، وإن كان صاحب كتاب الفترات والقراءات يشير إلى أن الرشيد لم يكن

(٢) الخريدة ١٣٦ .

(١) الخريدة ٤٩ ب .

رشيداً في بعثته ، ولعل هذه إشارة إلى ما روى أن الرشيد قد قضاه اليمن ولقب
هناك « بقاضي قضاة اليمن وداعي دعاة الزمن » وأنه مكث هناك عامين ، فقبل إنه
مدح الأمير علي بن حاتم الهمداني بقصيدة منها :

لقد أجدبت أرض الصعيد وأقحطوا فلست أنال القحط في أرض قحطان
وقد كفت لي مارب بماربي فلست على أسوان يوماً بأسوان
وإن جهلت حق زعانف خندف فقد عرفت فضلي غطارف همدان

فخسده داعي عدن وكتب هذه الأبيات إلى مصر ، فكانت هذه الأبيات
سبباً في غضب أولى الأمر بمصر عليه ، كما غضب أولو الأمر بعدن ، فأخذ الرشيد
وحبس ثم صفح عنه . وقيل بل إن السبب غير ذلك ، وذلك أن نفسه سمت إلى
مرتبة الخلافة في اليمن فسعى فيها ، وأجابه قوم وسلم عليه بها ، وضربت له السكة
فنقش على وجهه « قل هو الله أحد ، الله الصمد » وعلى الوجه الآخر : « الإمام
الأبجد أبو الحسن أحمد » فقبض عليه وأرسل إلى مصر مكبلاً ، ثم أفرج عنه .
ولعل الرواية الأولى أصح من الثانية ، فإن الرشيد وقد علمنا ما كان عليه من علم
وعقل لا يبلغ به الأمر إلى أن يدعى الإمامة في الوقت الذي أنكرت فيه إمامة الحافظ
والفائز والظافر والعاقد ، ودعى فيه للإمام المستور ولقائم القيامة ، ثم إن
مركز الدعوة للإمام المستور انتقل من مصر إلى اليمن منذ مقتل الأمر بأحكام
الله ، فكيف يدعى الرشيد الإمامة في اليمن ، وجميعهم يعرفون شروط الإمامة
وأهمها أن يكون الإمام من نسل النبي ، وأن يكون الإمام قبله قد نص عليه ،
ولعل القائم بأمر مصر في ذلك الوقت لم يكونوا من الغباء والبله لدرجة العفو
عن مثل هذا الرجل الدعي ، ولا سيما في إبان حكم الملك الصالح طلائع بن رزيق
وقد عرفناه من أشد وزراء ذلك العصر تعصباً للمذهب والإمامة ، لهذا كله
أرى أن الرشيد إنما أمسك وسجن بسبب حقد داعي عدن عليه . وقد رأينا
قصيدة أخيه المهنذ التي أرسل بها إلى داعي اليمن حينما قبض على الرشيد ، فلم
نجد في هذه القصيدة إشارة إلى ادعاء الرشيد الخلافة ، وقد علم الرشيد بأمر هذه
القصيدة ، فأجاب أخاه بقصيدة هي :

ياربع ، أين ترى الأحبة يمموا رحلوا ، فلا خلت المنازل منهم
وسروا ، وقد كتموا الغداة مسيرهم وضياء نور الشمس بما لا يكتم

وتبدلوا أرض العقيق من الحمي
نزلوا العذيب ، وإنما في مهجتي
ما ضرهم ، لو ودعوا من أودعوا
هم في الحشا إن أعرقوا أو أشأموا
وهم مجال الفكر من قلبي وإن
أحبابنا ، ما كان أعظم هجركم
غبتم فلا والله ما طرق السكرى
وزعتم أنى صبور بعدكم
وإذا سئلت بمن أهيم صبابة
النازلين بمهجتي وبمقلتي
لا ذنب لي في البعد أعرفه سوى
فأقت حين ظعتم وعدلت لما جرتم
يا محرقا قلبي بنار صدودهم
أسعرتم فيه هيب صبابة
يا ساكني أرض العذيب سقيتم
بعدت منازلكم وشط مزاركم
لا لوم للأحباب فيما قد جنوا
أحباب قلبي أعمروه بذكركم
واستخبروا ريح الصبا تخبركم
كم تظلمونا قادرين ، وما لنا
ورحلتكم ، وبعدتكم ، وظلمتم
هيئات لا أسلوبكم أبداً وهل
وأنا الذي واصلت حين قطعتم
جار الزمان على لما جرتم
وغدوت بعد فراقكم وكأنني
ونزلت مقهور الفؤاد بيلدة
في معشر خلقوا شخوص بهائم

روت جفوني أى أرض يمموا
نزلوا ، وفي قلب المتيم خيموا
نار الغرام ، وسلهوا من أسلوا
أو أيمنوا أو أنجدوا أو أتهموا
بعد المزار فصفو عيشي معهم
عندي ، ولكن التفرق أعظم
جفني ولكن سح بعدكم الدم
هيئات لا لقيتم ما قلت
قلت : الذين هم الذين هم هم
وسط السويداء والسواد الأكرم
أنى حفظت العهد لما ختمت
لما جرتم وسهدت لما نتمت
رفقا ففيه نار شوق تضرم
لا تنطفي إلا بتقرب منكم
دمعي إذا ضن الغمام المرزم
وعهودكم محفوظة منذ غبتم
حكمتهم في مهجتي فتحكموا
فلطالما حفظ الوداد المسلم
عن بعض ما يلقى الفؤاد المغرم
جرم ولا سبب ، لمن تنظلم
ونأيتم ، وقطعتم ، وهجرتم
يسلو عن البيت الحرام المحرم
وحفظت أسباب الهوى إذ ختمت
ظلمنا ، ومال الدهر لما ملتم
هدف يمر بجانيه الأسهم
قل الصديق بها وقل الدرهم
يصدأ بها فسكر اللبيب ويهيم

إن كورمو، لم يكرموا، أو علموا، لم يعلموا، أو خوطبوا لم يفهموا
لا تنفق الآداب عندهم ولا الإحسان يعرف في كثير منهم
صم عن المعروف حتى يسمعون هجر الكلام فيقدموا ويقدموا
فأله يغني عنهم، ويزيد في زهدى لهم، ويفك أسرى منهم (١)
فهذه القصيدة التي أجاب بها عن قصيدة أخيه، والتي قالها الرشيد وهو أسير
في اليمن، تؤيد ما ذهبنا إليه من أن قصة دعوته الإمامة لنفسه إنما هي قصة
موضوعية، فالرشيد لم يشر إليها ولم يعتذر عنها، وإنما يتحدث عن أعدائه الذين
لم يقدرُوا شعره، فلم تنفق الآداب عندهم، ولم يقدرُوا إحسانه إليهم، فهم
صم عن المعروف، وهم «شخص بهائم». فالرشيد لم يكن بالرجل الذي يطلب
الإمامة لنفسه، ثم يقول مثل هذا القول.

كان الرشيد كما وصفه ياقوت: على جلالته وفضله ومنزلاته من العلم والنسب
قبيح المنظر أسود الجلد جهم الوجه سمج الخلق ذائفة غليظة وأنف مبسوط
كخلقه الزنوج قصيرا (٢) فكان ذلك سببا في تهكم شعراء مصر به، فقد قيل: إن
الرشيد ولي على المطبخ، فقال الشريف الأخفش يخاطب الملك الصالح بن رزيك:

يولى على الشيء أشكاله فيصبح ههنا لهذا أخوا

أقام على المطبخ ابن الزبير فولى على المطبخ المطبخنا (٣)

وما يروى في ذلك أنه اجتمع ليلة عند الملك الصالح هو وجماعة من الشعراء
والفضلاء، فألقى الصالح مسألة في اللغة فلم يجب عنها بالصواب سوى الرشيد؛
فأعجب به الصالح، فقال الرشيد: ما سئلت قط عن مسألة إلا وجدتني أتوقد فهما.
فارتجل الشاعر ابن قادوس:

إن قلت: من نار خلقت، وفقت كل الناس فهما

قلنا: صدقت، فما الذى أطفأك حتى صرت فخا

وهجاه ابن قادوس مرة أخرى بقوله:

ياشبه لقمان بلا حكمة وخاسرا في العلم لا راسخا

سليخت أشعار الورى كلها فصرت تدعى الأسود السالخوا

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٦٢ .

(٢) الحريرة .

(٣) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥٨ .

وتروى عنه قصة هي أشبه بقصة الجاحظ مع المرأة التي أرادت نقش صورة
الشيطان على الخاتم. ولعل سواده ودمامته وقصره كانت من الأسباب التي جعلته
يكثر من ذم الدهر والناس ، وأن يظهر في شعره سمة حزن لعدم وفاء الإخوان
وغدرهم به ، فقد أنشد وهو في اليمن :

لئن خاب ظني في رحابك بعد ما ظننت بأني قد ظفرت بمنصف
فإنك قد قلدتني كل منة ملسكت بها شكري لدى كل موقف
لأنك حذرتني كل صاحب وأعلمتني أن ليس في الأرض من يفي (١)
وأنشد مرة أخرى وهو في مصر :

تواصى على ظلي الأنام بأسرهم وأظلم من لافيت أهلي وجيراني
لكل امرئ شيطان جن يكيد بسوءه ولي دون الوري ألف شيطان (٢)
اتصل الرشيد بن الزبير بآل رزيك ثم بالوزير شاور وابنه، وولى سنة ٥٥٩هـ
النظر على الدواوين السلطانية بالإسكندرية ، ثم اتصل بصلاح الدين الأيوبي
أثناء محاصرته بالإسكندرية ، فكان ذلك سبب غضب شاور عليه ، فاختم الرشيد
بالإسكندرية ، وفي أيام اختفائه أرسل إليه ابن قلاقس هذه الأبيات :

تدائيت دارا والوصول نسوع فخلك ذو الود الوصول قطوع
حجبت ولم تحجب محاسنك التي تأتق منها يا غمام ربيع
وضيعت في صون فضعت وهكذا يضان فتيت المسك وهو يצוע
وإنك والبيت الذي قد عمرته لسكالقلب قد ضمت عليه ضلوع
وما أنت إلا العضب لازم جفنه لينضى بكيف إذ يروق يروع
سيفتق عن زهر بديع كإمه فما ذاك من صنع الإله بديع
وتسفر عن صبح شريق دجنة ولا سيما قد كان منه طلوع
كأنى بها يا بن الكرام مغيرة لها فوق هاتيك الربوع ربوع
بحيث تريك البر كالبحر ذبل وبيض وبيض أشرفت ودروع
وفرسان حرب لا البعيد عليهم بعيد ولا العالی الرفيع رفيع
بذلك لا تعجب ، فإنى قائل وإنك في الشهر الأصم سميع (٣)

(٢) المصدر نفسه

(١) الحريرة ورقة ٣٦ ب

(٣) ديوان ابن قلاقس ص ٦٥

وظل الرشيد محتفياً إلى أن قبض عليه وأشهر على جمل وعلى رأسه طرطور
ووراءه من ينال منه ، فكان الرشيد ينشد وهو على هذه الحال :
إن كان عندك يا زمان بقية مما تهين به الكرام فهاهما
ثم صلب شنقا ودفن حيث شئت . ومن غريب الاتفاق أن يدفن شاور بعد
أيام قليلة في نفس المكان الذي دفن فيه الرشيد . ورث الجليل بن الحباب صديقه
الرشيد بقوله :

ثروة المكرمات بعدك فقر ومحل العلا بعدك فقر
بك تجلى إذا حللت الدياجي وتمر الأيام حيث تمر
أذنب الدهر في مسيرك ذنبا ليس منه سوى إياك عذر (١)

القاضي الجليل :

هو أبو المعالي عبد العزيز بن الحسين بن الحباب المعروف بالقاضي
الجليل السعدي ولقب بأمين الدين (٢) ، وهو أحد الشعراء الثلاثة الذين كان يقصد
بهم عمارة النبي في مدح الملك الصالح طلائع بن رزيك ، والاثنان الآخران هما
ابنا الزبير المهذب والرشيد ، ولكن يخيّل إلى أن الجليل كان أقل الثلاثة جودة
في الشعر ، وأقلهم إنتاجاً في القريض . وربما كان عمله في ديوان الإنشاء مع
الموفق بن الخلال أيام القائم (٣) ، جعله لا يهتم بالشعر اهتمام زميليه ابني الزبير ،
وقد رأينا كيف كانت قصيدته في استدعاء الملك الصالح من الصعيد للأخذ بثأر
الحليفة الظافر ، والقدماء يذكرون أن الجليل له المعاني المبذعة في شعره ، ومثوا
لذلك بقوله :

ومن عجب أن الصوارم في الوغى تحيض بأيدي القوم وهي ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم تأجج ناراً والأكف بحور (٤)

ولا أدري ما الذي أعجب القدماء في هذه الصورة التي أتى بها في البيت الأول ،
فإني لا أعجب بها كما أعجب القدماء ، وإن كنت أعجب بالبيت الثاني . ومن مقطوعاته
التي حفظت لنا قوله يتحكم بطبيب :

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٥١ .

(٢) مسالك الأبصار لابن فضل الله ج ١٢ ص ٢١٨٧ نسخة حطية بدار الكتب المصرية

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨ (٤) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٣٧١

وأصل بليتي من قد غزاني
طيبب طبه كغراب بين
أتى الحى وقد شاخت وباخت
ودبرها بتدبير لطيف
وكانت نوبة فى كل يوم
سم قوله فى مدح طيبب :

يا وارثا عن أب وجد
وحاملا رد كل نفس
أقسم لو قد طببت دهرها
فضيلة الطب والساد
همت عن الجسم بالبعاد
لعاد كونا بلا فساد (٢)

وكان الجليس من كبار رجال الدولة ، ولقب بالجليس لانه كان جليس الخلفاء
مقربا إليهم ، فلا غرو أن رأينا شعراء عصره يلوذون به ويفشدونه مدائحهم فيه ،
فقد مدحه ابن قلاقس بعدة قصائد منها قوله :

عفا طربى إلى عافى الرسوم
وكنت أبا المنازل والفيافى
أميل إلى سلافة بنت كرم
هدتنا للسرور نجوم راح
وكف الصبح يلقط ما تيدى
فإن توجت راحى كأس راح
ولما أقفرت أوكار وفرى
إلى القاضى الجليس استنجدتها
فقال لها لسان الدهر : هذا
تقسم بين شمس ضحى وبحر
وجلى ظلمتى خطب وجدب
وملك حاسديه فجاذبته
فلا روى الغمام ربى الغميم
فصرت أبا المدامة والتنديم
وأذنو من سوائف أم ريم
بها قذفت شياطين المهوم
بجيد الليل من درر النجوم
فشرب الإثم أولى بالأنيم
عمرت بعزمتى أكوار كوى
أزمة نجدة وحدات خيم
تمام الفضل أودع فى تميم
هداية قاصد وغنى عديم
برأى مجرب وندى عميم
خلائقه إلى الطبع الكريم

(٢) المصدر نفسه

(١) فوات الوفيات ج ١ ص ٣٧٨

(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٢٦

عجبت لوجهه وراحته سنا شمس تبدى في غيوم
ومطلب مداه كبا فقلنا أليم العيش أولى بالثيم
وقافية أهن بها إذا ما نطقت معاطف الطرب الرميم
تسير وإن أقام بها ثناه وأعجب ما ترى سفر المقيم (١)

ومدحه رضى الدولة أبو سليمان داود بن مقدم الذى أنشد قصيدة في وصف
حاله ومدح فيها الجليس ، ومنها :

وقد بكرت تلوم على خمولى كأن الرزق يجلبه خيالى
تقدر أنى بالحرص أحوى الـ ثراء وذاكم عين المحال
تقول إذا رأيت إرشاد قولى هببت ألا تهب إلى المعالى
ومن لم يعشق الدنيا قديما ولكن لا سبيل إلى الوصال
ولو أدليت دلوك فى دلاء متحت به من الماء الزلال
وكم أدليت من دلو ولكن بلا بلبل يرد على قذالى
ولا أنا بالكفاف الزرراض ولا أنا عن طلاب الكثر سال
ولكن ذاك من قبل اعتمادى على عبد العزيز أبى المعالى (٢)

كما مدحه الشاعر عمارة اليمى بعدة قصائد .

ولكن الشاعر أبا القاسم هبة الله بن البدر المعروف بابن الصياد كان مولعا
بهجاء القاضى الجليس ، كثير التهمك بأنفه الكبير ، حتى قيل إن ابن الصياد أنشد
أكثر من ألف مقطوعة فى أنف الجليس (٣) ، إلى أن انتصر له الشاعر أبو الفتح
ابن قادوس الذى هجا ابن الصياد بقوله :

يا من يعيب أنوفنا الشـم التى ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب (٤)

وتوفى الجليس سنة ٥٦١ هـ قبل المهذب بن الزبير بشهر واحد ، وقيل إنه
لما مات ابن الحباب شمت به المهذب ومشى فى جنازته بشباب مذهبة فاستقيح الناس

(٢) الحريرة ورقة ٩٩ بيب

(٤) المصدر نفسه

(١) ديوان ابن فلاقس ص ١٠٠

(٣) فوات الوفيات ج ١ ص ٧

فعله ونقص بهذا السبب^(١) ، ورثى الجليس عدد من الشعراء منهم ابن قلاقس ،
فمن قوله يرثى الجليس ويمدح ابنه :

علمنا ، وقد مات السكال ، التساويا
وقتنا نرجى في المصاب مواسيا
ومما شجا أن المعالي تجددت
سألت ، فقالوا مصرع لو علمته
فحين احتوت كف المنون على المنى
ومن يسأل الركبان عن كل غائب
ولما سرى بي نحوه الوجد قاعداً
وسيرت منها بالنوادى نواديا
وعضب جدال فذل الدهر حده
ونور هدى أسرى به خابط الهوى
لمنعاه قام الرعد بالجو نائحا
وأسبلت الظلماء نور غدائر
تخرمه الدهر المخاتل صائدا
ولو رامه شاكى السلاح محسدا
وهيات جر الدهر من قبل «جرهما»
وكدر ندماني «جذيمة» بعد ما
جليس أمير المؤمنين أقمها
وقد كنت أجلوها عليك تهانئا
ولولا سليلك اللذان توارثا
هما ألبساني عنك ثوب تصبر
سقى الرايح الغادى ضريحك صوبه
ولا برحت فيك القلوب عقيرة

فيا حسنات الدهر عدن مساويا
فأعوزنا لما عدمنا موازيا
ولم تنتصر فيها الحكاة العواليا
فأيقنت لسكنى خدعت فؤاديا
تقلص عن يأسى جناح رجائيا
فلا بد أن يلقى بشيرا وناعيا
ولم أستطع عقرا عقرت القوافيا
شوائد بالذكر الجميل شواديا
وما كان إلا قاضب الحد قاضيا
فلما خبت أضواؤه عاش عاشيا
وبالبرق ملطوما وبالغيث باكيا
إلى أن أشاب الصبح منها النواصيا
تخلف حتى الرى فى الماء صاديا
لراح كما لا يشتهى عنه شاكيا
وشد على «عاد» و«شداد» عاديا
أقاما زمانا يشربان التصافيا
لفقدك فاسمع صالحات بواقيا
فوا أسفاً كيف استحالت تعازيا
حلاك ملأت الخافقين مرثيا
وأعلاق قلبي باقيات كما هيا
وإن كان يسقى الرأحات الغواديا
تسيل بأسراب الدماء المأقيا^(٢)

(١) المصدر نفسه ص ١٢٤ .

(٢) ديوان ابن قلاقس ص ١١٥ .

عمارة اليمنى

هو الشاعر الذي يقرن اسمه بأسماء فحول شعراء العصر الفاطمي ، بالرغم من أنه لم يكن مصريا ، ولكنه وفد على مصر في ربيع الأول سنة ٥٥٠ هـ برسالة من أمير مكة قاسم بن هاشم ، فأدخل عمارة قاعة الذهب بقصر الخليفة ، وأنشد قصيدته التي مطلعها :

الحمد للعيس بعهد العزم والهمم حمدا يقوم بما أولت من النعم
فأعجب الخليفة الفائز ووزيره الملك الصالح ورجال القصر بقصيدته ، فأغدقوا على الشاعر نعمهم وعطاياهم ، فأمر الوزير بأن يحضر عمارة مجلسه الذي يضم كبار رجال الأدب والعلم بمصر أمثال الجليلي وابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء وابن قادوس والمهذب بن الزبير وغيرهم ، ومكث عمارة بمصر حتى شوال سنة ٥٥٠ هـ ثم عاد إلى مكة ومنها رحل في صفر سنة ٥٥١ هـ إلى وطنه الأصلي اليمن ، وفي هذه السنة ذهب لتأدية فريضة الحج ، فطلب منه أمير مكة أن يسفر بينه وبين الملك الصالح مرة أخرى ، فجاء إلى مصر حيث أمضى ما بقي من سني حياته .
اتصل عمارة بمصر بالأحداث التي مرت عليها منذ وزارة الملك الصالح طلائع ابن زريك حتى انقرضت الدولة الفاطمية ، لصلته الوثيقة برجال الدولة إبان هذه الحقبة من الزمان ، ويعد شعر عمارة من السجلات والوثائق التي تطلعنا على تاريخ مصر إبان هذه السنوات المضطربة التي أدت إلى زوال الدولة الفاطمية ، فإن الجزء الذي بقي لنا من شعر عمارة يدل على أنه أنشد في كل حادثة ألمت بمصر في هذه السنين ، فقد كان يمدح الوزراء الذين كان يمدحهم مقاليد الأمور ، وكان يمدح الأمراء الذين هم كبار رجال الدولة ، فوجد من الحوادث مناسبات لهذه المدائح ، كما أنه وجد منها مادة لسكتابه «النسك العصرية في أخبار الوزراء المصرية» وهو أوثق المصادر عن تاريخ هذه الأيام من أيام مصر الفاطمية ، كما أنه شارك شعراء مصر في الإشادة بالأعياد المصرية وأيام المواسم . ونحن نعلم أن عمارة كان سني المذهب ، بل كان متعصبا لمذهبه ، ولم يتحول عن هذا المذهب بالرغم من محاولة الوزراء والأمراء معه لكي يعتنق مذهب الفاطميين ، ومع ذلك كله فإن عمارة تأثر بما كان يجري في مصر ، وأسهم مع غيره من شعراء مصر في الإشادة ببعقائد الفاطميين ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما قبل . ونستشهد الآن بقصيدته

النونية التي قالها في رثاء أهل البيت في عاشوراء ، وضمنها مدحا للملك الصالح ، وهي القصيدة التي أولها :

شأن الغرام أجل أن يلحاني
أنا ذلك الصب الذي قطعت به
ملئت زجاجة صدره بضميره
غدرت بموثقها الدموع فقادرت
عنفت أجفاني فقام بعذرها
وفيها يقول عمارة :

يا صاحبي وفي مجانبه الهوى
قبضت على كف الصبا بسلوة
أمسى وقلبي بين صبر خاذل
قد سهلت حزن الكلام لنادب
فابذل مشايعة اللسان ونصره
واجعل حديث بني الوصي وظالمهم
غصبت أمية إرث آل « محمد »
وغدت تخالف في الخلافة أهلها
لم تقتنع أحلامها بركوبها
وقعودهم في رتبة نبوية
حتى أضافوا بعد ذلك أنهم
فأنى « زياد » في القبيح زيادة
حرب بنو « حرب » أقاموا سوقها
لحقى على نفر الذين أكفهم
أشلائهم مزق بكل ننية
مالت عليهم بالتماليء أمة
دفعوا عن الحق الذي شهدت لهم
ما كان أولاهم به لو أيدوا

رأى الرشاد فما الذي تريان
تمهى النهى عن طاعة العصيان
وتجلد قاص وهم دان
آل الرسول نواعب الأحزان
إن فات نصر مهند وسنان
تشبيب شكوى الدهر والخذلان
سفها وشتت غارة الشنآن
وتقابل البرهان بالبهتان
ظهر النفاق وغارب العدوان
لم يبنها لهم « أبو سفيان »
أخذوا بثأر الكفر في الإيمان
تركت « يزيد » يزيد في النقصان
وتشبهت بهم بنو « مروان »
غيث الورى ومعونة اللهقان
وجسومهم صرعى بكل مكان
باعت جزيل الربح بالخسران
بالنص فيه شواهد القرآن
بالصالح المختار من « غسان »

أنساهم المختار صدق ولاته كم أول أربى عليه الثاني (١)
فهذه القصيدة من شعر عمارة تدل على أن الشاعر جرى القوم في عاداتهم ،
وفي أشعارهم ، فهو لم يتشيع ، ولكنه لم يستطع أن يتخلف عن غيره من شعراء
مصر في رثاء أهل البيت في أيام ماتمهم ، وشارك المصريين في احتفالاتهم ، فله
عدة قصائد في كسر الخليج ، من ذلك ما أنشده سنة تسع وخمسين وخمسمائة
في مدح العاضد :

سجودا فهذا صاحب الركن والحجر ووارث علم النمل والنحل والحجر
وفيها يقول :

تمل أمير المؤمنين مواسما	تزورك من صوم شريف ومن فطر
يوصلها سعد بجدك مقبل	فعام إلى عام وشهر إلى شهر
ركبت إلى كسر الخليج وإنما	ركبت إلى جبر الرعايا من الكسر
ولما رأيت البر بحرا من الظبا	تعجبت من بحر يسير إلى نهر
غدوت بفتح السد في زحف أرعن	يسد هبوب الريح بالأسل السمر
يرد ظلام النقع فإرا كأنما	أسنته مطبوعة بسنا الفجر
كأن على البيداء منه صحيفة	كتائبها سطر يضاف إلى سطر
إذا خفقت أعلامه وبنوده	رأيت عليها غرة العز والنصر
وقد خلع التأييد فوقك حلة	تطرز بالإحسان والعدل والبر
أوارث مجد الحافظ بن محمد	وحافظ حكم الله في محكم الذكر
إذا ما استجاب الله صالح دعوة	فتعك الرحمن بالناصر الذخر (٢)

وهكذا اضطر هذا الشاعر السني إلى أن يتأثر بما كان في مصر في العصر
الفاطمي ، وأن يتأثر بعقائد الفاطميين فأكثر منها في شعره ، بل بلغ به تأثره
بالفاطميين إلى أن يرثيهم ويثني عليهم في الوقت الذي تخلى عنهم جميع المصريين
وشتم بهم أعداؤهم العباسيون وجمهور أهل السنة ، فعجزة النبي السني المذهب
كان وفيها لهم الوفاء كله ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

رمت يا دهر كف المجد بالشلل وجيده بعد حسن الخلي بالعطل
وفيها يقول ، بعد أن وصف أيامهم وذكر أعيادهم ومنشآتهم :

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم
ولا سقى الماء من حر ومن ظمأ
ولا رأى جنة الله التي خلقت
أمتي وهداتي والذخيرة لي
تالله لم أوفهم في المدح حقهم
ولو تضاعفت الأقوال واتسعت
باب النجاة هم دنيا وآخرة
نور الهدى ومصايح الدجى ومحل
أمة خلقوا نورا فنورهم
والله ما زلت عن حبي لهم أبدا

ولا نجا من عذاب الله غير ولي
من كف خير البرايا خاتم الرسل
من خان عهد الإمام العاضد بن علي
إذا ارتهنت بما قدمت من عملي
لأن فضلهم كالوابل الهطل
ما كنت فيهم بحمد الله بالخجل
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
الغيث إن ربنا الأنواء في المحل
من محض خالص نور الله لم يغل
ما أحر الله لي في مدة الأجل (١)

فكانت هذه القصيدة ، وما قيل من أنه اشترك مع نفر من الأوفياء للفاطميين
لإعادة ملكهم بتولية ابن العاضد سببا في القبض عليه معهم وصلبه سنة تسع
وستين وخمسمائة ، واتهمه الفقهاء بالكفر ، وقال فيه تاج الدين السكندی الشاعر :

عمارة في الإسلام أبدى خيانة
فأسمى شريك الشرك في بغض أحمد
وكان خبيث الملتقى إن عجمته
سيلقى غدا ما كان يسعى لأجله
وبايح فيها بيعه وصليبا
فأصبح في حب الصليب صليبا
تجد منه عودة في النفاق صليبا
ويسقى صديدا في لظى وصليبا (٢)

وهكذا أصاب عمارة ما أصاب الفاطميين الذين حبوه بأموالهم وعطايهم
وأكرموا الإكرام كله ، فقابل ذلك كله بوفاء الوفي الأمين .

ابن قلاق :

أبو الفتح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن علي بن عبد القوي بن قلاقس
النجفي الاسكندري ، ولقب بالقاضي الاعز ، ولد بالاسكندرية سنة ٥٣٢ هـ .
وبها نشأ وتثقف فأخذ عن الحافظ أبي طاهر السلفي وعن غيره ، ثم رحل عن
مصر إلى اليمن فدخل عدن سنة ٥٦٣ هـ متسكيا بشعره فمدح بها ياسر بن بلال ،
ثم سافر إلى صقلية سنة ٥٦٥ هـ ، ومدح بها القائد أبا القاسم بن الحجر ، وصنف
باسمه كتابا سماه « الزهر الباسم في أوصاف أبي القاسم » وشاء العودة إلى مصر

توفي بعيداب سنة ٥٦٧ هـ^(١). فالشاعر كان يتجر بشعره ويرحل إلى الممدوحين
بقصد الكسب، مع أنه اتصل ببعض رجالات مصر وأخذ نوالهم. مدح الخليفة
الفاطمي بقوله:

في مرتقى الوحي تعلقو مرتقى الأمل فافسح رجاءك واطلب فسحة الأجل
لا تنتجع للأمانى بعده دولا فقد تأملت منه واهب الدول
وانظر إلى صفوة الخلق التي ظهرت للناس أيامه عن صفوة الرسل
لو عاد ينطح ذو القرنين صخرته لعاد واهي قرون الرأس كالوعل^(٢)
ومدح الوزير شاور، وعرض بشيركوه بقوله:

عارض الصفح في يديك الصفاحا ورأى البأس أن تطيع السماحا
فرفعت الجناح عن جارم الذ نب بعضو خفضت منه الجناحا
ووضعت السلاح حين أراك ال عزم والرأى إن وضعت السلاحا
أى ثغر سما إليه أبو الفة ح فلم يتندر إليه افتتاحا
بخيول طارت بأجنحة النص ر فراحت بها تبارى الرياحا
وكأه غر قد اقتطعوا الليه ل وساقوه في العجاج صباحا
ورماح تجنى فتجنك في الحر ب شقيقا ما كان قبل أفاحا
وظي تقطع الترائب مهما ألقحت بالضراب حبا لقاحا
شاركت شيركوه في النفس والما ل وصاحت به فصاحا فصاحا
طلب الأمن فاستجيب وما يع رف منك الطلاب إلا النجاجا
بعد ما ضيق الخمام عليه سنبلا غودرت لديه فساحا
وأقامته كالجدور حماة ضربت بالقنا عليه القداحا
فليطل بعدها الفخار ففقد را ح طليقا ليصنكم حيث راحا
يا معل الظبا البواتر ضربا ترك المجد والمعالي صحاحا
فيك لله والخليفة سر أوضاه لمبصر إيضاحا
ذاك أعطاك آية النصر تصر يحا وهذا أعطاك ملكا صراحا^(٣)

(١) راجع معجم الأدباء ج ١٩ ص ٢٢٦ وابن خلكان ج ٢ ص ١٥٦

(٢) ديوان ابن قلاؤس ص ٨٨

(٣) ديوان ابن قلاؤس ص ٢٥

ومدح الكامل بن شاور والقاضي الجليلي والقاضي بن خليف والحافظ
السلفي وابن مصال والقاضي الفاضل وغيرهم من رجال مصر ، فمن مدائح الكامل
ابن شاور قوله :

من بعد ذم غدوه ورواحه	حمد السرى من كنت وجه صباحه
من حسن رأيك فيه ظل جناحه	ورأى النجاح مؤمل ألحقته
لقد انبرى والصفح تلو صفاحه	وأما وعزمك وهو أنهض فاتك
لقد اغتدى والعز من أرباحه	وبديع مدحك وهو أيق متجر
متقلد بنجاحه ووشاحه	فالدهر بين فريده وفرده
وندى تبسم في ثغور أفاقه	بأس تورده في حدود شقيقه
بدر جلا الإسماء عن إصباحه	والكامل المسعود في آفاقه
فاستخدمتها في رهوس رباحه	بمناقب سمت النجوم لنيلها
فاستغرقته في بحور سماحه	ومواهب عان السحاب معينها
للملك كالأرواح في أشباحه	يا آل شاور أنتم دون الورى
وعلى أياديكم ثناء فصاحه	وإلى معاليكم إشارة خرسه
ونداك قوام بأمر لقاحه (١)	لم لا يكون الشكر عندك منتجا

ولكنه كان مولعا بالأسفار وركوب البحر ، ولذلك يقول :

والناس كثر ولكن لا يقدر لى إلا مرافقة الملاح والحادى (٢)
ويقول : فى مدح ياسر بن بلال الداعى بمدينة عدن ، وكان قد فارقه ،
ولكن سفينته غرقت فعاد إليه مرة أخرى ، وأنشده هذه القصيدة يصف فيها
غرقة ، ويتحدث عن ولعه بالأسفار :

سار الهلال فصار بدرا	سافر إذا ما شئت قدرا
طيبا ويخبت ما استقرا	والماء يكسب ما جرى
تبدلت بالبحر نحرا	وبنقطة الدرر النقى
فإن هما خلنا فهجرا	وصلا إذا امتلأت يدك
لما بدا ثم استسرا	فالبدر أنفق نوره
مهاد عيشك أن يقرا	حركات عيسك ما أردت

إما ترينى شاحب الـ ووجنات قد ألبست طمرا
فوقائع الأيام تخرج أهلها شعثا وغبرا
مدت إلى الأربعين يدا وقد قهقرت عشرا
واستحدثت فى لمتى نقطا فهلا كن حبرا
ما قلت أف فإنها شرر بأف يعود جبرا
وكفناك أنى إن نظر ت لها نظرت النجم ظهرا
كان الشباب الغض لى لا فاستنار الشيب فجرا
ولئن تقلب بي الزمان كما اشتهى بطنا وظهرا
فبما قتلت صروفه وقتلته جلدا وخبرا
غاض الوفاء وفاض ما الغدر أنهارا وغدرا
فانظر بعينك هل ترى عرفا، وليس تراه نكرا
خلق جرى من آدم فى نسله وهلم جبرا
ومروعى بالبحر يحسب أننى أرتاع بحرا
أوما درى أنى يتسهميل المصاعب منه أدرى
أعددت نظرة «ياسر» نحوى وسوف تعود يسرا
من صرف الأقدار فى أيامه كسرا وجبرا
واستخدم الأيام فى أحكامه نهيا وأمرا
وانتاشنى فى نظرة أولى سيتبعها بأخرى
فالسحب ترشح إذ جرت فى إثره بالجهد قطرا
والرعد رجع جاهدا أنفاسه تعبنا وبهرا
غرس الصنائع فى الرقاب فأنبتت حمدا وشكرا
يقظان إن نهته عمرا أو استنجدت عمرا
ولرب طرة معرك سوداء أعدته طرا
أمرى إلى أبطالها فأبادهم قتلى وأسرى
من كل مئسج على نهر الدلاص الرعف نهرا
جروا الذوائب والذوا بل خلفهم بيضا وسمرا
فالسيف يقرع بينهم بثقيفه، والضيف يقرى

ياراويا عن شخصه خبرا ولم يعرفه خبرا
والثم بنان يمينه وقل السلام عليك بحرا
وغلظت في تشبيها بالبحر ، اللهم غفرا
أو لست نلت بذا ندى جما ، ونلت بذاك فقرا
بنوافذ ترنو الريا ح لها بطرف الحقد شزرا
لا زال ينظر عودها بنداه لدن المتن نضرا^(١)

وهذا الشاعر الرحالة كان يميل إلى الإكثار من المحسنات البديعية في شعره ،
بخلاف بعض الشعراء الذين عاصروه أمثال المهذب والرشيذ والجليلس وغيرهم ،
وإن كان هؤلاء الشعراء قد ألموا بالمحسنات البديعية ، ولكنهم لم يتعمدوها كما
تعمدها ابن قلاؤس الذي كان يجهد نفسه على ما يظهر لنا في الإتيان بهذه المقابلات
والتوريات وغيرها من ألوان الزينة اللفظية .

* * *

من هذا الفصل نستطيع أن ندرك كيف كان للوزراء أثر في حياة الشعر ،
في العصر الفاطمي ، وكيف اجتمع الشعراء حول الوزراء يمدحونهم ويأخذون
عطاياهم ، أسوة بما كان يحدث لدى الخلفاء أنفسهم إبان سطوتهم وقوة ملكهم ،
ونحن نأسف أن يضيع أكثر شعر هؤلاء الشعراء ، فلم يصلنا منه إلا هذه القطع
المتفرقة أو القصائد الناقصة ، ومع ذلك فالذي بقي لنا من الشعر يدلنا على أن
نهضة الشعر كانت قوية ، وأن تياره كان جارفا ، وأن عدد الشعراء المجيدين
تضاعف بحيث يخيل إلينا أن كل مثقف في ذلك العصر كان ينشد الشعر ، وأن
كتاب الدواوين والقضاة كانوا من الشعراء ، ويكفي أن نلقى نظرة على مجاميع
الشعر ، أمثال اليتيمة والدمية والخريدة ، أو كتب التراجم ، لندرك أن عدداً كبيراً
جداً من المصريين أنشد الشعر ، وأن الشعر كان من الجودة بحيث استطاعت مصر
أن تبرز غيرها في مضمار القريض .

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٥٧ ودبوان ابن قلاؤس ص ٣٨ .

الفصل الرابع

الشعر والحروب الصليبية

يخيل لكل من يقرأ تاريخ الفاطميين في مصر أن مصر في هذا العهد كان يسودها الأمن ، وأن المصريين كانوا يعيشون في دعة ولين ، ألم يتحدث المؤرخون عن النعيم الذي كان في العصر الفاطمي ، والترف الذي كان يرفل فيه المصريون ، والحياة الناعمة اللينة التي كان يحياها الناس ؟ ولسكن المؤرخين أنفسهم تحدثوا أيضا عن لون آخر من الحياة ، هي حياة الاضطرابات والحروب الكثيرة التي كان يشنها أعداء الفاطميين على بلادهم وممتلكاتهم منذ أقام الفاطميون دولتهم في شمال إفريقيا ، فقد كان أعداؤهم يحيطون بممتلكاتهم من كل جانب، ويتحينون الفرص للإيقاع بهذه الدولة الفاطمية التي قامت لتشل عرش العباسيين في المشرق والأمويين في المغرب ، كما كان أمام الفاطميين عدو المسلمين العتيد — أعني الروم — ودول جنوب أوروبا التي كان يهددها الفاطميون من صقلية ومستعمراتهم في إيطاليا ، حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة رأينا الفاطميين يشتبكون في حروب صعبة المراس ، هي التي عرفت في التاريخ بالحروب الصليبية . أضف إلى ذلك كله ما ذكره المؤرخون أيضا من قيام خوارج على الدولة الفاطمية في مصر وفي ممتلكاتها ، وحروب بين الأمراء لتولى الوزارة . فكل هذه الاضطرابات والحروب اضطلعت بها مصر بعد أن أصبحت عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ، وسجل الشعراء هذه الحروب في أشعارهم ومدائحهم ، فالأمير تميم مدح أخاه الإمام العزيز بالله عندما هزم هفتكين الشراي التركي — مولى معز الدولة البويهى — في دمشق، ثم طلب العفو من العزيز ، فوصف تميم هذا الحادث بقوله :

ولسنا نراع إذا ما سطا	وإنا لتقوم نروع الزمان
به عاد سيف الهدى منتضى	ومنا الإمام العزيز الذي
بها الحرب نزاعة للشوى	سعى للشام وقد أصبحت

وقوم من زيغها ما التوى
وعاد كجئح الظلام الضحى
هلم ، ولا من يجيب : أنا
وصلت لبيض السيوف الطلى
غناء يعيد الفرادى ثنى
ل بها الخيل فى النقع قب السكلا
تداركها وهى لا تصطلى
وأمسك من سجله ما انهى
كصبح بدا طالعا فى الدجى
عبوس الحكمة به قد بدا
ولم يسكن الروح منه حشا
أسود رجال كأسد الشرى
لفدتك صارخة بالعدا
ولم تغمد السيف حتى انفرى
ولولاك ما خاب ذاك اللظى
بها الفارس الملك المتقى
وفدتك منهم ذوات اللبى
ولم يجدوا غيره ملتجا
عليه وأخلفه ما رجا
جيوشك واستوقفته الربا
لكنت له غافراً ما مضى
وليس الفقى كل يوم فى
وقد بلغ الماء أعلى الزبى
وإن كان فى بأسه المنتهى
فلما رآك غدا لا يرى
وقد ملئت مقلته عمى
على وقعات الدهور الألى

فكشفت من ليلها ما سجا
ولما تقابلت الجحفلان
ولم يبق فى الصف من قاتل :
وقد ولغت فى الصدور الرماح
وغنت على اللبى بيض الذكور
كأن الرماح سكارى تجو
فلولا الإمام العزيز الذى
فسكن عارض شؤبونها
بدا لهم دارعا فى العجاج
يكر ويبسم فى موقف
ولم يخذل السيف منه يدا
يقود إلى الحرب من جنده
فلو فدت الحرب قوما ، إذن
فلم تصدر الرمح حتى انثنى
ولم يحمل الموت حتى حملت
فما انفرجت عنك إلا وأنت
بجاءك منهم ملوك الرجال
ولاذوا بعفوك مستأمنين
ولما رأى فتحها هفتكين
تولى لينجو خفت به
ولو طلب العفو قبل الهروب
ولكنه اعتاد فيها الإباق
ورام الخلاص وكيف الخلاص
ولم يك كفؤك فى حربه
وقد هزم الأسد حتى انتهاك
فراح وحشو حشاه أسى
أريتهم وقعات تزيد

بيغداد من ذكره جولة تذود عن المارقين الكرى
فأنفس ديلها تغتدى وتسمى على مثل حجر الغضى
إذا سمعوا بالإمام العزيز أساءوا الظنون وحلوا الحبا
يخافون من بأسه وقعة تدور عليهم بقطب الرحي
ينسدى « بويه » بنيه بها ويندبهم وهو رهن البلي (١)

ونحن مضطرون إلى أن نترك هذه الحروب الكثيرة التي خاضها الفاطميون وأن نمر بالأشعار التي أنشدتها شعراؤهم في وصف تلك المعارك ، لتتحدث عن شعر الفاطميين في هذه الحروب الطاحنة التي شغلت العالم الإسلامي عدة قرون ، وكانت مصر هي الدولة الإسلامية الكبرى التي أوقفت مواردها ورجالها للذود عن البلاد الإسلامية وعن الدين الإسلامي ، ووقفت أمام مسيحي أوروبا تكافح وتناضل طوال هذه القرون ، حتى أدخلت اليأس في قلوب الأوربيين ، وجعلت آمالمهم وأحلامهم قصوراً بنيت في الهواء .

ظهرت الحرب الصليبية الأولى سنة ٤٠٤ هـ في عهد المستعلي ووزيره الأفضل ابن بدر الجمالي ، وليس لنا في هذا البحث أن نعرض لهذه الحروب الصليبية من الناحية التاريخية ، ونكتفي بأن نذكر أن الأفضل استهان بأمر هذه الحركة في أول الأمر ، ولم يدرك الأخطار التي نجمت عن تخاذله وتهاونه ، بيد أنه بدأ يدرك خطأ تقديره بعد أن استولى الصليبيون على أنطاكية ومعرة النعمان سنة ٤٩١ هـ وواصلوا زحفهم إلى بيت المقدس ، فأضطر حينئذ إلى أن يعيء جيوشه ويرسلها إلى فلسطين من طريق البحر والبر ، ولكن جيوشه هزمت أمام الصليبيين سنة ٤٩٢ هـ بجوار بيت المقدس ، واضطرت إلى الانسحاب إلى عسقلان ثم إلى العودة إلى مصر . على أن شعراء الأفضل ذكروا لنا أن سبب عودة هذه الجيوش المصرية لم يكن هزيمتها أمام الصليبيين ، بل سببها ثورة بعض الجنود على الأفضل وتآمرهم للفتك به ، ولعل قصيدة أمية بن أبي الصلت التي رويناها من قبل تدلنا على أن الشعراء أخذوا يعتذرون عن الأفضل وعن انهزامه في هذه الحرب الصليبية الأولى . وفي هذه القصيدة إشارة إلى مؤامرة الجنود ، كما أن الشاعر يصرح بأن وزير مصر هو الوحيد الذي قام بالذود عن الدين ونصرة

(١) ديوان الأمير تميم .

المسلمين ، على حين ظلت البلاد الإسلامية الأخرى لاهية عن هذا الخطر الذي
دهمهم ، فهو يقول :

جردت للدين ، والأسياف مغمدة سيفا تفل به الأحداث والغير
وبعد أن تحدث الشاعر عن شجاعة الأفضل وإقدامه في الحروب ، أخذ
في الاعتذار عن هزيمته ، وتوعد الصليبيين بعودة الأفضل إليهم والانتصار عليهم :

وإن هم نكصوا يوما ، فلا عجب قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العسود أحمد والأيام ضامنة عقبي النجاح ووعد الله ينتظر
وربما ساءت الأقدار ثم جرت بما يسرك ساعات لها آخر

ونقل المقرئ عن ابن الطوير أن الأفضل قصد استنقاذ الساحل من يد
الفرنج ، فوصل إلى عسقلان ، وزحف عليها بذلك العسكر ، فخذل من جهة عسكره ،
وهي نوبة النصبة ، وعلم أن السبب في ذلك من جنده ، وكان عند الفرنج شاعر
منتجع إليهم ، فقال يخاطب صنجل ملك الفرنج :

نصرت بسيفك دين المسيح فله درك من صنجل
وما سمع الناس فيما رووه بأقبح من كسرة الأفضل
فتوصل الأفضل إلى ذبح هذا الشاعر (١) .

وعاد الأفضل إليهم ، وكانت جيوشه تصاب بهزائم منكرة ، ولمكنه لم ييأس
من الظفر ، واضطربت أمور مصر من بعده حتى ولي الملك الصالح طلائع بن
رزيك ، فأخذ يرسل الجيوش المصرية لمحاربة الفرنج ، فكان ينتصر حيناً وينهزم حيناً
آخر ، وسجل شعراؤه هذه الحروب ، فمن ذلك قول شرف الدولة ابن جبر
أبو محمد يحيى بن حسن في إحدى المعارك التي خاضها ابن رزيك ضد الفرنج :

أطفي ابن رزيك لهيب ضرامه والبيض تخطب في الرءوس فتسمع
وكتائب للشرك كنت إزاءها متعرضا فانفض ذاك المجمع
ولكم صرعت من الفرنج سميدعا بلقائه لك قيل : أنت سميدع (٢)

وقال المهذب بن الزبير في حروب ابن رزيك ، ولم يذكر العماد الواقعة التي
كانت سبب هذه القصيدة ولا تاريخها :

وتلقى الدهر منه بليث غاب
تخال سيوفه إما انتضاها
وتحسب خيله عقبان دجن
إذا قدحمت بجنح الليل أورت
وإن صبحت مع الإصباح عدواً
كأن الشمس حين تثير نقعا
وما كشفت بدور الأفق إلا
وما اضطربت رماح الخط إلا
وما تندق يوم الروع حتى
عجبت لها تصافح من يديه
ويوردها ولا تحظى برى
وهل يشفى لها أبداً غليل
إذا لقيت عيون الروم زرقا
تخال البحر مد به خليج

غدت سمر الرماح له عرينا
جداول والرماح لها غصونا
يرحن مع الظلام ويغتمدنا
سنا يغشى عيون الناظرينا
أثارت للعجاج به دجوننا
تحاذر من سواه أن تيننا
أسى إذ ابصرت منه الجبيننا
مخافة أن يحطمها مبيننا
يدق بها الكواهل والمتونا
وتوصف بالظلم ، بحرأ معينا
نطافا من دروع الداريننا
وقد شربت دماء الكافريننا
حسبت نصالها تلك العيوننا
إذا ما مد بالقضب اليميننا (١)

ومرة أخرى ذكر العماد أن الملك الصالح أرسل أسطوله سنة ٥٥٣ هـ لحرب
الصليبيين، وانتصر الأسطول، فأشيد المهذب يمدح الصالح ويصف الأسطول. ومن
هذه القصيدة ندرك أن الواقعة كانت بالقرب من العريش :

أعلمت حين تجاوز الحيان
لما أبوا ما في الجفان قريتهم
وثلثت في يوم العريش عروشهم
أجأتهم للبحر لما أن جرى
مدح الورى بالباس إذ خضبوا الظبا
ولأنت تخضب كل بحر زاخر
حتى يرى دمهم وخضرة مائه
وكأن بحر الروم خلق وجهه
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما

أن القلوب مواعد اننيران
بصوارم سلت من الأجفان
بشبا ضراب صادق وطعان
منه ومن دمهم معا بحران
في يوم حربهم من الأقران
من تجاوز بالنتجيع القاني
كشقائق نثرت على الرياحان
وظفت عليه منابت المرجان
لم يأت في حين من الأحيان

أحبب إلى بها شواني أصبحت
شهن بالغريان في ألوانها
وقرتها عدد القتال فقد غدت
حرب عوان حكمتك من العدى
وأعدت رسل ابن القسيم إليه في
والفأل يشهد باسمه أن سوف يغ
وأراك من بعد الشهيد أبا له
وهو الذى مازال يفعل فى العدا
قتل البرنس ومن عساه أعانه
وأرى البرية حين عاد برأسه
فليهنه أن فاز منك بسيد

من فتسكها ولها العداة شواني
وفعلن فعل كواسر العقبان
فيها القنا عوضا من الأشطان
فى كل بكر عندهم وعوان
شعبان كيما يلازم الشعبان
دو الشام وهو عليكما قسبان
وجعلته من أقرب الإخوان
ما لم يكن ليعد فى الإمكان
لما عسا فى البغى والعدوان
مر الجنا يبدو على المران
أوفى برتبته على كيوان (١)

ولعل هذه القصيدة تبين لنا ناحية تاريخية هامة لم يذكرها المؤرخون فى كتبهم ، ولم يتحدث عنها المؤرخون من الغربيين ، تلك هى علاقة الملك الصالح ابن رزيك بنور الدين زنكى إبان الحروب الصليبية ، فالشاعر هنا يذكر نور الدين ، مرة يذكره (بابن القسيم) أى ابن قسيم الدولة أتاك زنكى ، ويذكره مرة ثانية باللقب الذى عرف به وهو (الشهيد) ، ويتحدث الشاعر عن الاتفاق الذى كان بين الملك الصالح وبين نور الدين ، ويقضى هذا الاتفاق على أن يواصل الحرب ضد الصليبيين حتى يتركوا الشام ، فتقسم حينئذ بين مصر ونور الدين ، هذا الاتفاق الذى أشار إليه المهذب فى هذه القصيدة لم يذكره أحد من المؤرخين ، ويغلب على ظنى أنه لولا هذه الصلة الوثيقة التى كانت بين الشاعر والملك الصالح لما استطاع الشاعر أن يعرف مثل هذا الاتفاق الذى كان بين العاهلين .

وفى عهد الملك الصالح طلائع بن رزيك ، كان الصليبيون يعمنون فى شن غاراتهم على حوران وما حولها من البلدان ، ووردت الأنباء بأن عسكر المصريين استولوا على عسقلان ، وقتلوا ما بها من عسكر الفرنج ، وسر المصريون بذلك الانتصار سرورا عظيما نلح أثره فى قصيدة الملك الصالح التى أرسلها إلى أسامة

(١) الخريدة ورقة ٤٠ وما بعدها .

ابن منقذ صاحب حصن شيزر وأحد الأمراء الذين كانوا يساعدون نور الدين
زنكي في حروبه ضد الصليبيين :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم
وتستنزل الأعداء من طول عزهم
وتغزي جيوش الكفر في عقردارها
ويوفي السكرام الناذرون بنذرهم
نذرنا مسير الجديش في صفر فما اذ
بعثناه من مصر إلى الشام قاطعا
فما هاله بعد الديار ولا ثنى
يبارى خيولا ما تزال كأنها
يسير بها «ضراغام» في كل مأزق
وواجههم جمع الفرنج بحملة
وما زالت الحرب العوان أشدها
وعادوا إلى حز السيوف فقطعت
فلم ينبج منهم يوم ذاك مخبر
فقولوا «لنورالدين» لا فل حده
تجهز إلى أرض العدو ولا تهن
فما مثلها تبدى احتفالا به ولا
فعندك من أطفاف ربك ما به
أعادك حيا بعد ما زعم الورى
بوقت أصاب الأرض ما قد أصابها
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر
فقم واشكر الله الكريم بنهضة
فنحن على ما قد عهدت نروعهم
وغاراتنا ليست تفتقر عنهم
فأسطولنا أضعاف ما كان سائرا

وتنضى لدى الحرب السيوف الصوارم
وليس سوى سمر الرماح سلام
ويوطا حماها والأنوف رواغم
وإن بذلت فيها النفوس السكرائم
ثنى حتى اثنى وهو غام
مفاوز وخذ العيس فيهن دائم
عزيمته جهد الظا والسائم
إذا هي ما انقضت نسور قشاعم
وما يصحب الضرغام إلا الضراغم
تهون على الشجعان فيها الهزائم
إذا ما تلاقى العسكر المتضاجم
رهوس وحزت للفرنج غلاصم
ولا قيل: هذا وحده اليوم سالم
ولا حكمت فيه الليالى الغواشم
وتظهر فتورا إن مضت منك (حارم)
يعض عليها للبلوك الأباهم
علمنا يقينا أنه بك راحم
بأنك قد لاقيت ما الله حاتم
وحلت بها تلك الدواهي العظام
فسيقت سبايا واستحلت محارم
إليهم فشكر الله للخلق لازم
ونحلف جهدا أننا لا نسالم
وليس ينبجى القوم منا الهزائم
إليهم فلا حصن لهم منه عاصم^(١)

ومرة أخرى يرسل الملك الصالح إلى أسامة :

يا سيدي اسمو بهم ته إلى الرتب العلية
أنت الصديق وإن بعد ت وصاحب الشيم الرضية
يهنيك أن جيوشنا فعلت فعال الجاهلية
سارت إلى الأعداء من أبطالها مائتا سرية
فتغير هذى بكرة وتعاود الأخرى عشية
فالويل منها للفرنج فقد لقوا جهد البلية
جاءت رهوسهم تلوح على رهوس السميرية (١)

وفي قصيدة للشاعر ابن الصياد حديث عن موقعة بين الملك الصالح والصليبيين وعن قتل مقدم خيل الفرنج الذي سماه ابن الصياد « بأرناط » واسمه الصحيح

« رينولد » Renauld .

قال ابن الصياد :

عن سيف دين الله سل « أرناط » حيث المنية كأسها يتعاطى
والمشرفية قد حكمت في جيشه في العل والنهل القطا الفراطا
قد سام طير الكفر منه منسرا أشغى وعاین مخلبا عطاطا
هو ملبس جيش العدا في الحرب من حبل النجيع مجامدا ورباطا
فيأده تشكو مزاحمة القنا وترد خرصان الرماح سباطا
هو فارس الإسلام يحفظ بالظبا من دينه الأطراف والأوساطا
كم قد أنار من الأسنة أنجا لما أثار من العجاج عطاطا
فتخاله ملكا رمى بشبابه في الروح شيطان الحروب نشاطا (٢)

ويحدثنا عمارة اليمني في النسكت أن في وزارة الملك الصالح غزا الصليبيون مصر ووصلوا إلى إقليم الحوف ، فأرسل الوزير الجيوش بقيادة ابنه العادل الناصر خلفهم ، وطاردهم إلى أي عروق من إقليم فلسطين ، وعاد بجيوشه منتصرا إلى بلبليس ، ففرق في الجيش مالا كثيرا ، وخلع على الأعيان . ويذكر عمارة أن له ولغيره من شعراء مصر شعرا في هذه الموقعة ، ولكن لم يصل إلينا من هذا الشعر إلا مقطوعة من قصيدة لعمارة منها قوله :

(١) الروضتين ج ١ ص ١١٦ . (٢) الخريدة ورقة ٦٧ .

أنت الذي يعقد الإسلام خنصره
متوج تشرق الدنيا بطلعته
عليه إن جل خطب أوطرا وطر
وتخجل الشمس مهمالاح والقمر
فللنوائب عن سكانه سفر
إذا أقامت على ثغر صوارمه
ومنها قوله :

أغاث أعمال «بليس» وأمنها
وحين أبلت عذرا في اللحاق بهم
وقال : عزمك لما أن ألح ولم
إن ينج منها «أبو نصر» ، فعن قدر
وعدت نحو مقر العزم في عصب
وللصوارم في أجفانها أسف
من بعد ما غالها الإشفاق والحذر
والنصر يقسم لا فاتوك والظفر
تلح له منهم عين ولا أثر
نجا وكم قدرة قد عاقها القدر
يفنى بها الأكران : الرمل والمطر
تكاد من حره الأجفان تستعر (١)

هذا الشاعر الذي مدح الوزير بانتصاره على الصليبيين يحدثنا أن ابن الوزير نجا من هذه الواقعة (عن قدر) ، فهذا البيت إنما يدل على أن الحرب بين الفريقين كانت عسيرة شاقة كاد يقتل فيها ابن الوزير ، ولكن القدر فقط هو الذي أنجاه من خطر محقق . ومع ذلك فقد وصلت إلينا قصيدة أخرى من شعر عمارة في مدح الملك الصالح ، وفيها ذكر لهذه الواقعة ، منها قوله :

تيقنت الإفرنج أنك إن ترد
وخافتك إن لم تعطها الأمن منعا
ديارهم لم ينتجهم منك مهرب
فجاءتك يا ليث الشرى تغلب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهم
ومن بعض ما أهدوا مجن ومقلب
وذلك فال صادق أن عزهم
بسيبك ياسيف الهدى سوف يسلب (٢)

وهذه الواقعة هي إحدى الغلطات الثلاث التي كان يعدها الصالح نفسه ، إذ يروي ابن خلكان أن ثالث هذه الغلطات خروج الملك الصالح إلى بلبليس بالعساكر ورجوعه بعد أن أنفق فيهم أكثر من مائتي ألف دينار ، حيث لم يتم زحفه إلى بلاد الشام ويفتح بيت المقدس ويستأصل شأفة الفرنج (٣) . وفي هذه الواقعة نفسها قال عمارة أيضا في مدح الملك الناصر بن الصالح :

(١) النكت ص ٥٤ وما بعدها و ص ٢٤٧ . (٢) المصدر نفسه ص ١٧٦ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٢٢٠ .

رأيتك لم تقنع بمنصبك الذي
فباشرت مكروه الوغى في مواطن
وهل يفخر الصمصام إلا بقطعه
كأنك خلعت السلم نقصا على العلى
ولما تشكى الحوف حيفا على الهدى
نهضت إلى الإفرنج تزجى كتابها
فولوا وقد أبت عليهم نفوسهم
وأتبعتهم ركضا على كل ساج

والمؤرخون يذكرون قصة شاور واستنجاده بالصليبيين ضد أسد الدين
شيركوه وصلاح الدين ، ففي موقعة بلبيس التي انتصر فيها شاور والفرنج قال
عمارة يمدح شاور ويعرض بالغز :

ولقد دفعت إلى ثلاث نوائب
من معشر تغدو السباحة والندى
فعبابة غزية غادرتها
وعصابة رومية عاشرتها
وعصابة مصرية بك أصبحت
وتداركت بلبيس منك عواطف
أقسمت لولا حسن رأيك لا غتدى
بلد لو انهدمت قواعد سوره
أبقيتها للسلين وإنه
كادت تشيب لهولها ولدانها
فما حوت أجفانها وجفانها
وأجل ما نرجوه منك أمانها
فتأدبت وتهذبت أذهانها
فوق البرية راجحا ميزانها
يسع الزمان وأهله غفرانها
الناقوس في بلبيس وهو أذانها
بيد النصارى لم يعد بنيانها
ليعز بعد خرابها عمرانها (٢)

فهو هنا يمدح شاور باتفاقه مع الصليبيين ، ولولا هذا الاتفاق لاستولى الفرنج
على بلبيس ، ولدثر الدين في هذا البلد ، ولذلك لم يهيج الصليبيين في هذا الشعر
وإن كان عرض بهم تعريضا خفيفا ، ونستطيع أن نعرف رأى عمارة في الإفرنج
إذا قرأنا مقطوعة أخرى له لم يقصد بها مدح الوزير ، بل هي أبيات صادرة عن
عاطفة الشاعر نحو هذه الأحداث والنكبات التي جرتها سياسة شاور على البلاد ،
فهو يقول :

يارب إني أرى مصرا قد انتهت لها عيون الأعدى بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الإسلام باقية واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عوناً نستجير به من فتنة يتلظى جمر وقدها (١)

وفي مديحه لصالح الدين وذكر وقعة الجسر بالجيزة التي انتصر فيها على
الصليبيين بقيادة مري، يقول عمارة :

حمى الله منكم عزيمة أسدية فككتم بها الإسلام من ربة الكفر
لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارتم عليها مع العدى ففزتم بها والصخر يقرع بالصخر
أخذتم على الإفترج كل ثنية وقلتم لا يدي الخيل مري على «مري»
وأزججه من مصر خوف يلزه كالز مهزوم من الليل بالفجر (٢)

وهكذا نرى شعراء مصر يشيدون بالحروب الصليبية التي شغلت العالم الإسلامي
عدة قرون ، ولم ير العصر الفاطمي منها سوى زهاء نصف قرن فقط ، ومع
ذلك فإن هذه الحروب جعلت الشعراء المصريين ينشدون أشعارا حماسية يمدحون
شجاعة جنود مصر الذين أخذوا على عاتقهم طرد الصليبيين من فلسطين ، أعلى حين
بقيت الدويلات الإسلامية تنظر إلى هذه الحروب نظرة عدم اكتراث ، وقد
سجل المصريون في هذه الحروب جهودا كثيرة سجلها الشعراء الفاطميون في
شعرهم ، كما سجلها شعراء الدولة الأيوبية وشعراء المماليك في العصور التالية لهذا
العصر الذي نؤرخه الآن .

الفصل الخامس

الفكاهة والمجون

رأينا في كتاب « أدب مصر الإسلامية » كيف تطورت الحياة في مصر في عصر الطولونيين والإخشيديين ، وكيف كثر المجون واللغو بتأثير التطور الذي حل بالبلاد ، ولكن مصر في العصر الفاطمي تطورت تطورا آخر ، فقد كانت حياة المرح واللغو على أشدها بالرغم مما ألم بمصر في هذا العصر من كوارث ونكبات ، وكانت أعياد الفاطميين ومواسمهم التي ابتدعوها تزيد في لهُو الشعب ومجونه . أضف إلى ذلك ما كان يحدث في مصر في أعياد الأقباط التي شارك المسلمون في إحيائها والاحتفال بها ، فقد كان الفاطميون يحتفلون « بعيد الميلاد » ويفرقون فيه على أرباب الرسوم من الاستاذين المحنكين والأمراء المطوقين وسائر الموالي من الكتّاب وغيرهم الجمامات من الخلاوة القاهرية والمشارد التي فيها السميذ وقربات الجلاب وطمافير الزلاية والسماك المعروف بالبورى^(١) . وينقل المقرئ عن المسبجى أنه في سنة ٣٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والأسرة في عدة مواضع على شاطئ النيل ، ونصبت أسرة للرئيس فهد بن إبراهيم النصراني كاتب الأستاذ برجوان ، وأوقدت له الشموع والمشاعل ، وحضر المغنون والملمون وجلس مع أهله يشرب إلى أن كان وقت الغطاس فغطس وانصرف^(٢) . وقال : إنه في سنة ٤١٥ هـ نزل أمير المؤمنين الظاهر لإعزاز دين الله بقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ، وأمر أمير المؤمنين بأن توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيدا كثيرا^(٣) . ونقل المقرئ عن ابن المأمون أنه في غطاس سنة ٥٢٧ هـ فرق أهل الدولة ما جرت به العادة لأهل الرسوم^(٤) . وفي خميس العدس كانت تضرب خمسمائة دينار فتعمل خرايب تفرق في أهل الدولة^(٥)

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٥ . (٢) المصدر نفسه ص ٢٧ . (٣) المصدر نفسه .

(٤) المصدر نفسه . (٥) المصدر نفسه .

وفى يوم النوروز كان اللعب بالماء ووقود النيران ، ويقول ابن زولاق فى سنة ٥٣٦٤ هـ : وطاف أهل الأسواق و عملوا فيه وخرجوا إلى القاهرة بلعبهم ولعبوا ثلاثة أيام أظهروا فيها السماجات (١) . ويروى ابن المأمون أنه حل موسم النوروز فى سنة ٥١٧ هـ ووصلت الكسوة المختصة بالنوروز من الطراز من نجر الإسكندرية مع ما يتبعها من الآلات المذهبة والحريرى والسوادج ، وأطلق جميع ما هو مستقر من الكسوات الرجالية والنسائية والعين والورق وجميع الأصناف المختصة بالموسم (٢) . فالفاطميون كانوا يشاركون المسيحيين فى أعيادهم ومواسمهم ويحتفلون بذلك احتفالاً يكاد يكون رسمياً ، فلا شك أن الشعب كان يحتفل بذلك كله ؛ مع ما كان للمسلمين من أعياد خاصة بهم . كما كان فى مصر أيام ليست دينية ، إنما هى مصرية يساهم فيها المسلمون وغير المسلمين مثل يوم فتح الخليج مثلا ، وقد وصف الرحالة ناصرى خسرو ما شاهده فى هذا اليوم ، وختم حديثه بقوله : « وفى هذا اليوم يخرج جميع سكان مصر والقاهرة للتفرج على فتح الخليج وتجرى فيه أنواع الألعاب العجيبة » (٣) . ووصف المسيحي ما كان فى يوم الثلاثاء خمس بقين من المحرم سنة خمس عشرة وأربعمائة وكان ثالث الفتح « أى فتح الخليج » بقوله : فاجتمع بقنطرة المقس عند كنيسة المقس من النصارى والمسلمين فى الخيام المنصوبة وغيرها خلق كثير للأكل والشرب واللهو ، ولم يزالوا هناك إلى أن انقضى ذلك اليوم ، وركب أمير المؤمنين — يعنى الظاهر — فى مركبه إلى المقس وعليه عمامة مشرب مفوظة بسواد وثوب ديبقى من شكل العمامة ، ودار هناك طويلا وعاد إلى قصره سالما ، وشوهد من سكر النساء وتهتكهن وحملهن فى قفاف الخمالين سكارى واجتماعهن مع الرجال أمر يقبح ذكره (٤) . فكل هذه الأعياد التى كانت فى العصر الفاطمى أدت بمصر إلى الاندفاع نحو حياة كلها فرخ وحبور . أضف إلى ذلك كله ما كان عليه ثراء مصر فى هذا العصر وبذخ الخلفاء والأمراء . وقد لمس ناصرى خسرو هذا الثراء فذكر أن أهل مدينة مصر (ويقصد القسطنطينية) كانوا فى غنى عظيم حين كنت هناك (٥) ، فهذا الثراء جعل المصريين يتأنقون فى ملابسهم ومسكنهم

(١) المصدر نفسه ص ٣١ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) سفر نامه (ترجمة يحيى الحشاب) ص ٥٥ . (٤) الخطط ج ٣ ص ٢٣٥

(٥) سفر نامه ص ٦٢ .

وما كلهم ، ويتباهون بذلك كله ويتنافسون عليه . وقد حدثنا المؤرخون عن ذلك كله بصور مختلفة هي أقرب إلى الصور التي تحدثنا عنها القصص . ومع ذلك فإن ما بقي لنا من آثار الفاطميين يدل على أن ما ذكره المؤرخون لم يكن من وحي الخيال إنما كان من الواقع المشاهد (١) .

كانت هذه الحياة المرححة في مصر و ثراء المصريين من أشد العوامل على تطور الحياة في مصر الفاطمية ، وذلك أن حياة اللهو انتشرت واشتد تيارها ، فخاض غمارها المصريون ، وقد وصف «أبو الصلت» أخلاق المصريين التي شاهدها فقال : «أما أخلاقهم فالغالب عليها اتباع الشهوات والانهماك في اللذات» (٢) .

وفي حديث المقرئ عن خزانة البنود قال عن الظاهر لإعزاز دين الله : «وكانت أيام الظاهر هذا سكونا وطمأنينة ، وكان مشتغلا بالأكل والشرب والنزه وسماع الأغاني ، وفي زمانه تأتق أهل مصر والقاهرة في اتخاذ الأغاني والرقاصات ، وبلغ من ذلك المبالغ العجيبة» (٣) .

ويحدثنا المقرئ أيضا أن الحاكم ألزم الناس بالوقيد ، فاستكثروا منه في الشوارع والأزقة ، وزينت القياسر والأسواق بأنواع الزينة ، وصار الناس في القاهرة ومصر طول الليل في بيع وشراء ، وأكثروا أيضا من وقود الشموع العظيمة ، وخرج سائر الناس بالليل للتفرج ، وغلب النساء الرجال على الخروج بالليل ، وعظم الازدحام في الشوارع والطرقات ، وأظهر الناس اللهو والغناء وشرب المسكرات في الحوانيت والشوارع من أول المحرم سنة إحدى وتسعين وثلثمائة (٤) .

ويروي المقرئ : قال إبراهيم بن الرقيق في تاريخه : حدثني محمد السكيني ، وكان أديبا فاضلا قد سافر ورأى بلدان الشرق ، قال : ما رأيت قط أجمل من أيام النوروز والغطاس والميلاد والمهرجان وعيد الشعانين وغير ذلك من أيام اللهو التي كانوا يستخون فيها بأموالهم رغبة في القصف والغزف ، وذلك أنه لا يبيح صغير ولا كبير إلا يخرج إلى بركة الحبش متنزها ، فيضربون عليها المضارب

(١) راجع كتاب كنوز الفاطميين للدكتور زكي حسن

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٧٨

(٣) الخطط ج ١ ص ٧٧

(٤) الخطط ج ٣ ص ١٧٦

الجليلة والسراذقات والقباب والشراعات ، ويخرجون بالأهل والولد ، ومنهم من يخرج بالقينات المسمعات المالك والمحررات ، فيأكلون ويشربون ويسمعون ويتفكحون وينعمون (١) .

وظهر أثر ذلك كله في الشعر ، وكان شعر مصر الفاطمية أصدق مرآة لهذه الحياة الصاخبة المساجنة ، فوصف الشعراء مجالس الشراب واللهو ، وتغزلوا بالمذكر حيناً وبالمؤنث حيناً آخر ، وتهادوا الجوارى والغلمان ، ودعا بعضهم بعضاً للاستمتاع بلحظات يختلسونها للهوهم ومجونهم ، وخرجوا إلى الأديرة ينتهبون فيها اللذات ، واشترك الشعراء في ذلك كله حتى لانستطيع أن نجد شاعراً لم يأخذ بنصيب من حياة المجون ، إلا إذا استثنينا المؤيد في الدين الذي لم يعرف عنه فحش في القول ، ولم يسهم في هذه الحياة مثل غيره من الشعراء ، بل هو القتائل :

قد شيبت مني العذار العفه مازلت من ميزانها في الكفه
ما شاق قلبي وتر أو زهر ولم تدب في عروقي خمر
عبادتي كل الزمان عادق ما ملكت يد الهوى مقادق (٢)

أما غير المؤيد من الشعراء فقد كانوا جميعاً يشتركون في المجون واللهو ، وها هو ذا الشاعر أبو الرقعمق يعرض في مجونه بالمذاهب الدينية ، ويصرح بأجزاء من الجسم في قصيدة يدح بها الإمام العزيز :

أظن ودادها من غير نيتيه وهل هي فيه إلا مدعيه
فتاة لا تمل عذاب قلبي ولا تخليه وقتاً من أذيه
ولا ذنب له إلا التواني لمن في الحب ليست بالوفيه
ويعجبني التمتع والتشاجي من الخود الممنعة الشجيه
فوا أسفا على حر يعزى أبا رزء على عظم الرزيه
وذلك أن أبرى فيه رطل وما في حرها إلا وقيه
ومن بعث المدام فليس بد ولا تك غير بكر بابليه
فثم هناك حر شافعي عظيم الشأن واست مالكيه
ونفسي غير مائلة إليها لأحوال مقبحة بذيه

(١) الخطط ج ٣ ص ٢٥١ .

(٢) القصيدة المسطحة من ديوان المؤيد في الدين .

وجملة أمرنا أنى بغى
أحب دنوها وتحب قربى
وما لاقيتها إلا تلاقى
وهذا الرأى لا رأى سواه
ولا عيش سوى تقليب بظر
على أنى أقول بكل شىء
ولا ألوى على أحد يرانى
ولكنى أقول بمدح قرم
وأبضا فهى فاجرة بغيه
وهذا لا يكون بلا بليه
مبالانا بإسقاط التقيمه
فلا تحفل بأقوال الرعيه
وثقب من صبي أو صبيه
سوى نيك العجوز القزمية
بعين النقص والحال الدينه
تفرد بالاعلا دون البريه (١)

ويستمر أبو الرقعمرق فى مدح العزيز بعد أن قدم للبدح بهذا المجون ، وربما كان أبو الرقعمرق من أشد الشعراء إمعانا فى الحماقه والفحش فى الشعر ، فقد اتخذ لنفسه هذه الطريقه العجيبة فى الشعر حتى عرفت به ، فهو يشبه ابن الحجاج فى هذه الناحية ، ولكن أبا الرقعمرق إذا شاء أن يترك هذه الحماقات فى الشعر ، وأن يعود إلى الجد ، فهو يأتى بشعر جيد لا ياباه السمع ولا يزوى عنه أهل الفضل ، فهو يقول مثلا :

ليلى بتنيس ليل الخائف العانى
أقول إذ لج ليلى فى تطاوله
لم يكف أنى فى تنيس مطرح
حتى بليت بفقدان المنام فما
ما ساعد البرق من تلقاء أرضهم
ولا حننت إلى نجران من طرب
لا تكذبن فما مصر وإن بعدت
ليالى النيل لا أنساك ما هتفت
أصبو إلى هفوات فيك لى سلفت
مع سادة نجب غر غطارفة
وذى دلال إذا ماشئت أنشدنى
تفى الليالى وليلى ليس بالفانى
يالليل أنت وطول الدهر سيان
نخيم بين أشجان وأحزان
للنوم إذ بعدوا عهد بأجفانى
إلا تذكرت أياى بمان
إلا تسكنفى شوق لنجران
إلا مواطن أطرابى وأشجانى
ورق الحمام على دوح وأغصان
قطعتهن وعين الدهر ترعانى
فى ذروة المجد من ذهل بن شيبان
وإن أردت غناء منه غنائى

سقيته وسقاني فضل ريقته وجاد لي طرفه عفواً ومناني
مازلت أجنى بلحظي ورد وجنته وأستغير على تفاح لبنان
ما زال يأخذها صفراء صافية حتى توسد يسراه وخلاني
الله يعلم ما بي من صبايته وما على جناه طرفه الجاني
كم بالجزيرة من يوم نعمت به على تصاحب نايات وعيدان
سقيما ليلتنا بالدير بين ربا باتت تجود عليها سحب نيسان
والطل منحدر والروض مبتسم على أصفر فاقع أو أحمر قاني
والترجس الغض منهل مدا معه كأن أجفانه أجفان وسنان (١)

فإذا قارنا بين هذه القصيدة وبين قصائده الأخرى التي يظهر فيها الخلق نجد أن الشاعر كان له لونا من الشعر، ذلك اللون الذي يظهر فيه بجونه وحماقته، ولون آخر هو الذي يظهر فيه الجد، ولكن أبا الرقعمق عرف بالمجون أكثر مما عرف بالجد، وقد ذكرنا لونا من شعره الماجن في مقدمة المدح، وله في ذلك عدة قصائد منها القصيدة الرائية المعروفة التي مطلعها :

كتب الحصير إلى السرير أن الفصيل ابن البعير

وفي أشعاره الماجنة يتحدث الشاعر عن تصافع الشعراء الماجنين، وهذه ظاهرة بدأت في الشعر المصري في العصر الإخشيدى واستمرت إلى أوائل العصر الفاطمي، فقد كان الشعراء يذكرون في قصائدهم هذا اللون من المزاح بينهم ويتنادرون به، وكان أكثرهم ذكراً للتصافع هو الشاعر كشاجم وأبو الرقعمق، فأبو الرقعمق يقول في إحدى قصائده يذكر التصافع بين الشعراء الماجنين :

ولكم بتنا على طرب وءوس القوم تستلب
وكئوس الصفع دائرة ملؤها اللذات والطرب
وانتخبناها وهامهم وأكف القوم تصطخب
وكأن الصفع بينهم شعل النيران تلتب (٢)

ويقول في قصيدة أخرى :

ولا أترك في مصر لذكر الخلق من أثر

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٦ .

(١) اليتيمة ٢٦٠ .

فمن بعدى لطيبه في النظم وفي النثر
ومن يلعب في الرأس من العصر إلى العصر
ومن من شدة الصفع له رأس بلا شعر
ومن هامته أقوى على الصفع من الصخر
إذا أمراني الصفع تجشأت من الدبر
وهيات ترى صفعاً لغيري أبداً يمرى (١)

ويقول في قصيدته الرائية المشهورة :

لا تنسكن حماقاتي لأن بها لواء حمقى في الآفاق منشور
ولست أبغى بها خلا ولا بدلا هيات غيرى بترك الحلق معذور
لا عيب في سوى أنى إذا طربوا وقد حضرت يرى في الرأس تهجير
والأخذعان فما زال يرى بهما لكثرة المزح توريم وتحميم
وذا الفعال مع الأعراض مطرد صفع ونقع وتيسير وتيسير (٢)

فالشاعر في هذه المقطوعات يظهر حماقاته ومجونه ؛ وهذا المزاح الثقيل الذي كان بين الماجنين ظهر في العصر الأخشيدى وأوائل العصر الفاطمي ، ويحيل إلى أن هذا المزاح أتى به الشعراء الوافدون على مصر ، فكشاجم أحد أبطال التصافع لم يكن مصريا ، وأبو الرقعمة لم يكن مصريا ، ولم أجد في شعر المصريين الذي وصلنا هذا النوع من المزاح ، ولكن كشاجم وأبا الرقعمة تحدثا عنه في أشعارهما التي أنشدها في مصر ، ولعلهما كانا يعيثن في شعرهما بذكر هذا المزاح ، وإذا ذكر شعراء مصر الصفع فإنما يكون ذلك في الهجاء ، فالشاعر صالح بن مؤنس الذي كان يعيش في عصر أبي الرقعمة هجا زميله الشاعر ابن أبي الجوع فقال :

وقال قوم قد غدا شاعرا والشعر لا يعرف للمفحم
فقلت لا لوم على مثله من أخذ الصفع قفاه حمى
أنا الذي ألبسته حسرة بما جرى من ذكره في في
والله لا يجهل من بعدها وفي قفاه للردى ميسمى
أبين به من ميسم واضح يضى كالغرة في الأدم (٣)

(٢) المصدر نفسه ص ٢٤٩ .

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) المصدر نفسه ص ٣١٠ .

فالصنع في هذه الأبيات ليس للمزاح كالذي رأيناه في شعر كشاجم أو في شعر أبي الرقعمق ، إنما هو في معرض الهجاء .

كان أبو الرقعمق أستاذاً لمدرسة في شعر الهزل والمجون ، وسنرى أن صريع الدلاء وابن مكنتمة وغيرهما ساروا على نهجه .

وفي هذا العصر الذي كان فيه أبو الرقعمق ، عاش عدة شعراء مثلوا في مصر جماعة أبي نواس في العراق ، فقد كان هؤلاء الشعراء يجتمعون وينشدون أشعارهم ويتبارون في التشديد وهم يقصفون ويلهون ، فجاعة كانت تضم صالح بن رشدين وعبد الله بن أبي الجوع ومحمد بن الحسن البني والحسن بن محمد الشهواجي وصالح ابن علي بن مؤنس وابن أبي الزلازل وأبا تميم سليمان بن جعفر وأحمد بن عبد الله ابن أبي العصام وغيرهم من شعراء ذلك العصر . وكانت هذه الجماعة على صفاء أحياناً وفي خصام أحياناً أخرى . وكان أكثر هؤلاء الشعراء يتغزلون في صالح ابن رشدين ، أحد أئمة السكتاب في الديوان ، ولحق المتنبي في مصر ، وروى شعره ، كما كان شاعراً بارعاً جيد المعاني ، ففيه يقول صالح بن مؤنس :

بك يا صالح أرضى عن زمانى حين أسخط
فأدم لي الوصل إني بك في العالم أغبط
أنت والرحمن مذ كنت على قلبي مسلط
ومصيب أنا في الحيب ومن بعدى يغلط
يا جواداً في لهاه بنده أتيسط (١)

وفيه يقول محمد بن الحسن البني :

فأضح الغض النضير كاسف البدر المنير
أنت عذرى في حياتي ومماتي ونشوري
ما سرور غاب عنه (صالح) لي بسرور (٢)

وأنشد فيه ابن أبي الجوع :

يا أطيب الناس ريحا وأطيب الناس راحا
ومن به أتصدى الأ طراب والأفراحا

هات اسقني ، أو تراني لا أعرف الأقداحا
واحفظ على فؤادي من أن يطير ارتياحا
لو كنت كاسمك يا صاح لح اعتمدت الصلاحا
لكن أرى الله إلا أن تفسد الأرواحا (١)

ويطول بي الأمر لو ذكرت كل الأشعار التي بقيت لهذه الجماعة في صالح
ابن رشدين ، وكان هؤلاء الشعراء يقصفون ويلهون ويدعو بعضهم بعضا على
الشراب والقصف وسماع الموسيقى والغناء ، وتهادون الجوارى . وقد روى
الثعالبي أن القائد أبا تميم سليمان بن جعفر كتب إلى صالح بن رشدين رسالة
يستدعيه فيها إلى الشراب فامتنع عليه ، وكتب له هذه الأبيات :

يا أيها القائد الجليل ومن أصبح بالمكرمات يفتخر
آليت لا أشرب المدام وإن كانت ذنوب المدام تغتفر
يكفي أخا العقل أن سورتها تجني على عقله ويعتذر
فكتب إليه القائد أبو تميم :

أبا على حاشاك يا أملي من أن أراك الغداة تعتذر
قلبي إذا غبت ساعة قلق يكاد شوقا إليك يستعر
فسر إلينا فوقتنا حسن ساعد فيه السحاب والمطر (٢)

ويروى أيضا أن ابن رشدين قال : حضرت عند القائد أبي تميم في ضيعة له
فلما عمل فينا الشراب نظرت إلى جارية له تسمى عبدة ذاهبة جائية ، فحملني النبيذ
أن أخذت رقعة وكتبت فيها إليه :

صالح لا يزال يطلب عبده من كريم يصفي الأخلاء وده
قد بثت الغداة وجدى وحبى من ولى يولى لمولاه مجده
فإذا شئت أن أرى لك عبدا ففضل أبا تميم بعبده
فقرأها ، وأمسك ، وتماديت في الشرب معه ، ثم نهضت إلى منزل أنزلني فيه
بقربه ، فلما استقر بي أنفذ لي الجارية ومعها درج فيه طيب كثير وعابها ثياب
رفيعة حسنة ورقعة فيها شعر :

قد بعثنا أبا على بعبده وقضينا بذلك حق الموده

وحدناك إذ خطبت إلينا أسأل الله أن يهنيك حمده
فأخذها فأنت أكرم كيف وهي ما عشت كاسمها لك عبده (١)
ويروى ابن سعيد في المغرب أن أبا علي أحمد بن صدقة الكاتب أرسل إلى
صالح بن رشدين :

بالله يا صالح قم مسرعا إلى عقار ادركت تبعاً
وساعد الليلة في شربها وخذ من السكر لها مصرعا
فقد بذلنا لك أرواحنا كما رأيناك لها موضعاً
فجاوبه صالح :

ياسيدا يسمع ما قد دعا خذني كما ألزمته مسرعا
منادما ما شئت أعمالها كما أسأ ترينا للسنا مطلعاً
نشرها حتى ترى الهم لا يهدي ولا يدري لنا موضعاً (٢)

ومن الجماعات التي كانت في أوائل العصر الفاطمي جماعة الأمير تميم والرسى
والعقيلي وغيرهم ، وكلهم عرف بالمجون والفحش ، وقد ذكرنا أن المعز منع الإمامة
من ابنه الأكبر الأمير تميم لمجونه وفسقه ، انظر إليه وهو يقول :

وشادن شرط الصبا مرهف قرّة عين من تمناه
كأتما الحسن رأى وجهه إليه محتاجاً فأغناه
وانتشرت بالغنج ألفاظه وانكسرت باللحظ جفناه
ولاح برق الثغر من مبسم المسك والقهوة مجناه
وبتل الأرداف فاستثقلت وأرهف الخصر وأضناه
زرنا به منزل خمارة والليل في صبغ برياه
وقد علا الأفق هلال بدا كعطفة الحاجب مخناه
حتى إذا الخمار أصغت إلى صحبنا في المشى أذناه
قام إلينا بجلا شاغلا بالراح يمتناه ويسراه
ماسل من إربيقه قهوة أشرق منها ليل مغناه
حتى إذا سمناه في يعبها قطب غيظاً حين سمناه

(٢) المغرب ص ٨٧ .

(١) المصدر السابق ص ٣٢٠ .

وقال ما استام بها ماجد
دونا كموها وزنوا مثلها
فغاب عن الحاظنا ساعة
فقام بالكأس هضم الحشى
كأنه فى كفه حده
إذا سقى ندمانه كأسه
ولم تنكه غير الحاظنا
فإن تداخلك بنا ظنة
ولم نزل فى بيت خمارها
إذا أشاب الصبح رأس الدجى
نحنو إذا نادى إليه كما
وإن بدامن صاحب بعض ما
قبلكم فيما علينا
درا وتبرا، ووزناه
ثمت وافانا ودناه
لولا قناه لشربناه
لكنها فى السكر عينا
ألثمه فاه وغناه
يا كاشحا قد زاد معناه
فقد على رغمتك نكناه
نشرها شهرا ومثناه
وهزنا الساقى أجنبناه
يحنو إلى الوالد أبناءه
يأتى به السكر عذرناه (١)

ثم اقرأ قوله وفيها يذكر مجونه فى دير القصير :

ولى صاحب لا يمرض العقل جهله
إذا قلت : « لا » فى قصة لم يقل : « بلى »
وإن قلت هاك الكأس ، قال مبادرا
سريع إذا لى ، صبور إذا دعا
غدوت به يوما إلى بيت حانة
وقد نفحت ریح الصبا بمنافس
فأفضى بها الإدلاج بعد تعسف
مدثرة ، أما أبوها فقيصر
قصـيرية ديرية هرقلية
فلما قرعنا بابها ابتدرت لنا
فقلت لنا : أهلا وسهلا ومرحبا
من انتم ؟ فقلنا عصابة من بنى الصبا
فقلت : على اسم الله حطوا رحالكم
ولاتأذى النفس منه ولا القلب
وإن قلت : أصبو ، قال : لا بد أن أصبو
ألا هاتما ، طاب التنادم والشرب
يهون عليه فى رضى خله الصعب
وللغيم دمع ما يكف له سكب
عبيرية الأنساب طاب لها الترب
إلى زولة شمطاء منزلها رجب
وحسبك ملك جده قيصر حسب
تقاصر منها الحظ واحدودب الصلب
وفى يدها نجم محيط به قعب
وقل لكم منى البشاشة والرحب
دعاهم إليك القصف والعزف واللعب
فعندى الفتاة الرود والأمرد الرطب

وراح نفي اقداءها طول عمرها
أرق إذا رقرقتها في زجاجة
كان سراجا في ترائب دنها
فقلنا لها : كيلى لنا وتعجلى
لجاءت تجر الزق نحوى كأنه
فلما مزجناها بدا فوق رأسها
وطافت بها هيفاء مهضومة الحشا
تمايل ردفاها وأدرج خصرها
شكا كشحها الزنار مما يجيعه
أغار على أعطافها كلما انثنت
أحلت لى الصهباء تقبيل وجهها
كأني وقد أضجعتها وعلوتها
وما فض لامي صادها بجناية
فلما أغاظتني بإظهار كفرها
وضرحت فخذيهما دما بمصمم
فاهرحت حتى أنابت وأسلمت
أبا حسن ، هات المدامة واسقني
كان الثريا في ملامة فجرها
سلام على دير القصير ومرحبا
فكم لذة فيه قضيت وغلة
منازل يستن الصبا في عراسها
والأمير تميم هو الذي يقول في إحدى مقطوعاته :

دع مقال العاذلات والله عن سعى السعاة
وأشرب الراح وشبهها بالثنايا العـطرات
وانتقل إن شئت تفاع رياض الوجنات
أنا ما بين نداما ي وراحي وسقاتي

لم لا أعرف الصحو ولا وقت الصلاة
فإذا نومنى السكر على تلك الهبات
لم ينهني سوى حسن مثنى الغانيات
وغناهن سحيراً : « اسقنيها بحياقي » (١)

فهذا الشاعر الماجن لم يتورع عن التهمك بالدين المسيحي طوراً وبالدين الإسلامى طوراً آخر ، حتى تخيل إلينا من شعره الذى وصلنا فى المجون أنه رجل عاش للذاته وفجوره ، ولم يفكر إلا فى قصفه وهوه ، حتى إنه فى شعره الذى كان يمدح فيه أباه الإمام المعز أو أخاه الإمام العزيز كان يقدم لمدايحها بالغزل حيناً وبشعر ماجن حيناً آخر ، مع أنه كان يمدح شخصاً أخص ما يمتاز به هو صفته الدينية ، ولكن نجد فى ديوان تميم بعض قطع فى الزهد والنسك لا تقل روعة وصدق إيمان عن شعر اشد الشعراء تمسكاً بالدين وأشدهم خوفاً من عذاب الآخرة ، فهو يقول مثلاً :

يا عجباً للناس كيف اغتدوا فى غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصى ثبات
من شك فى الله فذاك الذى أصيب فى تمييزه بالسببات
يجيشهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدم للحياة (٢)

ويقول مرة أخرى :

أفنت دهرك تتقى فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصى الرحن فيما أنت راكب
لأمنت من نار الجحيم وفى الحياة من المعائب
إن لم تراقب من له حكم عليك فن تراقب (٣)

فالأمير تميم شأنه فى مجونه وزهده شأن كثير من بنى البشر الذين يعصون الله ، ولكنهم فى الوقت نفسه يخافون عقابه ، فهؤلاء لهم شخصيتان : شخصية الماجن اللاهى وشخصية الزاهد المتعبد ، ولكن الأمير تميم كان يغلب عليه المجون حتى عرف به .

(١) ديوان الأمير تميم . (٢) المصدر نفسه . (٣) المصدر نفسه .

أما أصدقاؤه الذين كان يقصف ويلهو معهم ، فلعل أشدهم صلة به هم ولدا الرسى : أبو إسماعيل الرسى وأبو عبد الله الحسين بن إبراهيم الرسى ، وهؤلاء جميعاً من الأشراف العلويين الذين وفدوا على مصر قبل العصر الفاطمي واستقروا بها ، وكان لبنت الرسى نقابة الطالبيين في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين ، وكان هؤلاء جميعاً من شعراء مصر ، ويتحدث صاحب المغرب عن الحسين بن إبراهيم الرسى فيقول : « وهذا الشريف الرسى هو الذي كان يدينه وبين تميم بن المعز مجاوبات بالنظم ، وكان يكثر التنزه معه في بساطينه وفرجه » (١) ويروى الثعالبي للرسى أبياتاً في الدعوة إلى اللهو منها :

شم النسيم لذيذاً من قبل ألا تشمه
وأصرف عن القلب ما اسطع ت بالمسرة همه
وغالط الدهر إن كذت لست تملك حكمه
وقد نصحتك جهدى فلا تصم وتكمه (٢)

وهذا للشاعر هو الذي كتب إليه الأمير تميم يصفه بقوله :

يا شاعراً جل عن أن يقاس به الشعراء
و يا ظريفاً بليغاً أرنى على البلغاء
قد جاء شعرك يشفى قاربه من كل داء
كالقرب بعد بعد والوصل بعد جفاء
وأنت للنفس أشهى من الغنى والبقاء

كان بنو الرسى يكتبون الأمير تميم بالشعر كلما بعد عنهم . وكانوا يكتبونه يستهدونه بعض الطرائف أو يدعونه إلى الشراب ، ويصرح الأمير تميم في إحدى قصائده إلى الحسين بن إبراهيم الرسى أن الإخاء بينهما قوى وثيق لأنهما متفرعان من أسرة واحدة :

وليس الإخاء الذي بيننا ببدع إذا ما استوى وانعقد
لأننا إلى والد واحد تفرعنا حين ندعى وجد
وكان إذا تأخر الرسى عن مكاتبته يرتاع الأمير تميم ويسأل عن سبب هذا الانقطاع ويرسل إليه يعاتبه ، من ذلك قول تميم من قصيدة طويلة :

أبا عبد الإله ووجهه ودي مزال عن أسرته القناع

(٢) اليثيمة ج ١ ص ٣٣١ .

(١) المغرب ص ٨٥ .

علام وأنت فيما صح عندي
تأخرت الرسائل منك عنى
أسهوا يا ابن إبراهيم عنى
ومثلك لا يبيع أخا ببيعس
ولسنا نلتقى لقيما اجتماع
ولكن تعرب الأقالم عنا
وأكثر حظنا في البعد أنا
فأجابه الرسى بقصيدة منها :

عدلت عن المقال إلى السماع
أميرى ظلت في نعم جسمام
أعهدى كالسراب لدى الموالى
عنتت على يا قرب المعالى
وعادتك التى سلفت إلينا
يضيق عن الجواب مدى ذراعى
رتاع أو شديهاى الرتاع
وقطر مودتى حلف انقشاع
لتأخيري موالى الرتاع
ستنسبني إلى حسن الطباع

ابن وكيع التميمي

أما هذا الشاعر الماجن فهو أبو محمد الحسن بن علي بن أحمد بن محمد المعروف بابن وكيع التميمي أصله من بغداد ومولده بتميس (١) ، وذكره الثعالبي في اليتيمة وقال في حقه : شاعر بارع وعالم جامع قد برع على أهل زمانه ، فلم يتقدمه أحد في أوانه ، وله كل بديعة تسحر الأوهام ، وتستعبد الأفهام ، (٢) ويضيف ابن خلكان إلى ما رواه عن الثعالبي أن لابن وكيع ديوان شعر جيد ، وكتابا بين فيه سرقات أبي الطيب المتنبي سماه « المنصف » ولم يعرف عن ابن وكيع انه اتصل بأمرير أو أنه تكسب بشعره ، وكل شعره الذي وصلنا في وصف الطبيعة وفي المجون ، فمن قوله في المجون والطبيعة معا :

جانبت بعدك عفتى ووقارى
ورأيت إيثار الصباية فى الذى
لا تأمرنى بالتستر فى الهوى
إن التوقر للحياة مكدر
وخلعت فى طرق المجون عذارى
تهوى النفوس محق الأعمار
فالعيش أجمع فى ركوب العار
للعيش فهو تهتك الأستار

(١) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٧ . (٢) اليتيمة ج ١ ص ٢٨١ .

من تابعت أمر المروءة نفسه
لا تمكثرن على إن أخوا الحيجا
خوفتني بالنار جهدك دائبا
خوفى كخوفك غير أنى وائق
أقررت أنى مذنب ، ومحرم
انظر إلى زهر الربيع وما جلت
أبدت لنا الأمطار فيه بدائعا
ما شئت للأزهار فى صحرائه
وجواهر لولا تغير حسنها
من أبيض يقق وأصفر فاقع
ناحت لنا الأطيوار فيه فأرجمت
دار لو اتصل البقاء لأهلها
فانهض بنا نحو السرور فإنه
فاشرب معتقة كأن نسيمها
أخفى ديبيا فى مفاصل شربها
أحكامها فى العقل إن هى حكمت
يرضى على الأقدار شاربها الذى
وكانها والسكاس ساطعة بها
لا سيبا من كف أعيد شادن
فضل الفصون لأنها من غرسنا
قد غيب الزنار دقة خصره
متنصّر قويت على أسلامنا
قالوا : أيصنع مثل هذا ربكم
مع مسمع حلفت له أوتاره
فطن يحرك كل عضو ساكن
شدو إذا الحباء زار حلومهم
والشدو أحسنه الذى لم يستمع

فنيث من الحسرات والأفكار
يرم بقرب الصاحب المهذار
ولججت فى الإرهاب والإنذار
بجميل عفو الواحد القهار
تعذيب ذى جرم على الإقرار
فيه عليك طرائف الأنوار
شهدت بحكمة منزل الأمطار
من درهم بهج ومن دينار
جلت عن الأثمان والأخطار
مثل الشموس قرن بالآقار
عرس السرور ومآتم الأطيوار
لم يحفلوا بنعيم تلك الدار
ما زال يسكن حانة الخمار
مسك تضرّعه يد العطار
وأدق إلفا من المقسار
أحكام صرف الدهر فى الأحرار
ما زال ذا سخط على الأقدار
ذوب تحلل فى عقيق جارى
يسمى العقول بطرفه السحار
عند التأمل وهو غرس البارى
حتى ظنناه بلا زنار
بالحسن منه حجة الكفار
ويرى فساد صنيعه بالنار
ألا تنافر رنة المزمار
تحريكه لسواكن الأوتار
باعوا بطيب السخف كل وقار
إلا أطار العقل كل مطار

ذا العيش لانت الممامه والفلا وسؤال رسم الدار والأحجار
لا فرج الرحمن كربة جاهل يبكي على الأطلال والآثار (١)
فالشاعر هنا يتكلم بالأديان أيضا ، ولكنه في الوقت نفسه يظهر قدرة
الرحمن في وصفه لأزهار الطبيعة ، وينعى على الناس أنهم لم يأبهوا بالطبيعة
ومناظرها البهيجة ويحتم شعره بأن الحياة هي في المجون والتمتع بالرياض ، وليس
في وصف صحراء وما فيها من رسوم وأطلال ، بل يلعن هؤلاء الذين يكسفون
بالبكاء على الأطلال والآثار . فنحن أمام شاعر يختلف عن شعراء المجون الذين
رأيناهم من قبل ، لأن المجون عند ابن وكيع مذهب في الحياة ، فهو ليس بحمق
أبي الرقعمق ولا فسق تميم وجماعة صالح بن رشدين ، إنما ابن وكيع يمتاز بهذا
اللون من فلسفة خاصة في الحياة ، فهو يدعو إلى الفجور ، ولكن في الوقت نفسه
يتأمل الطبيعة ويفكر فيها طويلا . وقد يستهويه جمالها فتمتلي بها نفسه ، فيخلع
عليها هذه الصفات ، ويصورها بهذه الصور الملونة ، فيزدادسروا ، فإذا به يدعو
إلى الشراب فيصف الخمر وديبها في المفاصل وسلطانها على شاربها ، ويصف
الساق وجماله ومجلس الغناء والموسيقى . تحدث عن كل ذلك في صور متلاحقة
متابعة وهذه هي الحياة عنده .

وفي قصيدة أخرى يجذب هذه الحياة التي اختارها لنفسه ، ودعا إليها فهو يقول :

علل فؤادك ، والدنيا أعاليلا لا يشغلنك عن اللهو الأباطيل
ولا يصدنك عن أمر هممت به من العواذل لا قال ولا قيل
خير يوميك يوم أنت فيه إذا ميزت في الناس محمود ومعزول
وإن اتوك فقالوا كن خليفتنا فقل لهم إنني عن ذاك مشغول
فإن ذلك أمر مع نفاسته ونسبه بفتاء العمر موصول
وارض الخمول فلا يحظى بلذته إلا امرؤ خامل في الناس مجهول
ولا تبع عاجل الدنيا بأجل ما تروج ، فذلك أمر شأنه الطول
واسفك دم القهوة الصهباء تحي به روحى فإن دم الصهباء مطول
يا خائف الإثم فيها حين يشربها لا تقنطن فعفو الله مأمول
قم فاسقنى النض بما حرموه ولا تعرض لما كثرت فيه الأقاويل
من قهوة عتقت في ذنها حقبا كأنها في سواد الليل قنديل

عروس كرم أتت تختال في حلال صفر على رأسها للمزج إكليل
كأنها بأكف القوم إذ جلبت ذوب من الذهب الإبريز محلول
في فتية جعلوا للهو طاعتهم فما لهم عن طريق اللهو معدول
جليسهم ليس يروى من حديثهم يوما وبعض حديث القوم بمول
لا كالذين إذا ما كنت حاضرهم ففي سكوتهم المأمول والسول
ترى مجالسهم مملوءة لجبا وكل ذاك فضول عنك معزول^(١)
وعلى هذا النحو يسير الشاعر في وصف حياته التي اختارها لنفسه . ولعل
قصيدته المربعة التي وردت في اليتيمة تدلنا على أن الشاعر كان ماجنا خليعا ،
وقد شهد على نفسه بأنه « شيخ الملاهي والغزل » وذلك بقوله في ختام قصيدته
المزدوجة التي أنشدها في وصف فصول السنة :

دونك هذى صفة الزمان مشروحة في أحسن التبيان
فأصغ نحو شرحها كي تسمعا ولا تكن لحقها مضيعا
وارض بتقليدي فيما قلته فإنني أدري بما وصفته
ولا تعارضني في هذا العمل فإنني شيخ الملاهي والغزل^(٢)

الشريف العقيلي : شاعر الطبيعة والخمر^(٣) .

أما الشاعر الذي خلف ابن وكيع التنيسي في وصف الطبيعة والخمر معا ، فهو
الشريف أبو الحسن علي بن الحسين بن حميدة العقيلي من ولد عقيل بن أبي طالب
من رجال النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، فهو شاعر حباه الله بسطة في
الرزق ، فلم يكلف نفسه مشقة الوقوف على أبواب الأمراء والخلفاء يستجدي
عطاءهم ، ولم يشتغل بخدمة سلطان ، ووهبه الله دقة حس ورقة شعور . فأولع
بجمال الطبيعة ، وجرى على لسانه شعرا رقيقا هو ذلك الشعر الذي يصدر عن
عاطفة قوية وإحساس عميق . وقدأكثر من تنسيق متزهاته بجيزة الفسطاط ،
ولا أشك في أنها كانت آية من آيات عبقريته المحبة للفن والجمال ، كان يزور هذه
المتزهات ويمتتع ناظريه بما حوته من أزهار وجداول مياه ، ويشرف على هذه
المناظر الممتعة ، ويصف مجلسه هذا بشعر جمع في ديوان لم يقدر له أن يصل إلينا ،

(٢) المصدر نفسه ص ٢٩٠ .

(١) اليتيمة ج ١ ص ٢٩٤ .

(٣) راجع المغرب في حلى المغرب ص ٥٢ وما بعدها .

ولكن صاحب المغرب أخذ من ديوان ابن حيدرة العقيلي عدة مقطوعات وقال
عن ذلك : « ثم وقع لي ديوان شعره ، فنقلت منه ما يشهد بعلو قدره ، وهو من
أئمة المشبهين ، فمن قول ابن حيدرة :

الأرب نمار طرقت فناءه وزهر الدياتجي مثل در مبدد
فقام وقد ألقته من منامه إلى الباب يمشى كالأسير المقيد
ينادي : من السارى إلى ومزعجى فقلت : جواد ذو محل وسؤدد
حسام على الأعداء ماض غراره وملك لدى ذى الخلة المتودد
أيتك أطوى الأرض شرقا ومغربا على ضامر الأحشاء كالبرق أجرد
فقال : وما تبغى ؟ فقلت : مدامة تشتت شمل الهم عن كل مكمد
فقال : نعم عندي سلافة كرمة كوجنة معشوق الشمائل أغيد
وأبرزها عذراء أحلى من المنى كشمس الضحى أو كاللظى المتوقد
إذا مزجت أبدت حبايا كأنه من الدر طوق فى غلالة عسجد
فسرت بها وهى الحياة لروضة تروح عليها الغاديات وتغدى
كان البهار الغض فيها مداهن من التبر صيغت فى غصون وبرجد
كان انتشار القطر والزهر زاهر على الورد دمع فوق خد مورد
وأطيأها نغى القديم إذا شدت على الأيك عن شدو الغريض ومعبد
وزجسها بين الشقائق شاخص يردد لخط المستهام المسهد
فما زلت بالإبريق أقبض روحها من الدن ما بين الربا بتمدد
وأشربها حتى انثنت بجدلا صريعا على شدو الحمام المفرد
أنا ذاك أعطى الله ما عشت مقودى وأعدل عن تفنيد كل مفند (١)

وقوله من قصيدة أخرى :

ونمار دخلت عليه وهنا وجنح الليل مسود الجناح
على هوجاء تنشر فى الفيسافى لغاما فى الغدو وفى الصباح
إذا وخذت تخال الريح تحتى وإن كانت أخف من الرياح
فقال : من الفتى ؟ فأجبت : ضيف تسربل بالمكارم والسماح

فقال : وما تريد فدتك روحى فقلت له : أرح روحى براح
فقام إلى دنان مترعات معممة بكافور رباحى
وفض ختام أقدمها فلاحت على الظلساء أنوار الصباح
وأبرز منه فى الإبريق راحا ألد إلى الأسير من السراح
نأن حبابها طل تبدى على ورد جنى فى أفاح
وجاء بأهيف عذب الثنايا دقيق الخصر غرثان الوشاح
تراه يتيه من أدب وظرف ومن تيه على الغيد الملاح
يقول إذا رآه كل لاح : عبك ما عليه من جناح
هى الأيام تندرج اندراجا وصرف الدهر ذو وجه وقاح
فصل قصفاً بقصف واغتباقا بأفراح ، وهواً باصطباح (١)

ففى هاتين المقطوعتين من شعر ابن حيدرة العقبلى نستطيع أن ندرك أن
الشاعر كان يجمع بين وصف الطبيعة ووصف الشراب ، ويأخذ من الطبيعة التى
أحبها وهام بها صوراً يصورها حباب الخمر فى الكؤوس ، فهو فى كل شعره
الذى انتهى إلينا لا يصف الطبيعة دون أن يتحدث عن الخمر ، ولا يتحدث عن
الخمر إلا إذا تحدث عن الطبيعة ، فهو يقول :

الروض فى ديباجة خضراء والجو فى فرجية دكنا
والأرض قد نظم الربيع لجيدها عقداً من الصفراء والخمراء
والراح ينثر فى مذاب عقيقها درز الفسواق جوهرى الماء
فاقصد رضا رضوانها بالشراب إن أحببت سكنى جنة السراء (٢)

وقد كان شعر هذا الشاعر سبباً فى أن يتهم المستنصر بالله الفاطمى بالمجانة
والفسق ، فقد روى المقرئى أنه كان من عادة الخليفة المستنصر بالله أن يقيم معد
ابن الظاهر فى كل سنة أن يركب على النجب مع النساء والحشم إلى جب عميرة
— وهو موضع نزهة — بهيمة أنه خارج إلى الحج على سبيل اللعب والمجانة ، وربما
حمل معه الخمر فى الروايا عوضاً عن الماء ويسقيه من معه ، وأنشده مرة الشريف
ابن حيدرة العقبلى فى يوم عرفات :

قم فانحر الراح يوم النحر بالماء ولا تضح ضحى إلا بصهباء
أدرك حجيج الندامى قبل نعزم إلى من قصفهم مع كل هيفاء

(١) المغرب ص ٦٠

(٢) المصدر نفسه ص ٥٢

وعج على مكة الروحاء مبتكراً فطف بها حول ركن العود والناء
ويضيف المقرئى نقلا عن ابن دحية : فخرج فى ساعته بروايا الخمر تزجى
بنغيات حداة الملاهى وتساق ، حتى أناخ بعين شمس فى كبكبة من الفساق ، فأقام
بها سوق الفسوق على ساق ، وفى ذلك العام أخذه الله تعالى وأهل مصر بالسنين (١)
ولعل القصة وضعت على هذا النحو للطعن على الفاطميين ، فلم نعرف عن المستنصر
أنه كان ماجنا فاسقا ، ولم نعرف أن الشريف ابن حيدرة اتصل بإمام من أئمة
الفاطميين ، وقد تكون القصة أن المستنصر كان يخرج إلى جب عميره فى عيد
الأضحى بقصد الزهة ، واتفق أن سمع ابن دحية بهذا الخبر وسمع أبيات ابن
حيدرة السابقة ، فنسج خياله قصة لهُو المستنصر وخروجه على هذا النحو الذى
وصفه استهزاء بالهيج ، ولكن تعصب المؤرخين ضد الفاطميين جعلهم يبدعون
فى حياكة مثل هذه القصص عنهم . وهكذا كان شعر ابن حيدرة سببا فى هذه القصة .
وكان ابن حيدرة شاعراً يحب الدعابة ويحميد الفكاهة ، وله عدة مقطوعات منها
قوله يداعب من خضب شبيهه :

يا من يدلس شبيهه بخضابه
يا من المدلس لا يزال مريباً
هب ياسمين الشيب عاد بنفسجا
أيعود عرجون القوام قضيباً (٢)

وقال مرة أخرى :

قد هجونا وكان غير صواب
ورميننا بعنبر فى تراب
وظلمنا الحسام وهو صقيل
إذ جعلناه فى أخس قراب
يا لها غلطة ، وإلا فماذا
ينفع الباز صيده للغراب

وقال :

سألت أبا يوسف حاجة
فقال : أجيء بها فى غد
فقد سلط السل من مطله
فأضنى به جسد الموعد

وبجانب شعره فى المجون والدعابة والطبيعة ترى لابن حيدرة شعراً فى الفخر
بنسبه إلى آل أبي طالب ، فهو يقول :

من عندنا أتت الحكم
وبنا تأدبت الأمم
ولنا نوال هائل
ينهل من سحب الهمم

قوم إذا استرقتهم تركوك من أهل النعم (١)
ويقول مرة أخرى :

نحن الذين غدت رجا أحسابهم ولها على قطب الفخار مدار
قوم لغصن ندام من رفدهم ورق ومن معروفهم أثمار
من كل وضاح الجبين كأنه روض خلائقه له أزهار (٢)
كان ابن حيدرة يمتاز بناحية خاصة في فنه الشعري هي تلك الناحية التي أشار
ليها صاحب المغرب وقال : « إنه كان من أئمة المشبهين ، وكان صاحب المغرب
أراد أن الشاعر كان من المكثرين من الزينة اللفظية والبيانية في شعره ، ولعل
هذه الأبيات القليلة التي رويناها له تدلنا على صدق ما ذهب إليه ابن سعيد .

القليوبى الطائب

ومن يجرى في حلبة ابن وكيع التنيسى وابن حيدرة العقيل وغيرهما من
شعراء المجون والطبيعة شاعر كان يكتب في ديوان العزيز بالله الفاطمي والحاكم
وتوفي أيام الظاهر ، ويروى ابن شاكر عن ابن سعيد أن ابن الزبير وصفه
بالإجادة في التشبيهات ، وأنه غلا في ذلك فقال : إن أنصف لم يفضل عليه ابن المعتز (٣)
ذلك الشاعر الكاتب هو علي بن محمد بن أحمد بن حبيب القليوبى الكاتب . قيل
إنه كان أحد الشعراء الذين مدحوا الأئمة والقواد والكتاب ، ولكن مدائحه
ضاعت ولم يبق منها شيء ، بل قل إن شعره كله فقد ولم يبق منه إلا عدة أبيات ،
منها قوله :

وصافية بات الغلام يديرها على الشرب في جنح من الليل أدعج
كأن حباب الماء في وجناتها فرائد در في عقيق مدرج
ولا ضوء إلا من هلال كأنما تفرق منه الغيم عن نصف دملج
وقد حال دون المشتري من شعاعه وميض كمثل الزئبق المترجرج
كأن الثريا في أواخر ليلها تحية ورد فوق زهر بنفسج (٤)
ولست أدري ما الذي حدا بهذا الشاعر إلى أن يذكر أسماء الكواكب
ويتحدث عن النجوم ، وذلك في كل المقطوعات التي بقيت لنا من شعره ، ولعل الشاعر

(١) المغرب ص ٧٨ .
(٢) (٢) ص ٦٩ .
(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٦٩ (٤) المصدر نفسه .

كان من المشتغلين بالأرصاد في عصر اهتمت الدولة بها ، فالشاعر يقول مثلا :
نجمت نجوم الزهر إلا أنها في روضة فلسكية الأنوار
وكأنما الجوزاء منها شارب وكأنما المريخ كأس عقار
ويقول من قصيدة أخرى :

وصفراء من ماء السكروم كأنما دجى الليل منها في إزار معصفر
كأن حباب الماء في وجناتها من الدم إكليل لتاج مزعفر
قطعت بها ليسلا كأن نجومه إذا اعترضتها العين نيران عسكر
تراها بأفاق السماء كأنما مطالعها منها معادن جوهر
ومنطقة الجوزاء تبدو كأنها وسائط در في قلائد عنبر
وبانت بعيني الثريا كأنما على الأفق منها غصن ورد منور
فبت أراعي الفجر حتى تشمرت ذبول الدجى عن مائه المتفجر (١)

فتيل الغواني :

ولقب أيضا بصريع الدلاء ونبز بذى الرقاعتين ، ويسميه ابن خلكان بأبي حسن علي بن عبد الواحد الفقيه البغدادي ، وسماه مرة أخرى بأبي الحسن محمد ابن عبد الواحد القصار البصرى ، ولم يحقق أحد الاسمين ، واكتفى بقوله : « والله أعلم (٢) » ، أما ابن شاكر فاكتفى في ذكر اسمه بأن قال : محمد بن عبد الواحد الملقب بصريع الدلاء وفتيل الغواني (٣) . ويرى السيوطى أن اسمه على بن عبد الواحد (٤) ويحيل إلى أن اسمه محمد بن عبد الواحد ، لأن ابن خلكان ذكر أنه قرأ ذلك في نسخة ديوان شعره . لم يكن هذا الشاعر مصريا ولكنه ولد على مصر سنة اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة ، ومدح الإمام الظاهر ، وعرف بمجونه ، وسلك في شعره مسلك أبي الرقعمق في هزله ومجونه ، ومن ذلك قصيدته التي عارض بها مقصورة ابن دريد ، وفيها يقول :

من لم يرد أن تثقب نعاله يحملها في كفه إذا مشى
ومن أراد أن يصون رجله فليسه خير له من الحفا
من دخلت في عينه مسلة فاسأله من ساعته عن العمى
من أكل الفحهم تسود فمه وراح سخن خده مثل الدجا

(١) فوات الوفيات ص ٧٠ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٩ .
(٣) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٧ . (٤) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢٣ .

من صفع الناس ولم يدعهم أن يصفعوه فعليهم اعتدى
من ناطح الكباش يفجر رأسه وسال عن مفرقه شبه الدما
من أكل الكرش ولم يغسله سال على شاربه ذاك الدوا
من طبخ الديك ولم يذبحه طار من القدر إلى حيث يشا
من شرب المسهل في فعل الدوا أطال ترداداً إلى بيت الخلا
من مازح السبع ولم يعرفه مازحه السبع مزاحاً بجفا
وألف حمل من متاع تستر أنفع للمسكين من لقط النوى
والدرج يلقى بالانشا ملصقا والسرج لا يلزق إلا بالغرا
والذقن شعر في الوجوه نابت وإنما الاست التي تحت الخصا
من فاته العلم وأخطاه الغنى فذاك والكلب على حد سوا
فاستمعوها فهي أولى لكم من زخرف القول ومن طول المرا

وقال في آخرها مشيراً إلى ابن دريد :

فتلك كالدر يضىء لونها وهذه في وزنها مثل الحدا (١)

وهذا الشاعر هو الذي أشار إليه أبو العلاء المعري في قوله :

دعيت بصارع فتداركته مبالغة فرد إلى فعيل (٢)

ولكن هذا الشاعر لم يمكث طويلاً في مصر إذ توفي في السنة التي وفد فيها .

وفي القرن السادس نرى عدداً كبيراً من شعراء الفكاهة والمجون خلعوا على أنفسهم ألقاباً فكاهية، فالشاعر يحيى بن علي السكتي نيز « بالوضيع » وهو صاحب الأبيات التي يفخر فيها بنسبته إلى مذهب أبي نواس في المجون :

أنا نائب الشرع النواسي دعنى وباطيتى وكاسي

أهوى الغزاة كاعبا وأهيم بالظبي الخناسي

من كل معتدل رشيق القم د ممشوق خلّاسي

متعكرش فإذا اخترت وجدت منحل الأساس

لكن لإفلاسي جيدت السامري بلا مساس

لي منزل لا شيء فيه ه كأنه كيسى وراسي (٣)

(١) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٧ (٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٩ (٣) الخريدة ورقة ١٠٥

والشاعر الفقيه ، ونيز « بالنسناس » ومن شعره :

خلعت رداء التصابي المعارا وكان بفودي غراب فطارا
وكم خضت باللؤلؤ ليل الشباب إلى أن أرائني المشيب النهارا
لئن كدر الشيب صفو الشباب وبات برغمي ديارا ديارا
فلا بأس أن مد لج البعاد فإن لسكل مسيل قرارا (١)

والشاعر محمد بن إسماعيل وعرف « بالتاريخ » ، ومن مجونه :

ألا فاسقياني ما تدير ثناياه وما أودعت من خمرها بابل فاه
ولا تنكرا سكري بغير مدامة فسيان عندي ريقه وحمياه
إذا كان كاسي مترعا من رضايه ونقل ما تبدي من الورد خداه
كفاني ريحانا وراحاسلاف ما حوى ثغره أو أنبتته عذاراه
غزال يتاييع المدامع ورده وروض القلوب المستهامة مرعاه
سل البان عنه هل إلى البان أصله فربي جدياه ودوياه روياه
فله ما أشجى فؤادا ملكته وأغراه بالبيض الحسان وأصباه (٢)

ومن شعره :

لاه بغانية وراج ناه لعاذلة ولاح
ما زال يشرب كأسه صرفا على ضرب الملاح
ما بين زمزمة البنود وبين وسواس الوشاح
حتى مضى مسك الدجي وأنار كافور الصباح (٣)

والشاعر الفقيه أبو محمد عبد الله بن أبي سعد ، نيز « بالكاسات » ووصفه ابن الزبير بقوله : « إنه كان خفيف الروح كثير المجون ، يضحك بنوادره وستهفه المحزون » (٤) ولكن فقد شعر هذا الشاعر الماجن ، ولم يبق له سوى أبيات في المدح .

والقائد أبو طاهر إسماعيل بن محمد عرف « بابن مكنسة » وهو يعد من فحول الشعراء في أواخر القرن الخامس ، وشهد القرن السادس ، وهو الشاعر الذي ذكرنا أن الأفضل هجره وأبعده لمدايح في أبي المليح النصراني ، وهو أحد الذين

(١) الخريدة ورقة ١٠٦ . (٢) المصدر نفسه .

(٣) الخريدة ورقة ١٠٧ . (٤) المصدر نفسه .

أشاد بذكرهم أمية بن أبي الصلت في رسالته المصرية ، وكان ابن مكنسة في بعض
هزله يذهب مذهب أبي الرقعمق في الحماسة والمجون ، من ذلك قوله :

أنا الذي حدثكم عنه أبو الشمقمق
وقال عني إنني كنت نديم المتقى
وكنت كنت كنت كنت من رماة البندق
حتى متى أبقى كذا تيسا طويل العنق
بلحية مسبلة وشارب محلق
يا ليتها قد حلقت من وجه شيخ خلق (١)

وفي مقطوعة أخرى يشكو كبره وضعفه :

عشت خمسين بل تزيد رقيعا كما ترى
أحسب المقل بندقا وكذا الملح سكرا
وأظن الطويل من كل شيء مدورا
قد كبر بره برب بره وعقلي إلى ورا
عجبا كيف كل شيء أراه تغيرا
لأرى البيض صار يو كل إلا مقشرا
وإذا دق بالحجا ر زجاج تكسرا (٢)

وانظر إلى هذه المقطوعة في وصف منزله وضيقه :

لى بيت كأنه بيت شعر لابن حجاج (٣) من قصيد سخي
سابقتي بنات وردان حتى أنا فيه كنفارة في كنيف
أين للعنكبوت بيت ضعيف مثله ، وهو مثل عقلي الضعيف
وإذا هب فيه ريح السراويل فسلم على اللحي والأنوف
بقعة صد مطلع الشمس عنها فأنا مذ سكنتها في الكسوف
وهو لو كان من حبيبي ونسكى صدني بغضه عن التطويف (٤)
فابن مكنسة في هذه الأبيات يتحامق كأستاذه أبي الرقعمق ، وذلك بجانب قصائده

(١) الحريرة ورقة ١٩٣ . (٢) المصدر نفسه ورقة ١٩٤ .

(٣) يقصد الحسين بن الحجاج الشاعر العراقي الماجن (٤) الحريرة ورقة ١٩٢ .

التي كان يجد فيها ، فلا نجد أثرا لهذه الحماقات وهذا الهزل وتلك الدعابة ، فهو يقول مثلا في إحدى مدائحها :

ملك بكفيه وأسيافه تقسم آجال وأرزاق
ذلت لنعاك نفوس كما ذلت لأسيافك أعناق

ويقول في إحدى مقطوعاته :

أقول ومجرى النيل بيني وبينكم ونار الآسى مشبوبة بضلوعي
تراكم علمتم أنى لو بكيتمكم على النيل لاستخرقته بدموعي
وهكذا نرى الشاعر قد ضرب بسهم في جد الشعر وهزله .

ومن شعراء المجون في القرن السادس الشاعر أبو علي حسن بن إسماعيل المعروف بالمكربل ، وكان شاعرا هجاء ، وصفه ابن الزبير بقوله : كان لسانه مقراض الأعراض ، بلغ المائة من العمر ، ولم يسمع له في المديح شعر إلا نزر يسير ، ولا قبل من أحد جائزة ، ولا امتد أمله إلى نيل رغبة (١) . ومقطوعاته كلها التي وصلت إلينا هي في الهجاء المقذع ، فمن ذلك قوله في الشاعر ابن باق الجزار ، وكان في مقدمة الشعراء في عصره :

قالوا ابن باق شاعر مقدم في الشعرا
قلت نعم قد قدمو ه عنهم إلى ورا
كأنما يمضغ في إنشا ده الشعر خرا
وقوله في ابن باق الجزار أيضا :
لا تظن أنى أهجوكا قد كفاني بأن يعيش أبوكا
وقوله في بعض علماء عصره :

فهل عندكم من مفخر أو فضيلة سوى طول أجسام وعرض كمام
طوال بلا طول ، قصار عن العلى عجبت لنقص منهم وتمام
وقوله :

قولوا لمن يكرمنى في السلام بهزة القامة لى والقيام
أشهى إلى النفس وأحلى من القيام يا سيدى أن تنام

وعلى هذا النحو كان هجاء هذا الشاعر المشهور بالمكربل ، وقد وجد المكربل من الشعراء من يقف له ويهجوّه ، فالشاعر ابن قتادة المعدل المصري كان يضطر إلى

(١) الحريرة ورقة ١٩٨ .

الرد عليه ، فكلما هجاه المكربل أجابه ابن قتادة ، فمن قوله في المكربل :

مانال خلق في الهجا ما ناله المكربل
كل الهجاء آخر وهو الهجاء الأول
لأنه يأخذ من عرضه ويعمل (١)

ومن شعراء المجون في آخر عصر الدولة الفاطمية الشاعر علي بن حسن بن

إسماعيل ، ففي إحدى مقطوعاته المأجنة يقول :

قم قبل تأذين النواقيس واجلُ علينا بنت قسيس
عروس دن لم يدع عتقها إلا شعاعا غير ملبوس
تجلى علينا باسمها ثغرها فلا تقابلها بتعبيس
مذهبة اللون إذا صفقت مذهبة اللهم والبوس
لا غرو ما تأتيه من ريبة لأنها عنصر إبليس
ليس لها عيب سوى أنها حسرة أقوام مفاليس
في روضة كانت أزاهيرها كأنها ريش الطواويس
فاغتمم اللذات في دولة صافية من كل تعكيس (٢)

وقوله من مقطوعة أخرى :

وليلة كاغتماض الطرف قصرها وصل الحبيب ولم تقصر عن الأمل
بتنا نجاذب أهداب الظلام بها كف الملام وذكر الصد والممل
وكلما رام نطقا في معاتبتى سددت فاه بطيب اللثم والقبل
وبات بدر تمام الحسن معتنقى والشمس في فلك الكاسات لم تقل
فبت منها أرى النار التي سجدت لها المجوس من الإبريق تسجد لي
راح إذا سفك الندمان من دمها ظلمت تقهقه في الكاسات من جذل
فقل لمن لام فيها إننى كلف مغرى بها مثلها أغريت بالعدل (٣)

ومن شعراء المجون أيضا الشاعر أبو الغمر الإسناوى محمد بن علي الهاشمي

المتوفى سنة ٥٤٧هـ الذي وصفه العماد بقوله: أشعر وقت زمانه، وأفضل أقرانه (٤)

(١) الخريدة ورقة ١٠ . (٢) ورقة ١٣٥ .

(٣) ورقة ١٣٦ . (٤) الخريدة ورقة ١٦١ .

وروى له من شعره عدة مقطوعات تدل على رقة الشاعر وعضوبة شعره مع سهولة هذا الشعر، فمن ذلك قوله :

أيها اللائم في الحيا ب لحساك الله حسبي
لست أعصى أبداً في طاعة العذال قلبي

وقوله في غلام لبس في عاشوراء ثوبا من الصوف :

أيا شادنا قد لاح في زى ناسك فباح بمكنون الهوى كل ماسك
رويدك قد أدركت ما يعجز الظبا وأضرمت نيران الجوى المتدارك
أنحن فتكنا بابن بنت محمد فتأر منا بالجفون الفواتك
وقوله وقد أحش في مجونه :

بن شادن هو أدنى إلى مذ كان مني
فقد تعجلت قبل الملمات جنة عدن
به تعففت عما يصمم بالعدل أدنى
لأنه صان عرضي عن أن ألوط وأزنى
وزادني فيه حبا وصف يطابق في
لم يتسع خرقه لي كلا ولا ضاق عني
خلقة الظهر منه صيغت لإصبع بطني

ومن قوله :

أحاطكم تجرحنا في الحشا ولحظنا يجرحكم في الخدود
جرح بجرح فاحسبوا ذا بدا فما الذي أوجب جرح الصدود (١)
ومن قوله :

أيا ليلة زار فيها الحبيب ولم يك ذا موعد ينتظر
وخاض إلى سواد الدجا فياليت كان سواد البصر
وطابت ولكن ذمنا بها على طيب رياه نشر الشجر
وبتنا من الوصل في حلة مطرزة بالتقى والخفر
وعقلي بها نهب سكر المدام وسكر الرضاب وسكر الحور

(١) تنسب هذه الأبيات إلى الشاعرة الأندلسية ولادة بنت المستكفي .

وقد أخجل البدر بدر الجبين وتاه على الليل ليل الشعر
وأعدى نحولى جسم الهوى وأعداه منى نسيم عطر
فنى معتبر العاشقين ومن حسن معناه لإحدى العبر
ومن سقى وسنا وجهه أريه السها ويرينى القمر
وله مقطوعة يذم الزمان ويرم بالناس حوله :

زمان يخلط فى فعله كأن به سكرة العاشق
وخلق إذا ما تأملتهم جحدت بهم حكمة الخالق (١)
وقد ذكرنا شيئاً عن دعاية ابن الصياد فى أنف ابن الحباب حتى بلغت
مقطوعاته ألف مقطوعة، ولم يردده عنه سوى تعرض ابن قادوس له، وذكرنا
فكاهة الجليس فى الطبيب، وهما هوذا ابن قادوس يداعب رجلاً كان يكبر كثيراً
فى الصلاة، فيقول :

وفاتر التية عنينها مع كثرة الرعدة والهزه
يكبر سبعين فى مرة كأنه صلى على حمزه
ويداعب آخر كان يلوم ابن قادوس على مجونه، فيجيبه بقوله :

ولاتم يلومنى يريد منى توبى
يقول لى الموت غدا فقلت هذا حجتى

وانظر إلى هذه الدعاية الطريفة من ابن شمول المقرئ :

تبسمت إذ رأتنى وشيب رأسى يحوم
فقلت شعرى ليل والشيب فيه نجوم
فاستضحكت ثم قالت كما يقول الظلوم
يا ليتها من نجوم غطت عليها الغيوم (٢)

ومما يروى أن الطبيب جرجيس الملقب كان بالفيلسوف، كان يزور فصولاً
طبية فلسفية على الطبيب أبى الخير سلامة بن رحمون، وكان يبرز هذه الفصول
فى معارض ألفاظ القوم وهى لامعنى لها، ثم ينفذها إلى من يسأل أبى الخير عن
معانيها ويستوضحه أغراضها، فيتكلم أبو الخير عليها ويشرحها دون تيقظ ولا
تحفظ، فيوجد فيها عنه ما يضحك، ولذلك هجاه أحد الشعراء بقوله :

(١) الحريدة ورقة ١٦١ . (٢) تاريخ ابن العبرى ص ٣٤٨ .

إن أبا الخير على جهله يخف في كفته الفاضل
عليه المسكين من شومه في بحر هلك مانه ساحل
ثلاثة تدخل في دفعة طلعتة والنعش والفاصل (١)

وللشاعر محمود بن ناصر الإسكندراني . وكان كاتب ابن حديد القاضي
يداعب طبيبا :

صديقنا المستطب نادرة قد أخذت منه أعين الناس
أنياب غول ومشفرا بجمل ورأس بغل وذقن نسناس (٢)

ونختم هذه الكلمة بقصيدة الشاعر رضى الدولة أنى سليمان داود بن مقدم ،
وكان أحد الشعراء الذين عرفوا بالفكاهة وقال عنه ابن الزبير : إنه من أبناء الجند
بأسفل مصر (أى بالوجه البحرى) إلا أن همته سمت به من الأدب إلى دوحة يقصر
عنها أمثاله ، ولا يطمع فيها أضرابه وأشكاله ، وعضده على ذلك جودة الطبع ونفاذ
القريجة ، حتى أدرك بعفو خاطره وسرعة بديهته ما لم يبلغ إليه كثير من أبناء
عصره فى الدأب على اقتناء الأدب . وذكر ما معناه أنه كسدت سوقه ، وجحدت
حقوقه (٣) ، وفى هذه القصيدة التى نذكرها له يصف حالة ولاية الأقاليم والجند
وما كانوا عليه من ظلم وفساد ، ويصور حالة الرشوة التى كانوا يأخذونها من الناس
وما كانوا يجربونه من الأسواق ، فهى قصيدة تهكمية ، ولكنها تصور حالة العصر
أصدق تصوير ، فهو يقول فى الأمير ابن كازوك وكان الى الغربية :

أيها المخلص المسكين ومن كفه أيها فى كل أزمة تكفان
بان عنا أهل المحبة واعتصنا بنا بأهل البغضاء والشنآن
نحن أشقى بختنا وأتعس حظا إذ قضانا بصفقة الخسران
إذ رعانا بأبغض الخلق مذكا ن وكانوا لكل قاص ودان
رجل صيغ من حماشيب بالشر ة خلطا والشوم والخذلان
والرياء والبغاء والجهل والإفك وسوء الطباع والبهتان
ما ظننا من قبله أننا نلقى جميع السوءات فى إنسان

يتلقاك كالحا عابس الوجه
وله إخوة وأفعالهم في الما
حر قلبي على مثولي بالبا
أيها الأملعي أعوزك الرعي
أي شيء غال الكفاة من السكت
صاحب الخيل والجواشن والبي
ماله والنسكول عن سفر الش
وطلاب المشارفات وتحق
ليس هذا إلا لأن الخراف ال
والرحيق الذي عهدناه لاي
تجتملى في الكسوس صرفا مع
والإجابات الهأدب أشهى
وطلاب الدليل بالرسم أو
فاتركونا معاشر الجندواعنوا
والولايات والحمايات والزم
والمعاصير والسواقي وتسو
وارتعوافى جزور ذى الدولة اله
واشغلونا بما فيه يشغل اله
بالطحال المسدود أو طرف الر
واغنموا هدية ، كتهوية الـ

بقلب خال من الإيمان
ل فعل الذئاب بالخلان
ب وقولى لصاحب الديوان
ن حتى استرعت بالذئبان
اب لولا عوائق الحرمان
ض وبيض الطلى وسمر اللدان
سام وصددم الأقران بالأقران
ق بقايا العمال والخزان
بيض فى ريفنا بلا أثمان
باع إلا بالنقد أو بالرهان
المجان والمسمعات بالمجان
للقى من إجابة الديوان
لى من طلاب البراز للفرسان
بدرور الأرزاق كل أو ان
وأخذ الأجمال من كل خان
يغ الضياع المسورات الحسان
امى نداها فى أطيب اللحان
لنفع أو خيفة العدوان
ثة أو بالمعلاق والمصران
ركب، وقيتمهما من الحدثنان (١)

الفصل السادس

في الغزل

لا أكاد أعرف شاعراً من شعراء مصر الفاطمية لم ينشد في الغزل ، فجميع الشعراء الذين بلغنا شيء من شعرهم كانوا يتغزلون ، سواء أكان هذا الغزل في المؤنث أو في المذكر، شأنهم في ذلك شأن شعراء العربية في الأقطار الأخرى ، فكان شعراء المدح — الذين ألموا بالعقائد المذهبية في شعرهم — يتبعون سنة الشعراء الأقدمين في الابتداء بالغزل . ولما أراد العباد الأصهباني أن يروي شيئاً من شعرهم ، اكتفى بالمقدمات الغزلية التي افتتحوها بها قصائدهم ، وأبى أن يروي شيئاً من مدح الأئمة .

وإذا نظرنا فيما بقي لنا من شعر الغزل في هذا العصر رأينا المصريين كانوا يرددون في أشعارهم هذه الصفات العديدة التي ردها الشعراء من قبل في صفات المرأة وما تمتاز به المعشوقة من فتنة ودلال وسحر ، ولكن الشيء الذي يلفت نظرنا في هذه الأشعار الغزلية أن الصور التي صاغ فيها المصريون هذه الصفات اختلفت باختلاف الحياة المصرية والبيئة المصرية ، انظر مثلاً إلى قول أبي الحسن التنيسي الملقب برضى الدولة :

راح من خمر الصبا مغتبقا	ثملاً ، أحسن شيء خلقا
تفعل النشوة في أعطافه	فصل عينيه بأرباب التقى
رشاً قد أقسمت أحاطه	ليريقن دما من عشقا
من عذيري من غزال كلما	سئل الرحمة أبدى حنقا
ورأيت الترجس الغض وقد	أخجل الورد بما قد أحدقا
ينهب الناهب من زهرته	ويذود اللبس عما بسقا
كم أناديه وذلى شافعي	وفؤادى يتلظى حرقا
هكذا يجزى بكم من عشقا	لاجعاً يسرى وقلبا موبقا (١)

فالمعاني التي جاء بها الشاعر في هذه المقطوعة والتي قدم بها للبدح ليست بجديدة
في الشعر العربي ، إنما الجديد في هذه الأبيات هي هذه الصور المختلفة التي صاغ فيها
هذه المعاني القديمة .

واقظر إلى قول الشاعر ابن قتادة المعدل ، وقد أتى بمعان لم يطرقها القدماء
في غزلهم :

نظري إليك يزيد في نظري فعلام تحجيني عن النظر
يا جملة الحسن التي اقتسمت منها المحاسن جملة البشر
لهواك بين جوانحي كتب قد عنونت بالدمع والسهر^(١)
فهذه المعاني التي ألم بها الشاعر في هذه الأبيات لم يطرقها — فيما أعرف —
شاعر عربي من قبل ، وإن كان القدماء قد أكثروا من ذكر الدمع والسهر ، ولكن
الشاعر المصري جعل لهوى المحبوب في نفسه كتبها عنوانها الدمع والسهر .
ويتغزل الشاعر أبو الحسن علي بن الحسن بن معبد القرشي الإسكندري ،
فيقول في مقدمة إحدى قصائده :

ومفهمف طالت ذوائب فرعه كالليل فاض على الصباح المسفر
قصر الدلال خطاه فاعتلقت به لي مهجة عن حبه لم تقصر
وسنان كحل السحر حشو جفونه ففتورها عن مهجتي لم يفتر
ملك القلوب بدر سمطي لؤلؤ عذب اللي في غنج طرف أحور
وبوجنة رقم الجمال رياضها بينفسج من فوق ورد أحمر
كتب العذار على صحيفة خده هذا بداية حيرة المتحير
وهبت محاسنه السكال فأصبحت فتن العقول وروض غير المبصر^(٢)

ويقول مرة أخرى في مقدمة قصيدة أخرى :

وإني لاهوى رشاً ساحرا أعار فتور العيون الظبا
إذا ما تثنى فخصن نقا وبدر جلا شعره غيها
وزانت يحياه خيلانه كما يتبع الكوكب السكوكبا
وبن أسمر ناسبته القنا يروك خدا جلا مذهبها

(٢) الخريدة ورقة ١٣ .

(١) الخريدة ورقة ٢٩ .

سقى روض خديه ماء الشبا ب ففتح زهرا به معجب
تقلد من لحظه صارما أسال النفوس وما ذنبا
وملك من حسنه دولة لطاعتها كل قلب صبا^(١)

فهذه الصور المختلفة التي رسمها الشاعر في هذه الأبيات ليس بها هذه الصور التي رأيناها في شعر القدماء ، ولكنها صور متحضرة ، لا يذكر الشاعر جزءا من أجزاء الجسم إلا ليصور أثره في نفسه ، ويقرن بين هذه الصورة التي أتى بها وبين صورة أخرى أخذها الشاعر من الطبيعة التي حوله والحياة التي يحياها ، فالشاعر المصري في غزله لا يأتي بأجزاء الجسم ليصفها وصفا واقعيا — إن صح هذا التعبير — إنما كان يتحدث دائما عن الناحية النفسية أكثر مما يتحدث عن الصفات الحسية ، وهنا نرى فرقا كبيرا بين شعراء العرب القدماء وبين شعراء مصر الفاطمية ، فالشاعر العربي كان ماديا في وصفه ، والشاعر المصري كان عاطفيا ، وإنما جاء هذا الخلاف من تحضر مصر الفاطمية ورفق عاطفة المصريين برقى حياتهم .

ناحية أخرى نراها فيما بقى لنا من شعر الغزل في مصر الفاطمية ، تلك أن المصريين بدأوا يتركون الأوزان الطويلة ، وينشدون غزلهم في أشعار إما مجزوة أو منهوكة ، ويميلون إلى استخدام اللغة التي يصطنعها الشعب والتي لا يزال أثرها باقيا في مصر إلى اليوم . انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمرى :

ملك الشوق مهجتي جبذا من تملك
قد رمانى بحببه ونهاني عن البكا
إنما راحة المحب إذا أن أو شكى

ما أرى الملو عنده ، وإن جاز ، مسلكا^(٢)

فهذا الشاعر الدقيق الحس ، الرقيق الشعور ، وصف حالة المحب المضنى وقد تملكه الشوق فلم يجد راحة إلا إذا أن واشتكى ، بالرغم من أن المحب نهى عن البكاء ، فالتخذ هذا الوزن الخفيف ، واصطنع هذه الألفاظ التي تكاد أن تكون من ألفاظ الشعب ، فهذه المقطوعة وغيرها هي التي سنرى مثلا لها بعد ذلك واضحة في شعر البهاء زهير . ثم انظر إلى قول الشاعر طلائع الآمرى أيضا :

(١) المصدر نفسه ورقة ٢٨ . (٢) المصدر نفسه .

أنعموا لي بالوصال وارحموا رقة حالي
لا تذيبوا مهجتي من التجنى والدلال
ليس عذري في هواكم قد بدا لي قد بدا لي
إنما قصدي رضاكم قد حلا لي قد حلا لي
وإن اخترتم عذابي لا أبالي لا أبالي (١)

أليست هذه المقطوعة أقرب إلى لغة الشعب المصري منها إلى لغة الشعراء الذين عودونا الجزالة في اللفظ مع حسن الديباجة ، ولكن الشاعر هنا كان شاعراً مصرياً قبل كل شيء ، وكان يتغزل ، فاصطنع هذه الألفاظ السهلة والأوزان الخفيفة .

وليس معنى ذلك أن كل شعر الغزل على هذا النحو الذي رأيناه عند طلائع الآمرى ، فقد كان للبصريين لوانان من شعر الغزل ، اللون الأول الذي يختار فيه الشاعر ألفاظاً جزلة ووزناً قوياً طويلاً ، أما اللون الآخر فهو الذي يترك الشاعر فيه نفسه على سجيته بلا تصنع ، فلا ينتقى الألفاظ الجزلة بل ينشد ما يجرى به لسانه وما تمليه عاطفته ، وقد رأينا طلائع الآمرى في المقطوعة الأولى السابقة يميل إلى اللون الثاني من ألوان الغزل ، ونراه مرة أخرى ينشد المعنى نفسه ولكن في صياغة أخرى تختلف تمام الاختلاف عما رأيناه له ، فهو يقول :

تريد الهوى صرفاً من الضر والبلى لعمرك ما هذى قضية من هوى
إذا لم يكن طرف المحب مسهداً وأدمعه تجرى ، فهذى هي الدعوى
ولا حب إلا أن ترى كلفة الهوى الذ من المن المنزل والسلوى
وحق ترى القلب القريح من الهوى يمانعه الصبر الجميل من السلوى
رعى الله من أعطى المحبة حقها وإن لم يكن فيها من الأمر ما يقوى (٢)

فالشاعر في هذه المقطوعة يختلف في غزله عن ما جاء به في مقطوعته الأولى ، فالشاعر حاول اللونين من شعر الغزل ، على أن أكثر شعر الغزل الذي انتهى إلينا هو من اللون الخفيف الذي يقرب من أسلوب العامة ، فالشاعر مروان بن عثمان اللكي تلمح في غزله أثر السهولة التي تتفق مع رقة الغزل وعاطفة الحب حين يقول مثلاً :

ما بال قلبك يستلين أبه غرام أم جنون
برح الخفاء بما يجن فأذهب الشك اليقين
حتى متى بين الجوا نح والضلوع هوى دفين
وإلى متى قلبي المتين في يد البلوى رهين
يا ما طلى بديون قلبي أن أن تقضى الديون
شخصت له فيك العيون وتقسمت فيك الظنون
وسلمت ألباب الورى باواظظ فيها فنون
وقوام أغصان الربا ض وأين تدرك الغصون
الحسن فى الأغصان فن وهو فى هذا فنون
من أين للأغصان ذا ك الغنج والسحر المبين
أم ذلك الورد الجنى بخده والياسمين (١)

ثم اقرأ هذه المقطوعة الأخرى من غزل ابن عثمان اللسكى التى تظهر فيها
عاطفة الشاعر فى أسلوب أهل مصر الآن ولا سيما فى البيت الثالث :

تمسكن منى السقم حتى كأننى توهم معنى فى خفى سؤال
ولو ساحت عيناه عيني فى السكرى لأشكلك من طيف الخيال خيالى
سمحت بروحى وهى عندى عزيزة وجدت بدمعى وهو عندى غالى
وقد خفت أن تقضى على منيتى ولم أقض أوطارى بيوم وصال
وهون ما ألقى من الوجد أنه صدود دلال لا صدود ملال (٢)

وها هو ذا الشاعر أحمد بن محمد المادرائى يتغزل :

يا حبيب العمر عطفاً فىنى بهواكم على لظى أتلقى
إن وصلتكم ، وصلتكم مستهما عن هواكم وحبكم ما تخلى
هو عبد الهوى ، وليس يباغى عتقه فى هوى ولومات قتلا (٣)

ويقول الشاعر إبراهيم بن إسماعيل الدمياطى :

يا هذه ، رقى على صب دنف صبره الهجر إلى حد التلف

(٢) ورقة ٧١

(١) الحريدة ورقة ١٢٩ .

(٢) ورقة ٢٥

رقى عليه ، وصلى حباله فإنه عن حبكم لا ينصرف (١)
وبالرغم من أن الشاعر أبا محمد هبة الله بن علي بن عرام كان من إقليم أسوان
فإن غزله كان متأثراً بالحياة اللينة التي عرفت بها مصر ، ولا سيما أنه وفد
على القاهرة ومدح بها الوزير رضوان وغيره من رجال الدولة ، فأسهم مع غيره
من شعراء مصر في التغزل في الأوزان السهلة الخفيفة والألفاظ والصور الشعبية ،
فهو الذي يقول :

من معبى على اقتناص غزال نافر عن حبائلي رواغ
قلبه قسوة كجلود صخر خده رقة كزهر الباغ
كلما رمت أن أقبل فاه لدغتي عقارب الأصداغ
وقوله أيضا :

لدغتي عقارب الصدغ منه فسلوه من ريقه درياقا
إنني عاشق له ، وهو مذكا ن ظلوم لا يرحم العشاقا (٢)
وقوله :

يا لائمي في غزال قلبي رهين يديه
لا تطمعن في سلوى فلا سليل إليه
لم لائمي فيه قوم وعنفوني عليه
حتى إذا أبصروه خروا سجودا لديه
فاحفظ فؤادك فالموت في ظبا مقلتيه (٣)

أضف إلى ذلك أن القدماء لاحظوا أن للبصريين بعض المعاني المبتكرة ، من
ذلك قول الأخفش في العذار :

وكان العذار في حمرة الخد على حسن خدك المنعوت
صولجان من الزمرد معطوف على أكرة من الياقوت (٤)
ولكن العماد أخذ على الشاعر أنه ذكر (الخد) مرتين في البيت الأول ،
مع اعترافه بأن المعنى مبتكر لم يسبق الشاعر إليه .
وكذلك قال القدماء : إن قول أبي الغمر الأسناوي في العذار من المعاني المبتكرة

(٢) الحريدة ورقة ١٨١

(٤) ورقة ١٣١

(١) الحريدة ورقة ٢٥

(٣) ورقة ١٨١

وغزال خلعت قلبي عليه فهو باد لأعين النظار
قد أرانا بنفسج الشعر بدرأ طالعا من منابت الجلتار
وقدت نار خده ، فسواد الشعر فيه دخان تلك النار (١)
وقول أبي الغمر الأسناوى أيضا :

وغزال أبدى لنا الله من بس تان خديه فى الحياة الجنانا
قد أرانا قدأ ، وخذأ ، وصدغا ، وعذارأ ، وناظرأ فتانا
غصنا يحمل البنفسج ، والنز جس ، والجلتار والريحانا (٢)

وقال القدماء أيضا إن قول أبى إسحق إبراهيم بن شعيب من المعانى المبتكرة
فى التغزل بسلام أسمر :

ياذا الذى ينفق أمواله فى حب هذا الأسمر الفائق
ما الذهب الصامت مستنكرا ذهابه فى الذهب الناطق (٣)
وكذلك قول المهذب بن الزبير فى غلام تفرغرت عند الوداع عيناه :
ومرنح الأعطاف تحسب أنه رح ، ولكن قد قلبى قده
إن قلت إن الوجه منه جنة - أضحى يكذبى هنالك خده
ولئن ترقرق دمه يوم النوى فى الطرف منه وما تناثر عقده
فالسيف أقطع ما يكون إذا غدا متحيرا فى صفحته فرنده (٤)
وقول ابن الضيف الداعى فى أمرد التحى :

كنت حيا فى المرذ حتى إذا عذرت جاء الممات والتعذير
مثل سطر العنوان يبدو وتطوى منه فى باطن السكتاب سطور (٥)
وقول الشاعر علم الدولة مقرب بن ماضى صاحب الواحات :
أهدى إلى معلى وردأ ولم يك وقته
فسألته عنه فقما ل من الحدود قطفته
قبلته وكاننى فى خده قبلته (٦)

ومن الطريف أن العماد الاصفهاني عندما أراد أن يروى شيئا من شعر هذا

(١) الخريدة ورقة ١٣٠
(٢) المصدر نفسه
(٣) المصدر نفسه
(٤) الخريدة ورقة ٤٤
(٥) المصدر نفسه ورقة ٥٧
(٦) المصدر نفسه ورقة ١٠٥

الشاعر قال « فن شعره قوله وأنا أكبرها عنه » ثم روى هذه المقطوعة السابقة ،
ولأدرى ما الذى جملة يكبر هذه المقطوعة عنه . على حين أن ابن الزبير وصفه
بقوله : « كان قر الفواضل ، كثير الفضائل ، غمر النائل ، مغناه مرمى ذوى
الآداب من المصريين ، و مترع المسترفدين منهم والمنتجعين »

وهكذا يستطيع الباحث أن يتتبع بعض المعاني المبتكرة فى الغزل فى الشعر
المصرى ، وهى معان أخذت من الحياة المصرية التى بلغت شأوا بعيداً فى التقدم
فى ألوان الحياة المختلفة .

ويقول القدماء إن بعض مقطوعات الغزل كان يتغنى بها المصريون ، ولاغرابة
فى ذلك ، فإن مقطوعات الغناء عند أكثر الشعوب هى مقطوعات غزلية ،
وليس مصر بدعا فى ذلك ، ولكن القدماء أرادوا أن يعطونا صورة مما كان
يتغنى به فى مصر الفاطمية ، فلنتبع القدماء على هذا النحو ، ونقدم عدة صور من
مقطوعات الغزل التى كان يتغنى بها ، فمن ذلك قول ظافر الحداد :

عتبت ولكنى لم أع وأين ملامك من مسمعى
وما قدر عتبك حتى يزيد ل غراما تمكن من أضلعي
وما دام لومك إلا وأنت تقدر أن جنانى معى
مضى كى يودع سكانه غداة الفراق ، فلم يرجع
فؤادى فى غير ما أنت فيه نخذ فى ملامته أودع (١)

وقول الشريف أبى الحسن على بن حيدر العقبلى وفيه لحن من غنائه :

يا غزالا رضا به سلسبيل هل لعذرى إلى رضاك سبيل
فوحق الرسول ما قلت شيئا من جميع الذى حكاه الرسول
ما أرى خلة يخل بها الحسن فاذا يقال أنى أقول (٢)
وقوله أيضا وفيه لحن من غناء غيره :

أعطافه فتنة الفتون وقده غصن الغصون
ظبي ظبا لحظ مقلتيه لها جفون من الجفون
يقود إن قاده الثنى كل جنسان إلى جنون
ما صد بعد الوصال إلا أجرى عيوننا من العيون (٣)

وقول ابن حيدرة العقبلي أيضا وفيه لحن من غنائه :
وعذول كان من قولي له لست أستحسن أجفوا حسنا
قال : لو كنت أنا أنت لما رضيت نفسي لجسمي بالضنا
قلت : دعني عنك ، واصنع ما تشاء ما أنا أنت ولا أنت أنا (١)

فهذه بعض صور من مقطوعات الغناء من شعر مصر الفاطمية كما حدثنا عنها
القدماء من رواة شعر مصر ، وهي مقطوعات غزلية يظهر فيها لون من ألوان
ذوق المصريين في المقطوعات الغنائية ، والعاطفة التي كانت تثار عند سماع هذه
المقطوعات .

ولم يشأ شعراء مصر أن يقفوا في غزلهم على تصوير مختلف مشاعرهم عند
رؤية الحبيب ، أو أن يتحدثوا عن جماله وصفاته وما يفعله ذلك كله في نفوسهم ،
إنما صوروا من ناحية أخرى الشوق لرؤية المحبوب إذا بعد عن أنظارهم أو
فارقهم إلى مكان آخر ، فالحديث عن الفراق أخذ حيزاً كبيراً من غزل شعراء
مصر الفاطمية ، وفي حديثهم عن الفراق نرى لوعة الحب الذي أضناه البعاد
وخشينا عليه من الهلاك .

وها هو الشاعر علي بن المؤمل بن غسان ينشد :

فتنت بفاتن الحدق وزاد بهجره أرقى
إذا ناديت من جزع أخذت القلب في طلق
رويدك سوف تلتقاني بلا قلب ولا رمق (٢)

وأنشد ابن معبد الاسكندري :

يا حادي الركب رفقا بالحبيب فقد طار الفؤاد وقل الصبر والجلد
لعل حبي يرى ذلي فيرحمني بنظرة عليها تشفى الذي أجد
يا ويح من ظعننت أحبابه وغدا مخلقا بعدهم أكباده تقد (٣)
وقال محمد بن وهب :

ولما تنادوا بالرحيل رأيتني أكفكف دمع العين من كل جانب
وأسأل ربي أن تدم ركابهم عن السير حتى أشتفي بجبابي

(٢) الخريدة ورقة ٩

(١) المغرب ص ٨٠

(٣) المصدر نفسه ورقة ١٣

فلم تك إلا ساعة سار ركبهم وسار فؤادى بين تلك الركائب
فلم أر يوم البين أعظم حسرة وللبين عندى من كبار المصائب (١)
وأنشد طلائع الأمرى :

ما لقلبي من لوعة البين راق أترانى أحييا ليوم التلاق
عزمة لم تدع لجفنى دمعاً لا ولا فى الحشا مكان اشتياق
أطمعونى حتى إذا أسرونى عذبوا مهجتى وشدوا وثاقى
واستلذوا الفراق حتى كأن لم يعلموا أنه مريز المذاق
فى سبيل الهوى نفوس أقامت بعد وشك النوى على الميثاق (٢)
وقال طلائع أيضاً :

ما أودعوك مع الغرام وودعوا إلا ليتلف قلبك المشتاق
قف فاستلم إثر المطى تعذلاً إن لم يكن لك نحوهن لحاق
وتنح عن دعوى هواك فإنه إن لم تمت يوم الفراق نفاق (٣)
وإذن فالغزل فى شعر مصر النماطمية صورة أخرى من صور الحياة المصرية
والعاطفة المصرية التى سميت فباعدت عن المادية التى عرفناها عند الشعراء الأقدمين ،
وذلك لاختلاف بيئة مصر عن غيرها من الأقطار العربية .

(١) الخريدة ورقة ٢٤

(٢) المصدر نفسه ورقة ٢٨

(٣) المصدر نفسه

البصير السابع

أغراض أخرى في الشعر

التصوف والزهد:

تحدثنا في الفصول السابقة عن بعض الأغراض التي قصد إليها الشعراء في مصر الفاطمية ، ولكن هناك بعض أغراض أخرى لا تقل خطرا في تصوير الحياة في مصر في ذلك العصر عن هذه الأغراض التي تحدثنا عنها من قبل ، فقد ذكرنا شيئا عن هذه الحياة الماجنة التي طغت على مصر حتى خيل لنا أن مصر لم تعرف إلا هذا اللون من ألوان العيش ، ولكن المصريين كان لهم لون آخر بجانب هذه الحياة الماجنة اللاهية ، وهذا اللون الآخر هو التفكير في العالم الآخر ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم عصورهم التاريخية إلى أن يهتموا بأمور الآخرة اهتمامهم بأمور الدنيا ، فإذا المصري منذ عرفه التاريخ مضطرا إلى أن يعيش لونين من الحياة يناقض أحدهما الآخر أشد التناقض ، فهو يعبت في حياته ويمجن ويمزح ماشاء له العبت والمجون والمزاح ، وهو في الوقت نفسه حريص على أن يفكر في آخرته فيتحدث عنها ويتذكرها ، ويظهر استمساكه بالدين وفرائضه وآدابه ، وقد رأينا تصوير الشعراء لحياة المجون ، أما الزهد أو التقشف فقد أكثر من الحديث عنه شعراء مصر أيضا ، حتى إن شعراء المجون أنفسهم كانوا ينشدون الشعر في الحث على الزهد والتمسك بأهداب الدين وطلب سعادة الآخرة ، وها هو ذا الأمير تميم الذي عرف بمجونه حتى حرم ولاية إمامة الدعوة يقول في الزهد :

أفريت دهرك تتقي فيه الحوادث والمصائب
ولو اتقيت معاصي الرحن فيما أنت راكب
لأمنت من نار الجحيم ، وفي الحياة من المعائب
إن لم تراقب من له حكم عليك ، فمن تراقب؟ (١)

(١) ديوان الأمير تميم

ويقول مرة أخرى :

يا عجبا للناس كيف اغتدوا في غفلة عما وراء الممات
لو حاسبوا أنفسهم لم يكن لهم على أخذ المعاصي ثبات
من شك في الله فذاك الذي أصيب في تمييزه بالشتات
يحييهم بعد البلى مثل ما أخرجهم من عدم للحياة^(١)
فمثل هذه الأبيات لاتصدر من شاعر عرف عنه أنه من أشد الشعراء مجونا
وعبثا ، ولكن طبيعة مصر اضطرتة إلى أن يتحدث عن الآخرة وعن الحياة
بعد الموت .

وها هو ذا الشاعر ابن حيدر العقيل الذي ذكرنا أنه شاعر الخمر في العصر
الفاطمي ، وأحد شعراء المجون ، ينشد في الزهد ويدعو إلى التقى والورع :
قد لاح في فودك المشيب ورت من عمرك القشيب
فكن لداعي التقى مجيبا من قبل تدعى فلا تجيب^(٢)
ونرى القاضى المعروف بالأديب أبى النضر ينشد :

النفس أكرم موضعا من أن تدنس بالذنوب
ما لذة الدنيا لها ثمنا وإن مزجت بطيب
فاسبق إلى إعداد زانك هجمة الأجل للقريب
والق الإله على التقى والخوف مزور الجيوب^(٣)
ويقول مرة أخرى يحث على الزهد وجهاد النفس :

جهاد النفس مفترض نخذها بأداب القناعة والزهاده
فإن جنحت لذلك واستجابت وخالفت الهوى فهو الإراده
وإن جمحت بها الشهوات فاكبح شكيمتها بمقمة العباده
عسك تحلها درج المعالى وترفعها إلى رتب السعاده^(٤)
وهكذا نرى العاطفة الدينية تسير جنبا إلى جنب مع عاطفة حب المجون
والشعر المصرى مملوء بالعاطفتين معا .

وقد ذكرنا في كتاب « أدب مصر الإسلامية » أن مصر عرفت التصوف

(٢) المغرب ص ٥٥

(٤) الخريدة ورقة ١٢٧

(١) ديوان الأمير تميم

(٣) الخريدة ورقة ١٢٦

ووجدت فرقة عرفت بالصوفية كان لها أثر في الحياة السياسية في العصر العباسي وقد استمر تيار الصوفية في العصر الفاطمي ، وكان الأئمة الفاطميون يراعون هذه الفرقة ، ويحدثنا المقرئ أن الأمر الفاطمي جدد قصر القرافة وعمل تحته مصطبة للصوفية ، وكان يجلس في الطاق بأعلى القصر ، ويرقص أهل الطريقة من الصوفية والمجامر بالألوية موضوعة بين أيديهم والشموع الكثيرة تزهر ، وقد بسط تحتهم حصر من فوقها بسط ، ومدت لهم الأسمطة التي عليها كل نوع لذيد ولون شهى من الأطعمة والحلوى أصنافا مصنفة . وكان بين الحاضرين الشيخ أبو عبد الله بن الجوهري الواعظ ومزق مرقعته وفرقت على العادة خرقا ، وسأل الشيخ أبو إسحق إبراهيم المعروف بالقارح المقرئ خرقة منها ووضعها على رأسه ، فقال الخليفة الأمر بأحكام الله من طاق بالمنظرة : يا شيخ أبا إسحق . قال : لبيك يا مولانا . قال : أين خرقتي ؟ فقال يجيبا له في الحال : ها هي على رأسي يا أمير المؤمنين . فاستحسن الأمر ذلك ، فأمر في الساعة فأحضر من خزائن السكوات ألف نصفية . ففرقت على الحاضرين وعلى فقراء القرافة ، ونثر عليهم متولى بيت المال من الطاق ألف دينار (١) .

ووفد على مصر في هذا العصر سهل بن محمد بن الحسن الصوفي ، حدث بالعراق ودمشق وصور ، ثم توجه إلى مصر فظل بها إلى أن توفي سنة ٤٤٤ هـ وكان أدبيا شاعرا على طريقة الصوفية ، ولكن شعره فقهد ولم يبق منه سوى قوله :

إذا كنت في دار يهينك أهلها ولم تك محبوبا بها فتحول
وأيقن بأن الرزق يأتيك أينما تكون ولو في قعر بيت مقفل (٢)

وشاهد هذا العصر فرقة من فرق الصوفية عرفت بفرقة السكيزانية ، نسبة إلى شيخها أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن ثابت الأنصاري المعروف بابن السكيزاني الفقيه الشافعي الواعظ . ذكره العماد في خريدته ووصفه بقوله : « فقيه واعظ مذكر ، حسن العبارة ، مليح الإشارة ، لكلامه رقة وطلاوة ، ولنظمه عنونة وحلاوة ، مصرى الدار ، عالم بالأصول والفروع ، عالم بالمعقول والمشروع ، مشهود له بالسنة القبول ، مشهور بالتحقيق في علم الأصول ، وكان ذا رواية ودراية بعلم الحديث ، ومعرفة بالقديم مكون الحديث ، إلا أنه ابتدع مقالة

(٢) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٥٣

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٣٧٩

ضل بها اعتقاده ، وزل في مزلقها سداه ، وادعى أن أفعال العباد قديمة « إلى أن قال » : أعادنا الله من ضلة الحلم وزلة العلم وعلّة الفهم ، واعتقد أن التنزيه في التشبيه ، عصم الله من ذلك كل أديب أريب ونيل نبيه ،^(١) وتوفى ابن السكيزاني صاحب هذه الفرقة سنة ٥٦٠ هـ ودفن عند قبر الإمام الشافعي ، واستمرت تعاليم هذه الفرقة حتى عصر الأيوبيين ، فقد ذكر العباد : « والطائفة السكيزانية بمصر على هذه البدعة إلى اليوم مقيمة »^(٢) . وظهور هذه الفرقة في مصر واشتهر أمرها على النحو الذي تحدث به العباد وابن سعيد في كتابه المغرب يدلنا على مدى الضعف الذي طرأ على الدعوة الفاطمية في مصر ، فإننا رأينا الفاطميين ينزهون الله عز وجل عن التشبيه أو التجسيم ، وهذه العقيدة هي أساس عقيدة الفاطميين وفلسفتهم ، ورأينا الدعاة يكفرون كل من دان بالتشبيه أو التجسيم ، ولكن جاءت فرقة السكيزانية تحت سمع الفاطميين وبصرهم وقالت بالتشبيه ، والتف عدد من المصريين حول شيخ هذه الدعوة دون أن يعباؤا بسطان الفاطميين وعقائدهم التي انتشرت في مصر زهاء قرنين .

كان ابن السكيزاني شاعرا من شعراء الصوفية بمصر ، ولكنه كان ضعيف الشعر حتى قال عنه ابن سعيد : ووقفت على ديوانه ، وهو مشهور عند الناس ، قريب من أفهام العامة ، غير مرضى عنه عند صدور الشعراء وأصحاب غوص الكلام وفرسان النظام ، وقد ضجرت من اختياره ومطالعه ، ولم أكتب من ديوانه شيئا تهش النفس إليه ، وإنما أردت ترجمته لشهرة ذكره وديوانه ، وكثيرا ما يباع في سوق الفسطاط وسوق القاهرة ؛ وكان من لا يعرف معاني الشعراء المستحسنة وألفاظه المستبدعة يحضني على الوقوف عليه ، فلما وقفت عليه أنشدني متمثلا :
أنا المعيدى فاسمع بي ولا ترفى .^(٣) ولعل ابن سعيد كان على حق في أن يصف شعر ابن السكيزاني على هذا النحو ، بالرغم مما ذهب إليه العباد الأصفهاني من الإعجاب بشعر ابن السكيزاني ، فإن المقطوعات التي رويت في الخريدة من شعر ابن السكيزاني تدل على أن الشاعر لم يكن من المتفوقين في الشعر إذا قسناه بشعراء الصوفية الذين ظهروا بمصر في العصور التي تلت العصر الفاطمي مثل ابن الفارض وغيره ،

(٢) المصدر نفسه

(١) الخريدة ورقة ٨٩ وما بعدها

(٣) المغرب ص ٩٣ وما بعدها

أو الشعراء الآخرين الذين عاصروه ، وربما كان سبب ضعف شعر ابن الكيزاني أنه كان واعظا يخاطب الشعب والدهماء ، فكان يضطر الى اصطناع اللغة التي يفهمها الشعب وتقرب إلى نفوسهم . فأثر ذلك في أسلوبه ولغته ، فإذا بهما يقربان من الأسلوب الشعبي ولغة الشعب ، وقد يكون هذا السبب هو الباعث الذي من أجله أقبل العامة في مصر على قراءة ديوان ابن الكيزاني .

وهو في بعض شعره واعظ أكثر منه متصوفا . انظر إليه يقول :

إذا سمعت كثير المدح عن رجل فانظر بأى لسان ظل بمدوحا
فإن رأى ذاك أهل الفضل فارض لهم ما قيل فيه ، وخذ بالقول تصحيحا
أولا ، فامدح أهل الجهل رافعه وربما كان ذلك المدح مجروحا (١)

وهو في بعض شعره متصوف يتحدث عن العشق ، ويجرى في هذا الشعر مجرى شعراء الصوفية الذين نهجوا نهج رابعة العدوية في الحب الإلهي ، فابن الكيزاني كان أحد هؤلاء المحبين العاشقين ، وله في ذلك عدة مقطوعات ، منها قوله :

سواء أن تلوما أو تريحا رأيت القلب لا يهوى نصيحا
أما لو ذقتما صرف الليالي إذن لعذرتما القلب القريحا
وكانت فرقة الأحباب ظنا فأصبح بينهم خيرا صريحا
ولو لم ينزلوا سلمات نجد لما استنشقت بالسلمات ريحا
ولا أهديت للأسماع يوما غناء من حمائها فصيحا
وها أنا قد سمحت بدمع عيني وكننت بدمعها أبدا شجيحا
وأمكننت المحبة من قيادي وصنت مع النأي ودا صجيحا
وقد سكن الجوى قلبا صجيحا وقد ترك الهوى صدرا قبيحا (٢)

وقوله أيضا :

أسكان هذا الحى من آل مالك مسالمة ما بنتنا
ألم تعدونا أن تزوروا تسكرما فما بال ميعاد الوعد والمشر
وحاتم عن الوعد الجميل ملالة وأتم على نقض العهود نزول
وإنا لنستبقي المودة والهوى شهيد لنا إذ ليس عنه نزول

ولا تحسبوا العتي عليكم توجعا
رضينا ، رضينا أن نبيع نفوسنا
كذلك الهوى ، هذا حبيب معزز
ووجد وشوق وارتياح ولوعة
دواعي الهوى محتومة فاصطبر لها
علمنا بوشك البين أول حاله
إذا ما طمعنا أن تقرر ديارهم
تداركهم بعد الرجيل رحيل (١)

قلنا إن الفرقة الكيزانية استمرت مدة طويلة بعد العصر الفاطمي ، وكان لها أثر قوى فى الصوفية الذين ظهروا بعد انقراض الدولة الفاطمية ، وكذلك كان الناس يتداولون شعر ابن الكيزاني فكان له تأثير قوى فى شعراء الصوفية الذين كانوا فى عصر الأيوبيين ، وفى شعر ابن الفارض مثلا بعض المعاني التى فى شعر ابن الكيزاني ، ولكن شتان بين شاعرية ابن الفارض وشاعرية ابن الكيزاني ؛ وسأترك المقارنة بين هذين الشعارين الصوفيين إلى البحث الذى سيكون فى كتابنا القادم « أدب مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك » .

الوصف :

وهناك غرض آخر من أغراض الشعر فى العصر الفاطمي هو عندى أقرب أغراض الشعر إلى التصوف ، ذلك هو وصف الطبيعة ، فكلا الغرضين ضرب من ضروب التأمل فيما خلقه الله ، فكثيرا ما يؤدى بشعراء الوصف إلى التصوف ، ولكن شعراء مصر لم يسيروا فى هذا المجرى ، بل اتخذوا وصف الطبيعة وسيلة إلى وصف قصفهم ، فقد رأينا شعراء مصر الفاطمية من تلاميذ مدرسة ابن وكيع التنيسى ينشدون شعرا فى الخمر والمجون والطبيعة معا ، وكيف كانوا يؤثرون الشراب فى الرمان والمنتزهات ، ويمزجون وصف الخمر بوصف الرياض والمنتزهات . أما وصف السماء وما فيها من نجوم وغيوم وسحب ، وتحدثنا عن خروج الشعراء إلى المنتزهات المختلفة التى كثرت فى هذا العصر ، ينعمون بطيب هوائها ويمتعون بأبصارهم بتنسيقها وجمال زهورها المتنوعة التى عجب الرحالة

ناصرى خسرو من وجود عدد كبير منها فى وقت واحد ، فهو يقول : « رأيت فى يوم واحد هذه الفواكه والرياحين : الورد الأحمر والنيلوفر ، والنرجس والترنج والنارنج والليمون والمركب والتفاح والياسمين والريحان الملسكى والسفرجل والرمان والكثيرى والبطيخ والعطر والموز والزيتون والبليج (الإهليلج) والرطب والعنب وقصب السكر . . » إلى أن قال :

« وكل من يفكر كيف تجتمع هذه الأشياء التى بعضها خريفى وبعضها ربيعى وبعضها صيفى وبعضها شتوى لا يصدق هذا » (١) ، ويقول عن بساتين القاهرة : وفى المدينة بساتين وأشجار بين القصور تسقى من ماء الآبار ، وفى قصر السلطان بساتين لا نظير لها ، وقد نصبت السواقي لريها ، وغرست الأشجار فوق الأسطح فصارت متزهات (٢) ، وطبيعة مصر اضطرت المصريين منذ أقدم العصور إلى التفكير والتأمل ، والأمثال العامية التى يصطنعها الشعب المصرى الآن والتى نقلت إلينا معربة عن قدماء المصريين تدل دلالة قاطعة على رقة شعور المصريين ودقة إحساسهم وهم يتأملون طبيعة مصر ويتحدثون عنها ، وآثار قدماء المصريين ملئت بالحديث عن السناء والأرض واختلاف الجو وغير ذلك من آيات تفكيرهم فى الطبيعة ، على أن الشعراء المصريين فى العصر الفاطمى لم يصفوا الطبيعة على أنها لون من ألوان الفلسفة الطبيعية ولم يتحدثوا عنها حديثا يودى بهم إلى معرفة الخالق ، بل تركوا ذلك كله لعلماء المذهب الفاطمى وإلى الفلاسفة . واتخذوا لأنفسهم مذهبا فنيا خالصا مصدره جمال الطبيعة ، فإذا بهم يسبقون على المناظر التى وصفوها ألوان الحياة التى يألّفونها من ملابس ومأكل ومسكن ، ويحاولون أن يبتزعوا من الطبيعة صورا هى أقرب إلى صور الحياة التى اعتادوها وألوان الزينة التى كان يتزين بها المصريون فى العصر الفاطمى ، وها هو ذا ابن حيدرة العقيلي يصور منظرا رآه فى إحدى المنتزهات :

الغيم بين مزرر ومحلل	والقطر بين مسرح ومسلسل
والقضب بين مقرط ومطوق	ومدملج ومتوج ومكسل
والنبت بين مزعفر وممسك	ومخلوق ومعبر ومصندل
ومديج ومطرز ومصنف	ومعرض ومرصع ومثقل
فأشرب على حلل لو أمكن لبسها	كانت تكون من الطراز الأول (٣)

(١) سفر نامه من ٦٠ (ترجمة يحيى الخشاب)

(٢) المصدر نفسه ص ٥٠ (٣) المغرب ص ٧٤

ويقول مرة أخرى :

أمهات الثمار بين الروابي تأمّات بلبس خضر الثياب
وبنات السكروم تجلى بما قد صاغه الماء من عقود الحباب
فاله مادام للشقيق خلوق تنشر السحب فيه مسك ضباب (١)
ويقول في وصف الرياض وقد شبهها بفرش المجالس :

عراس القضب تجلى على كراسى الروابي
ومجلس الروض فيه فرش من العتاني
فابن حيدرة العقيلي وهو من أشهر شعراء مصر الفاطمية الذين أولعوا بوصف
الطبيعة كان يتخذ صورته في الوصف بما كان يدور حوله في الحياة اليومية ، وهذه
الظاهرة ليست في شعر ابن حيدرة فحسب ، بل نراها عند كثير من شعراء مصر
الفاطمية ، فالشاعر تميم بن المعز وهو أحد شعراء الطبيعة وصف بركة الحبش
وخليج بني وائل فقال :

كأن البركة الغنا إذا ما غدت بالماء مفعمة تموج
وقد لاح الضحى ، مرآة قين قد انصقلت ، ومقبضها الخليج
ترى قمر الدجى ، قرا حذاه طلوعا ماله فيها بروج (٢)

ووصف روضة على شاطئ النيل فقال :

ويوم خدعت الدهر عنه فلم أزل أعلل نفسي فيه بالراح مع صبحي
لدى روضة عالت رباها كروما وجاد عليها النيل من مائه العذب
كأن سحيق المسك خالط أرضها تجالت به فيها الرياح مع الترب
كأن نبات النيل والريح تهمي بهن طلى خييل مؤنثة شهب
وطوراً تحال الماء في رونق الضحى متون سيوف الحن مصقولة القضب
وتحسبه إن محصته يد الصبا قوارير ما يفترن من قلق اللعاب (٣)
وقال ابن عباد أحد شعراء الخريفة :

كأنما الأرض من زبرجدة بدت إليك على غب من السحب
والأفحوانة هيفا وهي ضاحكة عن واضح غير ذى ظلم ولا شنب

(٢) ديوان الأمير تميم

(١) المغرب ص ٥٦

(٣) المصدر نفسه

كأنما شمس من فضة حرست خوف الوقوع، سهار من الذهب
وقال مجير بن محمد الصقلي في يوم مطير:

أرأيت برقًا بالأبارق قد بدا في أفقه متبسما متوقدا
كيف اكتسى ثوب السحاب ممسكا وإخاله شنف الرداء موردا
فكأنه في الجو كأس، كلما فانت نيم البرق صاح وعربدا
أمرهف كسفت مداوس صيقل عن متنه صدأ، لكي يروى الصدا
فأعجب إلى ودق اللجين يسيل من أفق أحالته البوارق عسجدا
ولؤلؤ للغيث يأخذه الثرى فيعيده نبسا يخال زبرجدا (١)

وقال ظافر الحداد في يوم برد:
ويوم برد عقوده برد لها سلوك من هيدب المطر
ينثره الجوثم ينظم منه الأرض بالزهر كل منتشر
فهو يحاكي الحبيب في اللون والطف وعذب الرضاب والخصر
فالغيم يبكي والزهر يضحك والبروق تبدى ابتسام ذي خفر (٢)
ويقول ظافر أيضا في متنزهات خليج الإسكندرية:

وعشية أهدت لعينك منظرا جاء السرور به لقلبك وافدا
روض كمخضر العذار وجدول نقشت عليه يد الشمال مباردا
والنخل كالغيد الحسان تزينت ولبسن من أثمارهن قلائدا (٣)

وللشعراء المصريين جولات في وصف النجوم، وفي الحديث عن النهار
والليل واختلاف الجو باختلاف فصول السنة، فمن ذلك منظومة ابن وكيع
التنيسي التي أوردتها الثعالبي في اليتيمة، والتي تحدث فيها الشاعر عن إحساسه
وشعوره نحو فصول السنة وتقلبات الجو باختلاف هذه الأوقات، ويقول في مطلعها:

يا سائلي عن أطيب الدهور وقعت في ذلك على الحبير
سألتني أي الزمان أحلى وأيه بالقصف عندي أولى
عندي في وصف الفصول الأربعة مقالة تغني اللبيب مقنعه
أما المصيف فاستمع ما فيه من فطن يفهم سامعيه

(٢) الخريدة ورقة ٨٥

(١) الخريدة ورقة ٢٢

(٣) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥

فصل من الدهر إذا قيل حضر
تبصر فيه النبات مقشعراً
نهاره مقسم بين قسم
أوله فيه ندى مبغض
يلصق منه الجسم بالثياب

ويقول في الخريف :

حتى إذا زال أقي الخريف
أهوية تسرع في كل الجسد
يخشى على الأجسام من آفاته
ومنها في الشتاء :

حتى إذا ما أقبل الشتاء
أقبل منه أسد مزير
لو أنه روح لكان فدما
يأتيك في إبانه رياح

أما عن الربيع فقال :

جاء إلينا زمن الربيع
لبرده وحره مقدار
عدل في أوزانه حتى اعتدل
نهاره من أحسن النهار
تضحك فيه الشمس من غير عجب
لبدره فضل على البسود
كجمامة البلور في صفائها

وهكذا يمضي ابن وكيع في وصف فصول السنة .

ومن قول شعراء مصر في النجوم ما أنشده ظافر الحداد :

كأن نجوم الليل لما تملجت
توقد جمر في خلال رماد

حكي فوق تمتد المجرة شكلها ، فواقع تطفو فوق لجة وادي (١)
وقال محمد بن عاصم :

تري صفحة الخضراء والنجم فوقها
تري ، وعلى الآفاق أثواب ظلمة
وقال المهذب بن الزبير :

وتري المجرة والنجوم كأنها
لوم لم يكن نهراً لما عامت به
وقال ابن وكيع التنيسي :

قم فاسقني صافية
أما تری الصبح بدا
أما تری جوزاءه
منطقة من ذهب
تهتك جنح الغسق
في ثوب ليل خلق
كأنها في الأفق
فوق قبواء أزرق (٤)

وقال تميم بن المعز في الصباح :

وكان الصباح في الأفق باز
والدجى بين مخلبيه غراب (٥)

وقال ابن وكيع التنيسي في التبشير بالصباح :

غرد الطير فنبه من نفس
سل سيف الفجر من غمد الدجى
وانجلى في حلة فضية
أما نيل مصر فكان له شأن مع شعراء مصر الفاطمية ، فإنهم كانوا يكثرون
من ذكره في شعرهم ، ويفيضون عليه صورهم كلما فاض عليهم بمائة ، وها هو ذا
الأمير تميم يقول :

يوم لنا بالنيل مختصر
والسفن تجرى كالخيول بنا
وكأنما أمواجه عكن
ولكل يوم مسرة قصر
صعدا وجيش الماء منجد
وكأنما داراته سر

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤

(٤) المصدر نفسه

(٦) المصدر نفسه

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٣٣

(٣) ج ١ ص ٣٦

(٥) ج ١ ص ١٤٤

ويقول مرة أخرى :

أما ترى الرعد بكى واشتكى
فاشرب على غيم بصنع الدجى
وانظر لماء النيل في مده
ويقول تميم عند زيادة النيل :

انظر إلى النيل قد عبأ عما كره
كأن خلعجانه والماء يأخذها
كأن تياره ملك رأى ظفرا
كأن ماء سواقيه لناظرها
فاشرب مهنى فإن اللهو منبسط
واطرب ولد ، فهذا منظر أنق

ويقول ابن قلاؤس :

انظر إلى الشمس فوق النيل غاربة
غابت وأقوت شامتا منه خلتها
وللهلال فهل وافى لينقذها
ولم ينس الشعراء أهرام مصر ، فالشاعر عبد الوهاب بن حسن بن جعفر الحاجب
المتوفى سنة ٣٨٧ قال في وصف الأهرام :

انظر إلى الهرمين إذ برزا
وكأنما الأرض العريضة قد
حسرت عن الشديدين بارزة
فأجابها بالنيل يشبعها
لكرامة المولى المقسيم بها
ويقول ظافر الحداد :

تأمل بنية الهرمين وانظر
كهاريتين على رحيل
وماء النيل تحتهما دموع
وبينهما أبو الهول العجيب
لمحبوبين بينهما رقيب
وصوت الريح عندهما نجيب (٤)

(٢) ديوان ابن قلاؤس ص ٧٥

(٤) الخريدة ورقة ٨٥

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ١٠١

(٣) خطط المقرئى ج ١ ص ١٩٥

وقول عمارة اليميني :

خليلي ما تحت السماء بنية تماثل في إتقانها هرمى مصر
وبناء يخاف الدهر منه ، وكل ما على ظاهر الدنيا يخاف من الدهر
تنزه طرفى فى بديع بنائها ولم يتنزه فى المراد بها فكرى (١)

أما منشئات الفاطميين ومبانيهم فقد ذكرها الشعراء فى أشعارهم ، ومنها هذه القصيدة التى أنشدها عمارة اليميني بعد أن دالت دولتهم والتى تحدثنا عنها من قبل ، وقد ضاعت أكثر هذه الأشعار ، ولم يبق إلا عدة مقطوعات قليلة فى وصف مباني المصريين .

قول على بن يوسف الإيادى يذكر دارا بناها المهز العبيدى بمصر ، وسماها

العروسين :

بنى منظرا يسمى «العروسين» رفعة كأن الثريا عرست فى قبابه
إذا الليل أخفاه بجملة لونه بدا ضوءه كالسدر تحت سحابه
تمسكن من سعد السعود محله فأضحى ومفتاح الغنى فتح بابيه
ولو شاده عزم المعز ورأيه على قدره فى ملسكه ونصابه
لسكان حصى الياقوت والتبر مفرغا على المسك من أجره وترابه (٢)

وقال أمية فى وصف قصر بناه الأمير على بن الأمير تميم بن المعز :

الله مجلسك المنيف فى بابه بموطد فوق السماء مؤسس
موف على حبك المحبة تلتقى فيه الجوارى بالجوار الكنفس
تقابل الأنوار فى جنباته فالليل فيه كالنهار المشمس
عظفت حناياه دوين سمائه عطف الأهله والحواجب والقسى
واستشرفت عمد الرخام وظهورت بأجل من زهر الربيع وأنفس
فهواؤه من كل قيد أهيف وقراره من كل خد أملس
فلك تحير فيه كل منجم وأقر بالتقصير كل مهندس
فبدا للحظ العين أحسن منظر وغدا لطيب العيش خير معرس
فاطلع به قسراً ، إذا ما أطلعت شمس الحدود عليك شمس الأكوس

(٢) نهاية الأرب ج ١ ص ٤٠٧

(١) خطط المقرئى ج ١ ص ١٦٥

فالناس أجمع دون قدرك رتبة والأرض أجمع دون هذا المجلس (١)
ووصف الشاعر علي بن محمد النيلي باب زويلة فقال :
يا صاح لو أبصرت باب زويلة لعلمت قدر محله بينا
باب تآزر بالمجرة وارتدى الشعري ولاث برأسه كيوانا
لو أن فرعوناً رآه لم يرد صرحاً ولا أوصى به هامانا (٢)
على أننا نلاحظ ما بهذه المقطوعات من غلو ومبالغة في تفخيم المبانى والمنشآت
وهكذا نستطيع أن نتبع هذه العصور المختلفة التي صور بها شعراء مصر
الفاطمية مارأوه في الطبيعة وفي المنزهات ، وهي صور من الحياة المصرية التي كانت
تلائم ما في العصر الفاطمي من ترف ونعيم ، بل ذكر الشعراء الزينات المختلفة
التي كان الفاطميون يتخذونها في دورهم ومنتزهاتهم ويغالون في إظهارها إمعاناً
في الترف والبذخ ، وها هو ذا ابن قلايس يصف نخلة عليها زينة من أنوار السرج ،
كالذي يتخذها المترفون اليوم في أيام الحفلات الخاصة :

ما عهدنا النخيل لولا هذه باسقات بشار الذهب
هطل الغيث لها من فضة فهي في قنوانها من ذهب
تلعب السرج على حافاتها وتحاكي أنمسل المرتعب
ولقد أحسبها السنة . هزها للسكر خمر الطرب (٣)
ونرى المصريين يصفون في شعرهم كل ما وقع تحت أنظارهم ، فوصفوا الشمعة
مثلاً ، كما في قول المهذب بن الزبير :

ومصفرة لآعن هوى غير أنها تحوز صفات المستهام المعذب
شجوناً وسقماً واصطباراً وأدمعاً وخفقاً وتسبيداً وفرط تلهب
إذا جمشتها الريح كانت كعصم يرد سلاماً بالبنان المخضب (٤)
ويقول آخر في الشمعة أيضاً :
وصحيفة يبضاء تطلع في الدجا صبوحاً وتشقى الناظرين بدائها
شابت ذوابتها أوان شبابها واسود مفرقها أوان فناءها
كالعين في طبقاتها ودموعها وسوادها ويابضها وضيائها (٥)

(١) نهاية الأرب ج ١ ص ٤١١ (٢) صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٠٥
(٣) ديوان ابن قلايس ص ١٨ (٤) الخريدة ورقة ٤٩ (٥) المصدر نفسه ١٣٩

ووصف الشاعر أمير الدولة أبو محمد عبد الله بن خليل — أمير شعراء
المستنصر — القلم والريح بقوله :

يراعان هذا يملأ الطرس حكمة وذاك يذيق الختف ليثاً غضنفرأ
وإن ظمنا ظنناهما يردا على نفوس العدا من غير إذن ويصدرا
فيشرب هذا أسود الليل حالكا ويشرب هذا قاني الدم أحمرأ (١)

ويصف طلائع الآمرى الخيل بقوله :

جنائب إن قيدت فأسده وإن عدت بأبطالها فهى الصبا والجنائب
أثارت بأكناف المصلى عجاوجة دجت وبدت للبيض منها الكواكب (٢)

ويقول ابن الضيف فى عدد الفرس :

كم ساج أعددته فوجدته عند الكريهة وهو نسر طائر
لم يرم قط بطرفه فى غاية إلا وسابقه إليها الخافر (٣)

• ويطول بنى الأمر لو ذكرت ما وصفه شعراء مصر الفاطمية ، فهم لم يتركوا
شيئا دون أن يتحدثوا عنه فى أشعارهم ، ولعل ذلك يرجع إلى ما كانوا عليه من
رقة الشعور ودقة الحس ومقدرة على القريض .

(٢) المصدر نفسه ورقة ٣٥

(١) الخريدة ورقة ٢٠

(٣) المصدر نفسه ورقة ٣٧ .

خاتمة القول في الشعر

رأينا صوراً مختلفة من الشعر المصري في العصر الفاطمي ، وعرفنا موضوعاته المتنوعة المتشعبة ، فنحن نتساءل بعد أن رأينا ذلك كله : إلى أي حد وفق شعراء مصر في التعبير عن شخصية مصر في شعرهم ؟ وإلى أي حد نستطيع أن نميز الشعر المصري في هذا العصر من غيره من شعر الأقطار الإسلامية الأخرى ؟

قبل أن نجيب عن مثل هذه الأسئلة نرى أن نتحدث أولاً عن بعض خصائص ظهرت في الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته منذ عرف الشعر العربي إلى الآن ، بل ستظل هذه الخصائص موجودة في الشعر العربي ما وجد الشعر العربي ، وهذه الخصائص هي التي تجعله — مهما اختلفت بيئاته وتطورت عصوره — وحدة يشبه بعضها بعضاً ، فالحياة العربية تتطور وتختلف باختلاف الأقاليم التي تنشده الشعر بالعربية ، ولكن هذه الخصائص في الشعر لم تتطور بتطور الحياة ولم تختلف باختلاف الأقاليم ، وبالتالي يتطور الشعراء فلا تتطور معهم هذه الخصائص ، بل ظلت مثلاً علياً للشعراء جميعاً دون أن يصيها تغيير جوهرى .

فمثلاً نجد الشعراء جميعاً منذ العصر الذي اتفق المؤرخون على تسميته بالعصر الجاهلي إلى عصرنا هذا ينشدون أشعارهم في ألفاظ عربية حاول النقاد أن يصفوها في كتبهم وأبحاثهم بالركة والعدوبة والجزالة والسلاسة ، إلى غير ذلك من هذه الصفات التي وصفت بها الألفاظ الشعرية ، فلا نكاد نجد شاعراً من شعراء العربية اصطنع ألفاظاً توصف بصفات تختلف عن تلك التي تحدث عنها النقاد القدماء والمحدثون ؛ حقيقة حاول بعض الشعراء أن يتظرف في الشعر باستعمال بعض ألفاظ أجنبية ؛ ولكننا نستطيع أن نقول إن ذلك كان قليلاً جداً بحيث لا نستطيع أن ندعى أن هذه ظاهرة يقف عندها الباحث في تاريخ الأدب العربي ، ولذلك لم يأبه لها مؤرخو الأدب ؛ وإذن فقد اشترك الشعراء جميعاً في استعمال الألفاظ العربية في أشعارهم مهما اختلفت عصورهم وتباينت بيئاتهم ، فلا نستطيع أن نتخذ الألفاظ أساساً للتمييز بين شعر قطر من الأقطار التي أنشدهت بالعربية من

شعر قطر آخر ، فالألفاظ مثل من المثل العليا لشعراء العربية جميعا ، لم يصبها تغيير ، ولن يصبها تغيير .

كذلك نقول عن هذه الأوزان التي جرى الشعر العربي على أوتادها وأسماها ، والتي تحدث عنها علماء العروض في كتبهم ، فشعراء العربية لم يعدلوا عن الأوزان التي عرفها القدماء ، وأغلب الظن أن شعراء العربية لن يعدلوا عن هذه الأوزان مهما بعد بهم الزمن عن الشعر القديم ، وتلونت حياتهم بألوان مختلفة . ورب معترض يقول إن الأندلسيين أوجدوا الموشحات والأزجال ، وإن المصريين اخترعوا البليق ، وأدخل شعراء الفرس الدوبيت والرباعيات في الشعر العربي . وهذه كلها أوزان لم يعرفها القدماء ولكن أتى بها المولدون ، فكيف تكون الأوزان إذن مثلا من المثل العليا للشعر العربي في كل العصور وكل البيئات ! فأجيب هؤلاء المعترضين بأن المولدين لم يعدلوا عن التفعيلات القديمة . ولم تخرج أوزانهم الجديدة عن الدوائر العروضية التي عرفت قبل اختراع هذه الألوان من الشعر ، وإنما الذي فعله هؤلاء المولدون أنهم غيروا بعض أشكال الشعر ، واحتفظوا بالوزن الأساسي وبلون من ألوان القافية ، أي أنهم في تجديدهم هذا لم يستطيعوا أن يحدوا عن المثل القديمة في الشعر العربي ، ومع ذلك كله فلو ذهبنا - جدلا - إلى أن الموشحات الأندلسية والبليق المصري والدوبيت الفارسي تجديد في الوزن العربي - مع أننا لانوافق على هذا الرأي - فإن هذه الألوان من الشعر كانت جزءا يسيرا جدا بجانب الشعر الآخر الذي خلفه الأندلسيون والمصريون والفرس ، والذي حافظ فيه الشعراء على الأوزان القديمة ، وإذن فالوزن مثل آخر من المثل العليا لشعراء العربية جميعا لم يصبه تغيير إلى الآن .

وكذلك نقول عن القافية وعن الأساليب الشعرية العربية ، فهذه كلها مثل من مثل الشعر العربي التي اتبها الشعراء في كل العصور والبيئات وحافظ عليها الشعراء أشد المحافظة ، حتى هؤلاء الشعراء الذين تزعم أنهم أسرفوا في التجديد ، فالشاعر أبو نواس مثلا الذي هاجم الأساليب القديمة وتهكم بها لم يستطع أن يغير هذه الأساليب ولا طرائقه في التعبير ، وكذلك نقول عن المجددين اللفظيين من أصحاب البديع الذين أسرفوا في التلاعب اللفظي واستخدام ألوان الزينة البديعية ، فهم لم يستطيعوا أن يعدلوا عن عمود الشعر القديم ، فلم يبتكروا

قافية غير القافية التي نهج عليها القدماء ، ولا تفعيلات غير التي عرفتها دوائر العروض ولم يستخدموا ألفاظا غير عربية .

معنى ذلك كله أن الشعر العربي في كل عصوره وبيئاته يشترك في هذه الخصائص التي أصبحت مثلا للشعراء ، فلا نستطيع إذن أن نقول إن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر أو إن المصريين قلدوا العباسيين واتخذوهم مثلا لهم لأن شعراء مصر اتبعوا هذه الخصائص العامة ، وكذلك لا نستطيع أن نقول إن الأندلس أظهرت شخصيتها بأن وجدت الموشحات ، فالذين زعموا أن العباسيين كانوا مثلا عليما لشعراء العرب لم يدركوا فن الشعر العربي حق إدراكه ، ونظروا إلى الشعر نظرة خاطفة فتوهموا أن العباسيين كانوا مثلا للشعر العربي ، ألم يذهب القدماء إلى أن ابن هانيء الأندلسي كان يقلد المتنبي حتى لقب بمتنبي الغرب ؟ ألم يقل القدماء أيضا إن الأمير تميم بن المعز كان يقلد ابن المعتز وينهج نهجه ؟ فإذا كان القدماء ذهبوا إلى أن العباسيين كانوا أساتذة لشعراء مصر والمغرب والأندلس ، فلم لا يذهب هؤلاء أيضا إلى أن العباسيين كانوا مثلا عليما للشعر العربي ؟ الواقع أن العباسيين أنفسهم خضعوا لتقاليد الشعر العربي وخصائصه ، شأنهم في ذلك شأن جميع شعراء العربية في كل العصور وكل البيئات ، فلم يكن العباسيون مثلا عليما لغيرهم من شعراء الأقاليم العربية .

وإذا كان شعراء العربية اشتركوا جميعا في هذه الخصائص فإنهم اختلفوا في المعاني التي تحدثوا عنها باختلاف عصورهم وبيئاتهم ، فنحن إذا أردنا أن نبحث عن شخصية مصر في الشعر ، فنحن لا نجد لها في الأوزان ولا في القوافي ولا في اللفظ ولا في أساليب الشعر ، بل نجدها في المعاني التي ذكرها الشعراء وفي الأخيلة الشعرية ، وهنا فقط نستطيع أن نقول إن الشعر المصري صور البيئة المصرية والحياة المصرية أصدق تمثيل ، بحيث إنك إذا قرأت هذا الشعر المصري لا تستطيع أن تنسبه إلى قطر غير مصر .

فمن ناحية الشعر السياسي يعتبر شعر مصر الفاطمية سجلا للأحداث التي جرت في هذا العصر ، حقيقة ضاع جل هذا الشعر السياسي ، ولكننا نستطيع أن نحكم على ذلك بما بقي لنا من آثار هذا الشعر ، وقد ذكرنا شيعان شعراء القصر وشعراء الوزراء ، وأن هؤلاء الشعراء كانوا لسان الدولة في مثل هذه الأحداث السياسية

وكذلك كان أمر غيرهم من الشعراء الذين كانوا ينشدون الخليفة أو الوزير ،
ومن البديه أن ما كان ينشد من الشعر السياسى هو صورة لحياة مصر السياسية
دون غيرها من الأقطار الأخرى .

ورأينا جانبا من الشعر المصرى فى الزهد والدين بجانب الشعر المصرى فى
المجون والإباحة ، وهذان اللونان من ألوان الشعر المصرى يدلان دلالة صريحة
على ناحية هامة من نواحي الحياة فى الشعب المصرى ، فقد ذكرنا أن الشعب
المصرى شعب يميل إلى التمسك بأهداب الدين ، وأنه شعب يعمل لآخرته ، ولكننا
فى الوقت نفسه نراه شعبا يميل إلى المجون فى حياته وأنه شعب يميل لدنياه فىأخذ
بنصيب من متاع الدنيا ، فمصر على هذا النحو متناقضة مضطربة بين متاع النفس
ومتاع الجسد ، وإذا الشعر المصرى يضطرب أيضا فيمثل الناحيتين من حياة هذا
الشعب ، ولعل هذه الظاهرة لاتزال ماثلة إلى اليوم فى حياة المصريين وفى شعر
المصريين ، والذين درسوا الشعب المصرى عجبوا للفكاهة. والدعابة المصرية ، وكيف
يرسل المصريون الفكاهة تلو الفكاهة ، والنادرة بعد النادرة ، وهم يضحكون على
مسمع هذه الفكاهات والنوادر بأصوات عالية ، وذكر السكتاب أن الفكاهة
المصرية تدل على ذوق المصريين وسرعة بديهتهم وعلى وعى شديد فى تذوقها ، وزعم
بعض السكتاب أن المصريين أكثر الشعوب حبا للفكاهة وكلفا بإطلاقها وسماعها ،
وأن الفكاهة تجرى فى دم كل مصرى . ولكن هذه الفكاهات المصرية أكثرها فى
الحديث عن الناحية الجنسية ، وهى تتناول بعض أعضاء الجسم ، حتى إن أشد
ألوان الفكاهة المصرية إضحاكا هى هذه الفكاهات التى تتحدث عن العلاقة الجنسية
أو أعضاء الجسم ، وهذا يؤيد ما ذهبنا إليه من أن للمصريين لونين من الحياة لونا
يميلون فيه إلى المجون ولونا آخر يميلون فيه إلى الدين ، فإذا الشعر المصرى فى كل
عصوره يمثل هذين اللونين ، وقد رأينا صوراً لهما فى الشعر المصرى فى العصر الفاطمى .

ونضيف إلى ذلك كله أن مصر بما تمتاز به من هذا الجو البديع الذى تكاد
تنفرد به ، وأرض خصبة تروى فى أوقات منتظمة جعلت المصريين شعبا يميل
إلى الهدوء واللين فى كل شىء ، وظهر أثر ذلك فى التفكير عند المصريين ، فنحن
لا نكاد نجد عند المصريين عمقا فى تفكيرهم وفى دراساتهم المختلفة ، ولعل هذا هو
السبب فى أننا لا نجد فيلسوفا مصرية ولا نجد فلسفة مصرية لها أثرها فى تاريخ

الفكر البشري ، ونحن نعجب لهذا الشعب العظيم الذى استطاع أن يهضم كل
المدنيات التى ظهرت ، وعرف كل الدراسات المتنوعة ، بل استطاع أن يهضم
الشعوب التى وفدت على مصر ، ومع هذه القوة الكامنة فى مصر لم ينتج المصريون
فلسفة خاصة بهم . ورب معترض يقول إن مدرسة الإسكندرية أوجدت فلسفة
تباين الفلسفة الهلينية بعض التباين ، ولكن فاته أن فلاسفة مدرسة الإسكندرية
لم يكونوا من المصريين بل كانوا من الغرباء الذين وفدوا على مصر لطلب العلم
على أساتذة مدرسة الإسكندرية ، وقد ذهب بعض مؤرخى مدرسة الإسكندرية
إلى أن فلوطين من صعيد مصر ، وأنه تأثر بالبيئة المصرية والحياة المصرية ، وظهر
ذلك فى آرائه التى حاول فيها أن يقرب بين فلسفة اليونان والمسيحية واليهودية ،
ولكن حياة أفلوطين لم تكن كلها فى مصر ، فقد وفد على الإسكندرية سنة ٢٣٣
وأقام إحدى عشرة سنة فى الاستماع إلى الفلسفة اليونانية ، ثم رحل عن مصر إلى
سوريا والعراق ، وفى سنة ٢٤٥ م رحل إلى رومة حيث لبث بقية سنى حياته
إلى أن توفى سنة ٢٧٠ م . فأراء أفلوطين لم تكن بتأثير البيئة المصرية ، ولكنها كانت
بتأثير هذه الرحلات التى قام بها ، فمدرسة الاسكندرية بالرغم من استمرارها فى
مصر عدة قرون لم تؤثر فى المصريين تأثيراً له خطره ، والذى قبله المصريون من
دروسها هو شيء قريب إلى عقلية الشعب المصرى التى تميل إلى كل شيء بسيط
لين ، ولذلك لم تمسك مدرسة الإسكندرية الفلسفية طويلاً عقب الفتح العربى ،
إذ انتقلت تعاليمها إلى الرها وحران وأنطاكية ونصيبين . إلى أن أعاد الفاطميون
تعاليم المدرسة الاسكندرية مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ثم خرجت هذه التعاليم
من مصر بانقراض الدولة الفاطمية ، ولم تعد إليها إلى الآن ، وأغلب الظن أنها
لم تعود مرة أخرى إلى مصر ، وفى تاريخ الحياة الصوفية فى مصر لم نجد صوفياً
له فكرة متميزة به ، وإذا قلنا إن ذا النون المصرى كان من أوائل الصوفية الذين
لهم رأى فى وحدة الوجود فإن تعاليمه لم تزدهر فى مصر ، وإنما الذين حملوا آراءه
كانوا من غير المصريين ، وذلك كله لأن المصريين شعب يميل إلى الهدوء واللين
فى حياتهم وفى تفكيرهم ، وذلك من تأثير البيئة المصرية .

وغلبت هذه الطبيعة المصرية على الشعراء فتراهم هادئين فى تفكيرهم ، وفى
ميلهم إلى اتخاذ الأوزان الخفيفة الهادئة التى تلائم طبيعتهم ، وظهر فى وصفهم

للطبيعة تلك الصور الهادئة التي ليس بها تعقيد الفلاسفة ولا عمق المفكرين ، إنما كانت صورهم هي صور الحياة اليومية التي كان يحياها المصريون .

والمصرى عرف منذ القدم بشدة تعلقه ببيئته لا يريد الابتعاد عن حياته التي عرفها منذ أدرك الحياة ، وإذا غاب عن بيئته فهو يحن إليها حنيننا شديدا جدا ولا يلبث أن يعود إليها ، وفي شعر مصر الفاطمية نجد الشعراء يعنون بتصوير هذه البيئة ، ولم يحاول الشاعر المصرى أن يخرج فنه عن دائرة هذه الحياة التي حوله ، ومن هنا كان تصوير الشعر المصرى للبيئة المصرية وللحياة المصرية في صور متلاحقة تكاد تكون حسية ، فإذا قرأنا هذه الأشعار في تصوير هذه البيئة لا نستطيع أن ننسبها إلى بيئة أخرى غير بيئة مصر ، ولا يصور الشاعر شعبا غير شعب مصر ، فليظمن الذين زعموا أن مصر لم تنتج أدبا ، أو الذين يزعمون أن مصر لم تظهر شخصيتها في الشعر ، إلى أن مصر كان لها شخصية ظاهرة واضحة في الشعر المصرى في العصر الفاطمى ، ثم العصور التي وليت هذا العصر ، وأن الشعر المصرى يصور حياة المصريين المتشعبة النواحي أصدق تمثيل .

أما أخيلة المصريين في التعبير عن تصوير بيئتهم وألوان حياتهم ، فهي أخيلة مستمدة من بيئتهم ومن حياتهم أيضا ، فالفاطميون في أشعارهم التي أوردنا بعض صورها استخدموا الألوان الحسية ، فاستعمل الجناس والطباق إلى غير ذلك من ألوان الفن تمثل لنا أخيلة شعراء العصر الفاطمى بأنها صور منتزعة من الحياة الفاطمية ، وأن توسع الشعراء الفاطميين في استعمال هذه الألوان والمغالة في استخدامها هي ضرورة اضطررتهم إليها حياة العصر الفاطمى نفسه ، حقيقة نرى عند شعراء مصر قبل العصر الفاطمى هذه الألوان الحسية في شعرهم وقد تحدثنا عنها في كتابنا « أدب مصر الإسلامية » وأوردنا شيئا من شعر شعراء هذا العصر ، مما يدل على أن هذا اللون من الفن عرفته مصر الإسلامية ، ولكن مصر الفاطمية كانت تمتاز بالغلو في كل شيء ، فقد رأينا غلو الفاطميين في الدين ، وغلوهم في اللهو ، وغلوهم في التزين والتجمل ، وغلوهم في الملبس والمسكن : غلو في أعياد فرحهم ، وغلو في ذكريات مآتمهم . فظهر هذا الغلو في فن الشعر ظهوره في نواحي الحياة المختلفة ، فأسرف الشعراء في العصر الفاطمى في استخدام ألوان الزينة البديعية حتى تلائم إسراف الفاطميين في حياتهم ، فإن الحياة كانت تمد الشعراء بهذه الألوان

الحسبية عن الزينة . ليس معنى ذلك أن الشعراء في غير مصر الفاطمية لم يعرفوا الزينة
البديعية أو أنهم لم يسرفوا في استخدامها ؛ بل كانت الزينة البديعية في الشعر العربي أقدم
عهداً من الفاطميين ، وإن هذه الزينة عرفها شعراء العراق وغير العراق قبل أن
تقوم دولة الفاطميين في مصر ، فقد فتلت الزينة البديعية الناس جميعاً في كل
البلاد العربية ، وأخذ الشعراء في استخدامها في شعرهم لإرضاء ذوقهم الفني ،
وإرضاء الجمهور الذي فتن بها ، وتبع شعراء مصر الفاطمية تيار الشعر العربي ، ولم
يتخلفوا عنه ، وإنما أسرفوا في استخدام هذه المحسنات البديعية ، فسبقوا غيرهم
في مضماره ، وذلك لما في المصريين من دقة الحس ورقه الشعور وميل إلى
الفساكة وخفة الروح ، فإذا بك لا تشعر أن بالشعر المصري هذا التكلف الذي
يظهر عند غير المصريين من الشعراء ، ولا تلمس جهد الشاعر في الحصول على
هذه الصور الفنية التي ابتدعها في شعره ، فالصور أمامهم وبين أيديهم ينتقون منها
ما يشاءون دون جهد ، فأحسنوا التحدث عن هذه الصور وأحسنوا تحليلها ،
وهي صور مصرية وتعليقات مصرية منتزعة من الحياة المصرية الحضرية .
وإذن فنستطيع أن نطمئن أيضاً إلى أن أخيلة المصريين كانت مصرية أيضاً ،
لم يتبعوا فيها غيرهم من شعراء البلاد العربية . وهكذا ظهرت شخصية مصر في
الشعر بارزة واضحة ..

الباب الثاني

في النثر

الفصل الأول

ازدهار النثر

رأينا في كتابنا «أدب مصر الإسلامية» كيف أسس ديوان الإنشاء بمصر في عهد أحمد بن طولون، وأن أول من ولي هذا الديوان كان أحمد بن محمد بن مودود المعروف بابن عبدكان الكاتب، وعرفنا كيف استمر تلاميذ ابن عبدكان يعملون في دواوين الطولونيين والإخشيديين. فازدهرت الكتابة في مصر على أيديهم حتى بلغت درجة عالية من درجات فن الكتابة في مصر، حتى إن القلقشندي روى أن أهل بغداد كانوا يحسدون أهل مصر على طبطب المحرر وابن عبد كان الكاتب، ويقولون: بمصر كاتب ومحرر ليس لأمر المؤمنين بمدينة السلام مثلهما (١) وكثر عدد الكتاب في مصر في عهد الطولونيين والإخشيديين أمثال الحسن بن رافع ويعقوب بن إسحق وأحمد بن أيمن والحسين بن مهاجر وعلي بن أحمد المادرائي وابن الداية وإسحق بن نصير العبادي وإبراهيم بن عبد الله النجيري ومحمد بن كلا والروزباري وغيرهم من الكتاب الذين اتخذوا الكتابة فنا يتكسبون به، ومؤهلا لتعيين الكتاب في خدمة الأمراء وأصحاب الشأن في البلاد، فكثرتنافس الكتاب في تجويد الكتابة وإتقان الصناعة حتى علا منارها وعظم شأنها تولى الفاطميون أمر مصر، ونهضة الكتابة فيها قوية مزدهرة، فتضاعفت هذه النهضة في العصر الفاطمي بما عمل الفاطميون على النهوض أولا بالعلم وإذكاء شعلته في البلاد، حتى كان للحركة العلمية أثر قوى في تيار الفكر الإسلامي عامة

وفي مصر الفاطمية على وجه خاص ، وقد تحدثنا عن ذلك من قبل . ومن ناحية أخرى ظفرت مصر الفاطمية بنهضة أدبية كان لها أثرها القوي في ازدهار الشعر وازدهار الكتابة معا ، فقد عنى الفاطميون بالكتاب عنايتهم بالشعراء ، بل لا أعلى إذا قلت إن عناية الفاطميين بالكتاب كانت أشد من عنايتهم بالشعراء . ذلك أن اتساع ملكهم وتشعب نواحي حياتهم وسلطانهم اضطرهم إلى أن يوجهوا همهم إلى العناية بالدواوين المختلفة عناية خاصة تتناسب مع غلوهم في إظهار مجدهم . ويحدثنا المؤرخون عن هذه الدواوين وعن الكتاب الدين تولوها والتشريف الذي كان يجده هؤلاء الكتاب في العصر الفاطمي . من ذلك أن صاحب ديوان المجلس كان يخلع عليه وينشأ له السجل ، وله المرتبة والمسند والدواة والحاجب إلى غير ذلك (١) ، ويذكر المقرئ أن أبا البركات بن أبي الليث متولى ديوان المجلس سنة ٥١٧ هـ كان له باسمه مياومة إدرازا من بيت المال والخزائن ودار التعمية والمطابخ وشون الحطب الشيء الكثير ، فكان له من البقول والتوابل ما قيمته نصف دينار ومن الضأن رأس واحد ومن الحيوان ثلاثة أطيار ومن الحطب حملة واحدة ومن الدقيق خمسة وعشرون رطلا ومن الخبز عشرون وظيفة ومن الفاكهة ثمرة زهرة قصر يتان وشمامة ، كما كان له في كل يوم اثنين وخميس من السباط بقاعة الذهب طيفسور خاص وصحن من الأوائل وخمسة وعشرون رغيفا من الخبز المائدى والسמיד ، وفي كل يوم أحد وأربعاء من الأسبطة مثل ذلك ، وفي كل يوم سبت وثلاثاء من أسبطة الركوبات خروف مشوى وجام حلوى ورباعى عنب ، وكان يحضر إليه في كل يوم من الاصطبلات بغلة بركوب محلى وبغلة برسم الراجل وفراشين برسم خدمته ؛ ولم يقتصر الأمر عليه وحده بل جعلوا لولده جاريا كل يوم مقداره ثلاثة أرطال لحم وعشرة أرطال دقيق وراتبا عشرة دنانير (٢) .

ويقول المقرئ أيضا عن ديوان التحقيق إنه كان لا يتولاه إلا كاتب خبير وله الخلع المرتبة والحاجب (٣) ؛ أما صاحب ديوان الإنشاء والمسكاتبات فكان أول أرباب الإقطاعات وأرباب الكسوة والرسوم ، وله حاجب من الأمراء

(٢) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٢٩ .

(١) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٣٦

(٣) المصدر نفسه ج ٢ ص ٢٤٢ .

الشيوخ وفراشون وله المرتبة الهائلة والمخاد والمسند والدواة ، وهى من أخص
الدوى ويحملها أستاذى الخليفة (١) ، ويحدثنا ياقوت أن رزق ابن خيران كاتب
الإفشاء فى عهد المستنصر كان ثلاثة آلاف دينار فى السنة ، وكان له عن كل ما يكتبه
من السجلات والعهودات وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شىء (٢) .
فهذا التشرىف الذى جعله الفاطميون لكتاب دولتهم كان من أهم عوامل ازدهار
الكتابة فى هذا العصر ، كما كان إغداق النعم على الكتاب على هذا النحو الذى
رأينا صورته من أسباب كثرة الكتاب وإقبال الناس على التعليم وإجادة
الكتابة ليصلوا إلى مرتبة الكتابة فى الدواوين ، فكثرت عدد الكتاب وأصبح
على المتأدب أن يأخذ عن الكتاب طرائقهم وفنهم ، ويحدثنا القاضى الفاضل
أنه كان من عادة أرباب الدواوين فى تربية أبنائهم أنهم كانوا يرسلون هؤلاء
الأولاد إلى ديوان المسكاتب ليتعلموا فن الكتابة ، قال القاضى الفاضل : كان
فن الكتابة بمصر فى زمن بنى عبيد غضا طريا ، وكان لا يخلو ديوان المسكاتب
من رأس يرأس مكانا وبيانا ، ويقوم لسلطانه بقلبه سلطانا ، وكان من العادة أن
كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد وشدا شيئا من علم الأدب أحضره إلى
ديوان المسكاتب ليتعلم فن الكتابة ويتنرب ويرى ويسمع ، فأرسلنى والذى
وكان إذ ذاك قاضيا بشعر عسقلان إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ، وأمرنى
بالمصير إلى ديوان المسكاتب ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجل يقال
له ابن الخلال ، فلما حضرت الديوان ومثلت بين يديه وعرفته من أنا وما طلبى
رحب بى وسهل ، ثم قال : ما الذى أعددتك لفن الكتابة من الآلات ؟ فقلت :
ليس عندى شىء سوى أنى أحفظ القرآن العزيز وكتاب الحماسة . فقال : وفى
هذا بلاغ . ثم أمرنى بملازمته ، فترددت عليه وتدربت بين يديه ، ثم أمرنى بعد
ذلك أن أحل شعر الحماسة فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحله مرة
ثانية فحللته (٣) .

فهذا النص يدلنا على مبلغ تعلق الناس بتعليم أبنائهم فن الكتابة ، فقد كان

(١) خطط المقرئى ج ٢ ص ٤٤٤ (٢) معجم الأدباء ج ٤ ص ٤ (طبعة رفاعى)

(٣) الروضتين ج ١ ص ١٩٢

حفظ القرآن الكريم وأشعار العرب من عهد الكاتب في هذا العصر ، وقد رأينا كيف طلب ابن الخلال من تلميذه الذي عرف بعد ذلك بالقاضى الفاضل أن ينثر كل الأشعار التي جمعها ديوان الحماسة تهيمته له في الدخول في سلك الكتاب . ولم تكن ملكة الكتابة وحدها تكفي أن تجعل الإنسان كاتباً ، بل كان لا بد له من آلات — على نحو ما عبر ابن الخلال — وهذه الآلات هي علوم العربية ، حتى يتسنى للكاتب أن يسير على نهج الأساليب العربية ، فلا يقع في لحن نحوى أو لغوى ، أو يتعد الكاتب عن سنن كتاب العربية في أسلوبهم وتعبيراتهم . ولم يقع الفاطميون بأن تكون كتابات الكتاب سليمة صحيحة ، بل حرصوا أشد الحرص على ذلك ، بأن جعلوا في ديوان الإنشاء لغويين ونحويين لمراجعة ما كان يحرره الكتاب حتى تخرج كتاباتهم سليمة من الأخطاء ، فهذا الحرص على سلامة أساليب الكتابة كان من العوامل التي جعلت الكتاب أنفسهم يعملون جاهدين على أن تخرج كتاباتهم خالصة متفقة مع الأساليب العربية ، فلا غرو أن يقول القاضى الفاضل : « إن فن الكتابة بمصر في زمن بنى عبيد كان غضا طريا ، وإن تصبو نفس كل متعلم إلى أن يكون كاتباً من كتاب الدواوين .

وقد يكون من عوامل ازدهار الكتابة في العصر الفاطمى أن وزراء العصر الأول من الحكم الفاطمى كانوا من الكتاب ، وكانوا يعملون في الدواوين قبل اختيارهم للوزارة ، فالفلاحى والجرجرائى واليازورى والبابلى وبنو المغربى وابن المدبر وابن الأنبارى وكثير غيرهم كانوا من الكتاب ، وقد بلغوا مرتبة الوزارة ، حتى إن المؤرخين لاحظوا أن وزراء الدور الأول كانوا من أصحاب الأقلام ، وأن وزراء الدور الثانى كانوا من أصحاب السيف . وليس معنى ذلك أن الكتابة ضعفت في الدور الثانى ، أو أن الكتاب أصبحوا في مكانة تقل عن مكانتهم الأولى ، بل ظل الكتاب يتمتعون بمثل المركز الرفيع الذى كانوا فيه في الدور الأول ، ومنهم من جلساء الإمام وحجابه وأصحاب مظلمته ، ومنهم من القضاة والدعاة . وهذه كلها كانت أكبر مناصب الدولة بعد الوزارة ، فالكتاب طوال العصر الفاطمى كانت لهم مكانتهم الممتازة ، والنعم العميمة ، والعطايا الجزيلة ، فلا غرابة إذن أن يقبل الناس على الكتابة ، وأن تزدهر في هذا العصر .

أضف إلى ذلك كله أن نظام الحكم الفاطمى كان من أشد العوامل على ازدهار

الكتابة ، فإن الفاطميين كانوا يسجلون كل دقيقة وعظيمة في سجل يخرج من الديوان ، فتعيين الوزراء أو الكتاب أو القضاة أو الدعاة وغيرهم من أرباب وظائف الدولة كان يخرج به سجل خاص مطول ، فيه الحضر على تقوى الله وطاعة الإمام والتمسك بأهداب الدين الخفيف ، ثم الإشارة إلى المنصب الذى سيعين فيه الموظف ، وما يتطلبه ذلك المنصب من عمل ، إلى غير ذلك من ترغيب فى المنصب ومشورة فى تصريف العمل . وإذا خرج الخليفة لفتح الخليج أو لصلاة الجمعة أو العيد فيخرج السجل بذلك . وفى أعيادهم وآتهم كانت تصدر هذه السجلات أيضا ، حتى أصبحت هذه السجلات تاريخا للعصر الفاطمى كله . وكان الكتاب يفتنون فى إظهار مقدرتهم وكفائتهم فى صياغة هذه السجلات ، ويتنافسون فى هذا الفن . فجاءت هذه السجلات الفاطمية صوراً رائعة من صور الكتابة العربية التى تمثل العصر الفاطمى أصدق تمثيل .

من ذلك نستطيع أن ندرك كيف ازدهرت الكتابة فى العصر الفاطمى ، وكيف أقبل المتعلمون على أن يلهوا بفن الكتابة ، حتى يصبحوا كتابا فى دواوين الفاطميين . وأن ينالوا ما ناله الكتاب من تكريم وتقريب ونعم .

النثر والأئمة :

وكان الأئمة يحميدون فن النثر كما كانوا يعرفون بالشعر ، فقد كان الأئمة يلقون الخطب الدينية فى المسجد الجامع . ويقرأون ما يعرضه عليهم الدعاة من مجالس الحكمة ، وقد يبدلون بعض أجزاء هذه المجالس . فن خطبة المهز لدين الله فى عيد الأضحى سنة ٣٤١ هـ .

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، والله أكبر الأعز الأقدر ، الخالق المدبر ، ذو الكبرياء والجبروت ، والعزة والملكوت ، الأحد الصمد ، الفرد المتفرد ، الأعلى القاهر ، الباطن الظاهر ، الأول الآخر ، مبدع السموات والأرض بالقدرة ، وما سلكها بالعزة ، ومدبرها بالحكمة ، وخالقها بما فيها من عجائب الفطرة ، وبدائع التركيب والصنعة ، الذى كل شئ من موات وحى متوجه بالدعاء إليه ، والدلالة عليه ، والشهادة له بالتوحيد ، والتعظيم والتحميد ، فسكو به الأشياء كلها من عدم شاهد بأن لا شئ قبله ، وانتهأؤها إلى الغايات دليل على أن لا

غاية له ، وإحاطته بمحدودها منى^١ بأن لا حد له ، فالضعف والعجز والفقير والنقص الذي لم يخل منه مخلوق أفصح ناطق وأصدق شاهد للخالق وحده — جل ثناؤه — بالإلهية والفرسانية والقدرة والربوبية والتام والكمال والأزل والدوام . تبارك الله رب العالمين ، أحسن كل شيء خلقه ، وكفل لكل حي رزقه ، ثم هدى بالعقل الذي قامت حجته ، ووجبت طاعته ، والكتب والرسول الذين تمت بهم حكمته . فصلى الله عليهم أجمعين ، وعلى محمد سيد المرسلين ، الذي رفع ذكره وأعلى قدره ، فأكرمه بالوسيلة ، واختصه بكل فضيلة ، وابتعثه هاديا للعباد ونورا في البلاد ، علم به من الجهل ، وهدى به من الضل ، وكثر به من القل ، وأعز به من الذل ، فألف به بعد الشتات ، ونور به دياجير الظلمات ، صلوات الله عليه وآله المهديين الأخيار الطيبين . يا أيها الناس إن الله لم يخلقكم عبثا ، ولم يهملكم سدى ، ولم يجعل عليكم في الدين حرجا ، ولم يضرب الذكر عنكم صفحا ، للعبادة خلقكم ، وبطاعته وطاعة رسوله أمركم ، وجعل للطاعة أعلاما منصوبة ، وفروضا مكتوبة ، ومن أفضل أعلامها وأكرم أيامها يوم الحج الأكبر إلى البيت العتيق مبعوا إبراهيم خليل الله ، وقبله محمد رسول الله ، فتقربوا إلى الله بما أمركم به ورتزقكم إياه من بهيمة الأنعام ، مقتدين سنة محمد نبي الرحمة والهدى ، مستشعرين لله التقوى ، فإن الله عز وجل يقول : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ، ولنكن يناله التقوى منكم » فبالتقوى تقبل الأعمال ويدرك الأمل ، وكبروا الله على ما هداكم ، واشكروه على ما أولاكم ، ألا وإن خير الهدى الإبل ، وخير الإبل إنائها ، وكذلك من البقر ثم الفحول من الضأن ، وسلامة الضحايا سلامة العين والأذن ، وأن تكون من حلال الأموال ، نسأل الله لنا ولكم قبول العمل بامتثانه ، وبلوغ الأمل من رضوان الله ورحمته وإحسانه .

وجلس ثم قام في الثانية ينعي المنصور ويعلن موته ، بعد أن كان موته قد ظل مستورا عدة أشهر :

« الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله والله أكبر ، الله أكبر شانا ، وأعظم سلطانا ، وأوضح آيات وبرهاننا ، عن أن تنكر العقول توحيده ، أو تروم تحديده ، خالق السموات والأرض ومالكهما ومدبرهما ، الفرد الصمد ، الواحد الأحد ، الذي لا شريك له ولا ند ، الخالق القدير ، الرحمن الغفور ، النافذ قضاؤه ،

السكان ما يشاؤه ، المتقن كل شيء صنعا ، الموسع كل شيء رزقا ، المحيط بكل شيء علما . أحمدته وأستعينه وأستغفره وأستهديه وأفوض إليه ، وأتوكل في كل الأمور عليه . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً خيرته من عباده ، ونجيه من بريته ، وصفوته من المتطهرين ، ورسوله إلى كافة العالمين ، وبعيته بالإمامة إلى الثقلين ، ليلبغ حجة الرب ويوضع حجة الحق . فأدى رسالة الله ، ورحم ورأف بعباد الله . وصبر على الكُتُبِارِ مَرِينِ مكر الكفار ، إلى أن أدال الله للحق على الباطل . والهدى على الأضائل . محمد صلى الله عليه وآله أفضل الصلاة وأزكاها ، وأكملها وأماها . وأخذها وأبقاها ، وعلى الأئمة المهديين ، من عترته الكرام الأبرين ، الذين اختارهم للخلافة . وارتضاهم للإمامة . وأدبوصية الرسل حججهم . وأوجب في التنزيل طاعتهم ، بعد تفضيله إليهم على العالمين بأبوة محمد سيده المرسلين ، وعلى أفضل الوصيين . وعلى من أمه سيدة النساء ، خامسة أصحاب الكساء صلوات الله عليهم . وعلى أميرى المؤمنين ، المهدي بالله والقائم بأمر الله سيدى الورى ، وإمامى الهدى ، اللذين أعلن الله بهما دعوة الحق ، وأنطق بهما الإيمان والمؤمنين . وأقام بهما دعوة الدين ، وأزهق بحقهما باطل المدعين وأكاذيب المتخربين ، وقطع بسيوفهما دابر الظالمين ، صلوات الله ورحمته وبركاته ورضوانه وتحياته عليهم . اللهم اخصص الإمام الفاضل ، والوصى العادل ، والبر الفاضل . والغيث الوابل . ذا الآيات المعجزات . والعزائم النافذات . الباذل نفسه الكريمة في حين الأزل والكربات . الصابر في البأساء والضراء حتى طهر الأرض من جبابرة الأعداء . عبدك ووليک ونجيبك وصفيك أبا الطاهر ، المنصور بك والمتوكل عليك ، والمفوض إليك ، العامل بما يرضيك ويقرب إليك ويزلف لديك . الذى فجعتنا بفقدته ، وأوحدتنا ببعده ، وأفردتنا منه وأوحشتنا ، فقبلت دعاءه ، وأجبت نداءه ، وجمعت بينه وبين أحبته فى مستقر جنتك وسعة رحمتك . إن القلق وشدة الحرق عليك يا أبتاه ياسيده يا إسماعيله يا أبا الطاهره ، يا بحر علوم الأئمة الطاهرين ، الهداة المهديين ، يا بقیة أبناء الرسول ، وأبناء الوصى والطاهرة البتول ، يا إمام الأمة ، ومفتاح باب الرحمة ، ياسراج الهدى وشمس الورى ، وبجلى الطخياء ، يا مخصوصا من الله بتعجيل الكرامة ، عظم والله علينا المصاب بك ، وحل البلاء

وعدم العزاء لفقدك ، وقصرت الألسن عن إدراك إحصاء شماتلك وتعداد مناقبك ، فوحق الذى اختصك بكرامته وحباك بجزييل عطائه وشرفك بأبوة رسوله ، لولا ما أوعزت إلى به وأكدته على من القيام بحق الله ، والذب عن أمة جدك رسول الله ، واستنقاذهم من غمرة الجهالة وبحار الضلالة ، ومهاوى الفتن ومعاطب المحن ، وما تقرر عندى ورسخ فى صدرى من الجزاء بقدر الوفاء لله ولرسوله ولأئمة الهدى ، لضربت على وجهى سائحا فى البلاد قاليا للبهاد ، راضيا ببلغة من الزاد ، إلى أن يلحقنى الموت سريعا بك ، فأفوز بقربك ورحمة ربك ؛ لكنى فكرت ونظرت وتدبرت ، فلم أر لى وجهها أستوجب به درجتك واللحاق بشرفك سوى الصبر والاحتساب فتجلدت ، وصبرنى ربى فصبرت ، وغلب على اليقين فأمسكت ، فأقول : « إنا لله وإنا إليه راجعون » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم الرحمن الرحيم له الحمد على ما أبلى ، والشكر على ما أولى . . . الخ (١)

وأكتفى بهذا القدر من هذه الخطبة القيمة التى وردت فى كتاب « سيرة الأستاذ جوذرا » فهذا الكتاب النفيس تحت الطبع الآن ، ولعلك تلاحظ أن المعز قد أتى فى خطبته هذه ببعض العقائد الفاطمية من السهل الآن على القارى أن يدركها ، والمهم الآن أن نلاحظ هذه الصنعة الفنية فى أسلوب الخطبة ، فالجمل قصيرة ، وتكاد الجملة تكون على وزن وطول الجملة التى تليها ، والسجع ظاهر فيها ، وينتقل المعز من معنى إلى آخر انتقالا طبيعيا لا تسكلف فيه .

وإذا قرأنا توقيعات المعز التى ضمنها القاضى النعمان بن محمد كتابه « المجالس والمسائرات » وتوقيعاته التى أرسلها إلى وليه الأستاذ جوذرا التى جمعها صاحب « سيرة جوذرا » رأينا أن هذه الصنعة الفنية فى الكتابة لا تلازم الإمام المعز فى توقيعاته ، فقل أن نجد السجع ، ولا هذا التكلف الذى رأيناه فى خطبته ، فتوقيعاته أقرب إلى الكلام العادى الذى يتحدث به أمام الناس فى الشئون المختلفة مع سلامة أسلوبه وفصيح عبارته ، مثل توقيعه إلى جوذرا على رقعة رفعها إلى الإمام يسأل فيها ضيعة يرتفق بها ابن أحد كتابه : « وقفنا على رقعتك ، ومحل محمد محل مثله من صدقت نيته ، وقدمت فى الجميل محبته ، ونحن نحب أن يسبح الله نعمنا

(١) سيرة الأستاذ جوذرا (نسخة خطية بمكتبتى) .

على من لم يعرفنا ، فكيف من لم يعرف إلانا ، ونحن نسعف جعفرأ لسؤالك ما سأل فيه إن شاء الله » (١) .

وكذلك نقول عن الأئمة الذين جاءوا بعد المعز ، فقد كانوا على ثقافة واسعة وعلم غزير جعلهم يهتمون بالكتابة ويميزون بين الجيد منها والردىء ، بل تنسب إلى بعضهم رسائل مثل مجموعة الرسائل التي تنسب إلى المستنصر الفاطمي والتي عرفت « بالرسائل المستنصرية » (٢) . والتي قيل إنها الرسائل التي تبودلت بين المستنصر وبين علي بن محمد الصليحي صاحب اليمن ، فؤرخو الإسماعيلية يؤكدون أن هذه الرسائل من إنشاء المستنصر نفسه ، ولكنى — بعد أن اطلعت على هذه الرسائل — أستطيع أن أقول إن أسلوبها أقرب إلى أسلوب المؤيد في الدين داعي الدعاة .

وكذلك نقول عن « رسالة الهداية الآمرية » (٣) التي ينسبها الإسماعيلية إلى الإمام الأمر باحكام الله ، فقد شك الأستاذ آصف فيظى ناشر هذه الرسالة في نسبتها إلى الإمام الأمر ، ورجح أن تكون من إنشاء أحد الكتاب الذين كانوا في عصر الأمر .

ومهما يكن من شيء فإن الكتابة في العصر الفاطمي قد ازدهرت بازدهار الحياة المصرية في ذلك العصر ، ولشدة إقبال الناس على التماس العلم والنهل من منابعه التي كثرت ، وتعددت ألوانها وفنونها . وتطور الكتابة يتبع دائماً تطور الحياة العلمية ، فإذا ارتقت العلوم تبعها رقى في الكتابة ، وإذا انحطت العلوم انحطت الكتابة .

(١) المصدر السابق .

(٢) مجموعة خطية بمكتبة مدرسة اللغات الشرقية بلندن .

(٣) الرسالة الموسومة بالهداية الآمرية في إبطال دعوى النزارية عميق الأستاذ آصف علي

أصفر فيظى (من مطبوعات جمعية الأبحاث الإسلامية بالهند) .

الفصل الثاني

كتاب ديوان الإنشاء

قال القلقشندي : « لما ولي الفاطميون مصر صرفوا مزيد عنايتهم لديوان الإنشاء وكتابه ، فارتفع بهم قدره ، وشاع في الآفاق ذكره ، وولي ديوان الإنشاء منهم جماعة من أفاضل الكتاب وبلغائهم ما بين مسلم وذمي » (١) هكذا وصف القلقشندي كتاب ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي « وما بلغه هذا الديوان على أيدي الكتاب من رفعة القدر وشيوع الذكر ، ولا غرو في ذلك إذ كان منصب ديوان الإنشاء لا يتولاه في الدولة الفاطمية إلا أجل كتاب البلاغة (٢) ، ولمكانته وكفايته كان يلقب بالشيخ الأجل وبصاحب الدست الشريف (٣) كما كان الخليفة يستشيره في أكثر أموره ، ولا يحجب عنه متى قصد المشول بين يديه (٤) ، وقد تحدث ابن منجب الصيرفي — أحد كتابهم — عن الصفات التي يجب أن يتحلى بها رئيس ديوان الإنشاء ، نلخص أهمها فيما يأتي :

- ١ — أن يكون ذا دين وورع وأمانة .
- ٢ — أن يكون دينه الإسلام .
- ٣ — أن يكون على مذهب الملك .
- ٤ — أن يكون من البلاغة والفصاحة إلى أعلى رتبة وأسنى منزلة ، وبحيث لا يوجد أحد في عصره يفوقه في هذا الفن .
- ٥ — أن يكون مضطلعا بفنون الكتابة ، عالما بأصولها وفصولها .
- ٦ — أن يكون حافظا لكتاب الله تعالى ، وحافظا للأشعار راويا للكثير منها ،
- ٧ — أن يكون أصيلا في قومه ، رفيعا في حسبه (٥) .

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ .

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٤٤ وصبح الأعشى ج ١ ص ١٠٢ .

(٣) المصدر السابق . (٤) المصدر السابق .

(٥) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ص ٩٤ وما بعدها .

هذه أهم الصفات التي رأى ابن منجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء ،
فهل اتخذ الفاطميون هذه الصفات دستوراً لهم في اختيار رؤساء هذا الديوان ؟
يؤسفني أن أقول إن الفاطميين لم يأبها بهذه الشروط والصفات التي اقترحها
أحد كتابهم في كتاب قدمه لوزير من وزراءهم ، ولكن ابن منجب كان من
كتاب القرن السادس للهجرة في وقت بدأ فيه ضعف دولتهم وقوة أعدائهم ،
ولا سيما قوة الصليبيين ، فلا غرابة أن نرى ابن منجب يشترط أن يكون الإسلام
دين رئيس الديوان ، وخاصة بحكم الوقت الحاضر ألا يطلع على أسراره من
يخالف شريعة الإسلام لقرب دار العدو خذله الله وأباده » (١) . فإن وجود
الصليبيين في بلاد الشام يناوئون الفاطميين جعل ابن منجب يضطر إلى أن
يشترط أن يكون رئيس ديوان الإنشاء مسلماً . أما قبل عهد الصليبيين ، ومنذ
قامت دولة الفواطم في مصر ، فقد كان يتولى ديوان الإنشاء بعض أهل الذمة ،
كما كان يتولاه بعض المسلمين . ويذكر المؤرخون أسماء بعض من تولى هذا
الديوان من أهل الذمة ، مثل أبي المنصور بن نسطوروس النصراني كاتب العزيز
والرئيس فهد ، كاتب الحاكم وغيرهما ، كما كان يكتب ابن أبي الدم اليهودي في عهد
الحافظ . معنى هذا أن الفاطميين لم يأبها بمذهب الكاتب أو دينه ، بل لا أعالي
إذا ذهبت إلى أن الفاطميين كانوا كثيراً ما يستعينون بالذميين في دولتهم ، وهذه
ظاهرة سجلها المؤرخون في كتبهم عن الدولة الفاطمية ، ولكن ليس معنى ذلك
أن الفاطميين أبعدوا المسلمين عن الدواوين ، فإن الكثرة الساحقة من كتاب
الدواوين كانوا من المسلمين ، فاذا عرضنا أسماء رؤساء ديوان الإنشاء التي
وردت في صبح الأعشى رأينا أكثر الكتاب من المسلمين ، فقد جاء في هذا
الكتاب : « فكتب للعزيز بالله ابن المعز أبو المنصور بن نسطوروس النصراني ،
ثم كتب بعده لابنه الحاكم ومات في أيامه ، فكتب للحاكم القاضي أبو الطاهر
النهركي ، ثم كتب بعده لابنه الطاهر ، وكتب للمستنصر القاضي ولي الدين
ابن خيران ، ثم ولي الدولة موسى بن الحسن قبل انتقاله إلى الوزارة ، وأبو سعيد
العميدي ، وكتب للأمر والحافظ الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أبي أسامة
الجلبي ، إلى أن توفي سنة اثنتين وعشرين وخمسة ، فكتب بعده ولده الأجل

(١) قانون ديوان الرسائل لابن منجب ، ص ٩٥ .

أبو المكارم إلى أن توفي في أيام الحافظ ، وكان يكتب بين يديهما الشيخ الأمين تاج الرياسة أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب المعروف بابن الصيرفي ، والقاضي كافي القضاة محمود ابن القاضي الموفق أسعد بن قادوس وابن أبي الدم اليهودي ، ثم كتب بعد الشيخ أبي المكارم بن أبي أسامة المتقدم ذكره القاضي الموفق بن الخلال أيام الحافظ وإلى آخر أيام العاضد ، وبه تخرج القاضي الفاضل البيساني ، ثم أشرك العاضد مع الموفق ابن الخلال في ديوان الإنشاء القاضي جلال الملك محمود الأنصاري ، ثم كتب القاضي الفاضل بين يدي الموفق ابن الخلال قرب وفاته سنة ست وستين وخمسمائة في وزارة الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكتب من إنشائه عدة سجلات ومكاتبات عن العاضد آخر خلفائهم (١) .

ولكن هذه الأسماء التي جاءت في صبح الأعشى ليست عرضاً لرؤساء ديوان الإنشاء في العصر الفاطمي كله ، كما أن الذي نراه في كتب التراجم وفي المراجع العامة الأخرى يختلف بعض الاختلاف عما ورد في صبح الأعشى ، إذ تحدثنا هذه المراجع أن الحسين بن جوهر القائد كان يلي ديوان الإنشاء في عهد العزيز (٢) وأنه ظل في منصبه إلى أيام الحاكم ثم استبدل به صالح بن علي الروزباري ، ثم جاء بعده الكافي ابن عبدون النصراني ، ثم صرف وقرر بدله أحمد بن محمد القشوري الكاتب ، ثم زرعة بن عيسى بن نسطورس الكاتب النصراني الملقب بالشافي ، وبعده حسين بن طاهر الوزان (٣) . ونفهم من كلام ابن زولاق مؤرخ مصر أن مالك ابن سعيد الفاروق كان له النظر أيضاً في المكاتبات في عصر الحاكم (٤) ، وتولى ابن خيران كتابة السجلات للظاهر والمستنصر (٥) ، ويذكر المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي في سيرته أنه ولي ديوان الإنشاء بمصر سنة ٤٤٣ هـ (٦) ، ويذهب المقرئ إلى أن الوزير ابن المغربي ولي ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة (٧) وأن سناء الملك أبا محمد الزبيدي الحسني كان على رأس ديوان الإنشاء في عهد الأمر (٨) ، وهكذا نستطيع أن نعرف عدداً آخر من الكتاب الذين

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦ . (٢) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) اتعاظ الخنقا ص ٣٠٠ وما بعدها (٤) الولاة والقضاة ص ٦٠٦ .

(٥) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨ .

(٦) السيرة المؤيدية (من مطبوعات دار الكتاب المصري) .

(٧) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٥٧ . (٨) الخطط ج ٤ ص ٧٨ .

ولوا ديوان الإنشاء غير الذين ذكرهم الفلقشمندي ، كما نستطيع أن نستخرج أسماء عدد كبير من الكتاب الذين كانوا يعملون في ديوان الإنشاء ، ولكنتنا لا نستطيع أن نعرف مذاهبهم الفنية في الكتابة ، لأن آثارهم فقدت ولم يبق لنا إلا عدة رسائل وسجلات لا تكفي لأن نكون رأيا صحيحا عن كل كاتب من هؤلاء الكتاب ، ولكن هناك عدة خصال عامة اشترك فيها كل كتاب هذا العصر ، بحيث نستطيع أن نلمسها عند كل الكتاب الذين وصل إلينا شيء من في كتاباتهم . فأول خصلة من هذه الخصال هي أن الكتاب جميعا التزموا السجع كتاباتهم ، ترى هذه الخصلة منذ ابتدأت الدولة الفاطمية إلى أن قوض صلاح الدين الأيوبي أركانها ، نراها في رسالة المعز لدين الله إلى القرمطي (١) ، وفي رسالة العزيز بالله إلى عضد الدولة البويهى وهذه الرسالة كانت من إنشاء يعقوب بن كلس (٢) وفي السجلات الكثيرة التي كتبت في عهد الحاكم (٣) وفي رسائل المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي وفي كتابات ابن خيران ، ونستمر في إدراك هذه الخصلة عند الكتاب حتى نراها في رسائل ابن الصيرفي وابن الشيخبهاء ، ثم في رسائل القاضي الفاضل .

وخصلة أخرى نراها في فن هؤلاء الكتاب وهي الاقتباس من القرآن الكريم ، فكانوا أحيانا يضمنون رسائلهم وسجلاتهم بعض آيات من القرآن ، أو يقتبسون بعض معاني القرآن ، متأثرين بهذا كله تأثيراً واضحاً في جميع ما خلف لهم من كتابات .

وخصلة ثالثة هي المبالغة في استخدام الزينة اللفظية والمعنوية في كتاباتهم ، فهم يغرقون في المبالغة حين يحاولون تشخيص المعاني ، ويولعون باستخدام الجناس ، ويكلفون في تركيب جملهم بمراعاة النظير : فإذا بك تجد كتاباتهم عبارة عن جمل قصيرة في الغالب ، والجملة تتبع الأخرى في وزنها وموسيقاها ومعناها ، وينتقل بك الكاتب من معنى إلى آخر في رقة وعدوبة ، فلا ينتقل بك انتقالا فجائيا ، مما يدل على فطنة الكاتب ومهارته ، كما يدل أيضا على أن الصنعة الفنية كانت تستهوى جميع الكتاب على أن هذه الخصال التي عرفت في العصر الفاطمي

(١) انعاظ الحنفاس ٢٥١ . (٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٤ .

(٣) الحطط ج ٣ ص ٢٣ .

عرفت أيضا في رسائل ابن عبد كان ، فلا غرابة إذا قلنا إن أثر ابن عبد كان في كتاب مصر كان قويا شديدا ، وإن فنه الذي عرف به في العصر الطولوني قد ظهر واصحا في العصر الفاطمي ، وإن كان كتاب الفاطميين قد بالغوا في ذلك كله مباغتهم في كل شيء في حياتهم . كما أن هذه الخصال نفسها هي التي عرفت بها كتابات القاضي الفاضل ، وما القاضي الفاضل إلا أحد تلاميذ كتاب الفاطميين وبهم تخرج ، والعجب حقا أن أرى بعض الزملاء يتوهم أن للقاضي الفاضل مذهبا خاصا عرف به في الكتابة ، وأن له مدرسة تميز بخصائصها وطاقها عن مدرسة الكتاب الفاطميين ، وأخشى أن أذهب إلى أن هؤلاء الزملاء لم يدرسوا تطور الكتابة في مصر دراسة كافية ، فقصورهم في معرفة أسلوب كتاب مصر منذ أيام ابن عبد كان جعلهم ينسبون طريقة ابن عبد كان إلى القاضي الفاضل ، ونحن نلتبس لهؤلاء الزملاء بعض العذر في حكمهم هذا ، لأنهم كانوا تبعوا في ذلك للقدماء الذين أشادوا بذكر القاضي الفاضل ، وتناسوا أساتذته وخصائص مذهبهم التي أخذها عنهم ، وجاء المحدثون يتبعون القدماء في أحكامهم دون درس والبحث .

وخصلة أخرى تميز بها رسائل كتاب الفاطميين ونجدها ظاهرة في كل سجلاتهم ، تلك هي المقدمات التي كان يبدأ بها الكتاب رسائلهم وسجلاتهم ، فقد دفعهم عقيدتهم الدينية وتمذهبهم بالمذهب الفاطمي إلى أن يبدأوا رسائلهم وسجلاتهم بالحمد لله ، ثم بالصلاة على النبي وعلى الوصي والأئمة من أهل البيت ، ويعتمدون دائما أن يذكروا أن محمدا جد الأئمة فكأنهم كانوا يحاولون إثبات نسبهم في كل رسالة من رسائلهم وكل سجل من سجلاتهم ، وكأنهم أرادوا بتكرار هذه الناحية تأكيد ما حاول خصومهم نفيه ، أو كأنه رد على سجلات العباسيين في دحض نسب الفاطميين ، هذه الظاهرة واضحة كل الوضوح في كل رسائل الفاطميين منذ دخل جوهر مصر إلى أن انقرضت الدولة الفاطمية . ولعل هذه الظاهرة هي التي تميز رسائل الكتاب الفاطميين عن غيرهم من كتاب الأقطار الأخرى التي لم تخضع لحكم الفاطميين ، بل أرى هذه الظاهرة في رسائل أتباع مذهب الفاطميين إلى اليوم . وكما كانوا يبدأون كتاباتهم وسجلاتهم بالحمد والصلاة على النبي والأئمة ، كانوا يهتمون هذه الكتابات والسجلات ، لم يشذ عن ذلك كاتب من كتائهم . ولعل هذه الخصلة تظهر في سجلات الفاطميين أوضح من

ظهورها في رسالتهم. والسبب في ذلك أن السجلات الفاطمية كانت أقرب إلى البلاغات الرسمية التي تصدر عن ديوان جلالة مولانا الملك في عصرنا الحديث، ففي هذه السجلات التي كانت تصدر عن ديوان الإنشاء تسجيل خطوات الإمام الفاطمي، فإذا خرج للصلاة صدر بذلك سجل من الديوان، وإذا خرج الإمام إلى فتح الخليج صدر السجل، وإذا انتصرت الجيوش المصرية صدر السجل بالفتح وهكذا، ففي كل هذه السجلات تظهر هذه الخصلة.

وكما تأثر الشعر بالعقائد الفاطمية تأثرت الكتابة بهذه العقائد تأثيراً يظهر في السجلات التي تصدر في الأعياد والمواسم أو في تولية إمام أو أحد رجال الدولة من وزراء وقضاة ودعاة، ففي مثل هذه السجلات كان الكتاب يلمون بالعقائد ويؤولون بعض آيات القرآن الكريم تأويلاً يتفق مع مذهبهم الفاطمي، ويذكرون في كتاباتهم رأي الفاطميين في كل مناسبة وفي كل عيد، فالسجلات التي صدرت في عيد الغدير كانت تنصب على ولاية علي بن أبي طالب والأئمة المنصوص عليهم من بعده، وسجل مأتم عاشوراء كان في الحسين بن علي وما لاقاه أهل البيت من أهوال، وسجل رؤية رمضان في ذكر عقيدة الفاطميين في هلال رمضان، وهكذا كانت هذه السجلات حافلة بالمعتقدات الفاطمية التي لا يمكن أن تصدر عن دولة غير فاطمية المذهب.

ولعل أول قطعة نثرية وصلتنا عن الدولة الفاطمية هي ما كتبه القائد جوهر الصقلي فاتح مصر، وتلك هي الأمان الذي قطعه على نفسه وعلى إمامه للصريين، وإن كان هذا الأمان من السجلات التاريخية فهو صورة من الصور الأدبية التي ديجتها يراة هذا القائد، فقد كان جوهر كاتباً للمعز قبل أن يوليه قيادة جيوشه بالمغرب^(١)، ويحدثنا المقرئ أن القائد جوهر أكان كاتباً بليغاً، ومن مستحسن توقيعاته في رقعة رفعت إليه بمصر:

«سوء الاجترام، أوقع بكم حلول الانتقام، وكفر الإنعام، أخرجكم من حفظ الذمام، فالواجب فيكم ترك الإيجاب، واللازم لكم ملازمة الاحتساب، لأنكم بدأتهم فأسأتم، وعدتم فتعديتهم، فابتدأكم ملوم، وعودكم مذموم، وليس بينهما فرجة إلا تقتضي الذم لكم، والإعراض عنكم، ليرى أمير المؤمنين صلوات الله عليه رأيه فيكم»^(٢).

(٢) خطط المقرئ ج ٢ ص ٢٠٧.

(١) سيرة الأستاذ جوهر (مخطوط).

فتوقيع جوهر القائد على هذا النجو يدل على أن جوهر أ كان على مقدرة وكفاية في فن الكتابة كما كان على مقدرة وكفاية في فنون الحرب . فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، وهذه المعاني المتسقة والمقابلات بين معنى الجملة والأخرى ترينا أن فن الكاتب هو نفس الفن الذي ساد العصر الفاطمي ، بل كاد يسود العالم الإسلامي ، فالزينة اللفظية في هذه القرون كانت حليلة الكتاب جميعا .

أما الأمان الذي هو أول نص حفظ لنا عن الدولة الفاطمية فقد جاء فيه : —
بسم الله الرحمن الرحيم : هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها من أهلها ومن غيرهم : إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معي وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاءه ، وأبو إسماعيل الرسي أيدته الله ، وأبو الطيب الهاشمي أيدته الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضي أعزه الله — وذكروا عنكم أنكم التستم كتابا يشتمل على أمانكم في أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم : فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدابوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العائدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه لم يكن إخراجهم للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم... الخ ..^(١) ويستمر جوهر في ذكر ما يجب على المصريين أن يتبعوه ، وما على الحكومة الجديدة من تعهدات نحو الشعب المصري ، ويخيل إلى أن كاتب هذا النص لم يكن عنده الوقت الكافي لأن يظهر صناعته الفنية في المزوجة بين الجمل والتزام السجع في كل فقراته ، وإن كان الكاتب حاول أن يرتفع بأسلوبه وأن يجعله أسلوبا أدبيا .

وإذا تركنا كتاب الأمان الذي كتبه جوهر رأينا رسالة أخرى للمعز أرسلها إلى الحسن بن أحمد القرمطي ، ونحن لا ندرى من الذي كتب هذه الرسالة عن المعز ، فالرسالة التي وصلت إلينا طويلة ولكنها ناقصة . ومع ذلك فنحن نستطيع أن نتخذها صورة للكتابة في أول العصر الفاطمي ، حتى نستطيع أن نميز تطور الكتابة في العصر الفاطمي كله ، فقد جاء في هذه الرسالة :

(١) اتعاظ الحنفا ص ١٤٨ (طبعة دار الفكر العربي) .

« من عبد الله ووليه ، وخيرته وصفيه ، معد أبي تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل على أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد .
بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقاء ، ومذاهب الأئمة والأولياء ، ومسالك الرسل والأوصياء السالف والآنف منا . صلوات الله علينا وعلى آباءنا ، أولى الأيدي والأبصار ، في متقدم الدهور والآكوار ، وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله ، الابتداء بالإعذار ، والانتهاه بالإنداز ، قبل إنفاذ الأقدار ، في أهل الشقاق والآصار ، لتكون الحججة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسبما قال الله جل وعز : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » و « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله سبحانه : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » و « فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما هم في شقاق » أما بعد أيها الناس ، فإننا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مما جده ، حمداً دائماً بدأ ، ومجداً عالياً سرمداً ، على سبوغ نعمائه ، وحسن بلائه ، ونبتهى إليه الوسيلة بالتوفيق والمعونة على طاعته ، والتسديد في نصرته ، ونستكفيه بمائلة الهوى ، والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفائه التالين ، منا ومن آباءنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون . أيها الناس : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها » ليذكر من يذكر ، وينذر من أبصر واعتبر . أيها الناس : إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحا ، وأبرزنا أرواحا ، بالقدرة مالمكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحجة ، ولا شمس تضيء ، ولا قمر يسرى ؛ ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يحن ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار ، فنحن أول الفكرة وآخر العمل بقدر مقدور ، وأمر في القدم مبرور ، فعند تكامل الأمر وصحة العزم وإنشاء الله جل وعز المنشآت ، وإبداء الأمهات من الهيولات ، طبعنا أنواراً وظلماً ، وحركة وسكوناً . وكان من حكمه السابق في علمه ، ماترون من فلك دوار

وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما في الآفاق من آثار معجزات ، وأقدار باهرات ، وما في الأقطار من الآثار ، وما في النفوس من الأجناس والصور والأنواع من كثيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملبوس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ، كل ذلك لنا ومن أجلنا ، دلالة علينا ، وإشارة إلينا ، يهدي به الله من كان له لب سليم ، ورأى صحيح ، قد سبق له الحسنى ، فدان بالمعنى ... الخ ، (١)

ولعل أول ما يلفت نظرنا في هذه الرسالة تلك الاصطلاحات الفاطمية والمعاني الباطنية. بحيث نستطيع أن نقول إنه لا يمكن أن تصدر مثل هذه الرسالة إلا من كاتب من كتاب الفاطميين ، حتى لو كان الكاتب لم يبدأ رسالته بأنها من إمام من أئمة الفاطميين ، فالاصطلاحات الفاطمية (الناطق) و (الوصى) ، ثم حديثه عن خلق الأشباح أى الممثولات قبل خلق العالم ، وأن الأئمة أول الفكرة أى أنهم مثل للعقل الأول (المبدع الأول) وأن كل المخلوقات وجدت للدلالة على الأئمة الذين هم مثل للعقل . كل هذه من المعاني الباطنية التي يدين بها الفاطميون ، فالرسالة كلها مملوءة بمثل هذه العقائد ، فليست الرسالة من الرسائل التاريخية السياسية التي تقيس المؤرخ السياسي في معرفة العلاقة بين الفاطميين والقرامطة فحسب ، وليست رسالة أدبية تبين لنا صورة من صور الكتابة في النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة ، بل هي من أهم الرسائل التي تتحدث عن العقائد الفاطمية وتربينا تطور المذهب الفاطمي إذا قارناها بما جاء في كتب منصور بن الحسين ابن حوشب الذي وجد قبل عصر المعز ؛ أو كتب القاضي النعمان ، وجعفر بن منصور والروزي الذين كانوا في عهد المعز ، ثم كتب الدعاة الكبار الذين كانوا بعد عصر المعز. فتؤرخ العقائد الفاطمية مجدجلا للبحث في هذه الرسالة الهامة .

وأسلوب الرسالة هو ذلك الأسلوب الذي تحدثنا عنه من قبل ، وتظهر فيه كل خصائص الكتابة في العصر الفاطمي ، وكل خصائص مدرسة ابن عبد كان في الكتابة . انظر إلى هذه القطعة من تلك الرسالة :

فأما أنت أيها الغادر الخائن ، الناكث البائن ، عن هدى آباءه وأجداده ، المنسلخ

(١) انعاظ الحنفا ص ٢٥١ (طبعة دار الفكر العربي) .

عن دين أسلافه أنداده ، والموقد لنار الفتنة ، والخارج عن الجماعة والسنة ، فلم أغفل أمرك ، ولا خفي عنى خبرك ، ولا استتر دوني أثرك ، وإنك مني بمنظر ومسمع ، كما قال الله جل وعز « إنني معكما أسمع وأرى » ، وما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا ، فعرفنا على أى رأى أصلت ، وأى طريق سلكت ، أما كان لك بحمدك أبي سعيد أسوة ، وبعمل أبي طاهر قدوة ، أما نظرت في كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ، أكنت غائبا عن ديارهم وما كان من آثارهم . فأنت تقرأ هذه القطعة فتشعر أنك تقرأ رسالة ابن عبد كان التي كتبها إلى العباس بن أحمد بن طولون عند ما ثار على أبيه ، فهذه الجمل القصيرة المسجوعة ، والاقْتِباسات من القرآن الكريم ، وضم الجملة إلى ما يشاكلها ، كل هذه من خصائص فن ابن عبد كان ، ونقلها تلاميذه عنه ، واستمرت طوال العصر الفاطمي .

ووصلت إلينا رسالة كتبت في عهد العزيز بالله ، كتبها إلى عامله بمصر يبشره بالفتح حين خرج إلى قتال القرامطة بالشام سنة ٣٦٧ هـ ، ونحن لا نعرف أيضا كاتب هذه الرسالة ، ولكن لا شك في أنها كتبت في العصر الفاطمي ، لما فيها من الخصائص الفاطمية التي تحدثنا عنها من قبل ، سواء أكان ذلك من حيث العقائد أو من حيث الأسلوب الفني ، فقد جاء في هذه الرسالة (١) :

« من عبد الله ووليه نزار أبي المنصور العزيز بالله أمير المؤمنين إلى حسين ابن القاسم . سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلي على جده محمد نبيه ورسوله ، صلى الله عليه وعلى الأئمة من عترته الأبرار ، الطاهرين المطهرين وسلم تسليما .

أما بعد ، فالحمد لله الملك العظيم ، العليم الخليم ، ذى الطول الكريم ، والمن الجسيم ، والعز المسديد ، والمحال الشديد ، ولى الحق ونصيره . وما حق الباطل ومبيره ، المتكفل بالنصر والتمكين ، والتأييد والتحسين ، لأوليائه المتقين ، وخلفائه المصطفين ، الذابين عن دينه ، والقائمين بحقه ، والدالين على توحيده ، الحاكم بإعلاء كلمتهم ، وإفلاج حججهم ، وظهورهم على أعدائه المشاقين له ، الضالين عن سبيله ، الملحدون في آياته ، الجاحدين لنعمائه ، المنزل رجزه وقوارع بأسه على

(١) الرسالة بأكملها في صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٣٤ وما بعدها .

من عصاه فإداه ، وصد عنه فناده ، القاضى بالعواقب الحسنى ، والفوز والنعمى ، لمن أسلم وجهه له ، وتوكل عليه فى أمره ، وفوض إليه حكمه ، كل ذلك فضلا منه وعدلا ، وقضاء فضلا ، وهو الحكم العدل الذى لا يظلم الناس شيئا ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

فأنت ترى فى هذه القطعة كيف ذكر الكاتب أن محمدا جد الإمام العزیز ، وأن الأئمة هم صفوة الخلق المصطفون الذابون عن دين الله . فهذه كلها من المعانى الفاطمية التى لا يقول بها غيرهم ، فإذا مضينا فى قراءة الرسالة رأينا الجزء الأول منها يجرى هذا المجرى الذى رأيناه فى القطعة السابقة ، حتى إذا وصلنا إلى الغرض من الرسالة ، وهو الحرب مع القرمطى رأينا الكاتب يفصل حركات العزیز وائتلافاته إثر عدوه ، حتى قال الكاتب :

فبعد ما طمع قاده الحين الغالب ، والقدر الجالب ، وما أراد الله عز وجل من استدراجه إلى موضع نكاله ، ومنهل وباله ، ورحل من يدسان رحيل من استعجلته البلية ، واستدعته الرزية ، فخل بموضع يعرف بكسفر سلام ، كافرا بحدود الإسلام ، متجرئا على الله محاربا لنجل نبيه عليه السلام ، وأقام بها متلدا فى حيرته ، مترددا فى سكرته ، ثم استجره شؤمه ، وقاده حينه ولؤمه ، إلى أن رحل فنزل بكسفر سابا البريد ، فأنبأه اسمها بما حل به من السى المييد ، والخزى الشديد ، ثم لم يلبث أن ضرب مضاربه المسأكولة ، ونصب أعلامه المخدولة ، وأقام صفوفه المغلولة ، وأظهر آلة الحرب إقداما ، وأخفى عن اللقاء إحجاما . . . الخ .

وعلى هذا النحو من الأسلوب سار الكاتب فى هذه الرسالة ، التى لا تكاد تختلف فى أسلوبها عن أسلوب الرسالة السابقة .

وفى عهد الحاكم الذى عرف بنزعاته وتقلباته فى حكمه . كثرت السجلات والأمانات فى عهده ، وأصاب الكتاب من تقلباته أذى كثير ، ونقل المقرئى عن المسيحى صديق الحاكم وجليسه : « فى سنة خمس وتسعين وثلاثمائة أمر (الحاكم) بعمل شونة مما يلى الجبل ملئت بالسنتط والبوص والحلزا . فخامر قلوب الناس من ذلك جزع شديد ، وظن كل من يتعلق بخدمة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أن هذه الشونة عملت لهم ، ثم قويت الإشاعات ، وتحدثت العوام فى الطرقات ، أنها للكتاب

وأصحاب الدواوين وأسماهم ، فاجتمع سائر الكتاب وخرجوا باجمعهم في خامس ربيع الأول ومعهم سائر المتصرفين في الدواوين من المسلمين والنصارى إلى الرماحين بالقاهرة ، ولم يزالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يدعون ويتضرعون ، ويضجون ويسألون العفو عنهم^(١) . ويروى المقرئ أيضا أنه كتب فوق المائة سجل بأمان لأهل الأسواق^(٢) ومما أورده المقرئ في صورة سجل أمان أصدره الحاكم وهو :

« هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبي علي الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله . إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين وأمان ، جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا علي خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والحال ، والدم والمال ، لا خوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا في حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ بمستوجبه ، فيوثق بذلك ، ليعول عليه إن شاء الله تعالى . وكتب في جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة والحمد لله ، وصلى الله على محمد سيد المرسلين ، وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم وتسليما كثيرا^(٣) . »

كما ورد في صبح الأعشى^(٤) سجل بتولية الحسين بن علي بن النعمان القضاء في عهد الحاكم بأمر الله ، وفي هذا السجل تظهر الصنعة الفنية التي نراها في كتاب الأمان السابق . ومما جاء في هذا السجل :

« أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، في السر والظهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهي ، وينفصم من الشبهات والشكوى والهوى ، فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئلا إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ، ووصية الله التي أشاد بفضلها ، وزاد في سناها ، بما عهد أنه من أهلها ، فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين . »

(١) خطط المقرئ ج ٣ ص ٣٢
(٢) المصدر نفسه ج ٣ ص ٣٣
(٣) المصدر نفسه
(٤) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥

ولا نستطيع أن نعرف الكاتب الذى سطر هذه السجلات وكتب الأمان التى صدرت فى عصر الحاكم ، لأن ديوان الإنشاء فى عهده تداوله عدد كبير منهم بحيث يصعب على المؤرخ أن يعرفهم أو يعرف كم أمضى كل كاتب منهم فى الديوان ، واستمر الأمر فى غموض ، ولعل أول كاتب فى هذا العصر المضطرب نستطيع الحديث عنه هو ولى الدولة ابن خيران .

ابن خيران :

أما هذا الكاتب فهو أبو محمد أحمد بن على بن خيران ولقب بولى الدولة ، ويذكر ياقوت أن ابن خيران ولى ديوان الإنشاء بعد أبيه فى عهد الظاهر (١) ، ونحن لا نعرف شيئاً عن أبيه سوى ما يرويه ياقوت : وكان أبوه أيضاً فاضلاً بليغاً ، أعظم قدراً من ابنه وأكثر علماً (٢) كذلك لانعرف متى ولى والده ديوان الإنشاء ، ومتى ولى الابن بعده ، ولكن المقرئى يحدثنا فى خطه أن أبا الحسن عمار بن محمد - وكان يلى ديوان الإنشاء واستوزره الحاكم وهو الذى تولى البيعة للظاهر - قتل فى ربيع الأول سنة اثنتى عشرة وأربعمائة ، فاستوزر بعده بدر الدولة أبا الفتوح موسى بن الحسين وكان يتولى الشرطة ثم ولى ديوان الإنشاء بعد ابن خيران (٣) ، ويخيل إلى أن ابن خيران المذكور فى نص المقرئى هو الأب ، لأن ولى الدولة ظل فى منصبه حتى شاهد عصر المستنصر ، ومع ذلك فنص المقرئى يختلف عن نص ياقوت . إذ يذهب ياقوت كما رأينا إلى أن الابن حل محل أبيه فى ديوان الإنشاء ، على حين يذهب المقرئى إلى أن أبا الفتوح موسى بن الحسين هو الذى ولى الديوان بعد ابن خيران ، ولا نستطيع أن نرجح إحدى الكفتين ، لأن المصادر التى بين أيدينا قليلة ولا تعطينا صورة دقيقة لرجال ذلك العصر .

ومهما يكن من شىء فإن ولى الدولة ابن خيران تقلد ديوان الإنشاء للظاهر ثم للمستنصر ، ويحدثنا المقرئى أنه فى سنة أربع عشرة وأربعمائة قرر الشريف الكبير العجمى والشيخ نجيب الدولة الجرجرائى والشيخ العميد محسن بن بدوس مع القائد معضاد ألا يدخل على الظاهر أحد غيرهم ، وكانوا يدخلون كل يوم

(١) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥ (طبعة فريد رفاعى) .

(٢) خطط المقرئى ج ٢ ص ١٦٧

(٣) المصدر نفسه

خلوة ويخرجون فيتصرفون في سائر أمور الدولة ، والظاهر مشغول ببلداته ،
وصار شمس الملوك مظفر صاحب المظلة وابن خيران صاحب الإنشاء وداعي
الدعاة ونقيب نقباء الطايبين وقاضى القضاة ربما دخلوا على الظاهر في كل عشرين
يوما مرة ومن عداهم لا يصل إلى الظاهر البتة ، (١) وإذن فقد كان ولي الدولة
ابن خيران صاحب ديوان الانشاء في سنة ٥٤١٤ هـ ؛ ويقول ابن خلكان عن الشاعر
أبي الحسن علي بن أحمد بن نوبخت أنه توفي بمصر في شعبان سنة ست عشرة
وأربعائة وهو على حاله من الضرورة وشدة الفاقة ، وكفله ولي الدولة أبو محمد
أحمد بن علي المعروف بابن خيران الكاتب الشاعر ، وهذا ابن خيران كان متولى
كتب السجلات عن الظاهر بن الحاكم ، (٢) فهذا النص يدلنا على أن ابن خيران
كان في ديوان الانشاء سنة ٥٤١٦ هـ .

ويروى المقرئى أن ابن خيران وقع عن الخليفة المستنصر : الفقر مر
المداق ، والحاجة تذل الأعناق ، وحراسة النعم يادرار الأرزاق ، فليجروا على
رسومهم في الإطلاق ، ما عندكم ينفد وما عند الله باق ، (٣) فابن خيران إذن كان
صاحب ديوان الرسائل في أواخر عهد الظاهر وفي عهد المستنصر أيضا ، ويروى
ياقوت أن رزقه كان في كل سنة ثلاثة آلاف دينار ، وله عن كل ما يكتبه من السجلات
والعهدات ، وكتب التقليدات رسوم يستوفىها من كل شيء بحسبه ، وكان شابا
حسن الوجه ، جميل المروءة ، واسع النعمة ، طويل اللسان ، جيد العارضة ، وسلم
إلى أبي منصور بن الشيرازى رسول أبي كاليبجار إلى مصر من بغداد جزأين من
شعره ورسائله ، واستصحبهما إلى بغداد ليعرضهما على الشريف المرتضى أبي القاسم
وغيره ممن يأنس به من رؤساء البلد ، ويستشير في تحليدهما دار العلم لينفذ بقية
الديوان والرسائل إن علم أن ما أنفذه منها ارتضى واستجيد ، (٤) وبالرغم من أن
شعره فقد ولم يبق منه إلا عدة مقطوعات قصيرة فاننا نستطيع أن نقول إن
ابن خيران كان معجبا بنفسه ، يكثر الإشادة بشعره وبنثره . انظر إليه وهو يقول :
ولقد سموت على الأنام بخاطر الله أجرى منه بحرا زاخرا

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ٣٥٨

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٨

(٤) معجم الأدباء ج ٤ ص ٥

(٣) خطاط المقرئى ج ٢ ص ٢٣٨

فاذا نظمت نظمت روضا حاليا وإذا نثرت نثرت درا فافخرا (١)
ويقول مرة أخرى :
خلقت يدي للمكرمات ، ومنطقي للمعجزات ومفرقي للتجاج
وسموت للعلياء أطلب غاية يشقى بها الغاوى ويحظى الراجى (٢)
وهو القائل أيضا :

قد علم السيف وحد القنا أن لساني منهما أقطع
والقلم الأشرف لى شاهد بأننى فارسه المصقع (٣)
من هذه المقطوعات نستدل على أن ابن خيران قد فتن بشعره وبنثره إلى درجة أن وصف نفسه بأن منظقه يأتي بالمعجزات ، ويخيل إلى أن إعجاب به بنفسه لم يكن في الشعر أو في النثر ، بل إن حياته كان يسيطر عليها هذا التيه والاعجاب بنفسه ، حتى لو كان في ذلك ما يجازف فيه بجاته ، ولعل القصة التي أوردتها ياقوت عنه تدل على ذلك كله ، قال ياقوت : كان ابن خيران قد خرج إلى الجزيرة منزها ، ومعه من أصحابه المتقدمين في الأدب والشعر والكتابة ، وقد احتفوا به يمينا وشمالا ، فأدى بهم السير إلى مخاضة مخوفة ، فلما رأى إحجام الجماعة من الفرسان عنها ، وظهور جزعهم منها ، قنع بغلته ، فولجها حتى قطعها ، وانثنى قائلا مرتجلا :

ومخاضة يلقى الردى من خاضها كنت الغداة إلى العدا خواضها
وبذلت نفسى فى مهاول خوضها حتى تنال من العدا أغراضها (٤)
وبالرغم من أن ابن خيران ظل مدة طويلة في ديوان الانشاء ، وأن له رسائل كثيرة جمعها في حياته ، فإنه لم يصل إلينا من نثره سوى هذه القطعة التي كتبها توقيعا عن المستنصر . ويروى ياقوت عن الرئيس هلال بن المحسن د أن الرسائل صالحة سليمة ، قد انتزعت من المنظوم على خلوة إلا من الوزن والقافية ، . (٤)
وتوفى ابن خيران في شهر رمضان سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة من الهجرة .
وبعد ابن خيران تولى محمد بن أحمد بن محمد العميدى ديوان الانشاء للمستنصر ،
في صفر سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ، وكان نحويا لغويا ، وصنف عدة

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ١٠

(٤) المصدر السابق ج ٤ ص ٦

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ٨

(٣) المصدر السابق ج ٤ ص ١٢

كتب منها كتاب تنقيح البلاغة في عشر مجلدات ، وكتاب الإرشاد إلى حل المنظوم ،
وكتاب الهداية إلى نظم المشور ، وكتاب انتزاعات القرآن ، وكتاب العروض ،
وكتاب القوافي^(١) فهذه المصنفات تدلنا على أن العميدى كان متأثراً بهذه الثقافة
اللغوية النحوية ، وأرجح أن كتابته في رسائله كانت متأثرة أيضاً بهذه الألوان
من العلوم التي حذقها فصنف فيها هذه الكتب ، مضافاً إليها خصائص الكتابة في
مصر التي تحدثنا عنها ، وقد أورد ياقوت له بيتين من الشعر هما :

إذا ما ضاق صدرى لم أجد لي مفر عبادة إلا القرافه
أن لم يرحم المولى اجتهادى وقلة ناصرى لم ألق رافه

ولعلك تلاحظ هذه الجناس بين «القرافه» و «ألق رافه» ، ولا تدرى مقدار
استخدامه لهذه المحسنات البديعية في كتابته لأننا لم نعر على شيء منها ، ولم يعمر
العميدى طويلاً في الديوان ، إذ توفي سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة هـ .

ثم تولى الكتاب بعده على ديوان الإنشاء ، نذكر منهم أبا الفرج الذهلي ،
وأبا الطاهر النهركي وولي الدولة موسى بن الحسن وغيرهم ، إلى أن ولي المؤيد في الدين
هبة الله الشيرازي ديوان الإنشاء سنة ٤٣٣ م ، وقد تحدثنا طويلاً عن المؤيد في
الدين ، ونسكتي الآن بأن نعرض صورة من رسائله التي حفظها في كتابه «السيرة
المؤيدية» من ذلك رسالته إلى الوزير اليازوري إبان خروج المؤيد لموازرة
الساسانيين في حرسته المعروفة .

رسالة من كتاب المؤيد :

« ووصل كتاب الحضرة العالية فاستفدت السرور بطلعه ، والسكون إلى علم
مودعه ، من ذكر شمول السلامة والسعادة ، جعلهما الله متصلتي الأسباب ، مهلتني
السحاب وفهمته . فأما ما ذكر جو ابا عن قولي حين نيهت أن أرى تاج الأمراء سمعي ،
لقتني بوجه التفجير في العزم ، أنني ما شاهدت تاج الأمراء ولا علم لي ما يكون
منه في ذلك ، فان خاطبني على شيء منه خاطبني بلسان كل الناس به ناطقون ،
وعليه متفقون ، لو كان كلامهم في ناجعا ، ومنى موقع القبول واقعا ، إن الحضرة
العالية حرس الله عزها عارفة بمن يلقي ذلك إلى على جهة الإشفاق وهو غل ،

(١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢١٢

والنصيحة وهو غش ، وأنها لو شاءت ان تسميهم لى أو تصدر كتبهم إلى لفعلت
وذكرت ورود مكاتباتهم يبدلون الخدمة في هذا الوجه ، ولكنها حرس الله عزها
تتجنب ما يوزع سرى ، فمن أجل ذلك تكف ، فقد عرفته ، ومسلم للحصرة
العالية حرس الله عزها ثقبوب الرأى والبصيرة والألمعية والمحاسن التى توحدتها
الله به . فأما علم الغيب فقد اتقى منه النبي صلى الله عليه وسلم بدليل الكتاب :
« ولو كنت أعلم الغيب لا استكثرت من الخير وما مسنى السوء » ، ولعله نما إليها
حرس الله عزها ذكر رجل أو رجلين تكلا بذلك هما قليل من كثير ناظرونى
على ذلك وقبحوا على فعلى كيف استجبت له وأنا بالقاهرة المحروسة يومئذ ثم
في عامة الطريق . . . الخ ، (١)

ولعلك تلاحظ من هذه القطعة من رسالة المؤيد في الدين أنها لم تظهر فيها
خصائص الكتابة في مصر ، والسبب في ذلك هو أن المؤيد في الدين لم يكن مصرياً ،
إنما وفد على مصر بعد أن استكمل خصائصه الفنية في الشعر والنثر ، فلم يتأثر بمدرسة
الكتاب المصريين ، بالرغم من أن المؤيد كان يرى نفسه أقدر في فن الكتابة
من الذين ولوا ديوان الإنشاء قبله ، فهو يذكر أنه قال مرة للوزير اليازورى
وقد جرى ذكر كتاب الإنشاء : « معلوم ما كان لمتولى هذا الديوان من الجاه
الوسيع والرزق السنى الكثير ، ولئن كانت أشخاصهم مفقودة ، فإن آثارهم في
صناعتهم حاضرة موجودة ، وأنت كاتب تفرق بين الجيد والردىء ، والضعيف في
الصناعة والقوى ، وأريد أن تعتبر من انتصب هذا المنصب من خمسين سنة إلى
اليوم مقايسة إلى ، فإن كنت ممن يجرى في حلبتهم فرسه ، وبطول نحو أمرهم
باعه ، فأنزلى منزلتهم من الجاه والمال ، وإلا فقل لى ما أنت مثلهم ، ولا في
آفاقهم ، فقد رضيتك حكماً ، وجئت لحكمك مستسلماً » (٢) ولكن لانسى أن الذى
يقول ذلك هو المؤيد في الدين الذى عرف بغروره وطموحه (٣)

وكان الذى ينوب عن المؤيد في ديوان الإنشاء أثناء غيابه عن مصر وسفره
إلى العراق في حركة البساسيرى هو القاضى القضاعى الذى تحدثنا عنه في فصل
المؤرخين ، ولكن لم تصل إلينا كتاباته (٤) ، وناب عنه أيضا أبو الحسن على

(١) السيرة المؤيدية ص ١٠٥ (طبعة دار الكتاب المصرى)

(٢) السيرة المؤيدية ص ٩٤ (٣) راجع مقدمة ديوان المؤيد في الدين .

(٤) السيرة المؤيدية ص ١٠٣

ابن الأنبارى الذى ولى الوزارة بعد ذلك سنة ٤٥٧هـ^(١). ثم اختلف على ديوان الإنشاء عدد من الكتاب لم تصل إلينا أسماؤهم ولم تحفظ آثارهم ، إلى أن نلتقى باسم اثنين من أكبر كتاب ذلك العصر ، أما الأول فهو أبو الفرج الموفقى الذى وصفه العماد بقوله : « أحد كتاب مصر من الطبقة الأولى^(٢) » ، ولكن العماد لم يحدثنا بشيء عنه سوى هذه الجملة ، وأورد له ثلاثة أبيات من الشعر فى وصف ناعورة . أما الكاتب الثانى فكان معاصرا للموفقى والمؤيد ، وكان بينه وبين الموفقى بعض الرسائل وهو ابن الشيخباز .

ابن الشيخباز :

أبو على الحسن بن عبد الصمد بن الشيخباز^(٣) ، ولقب بالمجيد ذى الفضيلتين ، وصفه العماد بقوله « مجيد كنعته ، قادر على ابتداع الكلام ونحته ، له الخطب البديعة ، والملح الصنيعة^(٤) » وقال ياقوت عنه : « أحد البلغاء الفصحاء الشعراء له رسائل مدونة مشهورة^(٥) » . ووصفه ابن خلكان بقوله : « صاحب الخطب المشهورة والرسائل المحبرة ، كان من فرسان النثر وله فيه اليد الطولى^(٦) » ، ويقول ابن بسام فى ذخيرته : « كان من البلغاء الأفراد ، وأبهر نجوم تلك البلاد ، طلوعا من ثنانيا الأدب ، واجتناء لخبايا لسان العرب ، فقد كشف حقائقها ، واستخرج دقائقها ، وأحرز مسبوقتها وسابقها^(٧) » . إذن تكاد تجمع هذه المصادر على علو كعبه فى صناعة الكتابة ، وكفايته فيها . حتى قبل إن القاضى الفاضل كان جل اعتماده على حفظ كلامه ، وأنه كان يستحضر أكثره^(٨) ، وربما كان هذا هو السبب الذى من أجله قال بعض الذين كتبوا عن القاضى الفاضل : إنه تلميذ ابن الشيخباز ، لأنه كان يحذو حذوه فى الصناعة . لم يكن ابن الشيخباز مصريا بل كان من عسقلان ، وبالرغم من أن الحدود الجغرافية تجعل عسقلان بلدا فى فلسطين ، ولكن يجب ألا ننسى أن فلسطين كانت ولاية من ولايات مصر منذ العصر

(١) الإشارة إلى من نال الوزارة ص ٥٢ ، وأخبار مصر لابن ميسر ص ٣٣

(٢) الحريرة ورقة ٥ (٣) الحريرة ورقة ١٤

(٤) معجم الأدباء ج ٩ ص ١٥٣ (٥) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

(٦) الذخيرة القدم الرابع ورقة ١٨٣ (نسخة فتوغرافية بمكتبة الجامعة) .

(٧) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٣

الطولوني، واستمرت تابعة لمصر، خاضعة لتأثيرها السياسي والفكري إلى عهد قريب، فوحدة فلسطين مع مصر أشد وأقوى من وحدتها مع البلاد الأخرى. فلا غرو أن رأينا ابن الشخباء العسقلاني النشأة يتأثر بما تأثر به الكتاب الذين نشأوا وترعرعوا في مصر بهذه الخصائص التي كانت تسود الكتابة المصرية. إلا أن ابن الشخباء استطاع بشخصيته أن يبرز ويتفوق في هذا الفن، وأن يبالغ في استخدام المحسنات اللفظية والمعنوية حتى بهر معاصريه بفنّه، وجعل المؤرخين يشيدون بفضله، ويخيل إلى أن ابن الشخباء كان على علم تام بكل ما كان يحيط بالعرب في الجاهلية والإسلام، حافظاً لأشعارهم وحكمهم، متمسكاً من لغتهم، ويظهر ذلك في رسالته التي أرسلها إلى أبي الفرج الموفقي، ففيها يقول:

«وصلت رقعة مولاي والصبح قد سل على الأفق مقصبه، وأزال بأنوار الغزاة غيبه، فكانت بشهادة الله صبح الآداب ونهارها، وثمار البلاغة وأزهارها، قد توشحت بضروب من الفضل تقصر قاصية المدى، ويجرى به في مضمار الآداب مفردا.

فكأن روض الحسن تنثره الصبا فأطلت من قرطاسها أتصفح

فأما ما تضمنته من وصف، فقد صارت حضرته السامية تتسمع في الشهادة بذلك مع مناقشتها في هذه الطريقة، وأنها لا توقع ألفاظها إلا مواقع الحقيقة، فإن كنت قد بهرت عليها فلتراجع نقدها تجدني لا أستحق من ذلك الإسهاب فصلا، ولا أعد للكلمة واحدة منه أهلا، وبالجملة فآله ينهضني بشكر هذا الإنعام الذي يقف عنده الثناء ويضلع، ويحصر دونه الخطيب المصقع.

هيئات تعي الشمس كل مرامق ويعوق دون منالها العيوق

وأما الفضل الذي أودعه الرقعة الكريمة من قوله «فأما فلان فيحل في قومه ويفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد. قدوره عمارية، وعطسات جواريه أسدية، ويهوين لو خلق الرجال خلق الضباب، يتصوعن النثر العبقسي، ويرضعن مرابع ثعالة المجاشعي، وما أمرت حضرته السامية من ذكر ما عندي فيه، فقد تأملته طويلا، وعثر الخادم فيه بما أنا ذاكره، راغبا في الرضا بما بلغت إليه المقدرة، وتجليل ذلك بسجوف الصفح. أما قوله «يفرح بالضيوف فرح حنيفة بابن الوليد، فيقع لي أنه أراد خالد بن الوليد المخزومي، وذلك أن

مسيلة الحنفي كان قد تنبأ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحديثه مشهور
— فبعث إليه أبو بكر رضى الله عنه خالد بن الوليد المقدم ذكره في جيش
كثيف من المسلمين ، ففتح اليمامة وقتل مسيلة وأباد جماعة كثيرة من بني حنيفة.
وأما قوله : قدوره عمارية ، فإن هذا الفصل لما كان مبنيا على الذم ، وجب أن
يتطلب لهذا السبب معنى يجب حمله عليه ، ولم نجد ما ينسب إليه إلا قول الفرزدق :
لو أن قدرا بكت من طول ما حبست عن الحقوق بكت قدر ابن عمار
ما مسها دسم منذ فض معدنها ولا رأت بعد نار القين من نار
وأما قوله «عطسات جواريه أسدية» فيقوى في وهى أنه أراد قول الأول
في هجائه :

إذا أسدية عطست فنسكها فإن عطاسها طرق الوداق

وأما قوله «يهوين لو خلق الرجل خلق الضباب» فإن الجاحظ ذكر في كتاب
الحيوان : أن للضب أيرين ، وللضبة حرين . وحكى أن أير الضب أصله واحد
وإنما يتفرق فيصير أعلاه اثنين ، واستشهد على ذلك بقول الفرزدق :

وعين الدبا والبقل حتى كأنما كساهن سلطان ثياب مراحل

سبعل له نركان كانا فضيلة على كل حاف في البلاد وناعل

والنرك : اسم أير الضب . وأنشد الأصمعي لابن دزماء فيما رواه أبو خالد

النيرى :

تفرقم لازلم قرن واحد تفرق أير الضب والأصل واحد

ومن ههنا قالت حي المدينة لما عدلها أبوها في تزوجها ابن أم كلاب :

وددت بأنه ضب وأنى ضييبة كدية وجدت خلاء

وأما قوله « يتضوعن النثر العبقسى » فن أمثال العرب : هو أخسر صفقة
من شيخ مهو ، وهو بطن من عبد القيس بن أفصى بن دعي بن جديلة بن أسد
ابن نزار بن معد بن عدنان ، وكان من خبره أن إيادا كانت أفسى العرب ، فوفد
وأفدهم إلى الموسم بسوق عكاظ ومعه حلة نفيسة ، فقال : يا معشر العرب
من يشتري منى مثلية قوم لا تضره بحتى هذه ؟ فقال الشيخ المهوى : أنا
أشترتها . فقال الإيادى : أشهدكم يا معشر العرب أنى قد بعث فساء إياد لوأفد
عبد القيس بحتى هذه ، وتصاخا واقترا متراضيين ، وقد شهد عليهما أهل الموسم

فصارت عبد القيس أفسى العرب ، وقيل لابن منذر : كيف الطريق إلى عبد القيس ؟ فقال . شم ومر .

فإن عبد القيس من لؤمها تفسو فساء ربحه تعبق
من كان لا يدري لها منزلا فقل له يمشى ويستشق
وأما قوله : « أعطش من نعاله المجاشعي » فن أمثال العرب فيما ذكره الكلبي قال : هما رجلان من بني مجاشع عطشا ، فالتقم كل واحد منهما أير صاحبه يشرب بوله ، فلم يغن عنهما شيئا ، وماتا عطشا ووجدا على تلك الحال ، قال جرير يهجو بني دارم :

رضعتم ثم بال على الحاكم نعاله حين لم يجدا الشرابا
هذا ما وقع لي في هذا الفصل ، وأرجو أن أكون قد ذهبت إلى ما قصده قائله ،^(١) ففي هذه الرسالة نرى كيف حاول ابن الشخباء أن يشرح بعض النصوص التي غمضت على أبي الفرج الموفقي ، فكان يستعين على هذا الشرح بما ورد في كتب القدماء ، من التاريخ حيناً ومن الشعر حيناً آخر ، وبالأمثال مرة ، وبما رواه الجاحظ عن الحيوان مرة أخرى ، فهذا كله يدل على أن ابن الشخباء كان ملماً بهذه الألوان من الثقافة والعلوم ، وأنه كان يستخدمها في كتاباته بل في شعره أيضاً . نرى ظاهرة أخرى في هذه الرسالة ، وذلك أن ابن الشخباء كان يحلى كتاباته بأبيات من الشعر تناسب ما جاء في نثره ، وهذه الظاهرة ليست جديدة على الكتابة المصرية ، ولكن ابن الشخباء أكثر منها بحيث لا نكاد نرى رسالة من رسائله التي حفظت تخلو من هذه الظاهرة ، ولا سيما رسائله إلى إخوانه وأصدقائه ، فمن ذلك ما كتبه إلى صديق له :

« لما حديث ركاب مولاي أخذ صبرى معه ، وصحبه قلبي وتبعه .
فعمجت من جسم مقيم سائر كسير بيت الشعر وهو مقيد
وبقيت بعده أقالسي أموراً تخف الحليم ، وترعى الهشيم ، إن رجوت منها
غفلة اقتحمت ، وإن رمت منها فرجة تضايقت والتحمت ، وأما الوحشة فقد
اصطبحت منها كأساً مترعة ، وتجرت من صابها أمر جرعة ، ورأيت فؤادي
إذا مر ذكر مولاي يكاد يخرج من خدره ، ويرغب في مفارقة صدره ، حينئذ

(١) معجم الأدباء لياقوت ج ٩ ص ١٥٧

يجدده السماع، وصدودا تنتفض منه الاضلاع، وزفرة يدمى في غرارها، ويطلع في الترائب شرارها.

أدارى شجاها كي تخلي مكانها وهيأت ألفت رحلها واطمأنت وأما ما أعاني بعد مسيره فأشياء: منها عبث الألم مرة، وزوال الاستمتاع بما يعرفه من تلك المسرة، ومنها اضطراري إلى كثرة مكابرة من أعلم دخل سرايره، واختلاف باطنه وظاهره، وتكلف اللقاء له بصفحة مستبشرة، وأخلاق غير متوعرة... الخ. (١)

ولعلك تلاحظ بما أوردناه من فن ابن الشخباء في الكتابة أنه استخدم جميع الخصائص المصرية في الكتابة، فنجد الكتابة المسجوعة، واستخدام التشخيص والتصوير ومراعاة النظر، إلى غير ذلك من هذه المحسنات التي أكثرها المصريون. وقد أصيب هذا الكاتب البارع بنكبة لاندرى سبها، إذ حبس في خزانة البنود ثم قتل سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة (٢). ويذهب ابن ميسر أنه قتل سنة ست وثمانين وأربعمائة، وأنه أنشد وهو في سجنه:

أصبحت تخرجني بغير جريمة من دار إكرام لدار هوان
كدم الفصاد يراق أرذل موضع أبدا ويخرج من أعز مكان
نقلت موازين العباد بفضلمهم وفضيلتي قد خفت ميزاني (٣)

وفي عهد المستنصر أيضا ولي أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي ديوان الإنشاء بعد أن صرف عن الوزارة سنة ٤٥٢ هـ، ولا أدري كيف يقول المقرئ عنه: وكان الوزراء إذا صرفوا لم يتصرفوا، فاقترح أبو الفرج ابن المغربي لما صرف أن يتولى بعض الدواوين، فولى ديوان الإنشاء الذي يعرف اليوم بوظيفة كتابة السر، وهو الذي استنبط هذه الوظيفة بديار مصر (٤) وواضح هذا التخبط الذي وقع فيه المقرئ، فإن ديوان الإنشاء في الديار المصرية أقدم عهدا من أبي الفرج ابن المغربي، بل أقدم عهدا من الدولة الفاطمية، وقد ذكرنا أن ديوان الإنشاء وجد بمصر منذ عهد أحمد بن طولون. ومهما يكن من شيء فإن أبا الفرج أحد أفراد بني المغربي الذين كان لهم شأن كبير في الدولة الفاطمية منذ عهد العزيز،

(١) المصدر نفسه ص ١٥٤ . (٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٣٤

(٣) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٢٩ (٤) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٥٧

ولكن نشاطهم كان سياسيا أكثر منه أدبيا ، حقا تحدث عنهم ابن القارح في رسالته ، وتبودلت رسائل إخوانية بين أبي القاسم بن المغربي وبين أبي العلاء المعري ، ولكن هذه الرسائل كانت إبان فرار بني المغربي من مصر واستقرارهم في العراق حينما وفي ديار بكر حينما آخر ، ولذلك آثرنا ألا نتحدث عنهم طويلا في هذا البحث ، وكذلك لم تصل إلينا رسائل أبي الفرج بن المغربي الذي ولي ديوان الإنشاء سنة ٤٥٢ هـ

وتمر السنون على ديوان الإنشاء ، ويتعاقب عليه الكتاب ، حتى نلتقى بكتاب من أكبر كتاب الدولة الفاطمية ، ومن أحسنهم حظا ، فقد انتهت إلينا بقيمة صالحة من رسائله وسجلاته ، بل بقي لنا كتابان من كتبه السكثيرة التي صنفها ، ذلك الكاتب هو ابن الصيرفي المولود في شعبان سنة ثلاث وستين وأربعمائة هـ

ابن الصيرفي :

قال ياقوت : الشيخ الفاضل علي بن منجب بن سليمان الصيرفي : أحد فضلاء المصريين وبلغائهم ، مسلم ذلك له غير منازع فيه ، وكان أبوه صيرفيا واشتهى هو الكتابة فمهر فيها (١) ، ويحدثنا ابن ميسر أن ابن منجب الصيرفي أخذ صناعة الترسل على ثقة الملك أبي العلاء صاعد بن مفرج صاحب ديوان الجيش ، ثم انتقل منه إلى ديوان الإنشاء وبه سناء الملك أبو محمد الحسيني الزيدى (٢) ، ويذكر ياقوت أن الأفضل بن بدر الجمالي هو الذي استخدم ابن منجب في ديوان المكاتبات ورفع من قدره وشهره ، ثم إنه أراد أن يعزل الشيخ ابن أبي أسامة عن ديوان الإنشاء ويفرد ابن الصيرفي به ، واستشار في ذلك بعض خواصه ومن يأنس به ، فقال له : إن قدرت أن تفدى ابن أبي أسامة من الموت يوما واحدا بنصف ملكك فافعل ذلك ولا تخلى الدولة منه فإنه جمالها (٣) وقد وصف المقرئ بن أبي أسامة بقوله : الشيخ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن ابن أبي أسامة صاحب ديوان الإنشاء في أيام الخليفة الأمر بأحكام الله ، وكانت له رتبة خطيرة ومنزلة رفيعة وينعت بالشيخ الأجل كاتب الدست الشريف ، ولم

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧

(١) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

(٣) معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٩

يكن أحد يشاركه في هذا النعت بديار مصر في زمانه (١) فنحن إذن أمام كاتب أخذ الصنعة عن عدد من شيوخ الكتّابة في مصر في العصر الفاطمي ، فقد كان بين يدي الشريف سناء الملك الذي كان كاتباً في أواخر أيام المستنصر ، وهو الذي كتب سجل تولية المستعلي (٢) وأصبح له ديوان الإنشاء في عهد الأمر ، ثم ولى الديوان بعده الشيخ ابن أبي أسامة حتى سنة ٥٢٢ هـ فأصبح الديوان لابنه أبي المكارم إلى أن توفي أيام الحافظ ، فولى ابن منجب الصيرفي الديوان بعده ، فهذه المدة الطويلة التي قضاها ابن منجب الصيرفي في الديوان من أسباب شهرته في الكتّابة وذويوع عدد من رسائله وحفظها ، وبالرغم من أنه أصبح رئيساً لديوان الإنشاء في عهد الحافظ فإنه هو الذي كتب سجل انتقال المستعلي وولاية الأمر سنة ٤٩٥ هـ (٣) ثم نراه يكتب سجلات كثيرة وهو لم يزل كاتباً في الديوان ، منها ذلك السجل الذي كتبه في شهر المحرم سنة ٥٠١ هـ الخاص بالخراج وتحويل السنة الخراجية . وقد جاء في هذا السجل :

بسم الله الرحمن الرحيم : الحمد لله الذي ارتضى أمير المؤمنين أمينه في أرضه وخليفته ، وألهمه أن يعين بحسن التدبير عبده وخليفته ، وأورثه مقام آبائه الراشدين الذين اختصهم بشرف المفخر ، وجعل اعتقاد موالاتهم سبب النجاة في المحشر ، وعناهم بقوله يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، وأعلى منار سلطانه بمدبر أفلاك دولته ، ومبيد أعداء مملكته ، وأشرف من نصب للجند علماً وراية ، ووقف على مصلحة البرية نظره ورأيه ، السيد الأجل الأفاضل ، الذي نبه في السياسة على ما أهمله من سبقه ، وأغفله من تقدمه ، وتتبع أحوال المملكة فلم يدع مشكلاً إلا أوضحه وبين الواجب فيه ، ولا خلا إلا أصلحه وبادر بتلافيه ، إشاراً لعلمة الأعمال ، وقصداً لما يقضى بتوفير الأموال ، واعتناء برجال الدولة العلوية وأجنادها ، واهتماماً بمصالحهم التي ضعفت قواهم عن ارتيادها ، ورعاية لمن ضمنه أقطار المملكة من الرعايا ، وحملهم على عدل السنن وأفضل القضايا : بحمده أمير المؤمنين على ما أعانه عليه من حسن النظر للأمة ، وادخره لأيامه من الفضائل التي ضفت بها ملابس الثنمة ، ويرغب

(١) خطط القرظي ج ٣ ص ١٤٠ (٢) ابن ميسر ص ٣٥

(٣) المصدر نفسه ص ٤٠

إليه بالصلاة على محمد الذي ميزه بالحكمة وفصل الخطاب ، وبين به ما استبهم من سبل الصواب ، وأنزل عليه في محكم الكتاب : « هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » صلى الله عليه وعلى أخيه وابن عمه أيينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كفيه فيما أعضل لما عدم المساعد ، وواقيه بنفسه لما تخاذل الكف والساعد ، وعلى الأئمة من ذريتهما العاملين برضا الله تعالى فيما يقولون ويفعلون ، والذين يهدون بالحق وبه يعدلون . . . الخ (١) ،

فهذا السجل صورة من صور الكتابة التي تظهر فيها خصائص الكتابة في مصر الفاطمية ، تلك الخصائص التي تحدثنا عنها من قبل ، وهي التي تجدها عند كل الكتاب تقريبا ، وهذه الخصائص تظهر في كل الرسائل والسجلات التي انتهت إلينا عن ابن الصيرفي . من ذلك ما كتبه في عيد النصر سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة هـ ، وعيد النصر هذا من الأعياد التي ابتدعت في القرن السادس للهجرة تذكارا لخلاص الخليفة الحافظ من سجنه ، فقد استبد وزيره أبو علي بن الأفضل الملقب بكتيفات بالأمر وسجن الخليفة سنة ٥٢٤ هـ ، فلما قتل الوزير في سادس عشر المحرم سنة ٥٢٦ هـ أخرج الخليفة من معتقله ، واتخذ هذا اليوم عيداً أسماه عيد النصر ، ففي ذكرى هذا العيد كتب ابن منجب إلى بعض الخطباء للاستعداد لهذا العيد :

« عيد النصر وهو أفضل الأعياد وأسناها وأعلاها ، وأدناها على تقصير الواصف إذا بلغ وتناهى ، ونحن نأمرك أن تبرز في يوم الأحد السادس عشر من المحرم سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة على الهيئة التي جرت العادة بمثلها في الأعياد وتقرأ على الناس الخطبة التي سيرناها إليك قرين هذا الأمر بشرح هذا اليوم وتفصيله ، وذكر ما خصه الله به من تشريفه وتفضيله ، وتعتمد في ذلك ما جرى الرسم فيه في كل عيد ، وتنتهى فيه إلى الغاية التي ليس عليها من بد . فاعلم هذا ، واعمل به إن شاء الله تعالى ، .

ولم يكن ابن الصيرفي كاتباً من كتاب الرسائل فحسب ، بل كان مؤرخاً ومصنفاً ، ومن تصانيفه كتاب عمدة المحادثة وكتاب عقائل الفضائل وكتاب استئزال الرحمة

وكتاب منائح القرائح وكتاب رد المظالم وكتاب ملح الملح وكتاب في السكر ، وله اختيارات كثيرة لدواوين الشعراء كديوان ابن السراج وأبي العلاء المعري وغيرهما . وهذه الكتب كلها مفقودة الآن . وإنما وصل إلينا من كتبه كتابان : الأول قانون ديوان الرسائل . والثاني كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة .

أما الكتاب الأول « قانون ديوان الرسائل » فقد صنفه ابن منجب لكي يكون قانوناً يعرف به من يجب أن يولى رئاسة ديوان الرسائل ومن يجب أن يكون تولوه في المنزلة من المستخدمين فيه من الكتاب واحدًا واحدًا من الخدام الذين لاغنى عنهم ، والصفات التي ينبغي أن يكون عليها كل واحد منهم ، التي إذا سلكت في هذا الديوان أدت إلى ضبط أموره ، وأمن معها من اختلال شيء منها وفساد يدخل عليها ، وسهل وجود ما يلتمس من علم أمور تقادم عهدها وبعثت أزميتها (١) فكأنه أراد أن يجعل من كتابه هذا دستوراً لاختيار كتاب الرسائل ، وهو يصرح في مقدمته أن السبب الذي من أجله صنف هذا الكتاب أنه « لما رأيت أولى الفطر الصحيحة والعقول الرجيحة قد سبقوا إلى النظر في سائر العلوم ، ووضعوا فيها المصنفات ، ونظموا ذكرها في الكتب والمؤلفات ، ثم انتقلوا عن ذلك إلى قوانين الأشياء فقرروا في كل منها ما كان أصلاً يعتمد عليه ونهوا عما كان فساداً لنظامها أو أدى إليه ، وخالفوا بين أحكام تلك التصنيفات ، لاختلاف الأزمنة وتباين البلاد والأوقات ، فوجدتهم قد صنفوا في كتابة الخراج كتباً كثيرة ، وعنوا بكتابة الجيش عناية كبيرة ، فألف كل من العراقيين والمصريين في ذلك ما وصلت إليه طاقته ، واقتضاه ما أوجبه وقته ، والبلد الذي يحتله ، فأما صناعة الشعر وذكر بديعه وسائر أنواعه وتقاسيمه فقد أكثر كل منهم فيه المقال ، وتوسع في تصنيفه وأطال ، ورأيتهم أهملوا الكلام في الكتابة الجليلة قدرأ ، النبذة ذكراً ، الرفيعة شأنًا ، العلية مكانًا ، التي هي كتابة حضرة الملك المشتملة على الإنشاء إلى ملوك الدول ، والمسكوبة عنه إلى من قل من الأمم وجل وكيف يجب أن يكون متوليها وما يخصه من الأخلاق والأدوات ، وما يجب أن يكون فيه من الفضائل ، وأن يجتنبه من القبائح والردائل . . الخ (١) هذا السبب الذي من أجله

(١) قانون ديوان الرسائل ص ٩١ (طبعة مصر سنة ١٩٠٥) .

(٢) المصدر نفسه ص ٨٨

ألف كتابه هذا ، ولكن هل حقيقة قصر المؤلفون في الحديث عن الكتابة بحيث لم توضع كتب مثل قانون ديوان الرسائل ؟ من الحق علينا أن نقول إن الإجابة عن مثل هذه الأسئلة ليست سهلة هينة ، فإن أكثر كتب القدماء فقدت وإن بقي أسماء بعضها ، وقد عرضت بعض المراجع العامة العربية التي تهتم بسرد كتب المؤلفين ، مثل الفهرست ومعجم الأدباء وكشف الظنون وغيرها ، فوجدت بعض المؤلفين وضعوا كتباً في الكتابة والكتاب ، نذكر منهم عبد الحميد الكاتب الذي وضع رسالة إلى الكتاب ، يتحدث فيها عن فضيلة الصناعة وما يجب عليهم أن يتبعوه حتى يجودوا صناعتهم (١) ، ووضع الصولي أدب الكتاب ، وألف ابن قتيبة أدب الكاتب .

ونذكر أحمد بن سهل البلخي صاحب كتاب فضل صناعة الكتابة (٢) وأحمد ابن محمد بن يوسف الأصفهاني صاحب كتاب طبقات البلغاء ، وكتاب أدب الكتاب (٣) ، وأحمد بن محمد بن الفضل الأهوازي مؤلف كتاب مناقب الكتاب (٤) وأحمد بن محمد النحاس المصري المتوفى سنة ٣٣٧ هـ صاحب أدب الكتاب وصناعة الكتاب (٥) وغيرهم ، وأكثر هذه الكتب لم تصل إلينا ، فلم نعرف ما اشتملت عليه ، ولكن من أسمائها نستطيع أن نرجح أنها تختلف بعض الاختلاف عما أراده ابن منجب من كتابه «قوانين ديوان الرسائل» فإن كتابه في الحديث عن الأحوال التي يجب أن يكون عليها رئيس ديوان الإنشاء وعن العلوم والمعارف التي يجب أن يكون حاصلها عليها وعن اختصاصه في عمله ، ثم تحدث بعد ذلك عن معاونيه من الكتاب في الديوان ، فجعل لكل عمل كاتباً خاصاً له بميزات خاصة ، فمن يستخدم لتخريج الكتب الواردة له صفات خاصة ، ومن يستخدم لرسم الإنشاء له خصائص ، ومن يكون ناسخاً في الديوان له ميزات ، وهكذا . فسكتاب ابن منجب في أغلب الظن يختلف عن الكتب التي وضعت في الكتاب والكتابة ، لأنه يتحدث قبل كل شيء عن نظام ديوان الرسائل ثم عن موظفيه ، فهو صورة مختصرة جداً للكتاب الذي ألف بعد ذلك وهو كتاب صبح الأعشى للقلقشندي .

أما الكتاب الثاني الذي بقي لنا من كتب ابن منجب فهو كتاب الإشارة

(١) تجرد الرسالة في كتاب رسائل البلغاء وفي كتاب الوزراء والكتاب للجهمشاري .

(٢) معجم الأدباء ج ٣ ص ٦٦ . (٣) المصدر نفسه ج ٥ ص ١٣٥ .

(٤) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٤٤ . (٥) المصدر نفسه ج ٤ ص ٢٢٨ .

إلى من نال الوزارة . . . فهو كتاب تاريخ من ولى الوزارة في عهد الدولة الفاطمية ، سجل فيه ابن منجب اسم كل وزير وتاريخ توليته ومالقه به ، وما تم على يديه من أعمال ، فهو من أهم الكتب التي تتحدث عن تاريخ الفاطميين .

ولابن منجب عدة مقطوعات من الشعر ، ولكنه لم يعرف بالشعر كما عرف بالكتابة ، وروى له ياقوت قوله :

لما غدوت ملك الأرض أفضل من جلت مفاخره عن كل إطار
تغايرت أدوات النطق فيك على ما يصنع الناس من نظم وإنشاء
وقوله :

لا يبلغ الغاية القصوى بهمته إلا أخو الحرب والجرم السلاهي
يطوى حشاه إذا ما الليل عانقه على وشيخ من الخطى مخضوب
ولكن ابن منجب لم يعد بين الشعراء ، بالرغم من أن شعراء المائة الخامسة كان أكثرهم من كتاب الإنشاء ، ولعل ذلك يرجع إلى أنه كان مقلا في الشعر مكثرا في الرسائل ، حتى قيل إن ديوان رسائله يزيد على أربعة مجلدات .

وتوفى ابن منجب في يوم الأحد لعشر بقين من صفر سنة ٥٤٣ هـ (١) ، ولكن ياقوت يذهب إلى أنه توفى في أيام الملك الصالح بن رزيق بعد سنة خمسين وخمسة (٢) ، وليس بين أيدينا شيء من النصوص التي تجعلنا نرجح إحدى الروايتين .

أبو الفتح بن قادوس :

كان مع ابن الصيرفي في ديوان الإنشاء كاتبان شاعران من أقدر كتاب مصر الفاطمية وشعرائها ، أما الأول فهو الفاضل المفضل كافي السكفاة أبو الفتح محمود بن القاضي الموفق إسماعيل بن حميد الدمياطي المعروف بابن قادوس . شاهد عصر الأفضل بن بدر الجمالي ، وامتدت به الحياة إلى أن توفى في عهد الملك الصالح طلائع بن رزيق ، أي أنه عاصر شعراء مصر وكتابتها في النصف الأول من القرن السادس ، وعرف اتجاهاتهم الفنية في الشعر والكتابة ، فلا غرو أن نرى أمية ابن أبي الصلت يتحدث عنه في رسالته المصرية ، ونرى العباد يقول عنه : « أشعاره

(١) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٨٧ (٢) معجم الأدباء ج ١٥ ص ٧٩

محكمة النسيج ، كالدرد في الدرج (١) ، ووصفه ابن ميسر بقوله : « كان من أمائل
المصريين وكتابهم مقدما عند ملوكهم (٢) » . لم يصلنا شيء عن حياة هذا الكاتب
الشاعر ، فقد فقدت ترجمة حياته ، كما فقدت تراجم رجال مصر الفاطمية ، ومع
ذلك فقد حفظت في بعض المراجع قصته مع زميله وصنوه أبي علي حسن بن
زيد الانصاري ، وكيف كان ابن قادوس سببا في أن يلتقي زميله حنفة على نحو
ما ذكرنا من قبل (٣) ، فإن هذه القصة تدل على أن ابن قادوس بالرغم مما قاله
القدماء عن فضله وكفايته في صناعتي الشعر والنثر ، فإنه كان ضعيف الخلق ، يحسد
زملاءه ويوقع بهم في المهالك . وهناك قصة أخرى يرويها القدماء عنه ، وهي
انتصاره للجليل بن الحباب ، فقد ذكرنا أن ابن الصياد الشاعر كان مولعا بهجاء
الجليل ، كثير الدعابة بأنفه ، حتى قيل إن مقطعات ابن الصياد في ذلك بلغت
ألف مقطوعة ، فأنبرى له ابن قادوس ينتصر للجليل قائلا :

يا من يعيب أنوفنا الشم م التي ليست تعاب
الأنف خلقة ربنا وقرونك الشم اكتساب (٤)

فما الذي جعل ابن قادوس ينتصر للجليل ؟ لا أشك في أن ضعف خلق
ابن قادوس جعله يتوهم أن الجليل ربما ساعده في الوصول إلى مآربه الشخصية في
الديوان أو في غير الديوان من مناصب الدولة ، بحكم تلك الصلة القوية التي كانت
بين الجليل والخليفة الفاطمي من ناحية ، وبين الجليل والملك الصالح طلائع
ابن رزيق من ناحية أخرى ، فلذلك انتصر للجليل ، ولولا أطماعه ما كان
ينشد هذين البيتين .

مهما يكن من شيء فإن ابن قادوس كان من أمائل الكتاب في القرن السادس
الهجري ، فالرسائل التي بقيت لنا من إنشائه تدل على مقدرته وعلو كعبه في
الإنشاء ، فن إنشائه ما كتبه بمناسبة ركوب الخليفة في عيد النحر ، ومنها :

د أما بعد ، فالحمد لله ما حي دنس الأنام بالحج إلى بيته الحرام ، وموجب
الفوز في المعاد لمن عمل بمراشد أئمة الهدى الكرام ، ومضاعف الثواب لمن
اجتهد فيما أمر الله به من التلبية والإحرام ، ومحول الغفران لمن كان بفرائض

(١) الحريدة ورقة ٤٩ .

(٢) تاريخ مصر لابن ميسر ص ٩٧ .

(٣) راجع ص ١٨٧ من هذا الكتاب

(٤) الحريدة ورقة ٦٨ .

الحج ونوافله شديد الولوج والغرام ، وصلى الله على جدنا محمد الذى لى وأحرم ،
وبين ما أحل الله وحرّم ، وعلى أخيه أئبنا أمير المؤمنين على بن أبى طالب
الذى ضرب وكبر ، وحقر من طغى وتجبر ، وعلى الأئمة من ذريتهما أعلام
الدين ، وحتوف المعتدين ، وسلم وكرم ، وشرف وعظم ، وإن من
الأيام التى كملت محاسنها وتمت ، وكثرت فضائلها وجمت ، ووجب تخليد عز
صفاتها ، وتعين تسطير تأثيراتها ، يوم عيد النحر من سنة (كذا) : وكان من
قصصه أن الفجر لما سل حسامه ، وأبدى الصباح ابتسامه ، نهض عبيد الدولة
فى جموع الأولياء والأنصار ، وأولى العزيمة والاستبصار ، ميممين القصور
الزاهرة متبركين بأفئديها ، ومستملين بسعادتها ، وتألّفوا صفوفا تبهر النواظر ،
ويخجل تألفها تألف زهر الروض الناضر ، مستصحبين فنونا من الأزياء تروق ،
ومستتبعين أصنافا من الأسلحة يغض لمعها من لمع اللهب والبروق ، والأعلام
خافقة ، والرياح بالسنة النصر على الإخلاص لإمام العصر متوافقة ، فأقاموا
على تشوف لظهوره ، والتطلع للتبرك بلامع نوره ، ولما بزغت شمس سعاداته ،
وجرت الأمور على إشاره وإرادته ، وبدت أنوار الإمامة الجليلة ، وظهرت
طلعتها المعظمة البهية ، خر الأنام سجوداً بالدعاء والتمجيد ، والاعتراف بأنهم العبيد
بنو العبيد ، واستقل ركابه أمير المؤمنين ، ووزيره السيد الاجل الذى قام
بنصر الله فى إنجاد أوليائه ، وتكفل للإسلام برفع مناره ونشر لوائه ، وناضل
عن حوزة الدين وجهاد ، وناصل أحزاب الكفار وناهد ، يقوم بأحكام
الوزارة ، وتدير الدولة تدبير أولى الإخلاص والطهارة ، ويتبع آراء أمير المؤمنين
فما تنفذ به أوامره ، ويعمل بأحكام الصواب فيما تقتضيه موارده ومصادره ، ويحسن
السياسة والتدبير ، ويتوخى الإصابة فى كل صغير من أمور الدولة العلوية وكبير ،
ويخلص لله جل وعز وإمامه ، ويكف كلف من الأعداء ببذل الجهد فى أعمال
لهذمه وحسامه ، وسار أمير المؤمنين والعساكر متابعة فى إثره ، متوافقة على
امتثال أمره ، قد رفعت السنايك من العجاج سحابا ، وخيلت جنن الجند للناظرين
فى البر عبابا ، والجياد المسومة تموج فى أعنتها ، وتحتال فى مراكبها وأجلتها ،
وتسرع فتكسب الرياح نشاطاً ، وتفيد المتعرض لوصفها إفراطاً ، وتهدى لمن
يحاول بمائلتها غلواً واشتطاطاً ، وأصوات مرتفعة بالتهليل ، وأصوات الحديد

تسمع بشائر النصر بترجمة الصليل ، ويكاد يرعب الأرض تزلزل الصهيل ، وترض
سنايكها الهضاب وتغدو صلاحها كالسكثيب المهيل . . . (١)

وكتب ابن قادوس بالبشارة بوفاء النيل :

« النعم وإن كانت شاملة للأمم ، فإنها متفاضلة الأقدار والقيم ، فأولاها بشكر
تنشر الآفاق أعلامه ، واعتداد تحمك بأدراك الغايات أحكامه ، نعمة يشترك في
النفع بها العباد ، وتبدو بركتها على الناطق والصامت الجماد ، وتلك النعمة النيل
المصرى الذى تبرز به الأرض الجزز فى أحسن الملابس ، وتظهر حلل الرياض على
القيعان والدياسيس ، وترى السكونز ظاهرة للعيان ، متبرجة بالجواهر واللجين
والعقيان ، فسبحان من جعله سببا لإشمار الموات ، وتعالى من ضاعف به ضروب
البركات ، ووفر به مواد الأرزاق والآقوات الخ ، (٢)

هذان مثلان مما كتبه ابن قادوس من سجلات هى من خصائص مصر ، فلا ينازع
مصر بلد آخر فى هذا اللون من السجلات ، ولا سيما فى البشارة بوفاء النيل ، ولكن
اللون الآخر ، وهو ركوب الإمام الفاطمى لصلاة عيد النحر ، فهو من ترتيب الدولة
الفاطمية ، وقد رأينا تأثير العقائد الفاطمية فى السجل الفاطمى مما لا يدع
شكا فى أن العقائد أثرت فى الكتابة كما أثرت فى الشعر ، أضف إلى ذلك كله هذه
الصنعة الفنية فى الكتابة التى رأيناها عند جل كتاب الفاطميين . وقد حفظ
العقاد قطعة من رسالة لابن قادوس كتبها إلى ابن معروف ، وتظهر فى هذه الرسالة
صنعته الفنية التى ظهرت فى السجلين السابقين :

« أطل الله بقاء الحضرة لغرائب مجد يبتدعها ، وفرائض جود يشرعها ،
وقوادم يذلل صعابها ، ومسايف سعود يطرق جنبها ، وأدام أيامها التى هى
للدهر تمام ، وفى المحل غمامم :

غرر من الأيام توضح نجرها	والدهر من ظلم النوائب عاتم
ملك تملكه الندى وتجمعت	فى راحتيه غمامم وسمامم
فالروض يجذب وهو روض ممرع	والغيث يقلع وهو غيث دائم

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٨

(١) صبح الأعشى ج ٨ ص ٣٢٦

وشتان ما بينهما ، تلك سحاب قد رعدت بوارقها ، وعدت صواعقها ، وروض
يحف نباته ، وتضوع زهراته ، ومكارم الحضرة تزيد جدة على التكرار ، وتماثل
فعل الفلك المدار ، فهسى تبارى الشمس نهراً ، وتزور مزار الطيف سراراً :
من بغير أهلة مستورة فظلمن في فلك العلاء أقاراً
ومواهب ومناقب ومناسب رفعت له فوق السماك مناراً (١)

وتوفى ابن قادوس سنة ٥٥١ في سابع المحرم ، وقيل إن الملك الصالح حضر
من القاهر إلى مصر للصلاة عليه ومشى في جنازته إلى تربته عند مسجد الأقدام. (٢)
ووافق العماد على تاريخ وفاة ابن قادوس على هذا النحو ، غير أن المقرئ يروى
قصة طويلة زعم فيها أن أبا الفتح يانس الأرمي وزير الحافظ لما عظم شأنه سنة
٥٢٦ هـ وثقل على الخليفة أخذ كل منهما في التدبير على الآخر ، فأعجل يانس
وقبض على حاشية الخليفة ومنهم قاضي القضاة وداعي الدعاة أبو الفخر وأبو الفتح
ابن قادوس وقتلها . فاشتد ذلك على الحافظ وعمل على سم وزيره (٣) أي أنه
ذهب إلى أن ابن قادوس قتل سنة ٥٢٦ هـ ، وقد وهم المقرئ في هذه الرواية فإن
الأدلة تكاد تجمع على أن ابن قادوس شاهد عصر الملك الصالح طلائع بن رزيك ،
من ذلك أن قصة ابن قادوس مع أبي علي حسن بن زيد الأنصاري كانت في
الخلاف بين حسن بن الحافظ وأبيه ، وهذا الخلاف نشأ بعد سنة ٥٢٦ هـ ، ونحن
نعلم أن ابني الزبير لم يتقدما في الديوان إلا بعد قتل الظافر سنة ٥٤٩ هـ بل لم يكن
لها ذكر في الدولة قبل هذا التاريخ وقد روينا هجاء ابن قادوس لابن الزبير ، فعنى
هذا أن هذا الهجاء كان بعد مقتل الظافر أي بعد سنة ٥٢٦ هـ أيضاً ، ومن ذلك أن
العماد يحدثنا أن الملك الصالح طلائع بن رزيك كان يغرى ابن الصياد بأنف الجليس
ابن الحباب ، فأنشد ابن الصياد هذه المقطعات التي أشرنا إليها مراراً ولم يسكتها
إلا ابن قادوس ، فنفهم من ذلك أن ابن قادوس حضر عهد الملك الصالح ، أضف إلى ذلك

(٢) ابن ميسر ص ٩٧

(١) الخريدة ورقة ٥١ .

(٣) خطط المقرئ ج ٣ ص ٢٧ .

مارواه ابن خلسكان أن الخليفة العاضد الفاطمي أشرك ابن قادوس مع الموفق ابن الخلال في ديوان الإنشاء . وإذن فنحن نؤيد رواية العماد وابن ميسر أنه توفي سنة ٥٥١ هـ .

أما الشاعر الكاتب الثاني فهو أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري الذي كان ابن قادوس سبب قتله ، وقد تحدثنا عنه شاعراً (١) . أما صفته الكتابية فقد وصفه العماد بأنه كان من المقدمين في ديوان المكاتبات (٢) وقال مرة أخرى : « ومن نثره ما يدل حسنه على رونق فرنده وأثره (٣) ، وحقاً ، كان أبو علي الأنصاري من الكتاب الذين ملكوا ناصية اللغة والمقدرة على التصرف بالألفاظ ، فكان يضع اللفظ فيما خصص له ، ويختار من الألفاظ ما يناسب المعنى الذي قصده مع التزامه الخصائص الأخرى التي رأيناها عند غيره من الكتاب ، ومن هنا ظهرت مواهب أبي علي الأنصاري في النثر كما ظهرت من قبل في الشعر ، اقرأ هذه الرسالة التي كتبها إلى صديق له يهنته بالشفاء من مرض :

« إذا قدم الوداد ، وصح الاعتقاد ، وصفت الضمائر ، وخلصت السرائر ، حل الإخاء المسكتسب ، محل أخوة النسب ، وصار المتعاقدان على الإيثار والمتحابان على بعد الدار ، متساهمين فيما ساء وسر ، ومتشاركين فيما نفع وضر ، وتلك حالي وحال حضرة مولاي ، فإني وإياها كنفس قسمت على جسمين ، وروح فرقت بين شخصين ، فما ألمها فقد مضى وأزيجني ، وأما بروها فقد سرفني وأبهجني ، وعرفت خبر إبلاها من ألم كان بها ، فشكرت الله على خلتين معا ، ونفيعين اجتماعاً ، أحدهما أني أعلم تألمها فكنت ألاق ما يكدر الشراب ، ويمنع تلاق الأهداب ، وأجد على حال الصحة ما يجد المريض ، وأرى الدنيا على إيثارها بعين البغيض ، والآخر على برئها عند حلوله ومعرفتي به عند تخييمه بساحتها ونزوله ، (٤) »

وأقرأ له يهنيء صديقه بمولود :

« وردت البشارة السارة بالقدام الأجد ، المستقبل بالطالع الأسعد . وأخذ المملوك من المسرة بأوفر حظ الأولياء المخلصين في الولاء ، المغمورين بجزيل

(٢) الخريدة ورقة ١١٠

(٤) المصدر نفسه ص ١١٥

(١) راجع ص ١١٧

(٣) المصدر نفسه ورقة ١١٤

آلاؤه ، وسأل الله سبحانه تخليد الأيام المالكية مديدة الأمد ، ووفرة العدد ،
نامية الأهل والولد ، حتى يرى هذا المبشر بقدمه ممتطيا صهوات الجياد ، مخوف
الشذا يوم الجلال ، يخفق وراءه اللواء ، وتخاف سطوته الأعداء ، وتخص
البلاد بقواضيه ، وتشنف الأسماع بذكر مناقبه ، وترى من أولاده أجدادا عن
الإسلام ذادة ، وأملاكا لا تملك البلاد سادة . لازلنا تبليغ أقصى الأمانى ؛
وتسمع نغم التهاني ؛ وتمد ظلها على القاصي والداني (١) .

ثم أقرأ له هذه القطعة من رسالة في العزاء بغريق :

« لعمرى لقد نزهه الله عن سهك الجرباء ، وملاقة الحصباء ، والمقام تحت
أديم الأرض ، وانطباق بعضها على البعض ، ورفعته عن أن يذل في الحدث
جبينه ، ويعفر في العثير عرينه ، فجعل ضريحه في شبيهه جودا وكرما ، وضريحه
محاسن وشيا ، ففضمنه الماء ، وتغطمط فوقه الدأماء ، فإذا استسقى السحاب ،
واستسمح التراب ، فهو في البحر الوافر ، واللج الزاخر ، بحيث تتفرع المناهل ،
ويرد كل ناهل (٢) . »

فهل رأيت كيف كان أبو علي الأنصارى فنانا يجيد صناعته ، فينتقى من اللفظ
أجوده ، ومن المعاني أسماها وأجملها ؟ فلا عجب أن رأينا ابن قادوس يحسده
على مهارته ، ويخشى منافسته . فدبر المسكيدة التي أدت به إلى حتفه .

الموفق ابن الخليل :

ولعل آخر من ولى ديوان الإنشاء في مصر الفاطمية هو يوسف بن محمد
المعروف بابن الخلال ، الملقب بالموفق ، وقد وصفه العماد بقوله : « هو ناظر مصر
وإنسان ناظرها ، وجامع مفاخرها ، وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل يكتب
كما يشاء (٣) » ، ويذهب ابن خلكان إلى أن الموفق كان صاحب ديوان الإنشاء
بمصر في أيام الحافظ^١ وأنه استمر في مرتبته إلى آخر عهد الدولة الفاطمية (٤) ،
وبعد الموفق ابن الخلال الأستاذ المباشر للقاضي الفاضل ، وقد روينا كيف وفد
القاضي الفاضل إلى ديوان الإنشاء ، ومثل بين يدي الموفق ولازمه ، وتدرج

(٢) المصدر نفسه ورقة ١١٨

(١) الحريدة ورقة ١١٥ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٧ .

(٤) المصدر نفسه ، وهذا ما يفهم أيضا من أقوال الفلقشندي في كتاب صبح الأعشى ج ١ ص ٩٦

بين يديه ، وكيف طلب منه الموفق أن ينثر ديوان الحماسة مرة بعد أخرى ، إلى أن أجاد القاضى الفاضل فن الترسل ، وبلغ هذه الدرجة الرفيعة فى هذا الفن . لذلك يقول ابن خلدان : « ولم يزل ابن الخلال بديوان الإنشاء إلى أن طعن فى السن وعجز عن الحركة فانقطع فى بيته . ويقال إن القاضى الفاضل كان يرعى له حق الصحبة والتعليم ، فكان يجرى عليه كل ما يحتاج إليه (١) » . وابن الخلال أحد الذين ذكرهم عمارة اليمنى فقال : « ووجدت بحضرة (أى بحضرة الصالح بن رزبك) من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليلس أبا المعالى بن الحباب والموفق بن الخلال صاحب ديوان الإنشاء . وأبا الفتح محمود بن قادوس والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير ، وما من هذه الحلبة أحد إلا ويضرب فى الفضائل النفسانية ، والرياسة الإنسانية بأوفر نصيب ، ويرمى شاكلة الإشكال فيصيب (٢) » . إذن تكاد تجمع المصادر التى بين أيدينا والتى حدثتنا عن الموفق ابن الخلال أنه كان على جانب من علو الهمة والفضل ، وعلى براعته فى فن الترسل . وقد حفظ من إنشائه سجل كتبه بولاية شاور الوزارة لثانى مرة ؛ أى بعد انتصاره على ضرغام ، جاء فيه :

« سلام عليك . فإن أمير المؤمنين محمد إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصل على جده محمد خاتم النبيين ، وإمام المرسلين ، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين الأئمة المهديين ، وسلم تسليما (أما بعد) : فالحمد لله ماخ الرغائب ومنيلها ، وكاشف المصاعب ومزيلها ، ومذل كل عصابة كلفت بالعدو والشقاق ومذيلها . ناصر من بغى عليه ، وعاكس كيد الكائد إذا فوق سهمه إليه . وواد الحقوق إلى أربابها ، ومرتجع المراتب إلى من هو أجدر برقيها وأوابها ، ومسنى الخير بتيسير أسبابه ، ومسهل الرتب بتمهيد طرقه وفتح أبوابه ، ومدنى نائى الحظ بعد نفوره واغترابه ، ومطلع الشمس بعد المغيب ، ومتدارك الخطب إذا أعضل بالفرج القريب . مبدع ما كان ويكون ، ومسبب الحركة والسكون . محسن التدبير ، مسهل التعسير . « قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء . بيدك الخير إنك على كل شىء قدير » . والحمد لله الذى اختص أولياء أمير المؤمنين بالاستعلاء والظهور ،

(١) ابن خلدان ج ٢ ص ٤٠٩ . (٢) النكت المصرية ص ٣٤ .

وذلك لهم جوارح الخطوب ومصاعب الأمور . وآتاهم من التأييد كل بديع مستغرب ، وأنالهم من كل غريب إذا أورد قصصه أطرب . ومكنهم من نواصي الأعداء ، وشملهم بعناياته في الإعادة والإبداء . وضمن لهم أحمد العواقب ، وأرشدهم إلى الأفعال التي ثبتت لهم في صحائف الأيام أفضل المناقب . وهداهم بأمر المؤمنين إلى ما راق زلاله ، وتم غاية التمام كما أنه كان لرضا الله سبحانه وحسن ثوابه ومآله . ويمدهم في المجاهدة عن دولته بالتأييد والتسكين ، ويحظيهم من أنوار اليقين ، بما يجلو عن أفئدتهم دجى الشك البهيم ، ويظهر لأفهامهم خصائص الإمامة في حلل التفخيم والتعظيم ، ويريهم أن خلوص الطاعة منجاة في المعاد بتقدير العزيز العليم .

والحمد لله الذي استنمر من دوحة النبوة الأئمة الهادين ، وأقامهم أعلاما مرشدة في حجة الدين ، وبين بتبصيرهم الحقائق ، وورث أمير المؤمنين شرف مقاماتهم ، وجعله محرز غاياتهم ، وجامع معجزاتهم وآياتهم ؛ وقضى لمن التحف بظل فنائه واشتمل بسابغ نعمه وآلائه . وتمسك بطاعته ، واعتصم بولائه : بالخلود في النعيم المقيم ، والحلول في مقام رضوان كريم « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم »

ثم يقول : « وراقب الله فيما ألقاه إليك ، فقد فوض إليك مقاليد البسط والقبض ، والرفع والخفض ، والولاية والعزل ، والقطع والوصل ، والتولية والتصريف والصرف ، والإمضاء والوقف ، والغض والتنبيه ، والاحمال والتنويه والاعزاز والاذلال ، والإساءة والاحمال ، والابداء والاعادة ، والنقص والزيادة ، والانعام والارغام ، وكل ما تحدثه تصاريف الأيام ، وتقتضيه مطالب الأنام ، فهو إليك مردود ، وفيما علق بنظرك معدود . وأما العدل ومد رواقه ، وإقامة مواسمه وأسواقه ، والإنصاف واتباع محبته ، والاعتداع على أحكامه وأفضيته . وكف عوادي الجور والمظالم ، وحمل الأمر على قصد التصاحب والتسام ، وإظهار شعار الدين ، في إنصاف المتداعين إلى الشرع المتحاكين ، والدعوة الهادية وفتح أبوابها للمستجيبين ، وإعزاز من يتمسك بها من كافة المؤمنين ، والأموال والنظر فيها ، والأعمال أقاصيها وأدانيها ، فكل ذلك محرر في تقليد وزارتك الأول .

وأنت أولى من حافظ على العمل به وأكمل . . . الخ (١) .
فمن هذه القطعة نستطيع أن نتبين كيف تبع الموفق بن الخلال ما تبعه غيره
من كتاب مصر الفاطمية من الخصال الفنية التي ذكرناها من قبل! ثم نتبين كيف
استطاع الموفق أن يستغل مصطلحات بعض العلوم وينظمها في سلك كتابته
ليضيف إليها قوة في الصناعة .
لم يكن الموفق كاتباً فحسب ، بل كان شاعراً أيضاً ، شأنه في ذلك شأن عدد كبير
من الكتاب الفاطميين ويظهر في شعره هذه الصنعة البديعية التي تظهر في نثره
أيضاً ، فهو يقول من قصيدة :

عذبت ليال بالعذيب خوالى وحلت مواقف بالوصال حوالى
ومضت لذاذات تقضى ذكرها تصبى الحليم وتستهيم السالى
وجلت موردة الحدود فأوثقت فى الصبوة الخالى بحسن الخال
قالوا سراة بنى هلال أصلها صدقوا كذاك البدر فرع هلال (٢)

كما روى أن بيتاً أنشده كان سبب قطع صلة شاعر من شعراء القصر . ذلك
أن الشاعر أبا القاسم بن هانىء — وكان من سلالة الشاعر ابن هانىء الأندلسى
المعروف — كان يهجو ابن الخلال ، فأضمر هذا له حقداً ، فاتفق فى بعض المواسم
أن تقدم الشعراء للشيد بين يدى الخليفة ، وانتهت النوبة إلى ابن هانىء ، فأنشد
وأجاد ، فسأل الخليفة الموفق ابن الخلال رأيه فى قصيدة ابن هانىء ، فلم يسمعه إلا
أن يثنى عليه ويبالغ فى وصفه ، ثم قال : ولو لم يكن له ما يمت به إلا انتسابه إلى
ابن هانىء الأندلسى شاعر هذه الدولة ومظهر مفاخرها وناظم مآثرها لولا بيت
أظهر منه الضجر عند دخول جوهر هذه البلاد ، فقال له الخليفة : ما هو؟ فتخرج
الموفق من إنشاده ، وأبى الخليفة إلا أن ينشده ، وفى أثناء ذلك صنع ابن الخلال
بيتهاجاً فيه الأئمة الفاطميين .

فعظم ذلك على الخليفة ، وقطع صلة الشاعر ، وكاد يفرط فى عقوبته (٣) .
وتوفى ابن الخلال فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة سنة ست وستين
وخمسائة من الهجرة (٤)

(١) صبح الأعشى ج ١ ص ٣١٠ . (٢) ابن خلكان ج ٢ ص ٤٠٨ .

(٣) المصدر نفسه ج ٣ ص ٤٠٩ . (٤) المصدر نفسه

عمارة اليمنى العائس :

بالرغم من أن عمارة اليمنى لم يكن من عمال ديوان الرسائل ، ولم يعرف عنه انه كان كاتباً لأحد الأمراء ، فإننا نستطيع أن نلصق في رسائله الإخوانية التي حفظت لنا ، خصائص الكتابة التي عرفت عند كتاب الدواوين ، وكما تأثر عمارة في شعره بمصر وبشعرائها ، فقد ظهر أثر مصر وأثر كتابها في نثره ؛ ونختم هذا الفصل من الكتاب برسالة طريفة أرسلها عمارة إلى صديق له ولي على أسوان ، وقد رأينا أن ننقلها بأكملها لما فيها من صنعة فنية وطرائف لا نجدتها في السجلات الرسمية التي أوردنا صوراً منها من قبل ، كتب عمارة :

إن جرى بيننا وبينك عتب أو تناءت منا ومنك الديار
فالودان الذي عهدت مقيم والدموع التي شهدت غزار

كان عزمي ، أطال الله بقاء حضرة مولاي ، أن أستفتح هذا الكتاب ، بألم العتاب ، وأشحنه من الخطاب ، بما لا يستطاب ، وأقيم أعنة القوارص ، وأسدد أسنة الخوارص ، وأجلب بخيل التوبيخ ورجاله ، وأجمع بين رويته وارتجاله ، وأجهز تعنيفاً يضيق له البحر بمراكبه ، والبر بمواكبه ، ثم قلت السلام قبل الكلام ، والملاطفة أولى من الملام ، ثم عطفني حفضي لعهدك ، وحفاظي على ودك ، وشافع أولى ، ووفاء سموألى ، فلا طفاني حتى لزما كفي ، وخزما أنفي ، فعدت من شب نار الوجد عليك ، إلى التشبيب بذكر الشوق إليك . وكتابي هذا صادر عن صدر مملوء بودك ، وقلب مهصدوع ببعدهك ، وأسف لفقدهك ، لا يظعن قاطنه ، ولا يخفي باطنه ، وغرام لو تصور لك لبانت على وجهه جناية الفراق ، ومراسم الاحتراق ، ولعلبت أن صورتك في القلب مغروسة ، ومكاتبك منه محروسة ، وأنتك شغل خاطري ومسرحه ، ومرمى ناظري ومطرحه

يا حبذا سفوان لي من مرتع ولربما جمع الهوى سفوان

بل حبذا ليالي محاضرتك ومذاكرتك ، ومراروتك ومباكرتك

وأياما لنا ولكم نعمنا زمانا في حواشيها الرقاق

ليالي نحن في غفلات عيش كأن الدهر عنا في وثاق

هذا يامولاي فصل مقصور على صحيح التشويق ، لا سقيم التسوق ، وخاطرك ،

والسكاف ألد من الضمير في مخاطبتك ، وأعذب من الماء النير في مكاتبتك ، تعلم
صدق دخيلتي ، وودق مخيلتي . وأعود إلى ما في نفسي من عتابك ، بل سبابك ،
والتظلم من جفائك ، والتألم من عدم وفائك . يا أعصى من العود ، وأقسى من
الجلود . بل يا قصير العزيمة ، وطويل الهزيمة ، مضت لك شهور هي عندي دهور ،
لم تهزك فيها ريح الأريحية ، ولا شيمة النفس المضحية ، ولا استفزك المنصب الآبي
والالحسب الغري ، قطعت من مكاتبتك رسمي ، فلا تلفظ في كتبك إلى الناس باسمي ،
فقد كنت أرضى منك أن أكون تحت الحسيلة لا فوق البسملة ، ولقد رأيت لك
كتبا سلطانية وأخرى إخوانية ، فقبلت اسمك من عنوانها ، قبل الوقوف على
بيانها . هذا وأنا كسناة سرك ، وخزانة حلوك ومرك ، والمتهم فيك بما سمع من فيك
وأظن اسمي لو مر بسمعك لحذفت خمسه ليهكون عسمى الأبخار ولست أعلم لك
عذرا أحمل فملك عليه وأنسب تحاملك إليه ، إلا أن تكون طينة البلد والمنشا ،
غشى فؤادك منها ماغشى ، فإنها الطينة التي تنبت العقارب ، وتعادى بين الأقارب .
وأنت تعلم أن آل الزبير والسكنز إليهم منتهى رئاسة أعلامها وسياسة أقالمها
ونحلت سيفها وضيئها ورحلت شتاها وصيفها من منهم إلا من عداوته أسبابية
لأخيه ، أنبائية في توخيه ، يبدون المودة ويخفون العداوة ، أهل حاضرة وفيهم جفاء
البدواة ، وهذا ما ليس لهم في دفعه حيلة ، ولا في منعه وسيلة ، لأنه طبع جرى في
ماثمهم ونسيم سمامهم وامتزج بأهوائهم من أهوائهم ، وإلا نخذ إليك ، واحسب علي
يديك ، كم هنالك من راسخ أنساب ، وشاخ أحساب ، وصحة أديم ومجد قديم ، ونفر
عميم وكرم صميم . أو ليس أسوان بهم مأوى الطريد ومقر الشريد ، وأمان الخائف
والذمة من الدهر الخائف ، ثم هم سداد الثغر إذا انفتح ، وسداد الأمر إذا فتح .
وشعلة الزناد إذا فتح ، وعنوان الصدق لمن مدح . العادلون إلا على الوفر ،
والفاصلون بين الإسلام والسكفر .

وأرجع يا مولاي إلى مخاصمتك ومواصمتك ، ومشامتتك وملاكتك ، والعرض
من عندك والسكف من عندك ، هذه مكاتبة غير موأنية ، ومخاطبة الحمالين والنوأتية
ومقاسره ، وسوء معاشره ، وكاتبى بمولاي إذا انتهى إلى هذا الحد تمثل وأنشده :

لئن ساني أن نلتني بإساءة لقد سرنى أنى خطرت ببالك

أأمنت أن أغضب فأقول : لاسقانى الله بنوئك ، ولا هدانى بضوئك ، ولا بلانى

بسوئك ، فإنك من أسوان والهمزة إذا حذف عنها ، فهمت تثنيه السوء منها ، وأنت الذى جلبت إليها التعنيف ، وفتحت عليها السكينيف ، فإن كان هوى البلد أعداك ، فقد هوى بك وأرداك ، وإن كانت الرياسة المحدثه — ولا أكسر دالها — أهلك عن أصفياك ، وحسن وفائك ، فما إخالك ، وفلان خالك ، تجفو من ينصفك ، وتنكر من يعرفك . أجدنى يا مولاي قد اشتفى منك قرى ، وانطفأ عنك ضرمى ، وأخذت الفتنة نارها ، ووضع الحرب أوزارها ، وسفرت المسألة عن جبينها ، وأخذت صفقة ثمينها .

وهذا أو ان تسرعى إلى حسن ذكرك ، وتبرعى إلى حمدك وشكرك ، وإتمام ما أعرضت عنه من ذكر الشوق إلى لقائك ، والدعاء بطول بقائك ، وأما هذا الكلام فهو هذر ساقط ، وهدر ما له لا قط ، وجلالة قدرك ، وطهارة صدرك ، وجميل اعتقادك ، وغالض ودادك وسؤددك ، وشرف قومك ونفسك ، وحسن يومك وأمسك ، يحملنى على علمك بأن مكاتبك من قلبى ثابتة المسكان ، قوية الأركان . ولو لا ذلك لقلت للنفس سقيت مهلا ، وسلبت علما ولبست جهلا ، ووجدت حزنا وعدمت سهلا ، ما هذه الجرأة على الأعراض المحرمة ، والبيوتات المسكرمة ! أتعرفين بخلت يداك بمن تسمحين ؟ وعميت عينك إلى من تطمحين ؟ إن لم يقك الوجل ، فليهنك الخجل . وإن لم يركك الريث فلا يستفرك العجل . أما تعلمين أن هذه رتبة الأحكام الشرعية ، ورتبة أهلها واجبة مرعية . بل رتبة النظر والإشراف ، ونفاذ الكلمة فى الأوساط والأطراف .

واتصل بى أن مولاي قبض يده عن أحكام القضاء ، وبسطها فى الأموال والإمضاء ، وإن كان الكسل حد من نشاط نفسك ، وطوى بعض بساط أنسك . وأنا أعيدك أن تغلط فى وهمك ، أو يعترض الشك على فهمك . لانقل ذهبى أجمل الخدمتين ، وأكمل النعمتين ؛ فإن من زاد فى الكراء ملك الدار ، وهذه الشقراء والمضمار . وأما الخدمتان : فها أنا أجلوهما على مرآة عقلك وهى صافية ، وأعرضهما على بصيرة فضلك وهى شافية ؛ أما الشريعة فهى ملسوعة عدمت الراتى ، ومريضة روحها فى التراقى ، حدودها متروكة ، وحرماها مهتوكة ، ومعالمها مطموسة ، وأعلامها منكوسة ، وقد نغل أديمها ، ونسى قديمها ، وعنى وردها ، وبلى بردها ، حتى وقعت الزهادة ، فى لفظ الشهادة ، وثقل الأذان على الآذان ، وكان

القضاء لا يتولاه إلا من قرأ ودري ، وشبع من المعارف وتضلع ، وتشوق إلى الكمال وتطلع ، وبسط يده بالعطايا ، وقبض رجله عن الخطايا ، وقد صار القضاء في وقتنا لما قضى الله به من مقتنا ، مبدولا لمن بذل فرضا ، معروضا على من لا يصون عرضا ، شعارهم طول السبيل والقامة ، وعرض اللحية والعمامة . يعرفون أن اشتقاق الرشا من الرشوة ، وينكرون الفرق بين النشا والنشوة . هذه حال الشرع في الأمصار الواسعة ، والأقطار الشاسعة . فأما أسوان فهى كما قال أبو الفتح البستي :

أ كتاب بست كم يحاسدكم على كتابة بست وهى سخنة عين
وخفى حنين فوق ما تطلبونه فكم يدينكم يا قوم حرب حنين

وهل فى أحكام أسوان غريبة لا تعرف ، ونازلة تستظرف ؟ ما من أحد إلا وهو يعرف السلف على الزبيب والتمر ، والوالى يصفع المعربدين على المزر والخنز ، حاكمها مستريح من إقامة الناموس ، وإحضار المصحف لليمين الغموس ، لأن يمين التجار ، وإلا يغرق فى شبر من الماء ، ويمين الجمال ، وإلا عذبت فى صحراء عذاب بالظما ، والعشار يقول : « وإلا فالسكب على عياله ، والحرار على أخت حاله ، والسفساف يقول : « وإلا لصفع الوالى قفاه ، ورض فاه ،

هذه الخدمة يا مولاي قد شرحت لك حالها ، وعرضت عليك جمالها ، وهى زبدة كلها زبد ، ومورد صفوه زبد ، وعبية محشوة بالعيوب ، وذنوب مملومة بالذنوب . وأما التصرف فى الأموال ، والبسطة فى الأعمال ، فأنت تعلم أن المال بلغك من المجلس العالى إلى أن أخلاك فى ركابه ، واختصك بخطابه ، وكنت متكسلا فتشطت ، ومنقبضا فتبسطت ، ونظر إليك وخلق عليك ووعدك من الصيت والتنويه ، فوق ما تأمله وتنويه ، ثم أفرض أنك وحاكم ثغرك وقاضى مصرك قدمتا على الوالى فأدلى القاضى بالدينية ، وأدليت أنت بالهدية ، ومت على الوالى بوقاره ، ومت بما قدمت إلى داره . هنا لك والله تعرف أن الجمال بخدمة المال ، وإلى اليمين فضل الشمال ، وأن صاحب الإحسان أمكن من صاحب الطيلسان . ثم لو جمعكما مسجد الجامع ، وبرزتما للناظر والسامع ، لامتلا مجلسك بالعمال والخران والمؤدين إلى الوزان ، وأطافت بك الأعوان السلطانية ، والنواب الديوانية ، وحفت بك أبواب الرواتب والجوازي ، ولم تجد من قولك من يراجع أو يجازى ، وقلت قدموا هذا

وارفعوه، وأخروا ذلك واصفوه. وأما القاضى فلم يكن مجلسه يختص، ومقصورته
تختص، إلا باليتامى والأرامل، والمرضعات والحوامل، وقائلة إن زوجها لا يكفها،
لتخرج من عصمته إلى من يشفيها، ويتم ظلمه عمه، ونيسكت أمه. وأخرج رجله
مخلوجة، وبده مفلوجة، ومشايخ عظامهم نخره، وكوادمهم نخره؛ ثم القاضى أيده الله
نائب حكيم الصعيد، وأنت نائب صاحب العصر والقصر المشيد.

وماضر أرباب الدواوين أنهم نصارى وأن لم يؤمنوا بمحمد
وها نحن إن رمنا سلاما عليهم دفعنا عن الأكام فضلا عن اليد
وهذه صورة الحال، من غير انتحال. وكأنى بك إذا فهمت أطربت، وشددت
يدك على ما فيها وربطت، وعلمت مقدار حظك فاغتنبت، وأريد يا مولاي أن
أصطادك بهذا الجنب، وأربط مرزأتى فى هذا الذنب، وأشوى فى نارك سمكتى،
وأجلب إلى شوقك رمكتى. فلأمر ما نصبت هذه الراية، وأجريت إلى هذه الغاية،
وجازفت وحققته، وعن صبوح رقت، علمك يحيط بكثرة ما أتلف، وقلة
ما أخلف، وغنى نفسى عن سؤال الغمام فضلا عن الأناام، وليس للتوسع لآنى مبدىر،
بل سائل من أهل اليمن والحجاز لا يهذر، قد ركب اللجة الخضراء، والقفرة الغبراء،
وقصد باني، ونزل جنابى، أفأصون صون قرضى، وأبذل عرضى

وإن أحق الناس باللؤم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبخل
وأما حاشيتى الضافية، وعدق الوافية، فأنت فى كثرتهما أصدق مخبر، وأفصح
معبر، ولما طالت محنة الغز وعرضت، ورجوناها أن تصح فرضت، رجعت إلى
كفانة ذكرى، وخزانة فسكرى، فسكنت أكرم خاطر فى خاطرى، وأحسن وجه
يمثل لناظرى، وسيرت إليك بعض خروجاتى للجارى الذى جمدت أنهاره، ونحمت
ناره، ومبلغه يسير فى جنب كرمك، حقير إذا قرن بهممك

فكم فى الأرض من حسن ولكن عليك من الورى وقع اختيارى
ولا تقل كم بين الفسطاط وآخر الصعيد، إن هذا هو المرى البعيد. فلو كنت
أعلم أنى عندك من ينده سربه، ويكدر بالأعداء شربه، لقصرت ما أطلته، وبخلت
بما بذلته، ولكنى قلت هذا أمر قد سهلت مسالكه، إذ أنت ما لكه، وغيرى تقبل
من جودك بعض مجهودك، وقد أقسمت عليك وإبرار القسم إليك للنفس الأماره:
ساحينى فى عماره، واتركى عنك قصور باعك، وجفاء طباعك، فإن هذا سواد الناظر

بل ضمير الخاطر، وسقف السماء، وعذب الماء، وكأني بالوصول وقد آل إلى الحصول،
وبالسؤال في يد الرسول :

ألا إن نفسا بين جنبي محمد إذا هم بالمعروف قالت تقدم
ويا طالما قالت له عند فرصة من الجود خذها لا تفنك فتندم

يا مولاي قد أجلت الرسول شهرا ، وأنا أعده دهرا ، وأقف حيث انتهيت
واسأل الجواب عما أنهيت، فإن الحاجة سائق حثيث، والوقت غريم خبيث، ولرأيك
الفضل المعروف بالفضل، والطول المشفوع بالمتطول . ولو لا أن هذه الرسالة
صادرة عن قائل لا يتقول، واردة على قابل لا يتأول، لسألت كرمك عن بسط
العذر عما فيها من التقصير . وحسبنا الله ونعم النصير (١) .

فهذه الرسالة بالرغم من إسرافها في الطول تجمع بين عدة فنون وأغراض
كانت من أغراض الشعر، واسكن تقدم النثر منذ القرن الثالث للهجرة في كل
الأقطار الإسلامية جعل النثر يعرض للأغراض التي كانت للشعر من قبل ،
ففيها ذكر الفراق والعتاب، والتهكم الذي هو أقرب إلى الهجاء، إلى غير
ذلك من الموضوعات .

ثم نرى هذه الرسالة تجمع هذه الخصائص الفنية التي ظهرت عند كل كتاب
مصر الفاطمية، فالرسالة تقوم على السجع، ثم على هذه الألوان المختلفة من البديع
من تورية واقتباس وتضمين واستشهاد ومراعاة النظير وتشخيص وغير ذلك
من هذه الألوان التي نفق سوقها عند كتاب مصر الفاطمية . ولم يشذ عن اتباعها
كاتب واحد من كتّابهم . فإذا جاء القاضي الفاضل في أواخر العصر الذي نؤرخه
والعصر الذي يليه أسرف في استخدام هذه الألوان البديعية، فهو لم يأت بشيء
جديد، إنما أخذ عن أساتذته من كتاب مصر الفاطمية طرائقهم في الكتابة وسار
على منهجهم وسنتهم ولكن اشتهر أمر القاضي الفاضل في التاريخ الإسلامي والتاريخ
الأدبي أكثر من شهرة أساتذته كتاب مصر الفاطمية، لأن القاضي الفاضل
قرن اسمه باسم صلاح الدين الأيوبي . فكان وزير صلاح الدين ومستشاره ،
والمؤرخون أشادوا بصلاح الدين، فمن الطبيعي أن يرفعوا شأن القاضي الفاضل ،

(١) النكت العصرية ج ٢ ص ٤٣١ .

ويثنوا عليه الشاء كله ، حتى بالغ بعض الكتاب فقال : إن القاضي الفاضل ابتدع
طريقة جديدة في الكتابة عرفت بالطريقة الفاضلية ، وكم كنت أود ألا
يتسرع بعض المحدثين في أحكامهم وكتاباتهم التي ساروا فيها على نمط من سبقهم ،
فنسبوا إلى القاضي الفاضل هذا المذهب الجديد — في نظرهم — عن الكتابة
في مصر ، فالقاضي الفاضل لم يكن إلا من تلاميذ كتاب مصر الفاطمية .
وهذه الطريقة التي نسبت إليه ، عرفها كتاب مصر الفاطمية ، بل عرفها
كتاب مصر منذ عهد الطولونيين .

خاتمة

لعلك أدركت الآن شيئا عن الحياة في مصر الفاطمية ، وكيف تطورت هذا التطور الخطير بعد عصر الإخشيديين ، فقد كانت عقائد الفاطميين سببا قويا في تطور الحياة ، ذلك أن التشيع لم يكن له أثر يذكر في مصر منذ الفتح الإسلامي حتى دخلها جوهر الصقلي ، فإذا بمصر تصبح بعد ذلك دولة شيعية ، ويتخذها أئمة فرقة من فرق الشيعة مقرا لحكمهم . واجتهد الفاطميون في أن تكون مصر متميزة عن غيرها من الأقطار التي كانت تخضع للعباسيين أو لأموي الأندلس ، وأن يبسطوا سلطان مصر على ما جاورها من البلدان ، فاتسعت رقعة أملاك مصر الفاطمية ، كما عمل الدعاة على بث تعاليم الفاطميين في كل البلاد الإسلامية ، فاتجهت القلوب والأنظار من شملتهم هذه الدعوة إلى صاحب مصر ، وأصبحت القاهرة كعبتهم التي إليها يحجون ، وأصبح لمصر مكانة خاصة تختلف تمام الاختلاف عن مكانتها في عصر الولاة الذي سبق العصر الفاطمي .

ورأينا شيئا عن الحياة الاجتماعية ، وكيف كانت مصر على جانب عظيم من الثراء ، فالأموال والهدايا كانت تترى على الأئمة بمصر ، وهؤلاء بدورهم أسرفوا الإسراف كله ، وأغدقوا نعمهم على المقربين إليهم وعلى الشعب في كل مناسبة من مناسباتها ، وما كان أكثر هذه المناسبات في عصر الفاطميين ، فهناك أعياد ابتدعتها الفاطميون لم يعرفها المصريون من قبل ، وأعياد أدخلها المسلمون في مصر منذ الفتح العربي ، ولسكنها ازدادت بهجة في العصر الفاطمي ، وهناك أعياد أخرى ليست إسلامية وإنما هي أعياد مصرية خالصة كان المصريون منذ أقدم عصورهم يحتفلون بها ، فورثها الأحفاد عن الأجداد ، أضف إلى ذلك أعياد المسيحيين التي اشترك فيها المسلمون في عصر الفاطميين . فكل هذه الأعياد والمواسم طبعت العصر الفاطمي بطابع الترف والبهجة والتناق في كل شيء .

والعقائد الفاطمية تقوم على العلم والعمل معا ، لذلك اهتم الفاطميون اهتماما خاصا بألوان العلوم المختلفة ، ولا سيما ما كان منها يمت بصلة قريبة أو بعيدة من عقائدهم مثل علوم الفلسفة ، فازدهرت هذه الدراسات في مصر الفاطمية ازدهارا

لم نسمع عنه من قبل ، فقد احتضن الفاطميون هذه الدراسات وشجعوا العلماء على المضي في أبحاثهم ، فكان نتيجة ذلك هذه المجلدات الكثيرة التي تضمها خزانة الدعوة باسم كتب الحقيقة ، ولما دالت درلة الفواطم ضعفت هذه الدراسات وقل أن نجد لها أثرا في مصر ، وإني زعيم أنه لو لم تكن هناك صلة خاصة بين بعض علوم الفلسفة وبين العقائد الفاطمية ، ما كانت هذه العلوم تزدهر وتقوى فهي أثر من آثار العقائد الفاطمية ، حقيقة اهتم الفاطميون بألوان العلوم المختلفة ، وأسسوا دار العلم ، وجمعوا فيها المكتب الوافرة في جميع ألوان العلوم والمعرفة ، ولكن هذه العلوم الأخرى كانت تسير في مصر سيرها الطبيعي وتتطور تطورها الطبيعي ، حتى إنها لم تتوقف بعد عصر الفاطميين ، كما توقفت الدراسات الفلسفية ، وكل ما في الأمر أن الفاطميين اهتموا بها اهتمامهم بكل عمل علمي ، فشجع الفاطميون علماء النحو واللغة والقراءات والتاريخ بجانب تشجيعهم لغيرهم من علماء الفلك والطب وعلوم الفلسفة الأخرى ، ومن هنا ازدهرت الحركة الفكرية في مصر الفاطمية ازدهارا عظيما .

وكذلك نقول عن الحياة الأدبية فقد كان الشعراء المقربون إلى الأئمة وهم شعراء القصر أو شعراء الحضرة يجهدون أنفسهم في أن يلبوا بالعقائد الفاطمية في مدائحهم ، بحيث أصبحنا لانستطيع أن نفهم مدائح الشعراء أو سجلات الكتاب إلا إذا طبقنا النظرية التي أطلقنا عليها نظرية المثل والمثول ، وهي تقوم على فهم دقيق للعقائد الفاطمية ، حتى ندرك ما أراد الشاعر من مدحه ، وإلا كان فهمنا لهذا الشعر قاصرا غير صحيح ، فالعقائد أثرت تأثيرا قويا في الحياة الأدبية تأثيرها في جميع نواحي الحياة .

وهنا نقف لتساءل : هل بحيث الدعوة الفاطمية من مصر بعد زوال دولة الفاطميين ؟ والجواب عن ذلك يعيدنا إلى الحديث عن مدى قبول المصريين لدعوة الفاطميين ، ذلك أن أكثر المؤرخين يذهبون إلى القول بأن مصر رفضت مذهب التشيع ، إلى أن هددهم المعز بسيفه وأغراهم بذهبه ، فاعتنقوا عندئذ التشيع ، وبالرغم مما في هذا القول من مبالغة ، فاننا لاننكر أن من المصريين من اعتنق الدعوة الفاطمية رغبة أو رهبة ، وأن البعض الآخر استمر على مذهبه السني ، وذكرنا أن من أسباب انقراض الدولة الفاطمية تهاون القائميين بالأمر

فيها بالإمامة التي هي عماد الدعوة ، فانهارت الدعوة بسبب ذلك ، وسهل على صلاح الدين أن يديل الدولة ، وبالرغم من ذلك فقد حدثنا بعض المؤرخين عن شخصيات كانت تدين بالدعوة الشيعية في عهد الأيوبيين والمماليك ، ونظرة إلى كتاب الطالع السعيد للأدقوى ، أو كتاب الضوء اللامع للسخاوي ترينا عددا من أمثال المصريين كانوا يتشيعون ، من ذلك ما ذكره الأدقوى عن إبراهيم ابن محمد بن علي بن مطهر بن نوفل الأدقوى : « ثم عكف على حفظ كتاب الله العزيز ، فاستحق به التميز ، واستمر إلى آخر عمره على إقراء القرآن ملازما للصلاة والتلاوة والعبادة ، وهو كل يوم من الخير في زيادة ، مع صدق لهجة وصيانة ، إلا أنه كان من أتباع الشيعة ، أصحاب تلك البدع الشنيعة ، شهادته لما حضر داود الذي يدعى أنه ابن سليمان بن العاضد إلى ادقوى في سنة سبع وتسعين وستائة ، وهو بين يديه ، وقد أخذ العهد عليه ، وهو ينشده قصيدة نظمها منها :

ظهر النور عند رفع الحجاب فاستنار الوجود من كل باب

وأنا البشير يخبر عنهم ناطقا عنهم بفصل الخطاب (١)

ويروي الأدقوى أيضا قصة قطيبة الأسفوني الشاعر عندما ما شكاه بعض أهله إلى الوالي بقوص ، فجاء الوالي ومعه الناظر الشمسي الأمرى وكان شيعيا ، فلما رآه قطيبة قال : يا آل أبي بكر ! فاعتاظ الناظر ، فأنشد قطيبة :

حديث جرى يا مالك الرق واشتهر بأسفون مأوى كل من ضل أو كفر
لهم منهم داع ككيس معمم وحسبك من تيس تولى على بقر
ومن نحسهم لا أكثر الله منهمو يسبوا أبا بكر ولم يشتموا عمر
نخذ ما لهم لا تختشى من ما لهم فإن مآل الكافرين إلى سقر (٢)

ونذكر أنه عندما تحركت الشيعة حول داود بن شعبان الذي تحدثنا عنه من قبل — في سنة ٦٩٧ هـ ادعى هذا الدعي لمن استجاب له أنه يتحمل عنهم الصلاة ، فقبل كلامه ، وفي هذا يقول علاء الدين علي بن أحمد الأسفوني لبعض أهل بلدته من قصيدة أنشدها :

(١) الطالع السعيد ص ٣١

(٢) المصدر نفسه ص ١١٨

ارجع ستلحق بعدها الأهوالا لا عشت تبلغ عندنا آمالا
يامن تجمع فيه كل نقيصة فلأضربن بسيرك الأمثالا
وزعمت أنك للتكلف حامل وكذا الحمار يحمل الأثقالا (١)

ويقول الأدفوى أيضا عن الشيخ بهاء الدين القفطى المتوفى سنة ٦٩٧ هـ
« وفتح إسنا فإنه كان بها التشيع فاشيا ، فما زال يجتهد في إخماده . وإقامة الدلائل
على بطلانه ، وصنف في ذلك كتابا سماه « النصائح المفترضة في فضائح الرفضة ،
وهموا بقتله فخاه الله منهم » (٢) ويذكر عن عبد القادر بن مهذب الأدفوى المتوفى
سنة ٧٢٥ هـ أنه كان إسماعيلي المذهب مشتغلا بكتاب دعائم الاسلام (٣) . معنى ذلك
أن التشيع لم يقتلح من مصر بزوال دولة الفاطميين ووجود حكومات سنية
متعصبة لمذهبها ، بل أذهب إلى أبعد من ذلك فأقول إن المصريين الآن لا يزالون
متأثرين ببعض العقائد الفاطمية التي كانت في مصر منذ ألف عام تقريبا ، فأهل السفه
من المصريين إذا أرادوا سب شخص قالوا : يا عمر !!! ، وهذا بقية من بقايا سب
السلف الصالح في العصر الفاطمي ، وأهل مصر إلى الآن إذا زاروا ضريح
« السيدة زينب » وضعوا نماذج لسفن على الضريح ، وهذا أثر آخر من تأثير
العقائد الفاطمية الآن في المصريين ، فهم يتبعون الحديث المنسوب إلى النبي صلى
الله عليه وسلم : « أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ، ومن تركها غرق ،
ولا يزال المصريون إلى اليوم يلتمسون البركة والشفاعة من أهل البيت ، ويطوفون
بأضرحتهم لقضاء الحاجات !! على نحو ما كان يفعل في أيام الفاطميين ، والمصريون
إلى اليوم يذكرون عليا والحسن والحسين وفاطمة أكثر مما يذكرون أبا بكر
وعمر وعثمان وغيرهم من الصحابة الأبرار . ومن ناحية أخرى نرى المصريين
اليوم يحتفلون برؤية الهلال على نحو ما كان يفعله الفاطميون ، وإن كنا نخالفهم في
أننا الآن نأخذ برؤية البصر ، وكان الفاطميون يأخذون برؤية الاستبصار ، ولا يزال
إلى اليوم نحتفل بمواسم الفاطميين مثل أيام عاشوراء التي اتخذناها فرحا ، وكانت
في أيام الفاطميين أيام حزن ، ونحتفل بليلة نصف شعبان وليلة السابع والعشرين
من رجب ، وهي أعياد فاطمية لم يعرفها المصريون قبل العصر الفاطمي ، ونرى

(٢) المصدر نفسه ص ٣٩٧

(١) المصدر نفسه ص ١٩٧

(٣) المصدر نفسه ١٧٥

الخطب المنبرية الآن في بعضها طابع التشيع الذي كان في العصر الفاطمي .
وإذن فمصر لم تستطع إلى الآن أن تتخلص كل التخلص من آثار التشيع
الذي نشره الفاطميون .

وبعد ، فهذا الكتاب الذي تقدمه الآن صورة من صور الحياة الأدبية
والعلمية في مصر الفاطمية ، ولا أدعى أنها صورة كاملة صحيحة ، لأن آثار الفاطميين
الأدبية والعلمية فقدت ، ولم يبق منها إلا النزر اليسير ، وهو الذي اعتمدت عليه
في هذا البحث ، ولعل وفقت ؟

معجم الاسماء الواردة في الكتاب

		« ا »
ابن الأنباري	٣٠٥	ادم ١٨٠٦، ٤٠٠، ٧٣، ١٥١، ١٥٢
ابن بابشاذ النحوي	٩٢، ٩١	أصف فيظي ٤٢، ٤٣، ٥٠، ١٣٦، ٣١٠
ابن باقي الجزار	٢٦٤	الآمر بأحكام الله ٣٢، ١١٣، ١٢٨
ابن البرقي	١٧٩	١٣٤، ١٣٦، ١٣٨، ١٥٣، ١٧٩، ٢١١
ابن بركات الفراء الموصلي	٩٧	٢٨٢، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣٣٣، ٣٣٤
ابن بسام	٣٢٨	أبان بن عبد الحميد اللاحق ١٢٨
ابن بشرون	١٣٩	إبراهيم (الذي) ١٨، ٦
ابن بطلان (الطبيب)	٨٦، ٨٥	إبراهيم بن اسماعيل الدمياطي ٢٧٤
ابن جبر الشاعر	٢٣٠، ١٦٧	إبراهيم بن الرقيق ٢٤٠
ابن جرير الطبري	١٠٨	إبراهيم بن عبد الله النجيري ٣٠٢
ابن جني	٧٠	إبراهيم بن محمد بن أحمد الهاشمي ٩٣
ابن حجير العسقلاني	١١٠، ٥١، ٤٤	إبراهيم بن محمد بن علي بن مطهر ٣٥٧
ابن حديد القاضي	٢٦٨	إبراهيم بن ينال ٦٣
ابن حريز الشاعر	١٧٩، ١٦٧، ١٢٩	إبراهيم الرسي ٢٠٨
ابن الحلبي المنجم	٧٦	ابليس ٤٠
ابن حنبل	٧٠، ٥	ابن أبي أصيبعة ٦٦، ٨٠، ٨٥
ابن حنزابه	٥٤	ابن أبي حصينة الشاعر ١٦٠
ابن حوقل	٦٩	ابن أبي الدم ٣١٣
ابن حيدرة العقيلي	٢٤٧، ٢٠٨، ١٣٨	ابن أبي الزلازل ٥٦، ٢٤٥
	٢٧٧، ٢٥٩، ٢٥٨، ٢٥٧، ٢٥٦، ٢٥٥	ابن أبي طي ٢٧
	٢٨٧، ٢٨٦، ٢٨١، ٢٧٨	ابن أبي العيش المهندس ٧٦
ابن حيوس	٦٣	ابن أبي كدينة ٢٨، ١٣٤
ابن خلف الوراق	٧٧	ابن الآخرم الفرغاني ٨٧
ابن خلكان	٧٦، ٥٦، ٥١، ٤٦، ٤٤، ٤٣	ابن الأثير ٥٨
	٢٥٢، ٢٣٥، ١٩٤، ١٩٠، ١١٠، ٩١، ٩٠	ابن اسحق ١١٤
	٣٤٥، ٣٤٤، ٣٤٣، ٣٢٨، ٣٢٤، ٢٦٠	ابن الإمام ٩٦

- ابن عبد كان الكاتب ٣١٥، ٣٠٢
٣٢٠، ٣١٩
ابن العربي ٩٩
ابن العريف الحسن بن الوليد ٩٤
ابن الفارض ٢٨٣، ٢٨٥
ابن فضل الله العمري ١٠٨، ١١٠
ابن قادوس ١٣٩، ١٨٨، ١٩٥
٣١٣، ٢٦٧، ٢١٩، ٢١٧، ٢١٣
٣٤٣، ٣٤٢، ٣٤١، ٢٣٩، ٣٣٨
٣٤٥، ٣٤٤
ابن القارح ١٦٦، ٣٣٣
ابن قتاده المعدل ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٧١
ابن قتيبه ٣٢٧
ابن قديد ٩٦، ١٠٩
ابن القطاع الصقلي ٩٢
ابن قلاقس ٢١٤، ٢١٦، ٢١٨
٢٢٢، ٢٢٦، ٢٩١، ٢٩٣
ابن القيسراني ٩٩
ابن كازوك (وإلى الغريبة) ٢٦٨
ابن كلس (ن: يعقوب بن كلس)
ابن السكيناني ١٣٩، ٢٨٢، ٢٨٣
٢٨٥، ٢٨٤
ابن المدبر ٣٠٥
ابن مسرور البلخي ٩٧، ٩٨
ابن المسلمه (رئيس الرؤساء) ٦٠
ابن مصال ٢٢٤
ابن معبد الاسكندري ٢٧١، ٢٧٨
ابن المعتز العباسي ١٧٠، ٢٥٩، ٢٩٧
ابن معروف ٣٤١
ابن المغربي ٦٣، ٣١٣، ٣٣٢، ٣٣٣
ابن مكنسه ١٨٨، ١٨٩، ٢٦٢
٢٦٣
- ابن خليف القاضي ٢٢٤
ابن خيران ٣١٣، ٣١٢، ٣٠٤، ١٦١
٣٢٥، ٣٢٤، ٣٢٣، ٣١٤
ابن الداية ١٠٨، ١٠٩، ١١٣، ٣٠٢
ابن دحية ٢٥٨
ابن دريد ١٩٢، ٢٦٠، ٢٦١
ابن دزمام ٣٣٠
ابن دقماق ١١٠
ابن دياب المنجم ٧٦
ابن الراوندي ٢٨
ابن رضوان الطبيب ٨٢، ٨٤، ٨٦
ابن زبارج النديم ٥٨
ابن زولاق ٤٤، ٤٥، ٥١، ٥٥، ١٠٨
١١٠، ١١٣، ٢٣٩، ٣١٣
ابن سريج ٤٦
ابن سعيد المغربي ١٣٩، ٢٤٧، ٢٨٣
ابن سعيد بن يونس ٩٧، ١٠٨
ابن السنيدي ٧٧
ابن سينا ٦٩
ابن شاكر السكتي ٢٥٩، ٢٦٠
ابن الشخيا ١٣٨، ٣٢٨، ٣٢٩
٣٣١، ٣٣٢
بن شمول المقرئ ٢٦٧
ابن الصياد ١٣٩، ٢٠٤، ٢١٧
٢٣٤، ٢٦٧، ٣٣٩، ٣٤٢
ابن الضيف الداعي الشاعر ١٣٨
٢٧٦، ٢٩٤
ابن الطحان ٩٧
ابن الطوير ١٢٣، ٢٣٠
ابن عباد ٢٨٧
ابن عبد الحقيق ٣٢
ابن عبد القوى الداعي ١٠٥

ابو بكر بن سيف ٩٦
ابو بكر الطرطوشي ١٠٢
ابو بكر بن عبد الله بن مالك ٩٦
ابو بكر النعال ١٠١
ابو البركات بن أبي الليث ٣٠٣
ابو تمام الشاعر ٧٧، ١٨٦، ١٩٦
ابو جعفر احمد بن نصر ٣١٧
ابو جعفر الجزري ٢٢
ابو جعفر بن حسنداى ٨٧، ٧٦
ابو جعفر مسلم ٣١٧
ابو جعفر المنصور العباسى ٧٧
ابو جعفر النحاس ٩٥، ٩٦، ٣٣٧
ابو حاتم الرازى ٢٨
ابو حامد احمد بن محمد الأنطاكى
(ن: ابو الرقعمق)
ابو الحسن بن الترمذى ٢٣
ابو الحسن طاهر احمد (ن: ابن بابشاذ)
ابو الحسن على بن ابراهيم الحوفى ٩٥
ابو الحسن على بن أبى أسامة ٧٦،
٣١٢، ٣٣٣، ٣٣٤
ابو الحسن على بن احمد بن نوبخت ٣٢٤
ابو الحسن على بن الأنبارى ٣٢٧
ابو الحسن على بن الحسين الخلعى ١٠٠
ابو الحسن على بن الحسن بن معبد
(ن: ابن معبد)
ابو الحسن على بن رضوان (ن: ابن
رضوان الطيب)
ابو الحسن على بن السلار ١٠٥
ابو الحسن على بن سليمان أيوب ٧٦
ابو الحسن على بن عبد الواحد (ن: صريع
الدلاء)

ابن ملساقه ٨٧
ابن منذر ٣٣١
ابن منجب الصيرفى ٣١١، ٣١٢،
٣١٣، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٣٥،
٣٣٦، ٣٣٧، ٣٣٨
ابن ميسر القاضى ١٨٩
ابن ميسر المؤرخ ٢٩، ٧٢، ١٠٢،
١٣٦، ٣٣٢، ٣٣٩، ٣٤٣
ابن النضر الأديب ٩٥، ١٧٩،
١٨٠، ٢٨١
ابن نفيس ٩٦
ابن هانئ الاندلسى ١١، ١٤١،
١٤٢، ٢٩٧، ٣٤٧
ابن هشام ١١٤
ابن الهيثم ٦٨، ٦٩، ٧٨، ٧٩،
٨٠، ٨١، ٨٢
ابن الهيثمى المنجم ٧٦
ابن وكيع التنيسى ٢٥٢، ٢٥٤،
٢٥٥، ٢٥٩، ٢٨٥، ٢٨٨،
٢٨٩، ٢٩٠
أبو اسحق ابراهيم القارح الصوفى ٢٨٢
أبو اسحق ابراهيم بن شبيب ٢٧٦
أبو اسحق على بن سليمان المهرى ٢١، ٩٠،
ابو اسماعيل الرسى ٢٥١، ٣١٧
ابو الأسود الدؤلى ٨٩
ابو بكر (الصديق) ١٠٦، ٣٣٠،
٣٥٧، ٣٥٨
ابو بكر احمد بن على ١١٣
ابو بكر الادفوى ٩٥، ٩٦
ابو بكر الانطاكى ٣١
ابو بكر بن البر الصقلى ٩٢
ابو بكر الباقلانى ٥٣

- أبو طاهر الجنابي القرمطي ٣٢٠
أبو طاهر الذهلي ٤٤ ، ٤٩
أبو طاهر الهركي ٣١٢ ، ٣٢٦
أبو العباس أحمد بن مفرج ١٦٧ ، ١٦٨
أبو عبد الله بن الجوهري ٢٨٢
أبو عبد الله الحسين بن الرسي ٢٥١ ، ٢٥٢
أبو عبد الله الحميدي ١١٣
أبو عبد الله الشامي ٨٧
أبو عبد الله الشيعي ٢٢
أبو عبد الله الصوري ٩٣
أبو عبد الله بن القلانسي ٧٥
أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (ن :
ابن السكيناني)
أبو عبد الله محمد بن جعفر التيمي (ن :
القزاز النحوي)
أبو عبد الله محمد بن الحسين الآمدي
١٩٠
أبو عبد الله محمد بن سلامه (ن : القضاعي)
أبو العلاء صاعد بن مفرج ٣٣٣
أبو العلاء المعري ٢٨ ، ٥٩ ، ٦٤ ، ٦٨
٦٩ ، ٩٤ ، ٢٦١ ، ٣٢٣ ، ٣٣٦
أبو علي الداعي ٢٢
أبو علي أحمد بن الأفضل ١٠٥ ، ١٨٩
٣٣٥
أبو علي أحمد بن صدقه ٢٤٧
أبو علي حسن بن اسماعيل (ن : المسكر بل)
أبو علي الحسن بن رشيق ٩٠
أبو علي حسن بن زبيد الأنصاري
١٧٩ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٣٣٩ ، ٢٤٢
٣٤٣ ، ٣٤٤
أبو علي محمد بن الحسن (ن : ابن الهيثم)
- أبو الحسن علي بن قيصر ١٩٧
أبو الحسن علي بن محمد (ن : الأخفش
الشاعر)
أبو الحسن عمار بن محمد ٣٢٢
أبو الحسن المختار بن الحسن (ن : ابن
بطلان الطيب)
أبو الحسن بن مطير الشاعر ١٣٨
أبو الحسن بن النضر (ن : ابن النضر
الأديب)
أبو الحسن الهراس ٩٨
أبو الحسين الصوفي ٧٧
أبو الحسين محمد بن علي الداعي ٢٢
أبو حنيفه النعمان ٣ ، ٤٦ ، ٧٠ ،
١٠٢
أبو حصينه المعري ١٥٥
أبو خالد النيري ٣٣٠
أبو الخير سلامه بن رحمون ٢٦٧ ،
٢٦٨
أبو الرقعمق ٥٧ ، ٥٨ ، ١٦٢ ،
١٦٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ٢٤١ ،
٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ،
٢٥٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٣
أبو سعد التستري ٦١ ، ١٧٦
أبو سعيد الجنابي القرمطي ٣٢٠
أبو سعيد العميدي ٩٩ ، ٣١٢ ،
٣٢٥ ، ٣٢٦
أبو سعيد بن قرفة الطيب ٧٦
أبو سلامه الداعي ٢٣
أبو سليمان داود بن مقدم ٢١٧ ، ٢٦٨
أبو شرف الدجرجوي ١٨١
أبو طاهر اسماعيل بن محمد (ن : ابن
مكثسه)

أبو محمد أحمد بن علي بن خيران (ن) :

(ابن خيران)

أبو محمد حسن بن آدم ٣٢

أبو محمد الكوفي الداعي ٢٣

أبو محمد عبد الكريم الصقلي ٧٦

أبو محمد عبد الله بن برى ٩١

أبو محمد عبد الله بن خليل ٢٩٤

أبو محمد عبد الله بن أبي سعد (ن) :

(الكاسات)

أبو محمد القاسم الرسى ١٧٦

أبو محمد يحيى بن حسن (ن : ابن جبر

الشاعر)

أبو المسكارم بن أبي أسامة ٢١٣

أبو منصور بن الشيرازى ٣٢٤

أبو المنصور عبد الله بن السيد ٦٦

أبو المنصور بن نسطورس ٣١٢

أبو ملبح النصرانى ١٨٨ ، ٢٦٢

أبو النجا بن سند الساعاتى ٧٦

أبو النصر المنجم ٧٦

أبو نصر عبد الله الحسين القيروانى ٥٨

أبو نواس ٢٤٥ ، ٢٦١

أبو الهيجاء ١٩٥

أبو يعقوب (قاضى الخندق) ٣٤

أبو يعقوب الأزرق ٩٦

أبو يعقوب السجستانى ٢٨

أبو يوسف القزوينى ٢٥

أحمد بن إمام ٣٠٢

أحمد بن الحسن الشيرازى ١٠٠

أحمد بن الحسن السكلى ١٧٠

أحمد حميد الدين الكرمانى ١٦ ، ١٩ ،

٢١ ، ٢٥ ، ٢٨ ، ٤٨ ، ٦٩ ،

٨٧ ، ٨٨

أبو علي المعرى الأنطاكى ٩٨

أبو علي المهندس المصرى ٨٣

أبو عمر محمد بن يوسف الكسندى ١٠٨ ،

١٠٩ ، ١١٢

أبو غانم المظفر بن أحمد ٩٦

أبو غفير الداعى ٢٣

أبو الغمر الاسنانى ٢٦٥ ، ٢٧٥ ،

٢٧٦

أبو الفتح محمود بن إسماعيل بن حميد

الدمياطى (ن : ابن قادوس)

أبو الفتح يانس الأرمنى ٣٤٢

أبو الفتح منصور بن مقشر (ن :

منصور بن مقشر)

أبو الفخر داعى الدعاة ٣٤٢

أبو الفرج الذهلى ٣٢٦

أبو الفرج بن الطبيب ٨٦

أبو الفرج الموفقى ٣٢٨ ، ٣٢٩ ،

٣٣١

أبو الفضل جعفر المكفوف ٣١

أبو القاسم الجوهرى الغافقى ١٠٢

أبو القاسم علي بن سليمان بن منجب

(ن : ابن منجب الصيرفى)

أبو القاسم الكناتى ٩٨

أبو القاسم بن هانى ٣٤٧

أبو كاليبجار البويهى ٤٨ ، ٦٠ ، ٦١ ،

١١٦ ، ٣٢٤

أبو كثير بن الزقان ٨٢ ، ٨٤ ، ٨٦ ،

٨٧

أبو كثير بن الحسن بن إسحق ٨٦

أبو المحاسن بن تغرى بردى ٤٣ ،

١٠٨ ، ١١٠

افرائيم بن الزقان (ن: أبو كثير بن الزقان)
الأفضل بن بدر الجمالي ٣١، ٣٢، ٧٦، ٨٧،
٩٢، ١١٣، ١٢٨، ١٣٧، ١٧٧،
١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٥،
١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٠،
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦٢، ٢٣٣، ٣٣٨

افلاطون ٦٤

افلوطين ٢٩٩

اقليدس ٨٠، ٨١، ٨٣

امرىء القيس ٢٠٨

أمية بن أبي الصلت ٨٢، ٨٤، ٨٧،

١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ١٨٣،

١٨٥، ١٨٦، ١٨٨، ١٩٠،

٢٢٩، ٢٤٠، ٢٦٣، ٢٩٢، ٣٣٨

أوليري ٦٨

ايفانوف ١٩، ٤٦، ٥٧

« ب »

البابلي ٣٠٥

الباخرزي ١٣٩

البيحري ١٩٦

البيخاري ١٠

بدر الدولة أبو الفتوح موسى بن الحسين

٣١٢، ٣٢٣، ٣٢٦

بدر الجمالي ١٧٧، ١٧٨

البيديهي ٥٦

البراء بن عازب ٥

برجوان ٢٣٨

البيساسيري ٦٢، ٦٣، ٦٥، ١١٦،

٣٢٦، ٣٢٧

بشار بن برد ١٩٦

بطليموس ٨، ٧٧، ١١٧

احمد بن سهل البلخي ٣٣٧

احمد بن طولون ٣٠٢

احمد ابن عبد الله (الإمام المستور) ٣

احمد بن عبد الله بن أبي العصام ٢٤٥

احمد بن عبد الله الفرغاني ١٠٨

احمد بن السكيال ١٥

احمد بن محمد بن الفضل الالهوازي

٣٣٧

احمد بن محمد القشوري ٣١٣

احمد بن محمد المادرائي ٢٧٤

احمد بن محمد بن مودود (ن: ابن

عبد كان)

احمد بن محمد النحاس: ن أبو جعفر النحاس

احمد بن محمد يوسف الاصفهاني ٣٣٧

احمد بن مطرف ٩٣

احمد بن الموصلى الداعي ٢٣

احمد بن يحيى البلاذري ٢٠٣

الاخفش ١١٩، ١٥٣، ٢١٣، ٢٧٥،

اخوان الصفا ٦٩، ٧٢

ادريس الداعي ٤٥

ارسطاليس ٦٤

اسامه بن منقذ ٢٣٢، ٢٣٤

إسحق بن إبراهيم بن نسطاس ٦٨

إسحق بن نصير العبادي ٣٠٢

أسد الدين شيركوه ١٩٩، ٢٠٢،

٢٢٣، ٢٣٦

الاسكندراني الشاعر ١٤٢

اسماعيل بن ابراهيم ٦

اسماعيل بن جعفر الصادق ٣

اسماعيل بن خلف الصقلي ٩٦

الأصمعي ١٩٦، ٣٣٠

الأعمش ٥٥

« ث »

الثعالبي ٢٨٨، ٢٥٢، ٢٥١، ١٣٩، ٤٩
الثغوري ٢٨
ثلط الفيل أبو الحسين النحوي ٩١
ثمال بن صالح ٣٢٦
ثيودورا ١١٢

« ج »

الجاحظ ٣٣١، ٣٣٠، ٢١٤، ١١٩
جاسوس الفلك الشاعر ١٧٦
جالينوس ٨٥، ٨٤، ٨٢
جبرائيل بن تحتيشوع ٦٨
الجرجران ٣٠٥، ١٧٦، ١١٢، ٧٧
جرجس بن يوحنا ٨٥
جعفر (الصادق) ٤٠، ٣٥، ٣
جعفر بن السراج ٩٩
جعفر بن الفرات (ن: ابن حنزابه)
جعفر بن منصور اليميني ٣١٩، ٧٣، ٢٢
الجليس بن الحباب ١٩٥، ١٩٤، ١٣٩
٢١٦، ٢١٥، ٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠
٢٦٧، ٢٢٦، ٢٢٤، ٢١٩، ٢١٧
٣٤٥، ٣٤٢، ٣٣٩
جمال الدين عبدالرحمن الاسكندري ٩٩
جناده الهروي ٩٨، ٩٠، ٣١
جوئيل ٤٣، ٤٢
جوذر الصقلي ١١٥، ١١٤، ٢٩
٣٠٩، ١٧٠، ١١٦
جوهر الصقلي ٣١٦، ١٠٠، ٥١، ٢٣
٣٥٥، ٣١٧
جواد الخثعمي ٢٣

بنو أمية ٢٢٠

بنو حرب ٢٢٠

بنو رزيك ١٩٤

بنو عبد الحكم ٤٢

بنو عرام ١٣٩

بنو عبيد ٣٠٥، ٣٠٤، ٢٠٣

بنو السكندر ١٣٩

بنو مروان ٢٢٠

بنو المغربي ٣٠٥

بنو النعمان ٤٢

البهاء زهير ٢٧٢

بهاء الدين القفطي ٣٥٨

البهرة ١٣٥، ٦٤، ٤٦، ٤٢، ١٩

١٦٢، ١٦١، ١٢٦

بزاد النجيري ٩١

البوصيري ١١٣

البويهوني ٦٩

البيهقي ٨٠، ٨٩

« ت »

تاج الدين السكندري ٢٢٢

تاج المعالي (غلام الأفضل) ١٧٧

التاريخ ٢٦٢

تميم بن المعز ٧٤، ١٣٢، ١٤٦

١٦٨، ١٦٤، ١٦٣، ١٤٨، ١٤٧

١٧٣، ١٧٢، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩

٢٤٩، ٢٤٧، ٢٢٧، ٢٠٨، ١٧٤

٢٨٧، ٢٨٠، ٢٥٤، ٢٥١، ٢٥٠

٢٩٧، ٢٩١، ٢٩٠

التميمي المقدس ٥٦

الحسين بن أبي الهيثم ١٠٦
الحسين بن أحمد (الإمام المستور) ٢٢، ٣
حسين بن أحمد المؤذن ٢٠
الحسين بن جوهر ٣١٣، ٥٣
الحسين بن الحجاج ٢٦٣، ٢٤٢
الحسين بن حوشب (ن: منصور اليمن)
حسين بن طاهر الوزان ٣١٣
الحسين بن عبد الرحيم بن الوليد [ن :
ابن أبي الزلازل]
الحسين بن عبد الله المعري [ن :
أبو حصينة المعري]
الحسين بن علي بن أبي طالب ٤، ٣، ١٢٣،
٣٥٨، ٣١٦، ١٦٤، ١٤٢، ١٢٤
الحسين بن علي بن النعمان ٥٢، ٣٢٢
الحسين بن مهاجر ٣٠٢
حنين بن إسحق ٨٦

« خ »

خالد بن الوليد ٣٣٠
الخطيب التبريزي ٩١، ٩٨، ١١٣
الخطير بن الموفق في الدين ٢٨
الخايل بن أحمد ٢٧، ٧٠

« د »

الدارقطني ٩٧، ٨٨
داود بن شعبان الفاطمي ٣٥٧
الدرزي ٢٥، ٨٧
دعبل الخزاعي ١٨٦
دي بور ٨٠، ٨١، ٨٢

« ذ »

الذكي النحوي محمد بن أبي الفرج ٩٣
ذهل بن شيبان ٢٤٢

« ح »

حاتم بن ابراهيم ٦٤
الحافظ أبو الحسن علي بن فاضل
الصوري ٩٩
الحافظ السلفي ٩٥، ٩٦، ٩٨، ٩٩
١٠١، ١٠٥، ١١٣، ١٩٠
٢٢٢، ٢٢٤
الحافظ شرف الدين السكندري ٩٩
الحافظ لدين الله الفاطمي ٢٤، ٧٢
١٨٩، ١٦٨، ١٥٤، ١٥٣، ٧٦
٣١٣، ٣١٢، ٣٠٤، ٢٢١، ٢١١
٣٤٤، ٣٤٢، ٣٣٥
الحاكم بأمر الله ١٥، ٢٣، ٢٥، ٣٠
٣١، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٦٠، ٦٨
٦٩، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨٠، ٨٥
٨٧، ٩٤، ٩٨، ١٠٠، ١٠٣
١٠٤، ١١٠، ١١٦، ١٣٣، ١٣٤
١٣٦، ١٦٦، ١٦٩، ١٧٦، ٢٤٠
٢٥٩، ٣١٢، ٣١٣، ٣١٤
٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٣
حسان عرقلة الشاعر ٢٠٢
الحمن بن ابراهيم اللبثي (ن: ابن زولاق)
الحسن بن أحمد القرظي ٣١٤، ٣١٧، ٣١٨
الحسن بن بشر الدمشقي ٥٨، ١٧٠
حسن بن الحافظ الفاطمي ١٨٨، ٣٤٢
الحسن بن خاقان ١٧٦
الحسن بن رافع ٣٠٢
الحسن بن رشيق ٩٧
الحسن بن علي بن أبي طالب ٣، ٤
١٢٣، ١٢٤، ١٤٢، ٣٥٨
الحسن بن محمد الشهواجي ٢٤٥

سليمان بن الفيض الاسكندردي ٨٧ ،

١٨١

سنة الملك أبو محمد الحسن الزبيدي

٣٣٣ ، ٣١٣

سند بن عفان الأزدي ١٠٢

سهل بن محمد بن الحسن الصوفي ٢٨٢

سهلون المنجم ٨٦

سهبويه ٧٠

السيوطي ٣١ ، ٩٥ ، ١٠٠ ، ١٠٨ ،

١١٠

« ش »

الشافعي ٣ ، ٤٦ ، ٧٠ ، ١٠١ ،

٢٨٣ ، ١٠٢

شاور السعدي ١٠٥ ، ١٣٨ ، ١٧٨ ،

١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ،

٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٣ ، ٢٣٦ ،

٣٤٥

الشريف الكبير العجمي ٣٢٣

الشريف المرتضى ٣٢٤

الشريفة بنت الحافظ ١٢٩

الشمس الأمري ٣٥٧

شمس الملوك مظفر ٣٢٤

شمعون الصفا ٦

الشهرستاني ١٥

شيث بن آدم ٧٣

« ص »

صالح بن رشد بن ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

٢٤٧ ، ٢٥٤

صالح بن علي بن مؤنس (ن: الروزباري)

صريع الدلاء ٢٦٠

ذو الرقاعتين (ن: صريع الدلاء)

ذو النون المصري ٢٩٩

« ر »

رابعة العدوية ٢٨٤

رزق الله المنجم ٨٢

رزيك بن الملك الصالح ١٢٧ ، ١٩٨ ،

١٩٩ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥

الرشيد بن الزبير ١٣٨ ، ١٩٥ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،

٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢٦ ،

٢٥٩ ، ٢٦٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٨ ، ٢٧٧ ،

رضوان الوزير ٢٧٥

الروزباري ٢٤٠ ، ٢٤٤ ، ٣٠٢ ، ٣١٣ ،

رينولد ٢٣٤

« ز »

زرعه بن عيسى بن نستورس ٣١٣

زياد بن أبيه ٢٢٠

زيد بن وهب ٥٥

« س »

سالم بن مفرج ١٧٩

سام بن نوح ٦

سانت اوغسطين ١٠

السخاوي ٣٥٧

السعيد بن ظفر ١٩٠

سلامه بن رحمون ٨٢ ، ٨٤ ،

سلطان بن ابراهيم بن مسلم ١٠١

سليمان بن جعفر ٢٤٥ ، ٢٤٦ ،

سليمان بن العاضد ٣٥٧

١٩٣ ، ٢٠٨ ، ٢٧٧ ، ٢٨٨ ،
٢٨٩ ، ٢٩١
الظاهر الفاطمي ٩٩ ، ١٠٥ ، ١٥٣ ،
١٩٣ ، ٢١٠ ، ٢١١ ، ٣٤٢
الظاهر الفاطمي ٤٨ ، ٥٧ ، ٨٢ ،
١٠٤ ، ١٤٢ ، ١٦١ ، ١٧٦ ،
٢٣٨ ، ٢٤٠ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ،
٣١٢ ، ٣١٣ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤

« ع »

العادل بن الحسن بن السلار ٩٩
العاقد الفاطمي ١٥٣ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦٠ ، ٢١١ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،
٣١٣ ، ٣٤٣
العباس بن أحمد بن طولون ٣٢٠
عبد الجبار أحمد الطرسوسي ٩٦
عبد الجبار بن محمد المغافري ٩٤
عبد الجليل بن مخلوف الصقلي ١٠٢
عبد الحميد الكاتب ٣٣٧
عبد الرحمن بن إسماعيل العروضي ٩١
عبد الرحمن بن عبد الله بن الحكم
١٠٨ ، ١١٢
عبد الرحيم البيهقي (ن: القاضي الفاضل)
عبد السلام بن محمد بن بندار ٢٥
عبد العزيز بن علي بن محمد (ن:
ابن الإمام)
عبد العزيز بن محمد بن النعمان ٢٤ ،
٣١ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣
عبد الغني بن سعيد ٣١ ، ٩٠ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
عبد الله بن أبي الجوع ٥٧ ، ١٧٤ ،
٢٤٤ ، ٢٤٥
عبد الله بن أبي شعيب الأندلسي ٩٤

صلاح الدين الأيوبي ٢٤ ، ٢٧ ،
١٩٩ ، ٢٠١ ، ٢٠٢ ، ٢٠٨ ،
٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٣١٣ ،
٣١٤ ، ٣٥٣ ، ٣٥٧
الصليبيون ١٨٣
الصليحيون ٥٩
صناعة الدوح الشاعر ١٦٦
صنجل ٢٣٠
الصولي ٣٣٧

« ض »

ضرغام ١٣٨ ، ١٧٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ،

« ط »

طاهر بن غلبون ٩٦
طبطب المحرر ٣٠٢
طغرلبك السلجوقي ٦٢ ، ٦٣ ، ١١٢ ،
طلائع الأمري ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
طلائع بن رزيك ٦٩ ، ١٠٣ ، ١٠٦ ،
١٠٧ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٥٤ ،
١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٧٨ ،
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
١٩٧ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠٣ ،
٢٠٤ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،
٢١٥ ، ٢١٩ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ،
٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٤ ، ٢٧٩ ،
٢٣٨ ، ٣٣٩ ، ٣٤٢ ، ٣٤٥
طلي بن شاور ١٣٨
« ظ »
ظافر الحداد ٨٧ ، ١٣١ ، ١٣٢ ،
١٣٨ ، ١٧٩ ، ١٨١ ، ١٨٣ ،
١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢ ،

عقيل بن المعز لدين الله ١٧٠
علاء الدين علي بن احمد الأسفوني ٣٥٧
علقمة بن عبد الرزاق العليمي ١٧٨
علم الدولة مقرب بن ماضي ٢٧٦، ١٩٠
علي بن أبي طالب ٣، ٤، ٥، ٦، ٧
٨، ١٠، ١٤، ١٦، ٢٣، ٣٤
٣٧، ٤٠، ٧٣، ١٢٣، ١٢٤
١٣٣، ١٤٢، ١٤٧، ١٥١، ١٥٢
١٥٧، ١٦١، ٢٠٣، ٣٠٧، ٣٠٨
٣١٥، ٣١٦، ٣٢٢، ٣٥٨
علي بن احمد الجرجاني (ن: الجرجاني)
علي بن احمد المادرائي ٣٠٢
علي بن احمد المهلبي ٩٠
علي بن حاتم الهمداني ٢١١
علي بن الحسن الفهري ١٠٢
علي بن رضوان (ن: ابن رضوان الطيب)
علي بن عباد الاسكندردي ١٨٩
علي بن الفضل الداعي ١٥
علي بن محمد الصليحي ١٣٥، ٣١٠
علي بن محمد النبيلي ٢٩٣
علي بن المؤمل الشاعر ١٣٨، ٢٧٨
علي بن منصور (ن: ابن القارح)
علي بن النعمان ٤٩، ٥٠، ٥٣
علي بن يوسف الإيادي ٢٩٢
علي أبو الحسن بن يونس ٧٦
علي زين العابدين ٣
العماد الأصفهاني ١٢٨، ١٣٨، ١٣٩
١٤١، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤
١٩٧، ٢٠٤، ٢١٠، ٢٣١، ٢٦٥
٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٢، ٢٨٣
٣٢٨، ٣٣٨، ٣٤٢، ٣٤٣، ٣٤٤
عماد الدولة أبو الفضل بن المحترق ٢٨

عبد الله بن الحسن السمرقندي ٥٠
عبد الله بن دهبان ١٠٩
عبد الله بن رفاعه السعدي ١٠١
عبد الله بن عبد المطلب ٧
عبد الله بن محمد بن إسماعيل (الإمام
المستور) ٣
عبد الله بن مسعود ٥٥
عبد الله بن المعز لدين الله ١٧٠، ١٧١
عبد الله بن ميمون القداح ٣
عبد الله الحسين بن ابراهيم ٥٥
عبد القادر بن مهذب الأدفوي ٣٥٨
عبد المطلب بن هاشم ٣، ١٣٣
عبد الوهاب بن حسن بن جعفر ٢٩١
عبد الوهاب بن علي المالكي ٦٧، ١٠٢
١١٣
عبد الله بن أبي إسحق ٨٩
عبيد الله المهدي ٤، ١٥، ٢٢، ٢٣
٤٣، ٤٤، ٤٤، ١١٤، ١١٥
عثمان بن عبد الرحيم (ن: ابن بشرون)
عثمان بن عفان ٣٥٨
عثمان بن علي السرقوسي ٩٧
العزير بالله الفاطمي ٢٣، ٢٤، ٢٧
٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٥، ٥٦، ٥٧
٥٨، ٥٩، ٦٨، ٧٢، ٧٥، ٨٣
٩٠، ١١٦، ١٣٢، ١٤٢، ١٤٣
١٤٤، ١٤٦، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤
١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٧١، ١٧٢
١٧٥، ١٧٧، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٨
٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٩، ٣١٢
٣١٣، ٣١٤، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٣٢
عضد الدولة البديهي ٧٧، ٣١٤
عقيل بن أبي طالب ٢٥٥

« د »

القاسم بن العزيز بن النعمان ٥٣
قاسم بن هاشم ٢١٩
القاضي الفاضل ٢٧، ١٠٥، ١٣٨، ١٨٧
١٩٩، ٢٢٤، ٣٠٤، ٣١٣، ٣١٤
٣١٥، ٣٢٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٥٣
٣٥٤
القاسم بأمر الله الفاطمي ٢٣، ٤٤، ١١٤
١١٥، ١٣٠
قتيل الغواني (ن: صريع الدلاء)
القرامطة ١٥، ٥٠
القرزاز النحوي ٩٠
القضاعي ٧٧، ٩٢، ٩٣، ١٠١، ١١٢
١١٣، ٣٢٧
قطنبه الاسفوني ٣٥٧
القفطي ٧٦، ٨٢، ٨٤، ١٨٣
القلمى ٧٦
القلقشندى ٢٤، ١٠٨، ١١٠، ١٦٠
١٦١، ٣٠٢، ٣١١، ٣١٤، ٣٣٧
القليوبي الكاتب ٢٥٩

« د ك »

كارلو نالينو ٧٧
كافور الاخشيدي ٥٤، ٥٥، ٩٠، ١٧٦
الكافي ابن عبدون النصراني ٣١٣
الكاسات الشاعر ٢٦٢
الكامل بن شاور ١٠٥، ١٧٨، ٢٠٨
٢٠٩، ٢٢٤
كشاجم ٢٤٣، ٢٤٥
الكمال الادفوى ٣٥٧، ٣٥٨

عمار بن وثيمة ١٠٨

عمار بن اليميني ٦٩، ١٠٣، ١٠٥، ١٠٦
١٠٧، ١١٩، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٧
١٣٨، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٥٩
١٦٠، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩
٢٠٠، ٢٠١، ٢١٥، ٢١٧، ٢١٩
٢٢٠، ٢٢١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٦
٢٣٧، ٢٩٢، ٣٤٥، ٣٤٨
عمر بن الخطاب ٥، ١٠٦، ٣٥٨
عيسى بن مريم ٦، ١٨، ١٣٦، ١٥١
١٥٢

« د غ »

الغزالي ٦٧، ٩٩، ١٠٤
غسان ٢٠٣

« د ف »

الفارابي ٦٩
فارس بن احمد بن موسى الضير ٩٦
فاطمة الزهراء بنت الرسول ١٢٣،
١٢٤، ١٣٣، ١٤٢، ٣٥٨
الفائز الفاطمي ١٥٣، ١٥٧، ٢١١،
٢١٥، ٢١٩
الفرزدق ٣٣٠
الفضل القائد ٥٨
الفقيه الشاعر (ن: النسناس)
الفلاحى ٦١، ٦٨، ١٧٦، ٣٠٥
فهد بن ابراهيم ٢٣٨
الفيثاغوريون ١٧، ١٨
فيروز الداعي ٢٢
فيلون ١٠

محمد أبو عبد الله ٤٣
محمد بن احمد الجرجاني ٩٢
محمد بن احمد بن سعيد التيمي ٨٤
محمد بن احمد بن محمد العميدى (ن :
أبو سعيد العميدى)
محمد بن احمد بن عيسى البغدادي ١٠٠
محمد بن احمد اليازورى (ن : اليازورى)
محمد بن اسماعيل (ن : التاريخ الشاعر)
محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ٣
محمد الباقر ٣ ، ٣٦
محمد بن بركات بن هلال السعدى ٩١ ،
١١٢ ، ١١٣
محمد بن برى ٩٢
محمد بن الحسن العسكري ٤
محمد بن الحسن اليمنى ٢٤٥
محمد بن الحسن بن عمير ٩٢
محمد بن حميد بن حيدر ٩٢ ، ٩٥
محمد رضا مدور بك ٨١
محمد بن زبان ٩٦
محمد بن زكريا الرازى ٨٦
محمد بن سعيد بن هشام (ن : ابن ملساقه)
محمد بن عاصم ٢٩٠
محمد بن عبد الله بن ظفر المسكى ٩٣
محمد بن عبد الله بن محمد العنقى ٧٥
محمد بن علي أبو سهل الهروى ٩٢
محمد بن علي الهاشمى (ن : أبو الغمر الاسنانى)
محمد بن عيسى اليمنى ٢١٠
محمد بن القاسم (ن : صناجة الدوح)
محمد بن القاسم بن النعمان ٥٣
محمد بن كلا ٣٢٠
محمد السكرينى ٢٤٠
محمد بن النعمان ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢

كوبرينيقوس ٧٧
السكينانية ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥

« ل »

لقمان ٢١٣
ملك بن مالك ٥٩ ، ٦٥
لورنس ٦٢

« م »

ماسينيون ٤٢
مالك بن أنس ٣ ، ١٢ ، ٤٦ ، ٧٠ ،
١٠٢
مالك بن سعيد الفاروقى ٣١٣
المأمون البطائحي ٣٢ ، ٧٦ ، ٨٧ ، ١١٣ ،
١٢٤ ، ١٢٥ ، ٢٣٨
المأمون العباسى ١٠
مبشر بن فاتك ٨٢ ، ٨٤
المتنبى ٩٠ ، ٩١ ، ١٨٦ ، ٢٠٨ ، ٢٤٥ ،
٢٩٧
مجلى بن جميع الخزومى ١٠١
مجير بن محمد الصقلى ١٢٩ ، ٢٨٨
محسن بن بدوس ٣٢٣
محمد (صلى الله عليه وسلم) ٣ ، ٤ ،
٦ ، ٧ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٨٠ ،
٢٤ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ،
٣٨ ، ٤٠ ، ٥٥ ، ٨٣ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
١٣٣ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ،
١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ،
١٦١ ، ١٦٧ ، ٢٠١ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ،
٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٥ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ،
محمد أبو بكر بن علي بن حسن ٩٧ ، ٩٨

١١٦، ١١٥، ١١٤، ١٠٥، ٩٠
١٦٨، ١٤٥، ١٣٢، ١٣١، ١٣٠
٢٩٢، ٢٥٠، ١٧١، ١٧٠، ١٦٩
٣١٦، ٣١٤، ٣١٠، ٣٠٩، ٣٠٦
٣٥٦، ٣١٩، ٣١٨، ٣١٧
معز الدولة البويهى ٢٢٧
معضاد القائد ٣٢٣
المقريزى ٢٤، ٢٧، ٣١، ٥٧، ٧٦
١٢٦، ١٢٣، ١١٣، ١١٢، ١٠٨
٢٤٠، ٢٣٨، ٢٣٠، ١٩٨، ١٧٥
٣١٦، ٣٠٣، ٢٨٢، ٢٥٨، ٢٥٧
٣٢٢، ٣٢٤، ٣٢٣، ٣٢٢، ٣٢١
٣٤٢
المسكر بل الشاعر ٢٦٤، ٢٦٥
مكى بن أبى طالب ٩٦
المنصور بالله الفاطمى ١٦، ٢٣، ٤٤
١٣٠، ١١٥، ١١٤، ٧٥، ٧٤
٣٠٨
منصور الجوزى العزى ٢٩، ١١٦
منصور بن مقشر ٨٣، ٦٨
منصور العين ١٥، ٢٢، ٣١٩
المهذب بن الزبير ١٣٨، ١٣٩، ١٩٥
٢٠٣، ٢٠١، ٢٠٠، ١٩٧، ١٩٦
٢١٠، ٢٠٩، ٢٠٨، ٢٠٦، ٢٠٤
٢١٩، ٢١٧، ٢١٥، ٢١٣، ٢١١
٣٤٥، ٢٩٣، ٢٧٦، ٢٣١، ٢٢٦
المهذب بن النقاش ٦٦
موسى بن الحسن (ن: بدر الدولة
أبو الفتوح)
موسى بن عمران ٥، ٦، ٨، ١٦، ١٨
٥٣
موسى بن العيزار ٨٤

محمد بن محمد اليماني ١١٣
محمد بن وهب ٢٧٨
محمد بن يحيى بن مزاحم ٩٣
محمود بن ناصر الاسكندراني ١٦٨، ١٧٩
المختار تاج المعالي ١٧٩
المختار عز الملك محمد بن أبى القاسم (ن:
المسيحي)
مرجوايوس ٥٩
مروان بن أبى حفصه ١٢٨، ١٩٦
مروان بن عمان السكى ١٧٩، ٢٧٣
٢٧٤
المروزي الداعي ٢١٩
مرى ٢٠١، ٢٢٧
المسيحي ٢٤، ٢٧، ٢٨، ٣٠، ٣١
٤٤، ٥١، ١١٠، ١١٢، ١٧٧
٢٣٨، ٢٣٩، ٣٢١
المستعلي بالله الفاطمى ٢٢٩، ٣٣٤
المستنصر بالله الفاطمى ٢٤، ٢٨، ٦١
٦٢، ٦٣، ٨٢، ٨٦، ٩٤، ١٠٤
١٠٥، ١١٦، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦
١٣٨، ١٤٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١
١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٦١
١٧٦، ١٧٧، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٩٤
٣٠٤، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٣، ٣٢٢
٣٢٤، ٣٢٥، ٣٣٢، ٣٣٤
مسعود الدولة (ن: ابن حريز)
مسيهله السكنداب ٣٢٩، ٣٣٠
مشرفه باشا (الدكتور) ٨١
مصطفى نظيف بك ٨١
المعز لدين الله ١١، ١٥، ٢٢، ٢٣
٢٦، ٤٤، ٤٥، ٤٦، ٤٩، ٥٥
٦٦، ٧٢، ٧٣، ٧٤، ٧٥، ٨٤

١١٣ ، ١٠٤ ، ٧٤ ، ٧٣ ، ٦٦
٣١٩ ، ٣٠٩ ، ١٥٣
نوح ٦ ، ١٨ ، ٣٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ،
نور الدين زنكي ١٩٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
٢٣٤
النويري ١٠٨ ، ١١٠ ،
نيوتن ٨١

« ه »

ها بيل بن آدم ٦
هارون ٦
الهاروني الحسيني ٨٧
هبة الله بن البدر (ن: ابن الصياد)
هبة الله بن صدقة ١١٣
هبة الله بن علي بن عرام ٢٧٥
هبة الله بن موسى (ن: المؤيد في الدين)
هفتكين الشرايبي ٢٢٧
هلال بن المحسن ٣٢٥
هو ميروس ١١٨

« و »

الواساني الشاعر ١٣٤
ورش ٩٦
ولي الدولة أحمد بن علي (ن: ابن خيران)
لوصي (ن: علي بن أبي طالب)
الوضيع الشاعر ٢٦١

« ي »

اليازوري ٤٦ ، ٥٣ ، ٦١ ، ٩٢ ، ١١٢ ،
٣٢٧ ، ٣٢٦ ، ٣٠٥
ياسر بن بلال ٢٢٢ ، ٢٢٤ ،

الموفق بن الخلال ١٩٥ ، ٢١٥ ، ٢١٩ ،
٣٤٤ ، ٣٤٣ ، ٣١٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤
٣٤٧ ، ٣٤٥
المؤيد في الدين (داعي الدعوة) ٨ ، ٤ ،
١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ،
٢٧ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٣ ،
٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ٦٥ ،
٦٩ ، ١٠٢ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١٣٥ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥١ ، ١٥٤ ،
١٥٨ ، ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٥ ، ١٦٦ ،
٢٤١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،

« ن »

الناجي المصري الشاعر ١٧٩ ، ١٨٩ ،
الناصر بن طلائع (ن: رزيك بن الملك
الصالح)
ناصرى خمسر ٦٥ ، ٢٣٩ ، ٢٨٩ ،
ناصر الدولة ابن حمدان ٢٨
النبي (ن: محمد صلى الله عليه وسلم)
نجيم الدين أيوب ١٦٠
نجيب الدولة الجرجرائي ٣٢٣
نزار بن المعز (ن: العزيز بالله الفاطمي)
النسائي ٩٧
النسناس ٢٦٢
نصر بن بشر بن علي ١٠٠
نصر بن صدقة القابسي ٩٤
نصر بن عبد الرحمن الفزاري ١٣٨
نصر المقدسي ١٠١

النعمان بن محمد (القاضي) ١٢ ، ١٥ ،
٢٦ ، ٣٤ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ،
٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٦٠ ،

يعقوب بن اسحق ٣٠٢	ياقوت الحموي ٥٦ ، ٩٠ ، ٩٦ ، ١١٠
يعقوب بن كلثوم ٢٤ ، ٥١ ، ٥٤ ، ٥٥	١٨١ ، ١٩٦ ، ٢٠٣ ، ٣٢٢
١١٠ ، ٨٤ ، ٥٩ ، ٥٨ ، ٥٧ ، ٥٦	٣٢٤ ، ٣٢٦ ، ٣٣٨
٣١٤ ، ١٧٦ ، ١٧٥ ، ١٧٤ ، ١٣٨	يحيى بن تميم بن باديس ١٧٩
يوسف بن عبد العزيز بن علي الميورقي	يحيى أبو سالم بن الاجرب (ن : ابن
١٠١	أبي حصينه الشاعر)
يوسف بن علي ١٣٤	يحيى بن علي السكتي (ن : الوضع
يوسف بن يعقوب النجيري ٩١	الشاعر)

المصادر والمراجع

- اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الخلفاء للمقرئ : طبع دار الفكر العربي
 أخبار الدول المنقطعة للخزرجي : نسخة فتوغرافية بدار الكتب
 إخبار العلماء بأخبار الحكماء لابن القفطي : طبع القاهرة ١٣٢٦
 أسرار النطقاء لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتي
 الإشارة إلى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفي : طبع القاهرة سنة ١٩٢٤ م
 إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقرئ : « » سنة ١٩٤٠ م
 افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد المغربي : نسخة خطية بمكتبتي
 أنباء الزمن في أخبار اليمن ليحيى بن الحسين : طبع برلين سنة ١٩٣٦ م
 الانتصار لابن الخياط : طبع القاهرة
 الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقاق : طبع بولاق سنة ١٣٠٩ هـ
 بحار الأنوار للمجلسي : طبع حجر بتبريز
 بدائع الزهور لابن إياس : طبع بولاق سنة ١٣١١ هـ
 بغية الوعاة للسيوطي : طبع القاهرة
 تاج العروس
 تاريخ ابن الأثير
 تاريخ ابن خلدون
 تاريخ مصر لابن ميسر
 تاريخ ابن صالح الأرمني : طبع أكسفورد سنة ١٨٩٤ م
 تاريخ الإسلام للذهبي : نسخة خطية بدار الكتب
 المصرية رقم ٤٢ تاريخ
 تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام لبندلي جوزي
 تجارب الأمم لمسكويه
 تأويل دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد : نسخة خطية بمكتبتي
 التمهيد في الرد على الملاحدة والشبهة للباقلاني : طبع دار الفكر العربي
 تفسير الآلوسي

تفسير الخازن

تفسير الطبري

تفسير القرطبي

التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع لأبي الحسن الملقب

: طبع باستامبول سنة ١٩٣٦ هـ

: الجمع بين آراء الحكميين للفارابي

: حسن المحاضرة للسيوطي

: الحضارة الإسلامية ترجمة الدكتور محمد

: عبد الهادي أبو ريده

: نسخة فوتوغرافية بمكتبة

: خريدة القصر للعماد الأصبهاني

جامعة فؤاد

: خزائن الأدب لابن حجة الحموي

: نسخة خطية بالمكتبة الأهلية

: دستور المنجمين لمؤلف مجهول

بياريس رقم ٥٩٦٨

: نسخة خطية بمكتبي

: دعائم الإسلام للقاضي النعمان بن محمد المغربي

: طبع حلب سنة ١٩٣٠

: دمية القصر للباخرزي

: صورة فتوغرافية بدار الكتب

: الدول المنقطعة لابن ظافر

رقم ١٩٠

: طبع القاهرة

: ديوان الرسائل لابن منجب الصيرفي

: نسخة خطية بمكتبي

: ديوان الأمير تميم

: طبع بجريدة الأهرام

: ديوان ابن قلاؤس تحقيق خليل مطران

: طبع القاهرة

: ديوان ابن هانيء الأندلسي تحقيق زاهد علي

: من سلسلة مخطوطات الفاطميين

: ديوان المؤيد في الدين داعي الدعاة

(تحقيق محمد كامل حسين)

: نسخة خطية بالمكتبة الأهلية

: ذخيرة الأعلام بتواريخ خلفاء مصر

بياريس رقم ١٨٥٠

: من مطبوعات الجمعية الإسماعيلية

: راحة العقل لأحمد حميد الدين الكرمانى

(تحقيق محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمي)

- الرد على الباطنية للغزالي : طبع ليدن سنة ١٩٢٦
رسائل إخوان الصفا : طبع القاهرة
الرسالة المصرية لأمية بن أبي الصلت : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رسالة الرشد والهداية لمنصور اليمن : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
(تحقيق محمد كامل حسين)
رسائل الكرماني (ثلاث عشرة رسالة) : نسخة فتوغرافية بمكتبتي
الرسائل المستنصرية : نسخة خطية بمكتبة مدرسة اللغات
الشرقية بلندن
رفع الإصر عن قضاة مصر لابن حجر : نسخة خطية بدار الكتب المصرية
رقم ١٠٥
روضة الأدب في طبقات شعراء العرب للشهاب الحجازي : طبع حجر بمبای
الروضتين في أخبار الدولتين لأبي شامة المقدسي : طبع القاهرة سنة ١٢٨٧ هـ
سراير النطقاء لجعفر بن منصور : مخطوط بمكتبتي
سفر نامه لناصري خسرو وترجمة الدكتور يحيى الخشاب : طبع القاهرة
سيرة الأستاذ جوذري : نسخة خطية بمكتبتي
سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
(تحقيق محمد كامل حسين)
صبح الأعشى للقلقشندي
الطالع السعيد للأدفي
عقد الجمان للعينی
طبع القاهرة سنة ١٩١٤ :
نسخة خطية بدار الكتب
المصرية رقم ١٥٨٤
عيون الأنباء لابن أبي أصيبعة : طبع القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ
عيون المعارف ورياض كل متبصر عارف : طبع بمبای سنة ١٢٩٧ هـ
عيون المعارف وفتون أخبار الخلائف للقضاعي : نسخة خطية بدار الكتب
المصرية رقم ١٧٧٩
الغيث المنسجم للصفدي : طبع القاهرة
الفاطميون في مصر الأستاذ الدكتور حسن إبراهيم حسن

- الفترات والقرانات لجعفر بن منصور اليمن : نسخة خطية بمكتبتى
فتوح البلدان للبلاذرى : طبع القاهرة
الفخرى فى الآداب السلطانية لابن طباطبا : طبع القاهرة
فرق الشيعة للنوبختى : طبع استامبول سنة ١٩٣١
الفرق بين الفرق للبغدادى : طبع القاهرة
الفصل لابن حزم : طبع القاهرة
فضائل مصر لابن زولاى : نسخة خطية بمكتبة الأزهر
فضائل مصر للكندى : نسخة خطية بدار الكتب
المصرية رقم ٧٥٣
الفهرست لابن النديم : طبع القاهرة
فهرست كتب الشيعة للطوسى : طبع كلكتا سنة ١٨٥٥
فوات الوفيات لابن شاكر : طبع القاهرة
القاموس المحيط
الكشاف للزمخشرى
كشف أسرار الباطنية لابن مالك الخماوى : طبع القاهرة سنة ١٩٣٩
الكشف لجعفر بن منصور بتحقيق ستروتمان : طبع القاهرة
كنوز الفاطميين للأستاذ الدكتور زكى محمد حسن
لسان العرب
المجالس المؤيدية للتويد فى الدين داعى الدعاة : نسخة خطية بمكتبتى
(ثمانمائة مجلس)
المجالس والمساربات للقاضى النعمان بن محمد المغربى : نسخة خطية بمكتبتى
المجالس المستنصرية بتحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
- طبع دار الفكر العربى
بمجموع أشعار الاسماعيلية : نسخة خطية بمكتبتى
مرآة الزمان لسبط ابن الجوزى : نسخة خطية بدار الكتب
المصرية رقم ٥٥١ تاريخ

- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري : نسخة خطية بدار الكتبة المصرية
المسالك والممالك لابن حوقل
معرفة أخبار الرجال للسكشي
المغرب في حلى المغرب لابن سعيد
مقالات الاسلاميين للأشعري
المقفي الكبير للمقریزی
- نسخة خطية بالمكتبة الأهلية :
بيارس رقم ٢١٤٤
الممل والنحل للشهر ستاني
معجم الأدباء لياقوت
معجم البلدان لياقوت
مقولات الهند للبيروني
- المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار للمقریزی : طبع القاهرة
النجوم الزاهرة لابن تغري بردی
نظرية المثل والممثل للدكتور محمد كامل حسين : طبع القاهرة سنة ١٩٤٨
نقد العلم والعلماء لابن الجوزی
النسكت العصرية لعمارة النبي
نهاية الأرب للنويری
- بيارس
الهداية الآمرية بتحقيق الأستاذ آصف فيضي : نشر جمعية الدراسات الإسلامية
بالهند
- الهمة في آداب اتباع الأئمة بتحقيق محمد كامل حسين : من سلسلة مخطوطات الفاطميين
طبع دار الفكر العربي
وفيات الأعيان لابن خلكان
الولاية والقضاء للسكندی
يتيمة الدهر للشعالي
- طبع القاهرة :
طبع بيروت سنة ١٩٠٨ :
طبع بيروت :

المصادر والمراجع الإفرنجية

Asaf A. A. Fyzee :

- A Chronological List of the Imams and Da'is. (J. B. B. R. A. S. 1934).
- Isma'ilia Law and Its Founder.
- Materials For an Ismaili. bibliography. (J. B. B. R. A. S. Vol. 11, 1935)
- Qadi un - Nu'mans - (J. R. A. S. 1934.)

Guyard (M. S.) :

- Fragments relatifs à la doctrine des Ismailis, (Paris)

De Goeje.

- Mémoires sur les Carmathes du Bahrain et les Fatimide, (1886.)

Hamadany (H.F.) :

- The History of the Isma'ili da'wat and its literature during the last Phase of the Fatimid. (J. R. A. S.) 1932.)

Ivanow, (W.)

- A Guide to Ismaili Literature. (London 1933.)
- The Organisation of the Fatimid Propaganda. (J. B. B. R. A. S. 1939.)
- The Creed of the Fatimids (Bombay 1936.)
- Ismailis and Qarmatians (J. B. B. R. A. S. 1940)
- The Rise of the Fatimids (Bombay 1942)

Lewis, (R.)

- The Origins of Isma'ilism (1940)

Massignon (L.)

- Salmam Pak (S. E. I.) Paris 1934.
- Esquisse d'une bibliographie Qarmate, 1922.

O'Leary,

- A short History of the Fatimide Khalifafe 1923.

Quatremere, (N.)

- Mémoire Historiques sur la Dynastic des Khalifs Fatimid J. A. 1836.

٢٠٠٤

استدراكات

وقعت أثناء الطبع عدة أخطاء مطبعية نعتذر عنها أشد الاعتذار . ونذكر أهمها الآن :

الخطأ	الصواب	صفحة	الخطأ	الصواب	صفحة
الرسولي	الرسول	١٩	٤	٤	١٩
مرط	شرط	٧	٨	٨	٧
الدى	الذى	٤	١٧	١٧	٤
تعريف	تعريف	٢٠	٢١	٢١	٢٠
الطلق	المطلق	٢٢	٢١	٢١	٢٢
العن	العين	١٦	٢٧	٢٧	١٦
ازيادكم	ازديادكم	١	٣٨	٣٨	١
دامخ	دامغ	١٩	٤٧	٤٧	١٩
فرغايته	فرطايته	٢٢	٥٦	٥٦	٢٢
المقرى	المعرى	١٣	٩٨	٩٨	١٣
المؤبدة	المؤبدة	١١	١١٦	١١٦	١١
إقامته	إمامته	١٨	١١٧	١١٧	١٨
طهر	بمظهر	١٩	١١٨	١١٨	١٩
العاض	العاص	٨	١٢٤	١٢٤	٨
تبين	تبين	٣	١٢٦	١٢٦	٣
والعيدين	والعيدين	١٨	١٢٨	١٢٨	١٨
شعراء	شعراء	٥	١٤٠	١٤٠	٥
يفرع عن يمين	يفرع عن يمين	٧	١٤٤	١٤٤	٧
محولها	محولها	١٠	١٥٣	١٥٣	١٠
الدوو	الدوو	٢٢	١٧٦	١٧٦	٢٢
أنى	أنى	٦	١٩٣	١٩٣	٦
الليحاظ	الليحاظ	٧	١٩٧	١٩٧	٧
قد لم	قد لم	١٧	٢٠٦	٢٠٦	١٧
مبالاة	مبالانا	٣	٢٤٢	٢٤٢	٣
تمل	تمل	١	٢٥٠	٢٥٠	١
ويوجد	ويوجد	١٤	٢٥٦	٢٥٦	١٤
السجع في كتاباتهم	السجع كتاباتهم	٧	٣١٤	٣١٤	٧
ولا ندرى	ولا ندرى	٩	٣٢٦	٣٢٦	٩

Back

6142

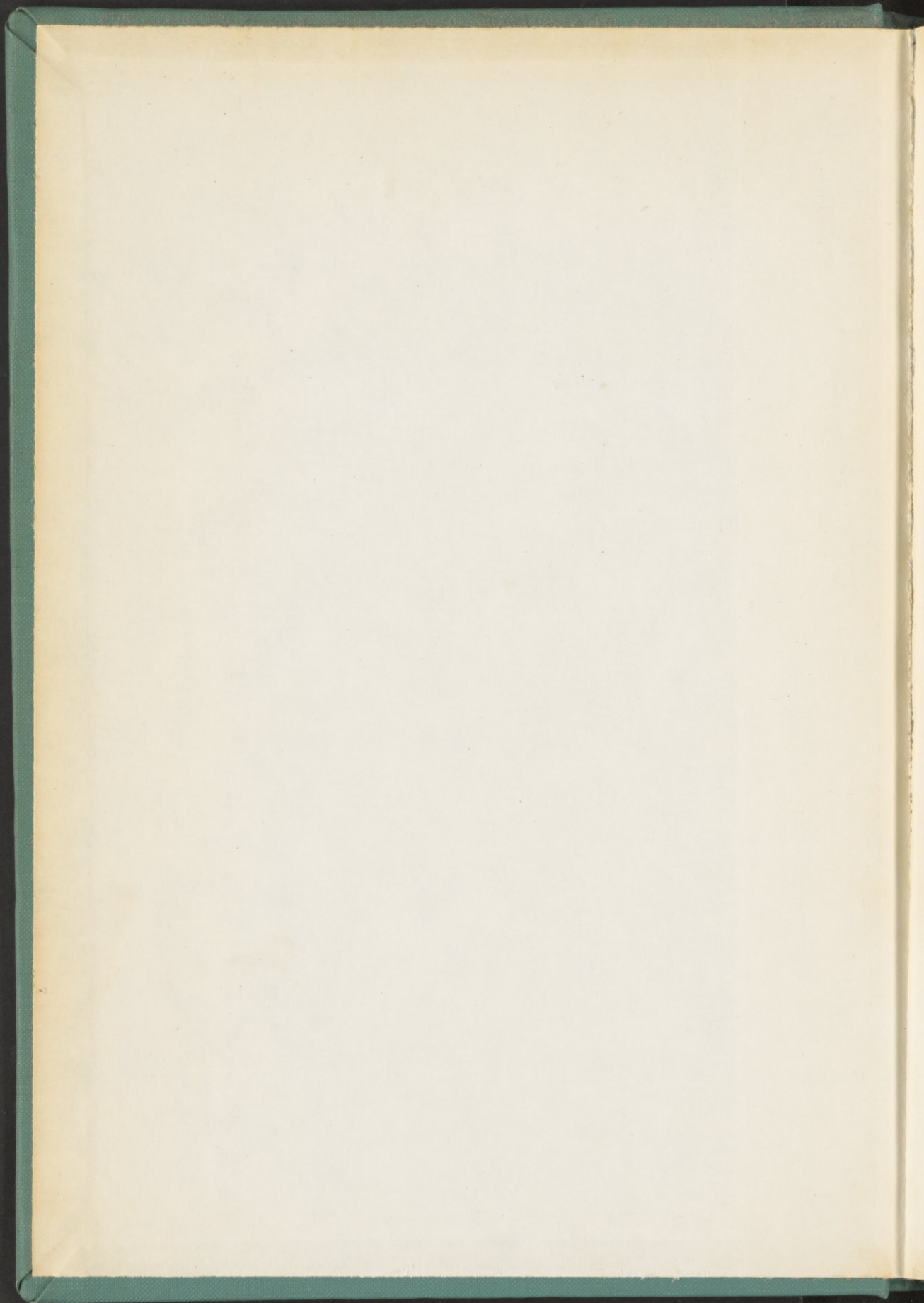
B

PB-37725-SB

5-17T

CC

18-11-1911
1911
1911



NYU - BOBST



31142 02913 4320

PJ8206 .H83

Fi adab Mi